نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان

تأليف

شيخ الإسلام والإمام الهمّام، المؤرّخ المِصريّ

الشّيخ محمد بن أبي السّرور البكريّ الصدّيقي

998- 1071هـ/ 1589- 1661م

تقديم وتحقيق وتعليق

الدّكتور سليم أبو جابر

إصدار:

مجمع القاسمي للغة العربية

أكاديمية القاسمي (ج.م)

كلية أكاديمية للتربية

أ. دار الهدى – عبد الفتاح زحالقة

1433هـ/ 2012م

نُصْرةُ أَهل الإيمان بدولة آل عثمان

تأليف

شيخ الإسلام والإمام الهمّام، المؤرّخ المِصريّ
الشّيخ محمد بن أبي السّرور البكريّ الصدّيقي
998- 1071هـ/ 1589- 1661م

تقديم وتحقيق وتعليق
الدّكتور سليم أبو جابر

التّصميم والإخراج الفنّي
سائدة أبو الصغيّر

إصدار:
مجمع القاسمي للغة العربية
أكاديمية القاسمي (ج.م)
كلية أكاديمية للتربية

أ. دار الهدى – عبد الفتاح زحالقة

د. سليم أبو جابر

نُصْرةُ أَهل الإيمان بدولة آل عثمان

الطبعة الأولى، 1413هـ/ 2012م

إصدار: مجمع القاسمي للغة العربية

أكاديمية القاسمي (ج.م) - باقة الغربية

أ. دار الهدى – عبد الفتاح زحالقة

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الإهداء

إلى مَن رَحَل عن هذه الدّنيا وعنّي... بهدوء

إلى مَن عاش عقودًا يعمل في صَمْت... بهدوء

فأُغنى المكتبة العربيّة والإسلاميّة بكتاباته المُنصِفة... بهدوء

إلى مَن غرس فيَّ حُبّ المثابرة والصّبر في البحث العِلمي... بهدوء

إلى روح عميد دراسات التّاريخ العُثمانيّ المُعاصر الأستاذ الدّكتور

عبد الرّحيم عبد الرّحمن عبد الرّحيم طيّبَ اللهُ ثراه

أُهدي هذا العمل المتواضع المكلوم لِفقدانه

كَلِمَةُ شُكر

أتقدّم بشكري الجزيل وتقديري العميق وامتناني العظيم، لمركز البحوث الإسلامية "إيسام" في إسطنبول وللإخوة القائمين عليه، على حُسن الضّيافة واستقبالهم لي ضِمْن برنامج "باحث زائر"، للاطّلاع على الوثائق والمراجع والمصادر الهامّة في مكتبة المركز والاستفادة منها في سبيل إنجاز هذا العمل المُتواضع.

كما أشكر في هذا المقام، معهد المخطوطات العربيّة المُصَوّرة في القاهرة والمكتبة الوطنيّة في الرّباط، على التّعاون والتسهيلات التي حظيتُ بها، وإتاحة الفُرصة لي للاطّلاع ولمراجعة مُؤلّفات المؤرخ محمد بن أبي السّرور البكري الصدّيقي، وخاصة مخطوط "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان". فجزاكم الله عنّا خير الجزاء.

ولا يغيب عن ذِهني أن أتقدّم بخالص تقديري وحُبّي إلى المُربّية والمُعلّمة والإنسان، الأسمى عِرفانًا وخُلُقًا وتواضعًا، زوجتي ورفيقة دربي "أم عمر"، وإلى نور قلبي وقُرّة عيني: عمر وإحسان وإسلام وذِكرى، على دعمهم المعنويّ وصبرهم عليّ في سبيل العِلم والمعرفة.

وأخيرًا، أوجّهُ شُكري إلى كلّ من ساهم في إخراج هذه الدّراسة وأحتفظ له بالجميل والعِرفان، خاصة مجمع القاسمي للغة العربية في أكاديمية القاسمي على تبنيه مشروع نشر هذا الكتاب.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدمة

مع نهاية القرن المُنْصِرم، وخاصّة في عقوده الأخيرة، كَثُر الاهتمام وتزايدت وتيرة البحث العِلميّ ودراسات التحقيق عن المؤرخ محمد بن أبي السّرور البكري الصدّيقي ومؤلّفاته التاريخيّة الكثيرة، التي رصدتْ ودوّنتْ وسردتْ لنا أحداث وأخبار الدولة العثمانيّة وسلاطينها، وأخبار البلاد العربيّة والإسلاميّة وفتوحاتها، مثل بلاد الشّام وأرض الكِنانة مصر والعراق. لقد كان آخر هذه الدّراسات التحقيقيّة ما قدّمه لنا، المغفور له بإذن الله، الأستاذ الدكتور عبد الرّحيم عبد الرّحمن عبد الرّحيم عام 2005 وتحقيقه لمخطوط "التُّحفة البهيّة في تملُّك آل عثمان الدّيار المصريّة". وكذلك ما قام به العبد الفقير إلى الله- كاتب هذه السّطور- من تقديم دراسة شاملة عام 2005 أيضًا، حول المؤرخ وما دوّنه مِن كتابات، نقل لنا من خلالها ما عاينه وشاهده من أحداث وقعت في تلك الفترة التاريخيّة، وقد أسْمَيْتُهُ "البكري الصدّيقي وأثره في تأريخ مصر العثمانيّة".

واستمرارًا لهذه الجهود العِلميّة، فقد جئتُ اليوم ثانية لأُدْلي بدلوي في هذا الميدان، مُستفيدًا مِمَا قدّمه الباحثون والمؤرخون المعاصرون الذين سبقوني في هذا المجال، لأقدّم للباحثين والمختصّين في تاريخ الدّولة العثمانيّة، هذا العمل المتواضع في دراسة وتحقيق لمخطوط "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان" للبكري الصدّيقي. والذي يُعْتَبَر مصدرًا آخر من المصادر التاريخيّة الهامّة التي رصدت تاريخ الفترة العثمانيّة بدقّة واهتمام. وقد جاء فيها بعد المقدّمة التي اعتاد المؤرخ على ذِكرها في باقي مؤلفاته الأخرى، ما يلي:

"وبعد، فهذا أُنْمُوذج لطيف، ومجموع ظريف، أذكر فيه الدولة الشّريفة العثمانيّة، وأخْذهم للدّيار المصريّة. ورتّبته على مقاصد، سائلاً من الكريم الماجد أن يديم دولتهم إلى الأبد، بجاه الواحد الأحد، وسَمّيْتُهُ "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان، فأقرأ وبالله المُستعان". أما بالنسبة لتاريخ تدوين هذا المؤلَّف فإن مؤرخها قد ذكر ذلك، حيث يقول بأنه "جمع هذا التاريخ في سنة خمس وخمسين وألف" أي في عام 1645م.

وهكذا، نرى أنّ المؤرخ رسم لنفسه منذ البداية خطّة تدوينهِ وسَرْدِهِ للأحداث في عصره، والتي عاينها بالمشاهدة أو السّماع، وأحيانًا أخرى بمشاركته بنفسه أو أحد أقاربه أو معارفه في الأحداث التي يدوّنها. سواء كان ذلك فيما يتعلّق بتاريخ الدّولة العثمانيّة، أو بالسلاطين العثمانيين وفترات حُكمهم، أو بالفتوحات والمعارك في ذلك العصر.

إنّ الدّارس لتاريخ الدّولة العثمانيّة والعصر العثماني عامّة، من خلال ما قدّمه المؤرخ البكري الصدّيقي في مؤلّفاته وما قدّمه مؤرخون عاصروه، لم يَعُد يُصَدّق تلك الفِكرة التي سادت بأنّ ذلك العصر كان "عصر انحطاط أو عصر تخلّف"، بل على العكس من ذلك. والدّليل، هو ما ثبت من تُراث ذلك العصر في مخطوطات مؤرخنا، والتي كَشَفَتْ لنا عن حقائق تاريخيّة في غاية الأهميّة عن تاريخ مصر والدّولة العثمانيّة، حيث رَسَمَتْ لنا صورة واضحة ودقيقة في مجالات مختلفة مثل: التاريخ السّياسي، والاجتماعي، والثقافي، والفِكْري، والاقتصادي التي كانت سائدة في ذلك العصر.

إنّ مُناصرة وتأييد وقُرب مؤرخنا للسلطان العثماني والدّولة العثمانيّة، ومكانته العِلميّة المرموقة، وتولّيه مناصب ووظائف رفيعة- هو وبعض أفراد عائلته- جعلته أكثر اطّلاعًا على مجريات الأحداث وتوصيفها بِدِقّة وأمانة، ونَقْلِها لنا على صورتها الحقيقيّة كما رأى وسمع.

وأخيرًا.. إنّ هذا المصدَر التاريخي، "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، والذي نُقَدِّمه اليوم للمكتبة العربيّة والإسلاميّة، لَشاهد آخر على مدى مِصداقيّة ودِقّة ما جاء به البكري الصدّيقي، وسَجّلَه لنا عن المستوى الحضاريّ والثقافيّ والفِكريّ الذي ساد تلك الفترة في عهد الدّولة العثمانيّة.

والله المُوفّق إلى سواء السّبيل !

المؤلّف

12 ربيع الأوّل 1432هـ/ 15 فبراير 2011م

مركز البحوث الإسلامية "إيسام"

أُسْكُدار- إسطنبول

ترجمة المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي[1]

بدأت حركة التأليف التاريخي في مصر الإسلامية بابن عبد الحكيم الذي كتب "فتوح مصر والأندلس"[2]، ثم نشطت هذه الحركة بعد ذلك نشاطًا كبيرًا لم تشهده البلدان الإسلامية، حيث أنتج المؤرخون المصريون إنتاجًا ضخمًا وكتبوا في معظم الفنون التاريخية. وقد ظلت هذه الحركة نشيطة عصرًا بعد عصر، وتتابع المؤرخون المصريون قرنًا بعد قرن وكلٌّ منهم يضيف إلى جهد سابقه. حتى إذا كان القرن الخامس عشر للميلاد وجدنا أن حركة التاريخ في مصر الإسلامية بلغت أوجها ووصلت الذروة من حيث وفرة الإنتاج وتنوعه، ومن حيث عدد المؤرخين الذين ظهروا في هذا القرن. وقد تميّز مؤرخو مصر في هذا القرن عن غيرهم بأنهم كلهم مؤلفو موسوعات ووافرو الإنتاج. من هؤلاء المؤرخين أمثال: أبن خلدون والمقريزي وابن حجر والسيوطي وابن إياس المصري[3].

وكان آخر من عرفته مصر من المؤرخين في نهاية العصر المملوكي: إبن إياس وابن زُنبل الرّمال، وهما مؤرخان لهما مكانتهما وأهميتهما التاريخية. فقد شهدا نهاية عصر المماليك وبداية العصر العثماني، والذي يعتبر عصر التبعيّة للدولة العثمانية.

لقد شهد المشرق العربي الإسلامي في بداية القرن السادس عشر للميلاد تغيرًا أساسيًا، حيث ضُمّت مصر والشام والعراق إلى أملاك الدولة العثمانية، وأصبحت القسطنطينية بعد انتقال الخلافة الإسلامية إليها مركز الثّقل ومحور الارتكاز في العالم الإسلامي. وبذلك

---

[1] راجع الفصل الثالث من كتاب: أبو جابر سليم، البكري الصدّيقي وأثره في تأريخ مصر العثمانيّة، ص: 83-111.

[2] لمزيد من التفاصيل راجع: جمال الدين، الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، 1952.

[3] جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، 1952، ص: 223.

انتقل النشاط العلمي في العالم العثماني إلى القسطنطينية مقر السلطان والخليفة وعاصمة الدولة الإسلامية.

نتيجة لهذا التغير ضعفت حركة التأليف والكتابة باللغة العربية بسبب انتقال هذه الحركة إلى أوساط علماء الأتراك وباللغة التركية. وعلى الرغم من ذلك، فقد بُذل جُهد رائع، حيث برز خلال العصر العثماني في مصر عدد من المؤلفين الذي كتبوا في التاريخ، وخاصة في التاريخ المصري، حيث سجلوا ودونوا الأحداث التي عاصروها[1].

من بين هؤلاء المؤرخين، أنجبت مصر في القرن الحادي عشر للهجرة عالمًا جليلاً ومؤرخًا قديرًا، خلف للأجيال من بعده تراثًا علميًا خلد ذكره في التاريخ. وكان صاحب باع طويل في شتّى فروع العلم والمعرفة، إذ اختار من الموضوعات لدراسته وتتبّعه ما كان يهم عصره وزمنه، وما يشرح للأجيال التي أتت من بعده ذلك العصر وروابطه بما قبله.

هذا المؤرخ هو محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي صاحب هذا المخطوط الذي بين أيدنا.

أثر المحيط العائلي على المؤرخ وَنَهْجِهِ

نشأ المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي نشأة دينية وعلمية، فهو ينتسب بحسب ما ورد في مؤلفاته، وخاصة في مؤلفة "الروضة الزهيّة في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية"[2]، وبحسب ما جاء في كل كتب التاريخ والأدب التي ترجمت لأسرته، إلى "آل البكري"، أي أسرة البكري الشهيرة في مصر. وهي أسرة يتصل نسبها من جهة الأب إلى الخليفة الإسلامي الأول أبي بكر الصدّيق - رضي الله عنه- كما يتصل نسبه من جهة الأم

[1] يسري عبد الغني عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، 1991، ص175-177.

[2] تم تحقيق ونشر هذه المخطوطة على يد عبد الرازق عيسى عام 1998، وتوجد نسخة منها في المكتبة المركزية في جامعة تل-أبيب. كما قامت عفاف مسعد السيد عبد بتحقيق نفس المخطوطة كرسالة دكتوراه في جامعة الإسكندرية عام 1992، وهي غير منشورة حتى الآن.

إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، الخليفة الإسلامي الرابع. وبيت البكري كان بيتًا للرئاسة والعلم في مصر في العصر العثماني، حيث لعب في حياة مصر الدينية والسياسية أدوارًا لا تحصى، فكان لا يبرم أمرًا من الأمور الهامة في مصر إلا بموافقة زعيم البكريّة والوفائيّة وعلماء الجامع الأزهر[1].

فالمؤرخ هو "محمد بن أبي السرور، بن محمد أبي المكارم زين العابدين، بن محمد أبي الحسن تاج العارفين، بن محمد أبي البقاء جلال الدين، بن عبد الرحمن، بن أحمد، بن محمد، بن أحمد، بن عوض، بن عبد الخالق، بن عبد المنعم، بن يحيى، بن الحسن، بن موسى، بن يحيى، بن يعقوب، بن نجم، بن عيسى، بن شعبان، بن عوض، بن داود، بن محمد ابن نوح، بن طلحة، بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه"[2]. كما أن أحد أجداده كان قد تزوج من السيدة الشريفة فاطمة بنت ولي الله تعالى،

---

[1] حسين الروزنامجي، ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، تحقيق: شفيق غربال، 1936، ص: 24.

انظر أيضًا: دائرة المعارف الإسلامية، مجلد4، ص: 51.

وانظر أيضًا: ليلى عبد اللطيف، "ابن أبي السرور البكري: عصره ومؤلفاته"، نشر في كتاب: بحوث في التاريخ الحديث، القاهرة، 1976، ص: 128-147.

[2] محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، ويليه ذيل: اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 39-84.

وانظر أيضًا: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، "تفريج (كشف) الكربة في رفع الطلبة"، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحيم، في المجلة التاريخية المصرية، مجلد (23)، 1976، ص: 304-305.

محمد توفيق البكري، بيت الصديق، 1905، ص: 73-81.

محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، التّحفة البهيّة في تملُّك آل عثمان الدّيار المصريّة، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحيم، 2005، ص: 26-29.

محمد المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج3، 1284هـ، ص: 465-468.

علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج3، 1983، ص: 422.

السيد تاج الدين محمد القرشي، بن السيد محمد، بن عبد الملك، بن السيد يَرحُم، السيد الشريف حسان، بن السيد الشريف سليمان، بن السيد الشريف محمد، بن السيد علي، بن السيد محمد، بن السيد عبد الملك، بن الحسين المكفوف، بن السيد علي، بن الحسن المثلث، بن الحسن المثنى، بن أمير المؤمنين أبي عبد الله الحسن والسبط، ابن فاطمة الزهراء وعلي المرتضى"[1].

لقد جمعت أسرة المؤرخ البكري الصدّيقي إلى جانب عراقة النسب وشرفه، شرف العلم وثروة المال وفصاحة اللسان وثقة الناس بها.

وقد رجّحت المؤرخة المعاصرة، ليلى الصباغ[2] أن المسكن الأول للأسرة البكريّة في مصر لم يكن في القاهرة، وإنما كان في الصعيد الأدنى وفي بليدة (دهروط)[3] من أعمال البهنسا[4].

وكان أول القادمين إلى مدينة القاهرة ليقيم فيها، هو جد جد المؤرخ البكري الصديقي وهو: "محمد أبو البقاء بن عبد الرحمن بن أحمد المعروف بجلال الدين البكري"[5]. وقد كان هذا من كبار فقهاء القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد (807-891هـ/ 1404-1486م). وقد قدم من مسكنه في (دهروط) إلى القاهرة، وأخذ العلم فيها وعلا صيته وبرع

---

[1] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، مكتبة الجزائر الوطنية، رقم: 1651، لوحة: 47أ.

[2] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 41.

[3] تقع على شاطئ غربي النيل إلى الشمال من المنيا. انظر أيضًا: ياقوت الحمودي، معجم البلدان، ج2، 1957، ص: 492.

[4] تقع في محافظة المنيا من صعيد مصر. كان لها نشاط هام في عهد المماليك.

انظر أيضًا: ليلى عبد اللطيف، الإدارة في مصر في العصر العثماني، 1978، ص: 378.

[5] يبدو أن هناك شخصيتين عالمين باسم محمد جلال الدين البكري، أحدهما هم عم الآخر، فجلال الدين البكري هو العم أو الكبير كما لقبه البكري الصديقي. انظر أيضًا: خير الدين الزركلي، الإعلام، ج7، د. ب، ص: 67.

وانظر أيضًا: محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، ج2، 1438هـ، ص: 182.

في الأصول والحديث، وتفرد بفروع الشافعية، كذلك زار دمشق والقدس وأدى فريضة الحج، وأصبح قاضيًا على الإسكندرية والإفتاء والتأليف.

أما العالم الآخر محمد أبو البقاء فهو جد جد المؤرخ البكري الصديقي، إلا أنه لا يعثر له على ترجمة سوى ما جاء به النجم الغزي في كتاب "الكواكب السائرة". وما ورد في الخطط التوفيقية نقلاً عن الشعراني[1].

ويرجع سبب انتقال سلف البكري الصدّيقي إلى مصر، هو أن جلال الدين البكري قد تزوج أخت الشيخ عبد القادر الدشطوطي[2]. ولذلك فقد طلب الدشطوطي من جلال الدين البكري أن يأتي إلى القاهرة ليكون قريبًا منه، فاستجاب له شريطة أن يبني له الدشطوطي مدرسة بالقرب من زاويته. وقد تم له ما أراد، حيث بنى له الجامع المعروف باسم الجامع الأبيض، الذي يدعى أيضًا جامع البكريّة. وقد تم بناؤه عام 908هـ/ 1502م، على يد جلال الدين البكري أبو البقاء[3]، والذي يعرف بجلال الدين البكري الصغير، حيث هو الجد الأول للأسرة البكرية التي اشتهر أمرها بشرف النسب وبعلو الشأن في العلم والأدب والتصوف وبكثرة المال واحترام العامة والخاصة لها، وذلك منذ أواخر القرن التاسع الهجري. وقد اشتغل جلال الدين البكري الصغير منذ قدومه إلى القاهرة بالعلوم حتى وفاته عام 922هـ/ 1516م[4]. وقد ترك جلال الدين البكري هذا ولدين هما: أبو الحسن البكري والشيخ محمد صالح. وقد اشتهر الأول بالعلم والدين والتأليف على

---

[1] نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج1، 1945-1959، ص: 246-250، ج2، ص: 194-197. وانظر أيضًا: علي مبارك، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة، ج3، 1983، ص: 266.

[2] ابن الحنبلي، در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق: محمد الفاخوري ويحيى عبارة، ج1، 1972-1974، ص: 82.

[3] علي مبارك، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة، ج3، 1983، ص: 266.

[4] البكري الصدّيقي، الروضة الزهية، ص: 41.

عكس أخيه الشيخ محمد صالح. وهو والد جد المؤرخ البكري الصديقي، ومع أنه كان متصوفًا إلا أنه عُرِفَ بالثراء، وقد كانت وفاته عام 952هـ/ 1545م[1].

وإذا كان والد جد المؤرخ على هذا القدر من العلم والدين والفكر فإن جده المباشر – أي جد المؤرخ المصري محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، صاحب هذا المخطوط – محمد بن أبي الحسن البكري[2] كان لا يقل عنه علمًا وعرفانًا وتصوفًا وشهرة في الأوساط الإسلامية في ذلك الوقت، حيث تُطلق عليه المصادر المعاصرة اسم "القُطب البكري" أو "سيد محمد البكري" أو "البكري الكبير"، كما نعتوه بأبيض الوجه[3]. وقد قال عنه المؤرخ في مؤلَّفه " الرّوضة الزهيّة": "وعصارة القول فيه أن انتهت إليه بعد وفاة والده (رضي الله عنه)، وأذعنت له سائر العلماء بالعلم والولاية والكشف وكثرة الإنفاق من الغيب بعد التبحّر في إلقاء الدروس في العلوم العقلية والنقلية والمعارف الباهرة والأسرار الفاخرة والإفصاح عن جملة كثيرة من المعضلات، بحيث إنه كان إن تكلم في تفسيره، فكأنه يغترف من بحر"[4]، وقد وافته المنية عام 994هـ/ 1586م[5].

خَلّفَ محمد بن أبي الحسن البكري جد المؤرخ خمسة أولاد من الذكور وبنتًا واحدة، وهم: الشيخ تاج العارفين وكان أكبرهم سنًا، وشقيقه الشيخ محمد أبو السرور، والشيخ محمد زين العابدين، والشيخ محمد أبو المواهب، وهو شقيق زين العابدين، والشيخ محمد عبد الرحيم[6].

---

[1] نجم الدين الغزّي، الكواكب السائرة، ج1، ص: 197.

[2] انظر ترجمته في: نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص: 67-72.
وعلي مبارك، الخطط التوفيقية، ج3، ص: 126. والزركلي، كتاب الأعلام، ج7، ص: 289.

[3] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 54-55.

[4] البكري الصديقي، الروضة الزهية، ص: 70.

[5] المصدر السابق، ص: 70.

[6] المصدر السابق، ص: 70.

أما الابنة فتزوجها حسن التميمي[1].

وقد نشأ هؤلاء الأولاد في بيت عِلم وتصوّف، وفي حِجر أبيهم الموصوف بالقُطبانيّة والفضل والصلاح، على مستوى رفيع من الأدب والعلم والخلق الكريم[2].

ووالد المؤرخ من بين هؤلاء الأولاد هو الشيخ محمد أبو السرور، الذي عابه بعض المؤرخين في بعض سلوكياته الاجتماعية، تمامًا كما حصل مع باقي إخوته[3].

ولكن مهما قال المؤرخون في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد في عيوب أولاد محمد البكري، فإنهم يعترفون في نهاية الأمر بأنهم كانوا من أصحاب المراتب الرفيعة في العلم والأدب والتصوّف لدى السلطات الحاكمة، وكذلك عامة الناس. وهؤلاء الأولاد في الواقع هم الأسرة المباشرة، التي وُلِدَ وسطها المؤرخ ونشأ وترعرع. فأبوه مهما ذكر عنه فقد صعد في مرامي العلم واشتغل ودأب وحصل وكتب وسمع وبيّن وأمر وأفتى وألفّ ودرّس[4]. ويُذكر أنه ظل قائمًا على عمله في التأليف والتدريس والإفتاء حتى مات عصر يوم الأحد ثامن شهر ربيع الثاني سنة 1007هـ/ الثامن مِن تشرين الثاني 1598، وكان له من العمر ست وثلاثون سنة[5] (أي أنه كان من مواليد عام 971هـ/ 1563 – 1564م).

---

[1] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 339-383.

[2] البكري الصديقي، الروضة الزهية، ص: 70.

انظر أيضًا: نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان، الطبعة الأولى من القرن الحادي عشر، تحقيق: محمود الشيخ، 1981-1982، ج1، ص: 347.

[3] نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، ج1، ص: 347.

[4] البكري الصديقي، الروضة الزهية، ص: 84.

[5] البكري الصديقي، الروضة الزهية، ص: 84، وقد أثبت نجم الدين الغزي وكذلك المحبي تاريخ وفاته في نفس السنة أي: 1007هـ/ 1598م.

وبذلك يكون محمد أبو السرور والد المؤرخ أول من توفي من أولاد محمد البكري الخمسة، وقد خلف المؤرخ وهو في التاسعة من عمره، حيث كفله عمه تاج العارفين، إذ جُعِلَ وصيًا عليه[1].

لم يذكر المؤرخ ما إذا كان له إخوة أم لا، ولكن يظهر أنه كان وحيد أبويه، بدليل أن والده قبل وفاته بعامين قد أقام له خِتانًا فخمًا وصفه إبن أبي السرور بقوله: "كان نادرة الزمان، وفريدًا في الحسن والإتقان، أبذل فيه أموالاً كثيرة، وتجمّل فيه بتجميلات غزيرة. أصرف فيه من النقد خمسة آلاف دينار، ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد عن هذا المقدار. ونزل فيه البكلربكي المذكور (أي محمد باشا) بمنزل والدي شيخ الإسلام أبي السرور، وجلس فيه ثلاثة أيام مع الإحسان لغالب من حضر الفرح من الأنام وأرباب الملاهي المستحسنات، الآتين عند سماعهم بالفرح من سائر الجهات، فكانت مُدّة الفرح أربعين يومًا، لم يذق فيها غالب أهل مصر من السرور نومًا، مع الوقدات الوافرة ببركة الرّطلي، التي أصبحت على جميع أمثالها فاخرة. وذلك في زمن النيل السعيد لا زال ممتدًا بعون الملك المجيد، في شهر ربيع الأول سنة خمس وألف"[2] (أي: تشرين الأول-الثاني 1596م)، فلو كان لأبي السرور أولاد آخرون لأشار إليهم محمد بن أبي السرور.

أثارت شخصية المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي تساؤلات كثيرة لدى بعض المؤرخين الذين تناولوا البحث حول شخصيته وحول كتاباته. هذه التساؤلات جعلت المؤرخ "Stanford. J. Shaw " أول من يقع في الالتباس، ويقول إن هناك مؤرخَيْن اثنَيْن بهذا الاسم، أحدهما هو ابن الآخر. وقد جاء هذا الالتباس وعدم الوضوح في الترجمة التي قدمها هذا المؤرخ في دائرة المعارف الإسلامية. يقول "Shaw": إن المؤرخ الأول، أي الأب

---

[1] البكري الصدّيقي، الروضة الزهية، ص: 84.

[2] المصدر السابق، ص: 81. كذلك انظر: البكري الصدّيقي، المنح الرحمانيّة، معهد المخطوطات المصورة بالقاهرة، 53ب-54أ. والكواكب السائرة، 30أ. والتحفة الهية، 48ب.

هو: محمد بن أبي السرور بن محمد بن علي البكري الصدّيقي المصري المتوفي عام 1028هـ/ 1619م، وهو الذي قام بتأليف تاريخ عام بجزئين المعروف باسم: (عيون الأخبار، نزهة الأبصار)، وبتأليف مُلَخّص له تحت عنوان: (تحفة أو تذكرة الظرفاء).

ويضيف "Shaw" قائلاً: كما أنه هو نفسه الذي ترك عدة تواريخ للأتراك العثمانيين مثل: (فيض المنّان) و(الدّرر الأثمان في أصل منبع آل عثمان) و(المِنح الرحمانية) وذيّل له عن مصر اسماه (اللطائف الربانية)، وآخر عن الفتح العثماني لمصر باسم (الفتوحات العثمانية)، ويضيف "Shaw" قائلاً: وهو أيضًا صاحب كتاب (تفريج الكربة في دفع أو رفع الطلبة)، الذي يتحدث عن إلغاء الوالي العثماني بمصر وهو محمد باشا لضريبة "الطلبة" أي ضريبة حق الطريق في عام 1017هـ/ 1608-1609م[1].

أما الشخصية الثانية، وهي الابن، فيقول المؤرخ "Shaw" إنها: محمد بن محمد بن أبي السرور شمس الدين أبو عبد الله البكري، وقد ولد عام 1005هـ/ 1596م، وتوفي نحو 1060هـ/ 1650م. ومن تأليفه: (سمير الأصحاب) و(الروضة المأنوسة) و(الروضة أو النزهة الزهيّة في ولاة مصر المعزية) و(الكواكب السائرة) و(التحفة البهية). وكذلك مختصرًا لخطط المقريزي[2] تحت عنوان (قطف الأزهار). بالإضافة إلى ذلك فله في التصوف مقالة بعنوان دُرَر الأعالي[3].

---

[1] ترجم المؤرخ Shaw للبكري الصديقي بالفرنسية في دائرة المعارف الإسلامية:
Encyclop'die de I'Islam. 2nd ed. 7 volumes, Leiden_paris 1975-1993, I. P. 995. art: (Al-Bakri. B. Abi 'L-surur).

للاختصار سأذكره لاحقًا على الشكل (E. I2).

[2] أصله من بعلبك، ويعرف بمؤرخ الديار المصرية، وهو أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، ولد وتوفي في القاهرة (766-845هـ/ 1441-1365م). لمزيد من التفاصيل انظر: علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج9، ص: 69. وكذلك انظر: الزركلي، الأعلام، ج1، ص: 172-173.

[3] E. I. 2. Vol I. P. 995, art (Al-Bakri. B. Abi'l surur).

وقد سار في طريق المؤرخ Shaw، الباحث إبراهيم سالم الذي حقق كتاب (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب). حيث قال: إن الكتاب من تأليف محمد بن أبي السرور البكري الصديقي الأب[1]. أما الزركلي فقد أثار هذا الموضوع أيضًا في أعلامه[2]، حيث أشار إلى وجود مؤرخين بهذا الاسم وأطلق على أحدهما اسم: (محمد زين الدين بن محمد أبي السرور البكري الصديقي) المصري المؤرخ، ولم يثبت له ميلادًا، إلا أنه ذكر أنه توفي عام 1028هـ/ 1619م. وثانيهما هو: (محمد بن محمد أبي السرور ابن زين العابدين)، المعروف ب(ابن أبي السرور)، والذي عاش بين الأعوام (1005-1087هـ/ 1596-1676م). وقد ادّعى الزركلي في ملاحظته في هامش هذه الترجمة أن هذا المؤرخ أخ للمؤرخ الذي ذكره سابقًا[3].

وإذا ما عدنا إلى بحوث المؤرخين المعاصرين من المستشرقين والعرب، فقد نرى اضطرابًا أيضًا حول شخصية المؤرخ، فالمؤرخ المستشرق أنطوان إيزيك سلفستر دوساسي (A. I Silvestre de Sacy) الفرنسي، الذي ترجم له كتاب (الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة) إلى اللغة الفرنسية، ويذكر هذا المؤرخ- وهو غير متأكد من ذلك- أن ميلاد ابن أبي السرور قد يكون عام 1005هـ/ 1596-1597م.

أما بروكلمان الألماني، والذي كتب عن العديد من المؤلفين العرب ومؤلفاتهم فقد بدا الاضطراب بيّنًا في كتابه (تاريخ الأدب العربي)[4]، الذي صدر باللغة الألمانية، لدى كلامه عن المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي[5]. إلا أن بحثه القصير في دائرة المعارف

---

[1] وقد جاء ذلك في مقدمة الكتاب، ص: 3-6.

[2] الزركلي، الأعلام، ج7، ص: 291، كذلك ص: 293-294.

[3] المصدر السابق، ج7، ص: 293-294.

[4] نُشر هذا الكتاب تحت عنوان:

"Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothe'que du Roi", I. Paris: 1787, pp. 165-280.

[5] Brockelmann, Carl: Geschichte der Arabischen Literatur, Vol. II,297-8 (383-4).

الإسلامية، الطبعة الأولى (1938م)، عن "البكري أبو عبد الله شمس الدين محمد بن محمد أبي السرور الصدّيقي المصري" يقدم معلومات أكثر وضوحًا وأقرب إلى الحقيقة مما جاء به في كتابه السابق الذكر. إذ ترجمه بأنه مؤرخ عربي ولد في القاهرة عام 1005هـ/ 1596م ومات هناك نحو عام 1060هـ/ 1650م. وقد استقى هذه المعلومات عن المؤرخ الفرنسي "de sacy" سابق الذكر. ويضيف هنا أيضاً أن البكري صنّف من الكتب ما يلي[1]:

1- التّحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية.
2- الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المُعزية.
3- قطف الأزهار، وهو خلاصة لخطط المقريزي.
4- دُرر المعالي الجلية، وهو مصنف في التصوف.
5- الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة.

أما المؤرخون العرب مثل محمد أنيس، وخاصة في كتابه " مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني، "فإنه يُلاحَظ أنه ذكر أن ابن أبي السرور البكري هو صاحب المصنفات التالية:

1- النّزهة الزهية.
2- عيون الأخبار.
3- المِنح الرحمانية.

ويذكر محمد أنيس أن ابن أبي السرور البكري توفي عام 1087هـ/ 1676م، دون أن يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في ذكر هذه المعلومات عن المؤرخ[2].

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية المعربة عن السابقة التي ذكرتها، ج4، ص: 51-52.

[2] محمد أنيس، مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني، القاهرة، 1962، ص: 11-25.

أما ليلى عبد اللطيف، فإنها أيضاً تُرجّح التاريخ الذي ذكره محمد أنيس (1087هـ/ 1676م)، معتمدة على البحث الذي قام به وكذلك على ما أورده الرحالة "فانسليب--Van Sleb" في كتابه عن (الحالة الحاضرة لمصر)، والذي يقول إنه نقل قائمة أسماء باشاوات مصر إلى عام (1081هـ) من كتاب لابن أبي السرور[1]. وتؤكد ليلى عبد اللطيف أن ميلاده كان عام 998هـ/ 1589م، لأن البكري أفصح بنفسه، عن ذلك في مؤلفة "المِنح الرحمانية"[2]، حيث جاء فيها في ورقة (122) أن والد محمد بن أبي السرور قد توفي عام 1007هـ/ 1598م، وكان عمر المؤرخ آنذاك تسع سنوات، أي أن مولده كان عام 998هـ/ 1589م، وبذلك فإن ما جاءت به ليلى عبد اللطيف كانت محقة تمامًا.

ويؤكد الباحث المصري المعاصر عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم من خلال تقديمه لمؤلف المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري وهو "كشف الكربة في رفع الطلبة"، أن تاريخ وفاة المؤرخ باتفاق المصادر كان في ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول 1087هـ/ 25 أيار (مايو) 1676م[3].

وقد استند عبد الرحيم عبد الرحيم إلى ما أوضحه محمد توفيق البكري[4] في كتابه "بيت الصديق"[5]، نقلاً عن محمد أمين المحبي في كتابه الشهير "خلاصة الأثر"، وكذلك على ما جاء به علي مبارك في كتابه "الخطط التوفيقية" ويبدو أن هؤلاء جميعًا يرون – ومنهم

---

[1] ليلى عبد اللطيف، "ابن أبي السرور عصره ومؤلفاته"، نشر في كتاب: بحوث في التاريخ الحديث، القاهرة، 1976، ص: 128-147.

[2] المصدر السابق، ص: 128-147.

[3] البكري الصدّيقي، "تفريج (كشف) الكربة في رفع الطلبة"، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، في: المجلة التاريخية المصرية، مجلد (23)، 1976، ص: 291-384.

[4] هو محمد توفيق بن علي بن محمد البكري الصديقي من آل البكري المصريين، عاش بين الأعوام (1287-1351هـ/ 1870-1932م).

[5] محمد توفيق البكري، بيت الصديق، 1905، ص: 73-81.

خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" – بأن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، هو الشخصية ذاتها التي ترجمها المحبي في كتابه "خلاصة الأثر" تحت اسم "محمد بن زين العابدين بن محمد بن علي أبو الحسن".

ويختلف عنهم محمد رضا كحّالة صاحب كتاب "معجم المؤلفين"، حيث يثبت فيه ميلاد المؤرخ في عام 1005هـ/ 1596م، ووفاته في عام 1060هـ/ 1650م[1]. وبذلك فقد تبع بروكلمان وما جاء به في دائرة المعارف الإسلامية (1938م)، إلا أن ما جاء به كحّالة في نفس الكتاب[2] تحت عنوان "محمد زين الدين بن محمد البكري"، يدل على نفس الاضطراب الذي وقع فيه غيره من الباحثين حول تاريخ وفاته وشخصيته ونسبة المؤلفات له.

ويظهر من بحث عبد الكريم رافق – والذي يقول بأن تاريخ ميلاد المؤرخ كان في عام 988هـ/ 1589م – بأنه يميل أيضًا إلى أن يكون تاريخ وفاته نحو عام 1060هـ/ 1650م، وذلك لأن مؤلفات ابن أبي السرور البكري التي تمّ التأكد من كتابته لها تنتهي نحو هذا العام، وأن ما جاء بعد هذا التاريخ في تلك المؤلفات هو من عمل النُّسّاخ[3].

وتشير ليلى الصبّاغ[4]، إلى أن سبب وجود مشكلة حول هوية المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي يعود إلى عدة أمور:

1- عدم وجود ترجمة له من قِبل مؤرخي عصره، تُحدّد اسمه كما ورد في مؤلفاته. أي: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي وتعيّن بالتالي تاريخ ميلاده ووفاته.

---

[1] عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1949.

[2] المصدر السابق، جزء 11، 1949، ص: 290.

[3] A. K. Rafeq, Abdu Karim, "Ibn Abi-Al surur and his Works", BSOAS, 38, 1(1975)24-31.

[4] البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، ويليه ذيل: اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 13-37.

2- اختلاف من درس مؤلفات البكري الصدّيقي وصنّفها، حول تاريخ وفاته. فإذا رجعنا إلى مُصنّفي الكتب في الفترة المعاصرة له وهي القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي، فمن المعروف أن هناك (حاجي خليفة)[1]، إذ ذكر في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" عددًا من مؤلفات المؤرخ، وقد يكون هو أول من ثبت تاريخ وفاته بعام 1028هـ/ 1619م. أما في العصور التي تلت القرن الحادي عشر هجري، فقد أصبح الاختلاف حول تاريخ وفاة هذا المؤرخ الكبير من الوضوح بمكان.

3- من الأسباب الهامة التي دعت بعض مُصنّفي كتب محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي والباحثين في مؤلفاته، إلى الاختلاف حول شخصيته، وتاريخ وفاته، هو كثرة المصنفات التي نسبت إليه، وفي عدد من فنون المعرفة غير التاريخ مثل: اللغة وتفسير القرآن، والتصوّف والجغرافيا.

4- من العوامل التي أدت إلى الاختلاف حول شخصية المؤرخ، هي تباين التواريخ التي انتهت عندها المؤلفات التاريخية التي نسبت إليه. فهي تتراوح بين 1017هـ/ 1609م كما هو الحال في مخطوطة "كشف الكربة في رفع الطلبة"، حيث إننا نرى هناك إشارة واضحة إلى أنه كتب هذا المخطوط في عام 1017هـ/ 1609م. ويبدو هذا المخطوط أنه أول ما كتبه محمد بن أبي السرور البكري الصديقي[2] – وبين عام 1071هـ/ 1661م، كما يظهر في مخطوط "الروضة الزهيّة في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية"، في نسخة دار الكتب المصرية.

---

[1] هو مصطفى بن عبد الله، ولد في إسطنبول عام 1017هـ/ 1609م، له مؤلفات كثيرة بالعربية والتركية، أهمها: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون". توفي عام 1067هـ زار دور الكتب في الشام والحجاز. انظر أيضًا: الزركلي، الأعلام، ج8، ص: 138-139.

[2] البكري الصديقي، "كشف الكربة في رفع الطلبة"، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحيم، في: المجلة التاريخية المصرية، مجلد (23)، 1976، ص: 309.

5- ورود بعض الفقرات في بعض مؤلفات المؤرخ تشير إلى تاريخ جمعها من قبله، ثم تجاوزه ذلك التاريخ إلى ما بعده. ممّا دعا الباحثين إلى الشّك بأن الناسخين هم الذين أضافوا ما أضافوه.

6- إسقاط المؤلف (محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي)، بعض الفقرات المرتبطة بحياته الشخصية من بعض مؤلفاته وإيرادها في أخرى. ففي عدد من تلك المؤلفات مثل "المِنح الرحمانية" و"عيون الأخبار ونزهة الأبصار" اللذين يضمان تاريخ الدولة العثمانية، و"الروضة الزهية" و"نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، يشير المؤرخ إلى تاريخ وفاة والده (أبي السرور) عام 1007هـ/ 1098م، بل ويشير في "المِنح الرحمانية" و"عيون الأخبار" بأن عمره كان عندئذٍ تسع سنوات. بينما يغفل هذا الأمر في المؤلفات الأخرى. مع أنها تسرد الأخبار نفسها تقريبًا، مثل مخطوط "الكواكب السائرة" و "الروضة المأنوسة" و"التحفة البهية". مع العلم أنه يذكر فيها أخبارًا عن والده، وخاصة أنه أقام فرحًا له عام 1005هـ/ 1596م، حيث فسّر بعض المؤرخين هذا الفرح بأنه فرح بمولده (بمولد المؤرخ البكري الصدّيقي)، ولذلك رأوا أن ميلاده كان عام 1005هـ/ 1596م. بينما هذا الفرح كان بمناسبة خِتانه، فقد جرت العادة أن يتم الختان في السابعة من عمر الصبي في ذلك العصر. وبذلك يتوافق هذا التاريخ مع ما ذكره في " المِنح الرحمانية" بأنه كان في التاسعة من عمره عام 1007هـ/ 1598م، وهو العام الذي توفي فيه والده[1].

7- ورد في نهاية مخطوط " الروضة المأنوسة"[2]، بأن الذي قام بنسخها هو: (أبو السرور البكري الصدّيقي) والد المؤلف (هكذا ظهر في لوحة 49أ، نسخة دار الكتب المصرية،

[1] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 35.

[2] المصدر السابق، ص: 36.

رقم 5277)، هذا مع العلم بأن "أبا السرور البكري" والد المؤلف كان قد توفي عام 1007هـ/ 1598م، بحسب أقوال ابنه محمد في عدد من مؤلفاته التاريخية وبحسب ما أيّدته أخبار عدد من مؤرخي التراجم في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. لذلك أصبح الباحثون في حيرة من أمرهم حول شخصية المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي.

إن الشخصية التي أشار إليها المؤرخون في القرن الحادي عشر للهجرة وهي (أبو السرور)، هي ذاتها شخصية محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي المؤرخ. وقد جاءت التسمية " أبو السرو" من أجل الاختصار فقط. وهذا ما تؤكده أيضًا الباحثة ليلى الصبّاغ[1].

8- من أسباب البلبلة أيضًا حول شخصية المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي، هي اختلاف صيغة الأسماء والألقاب التي أعطيت له: أحيانًا يذكر ب "محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي"، وأخرى "شمس الدين محمد بن أبي السرور البكري"، وثالثة "شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي السرور محمد البكري الصديقي"، ورابعة "ابن أبي السرور البكري"، وخامسة باسم "أبي السرور"، وسادسة باسم "السروري"، وسابعة باسم "المؤرخ البكري"[2].

وفي فهرس الكتب العربية الموجود في دار الكتب المصرية بالقاهرة، ورد أن كتاب "الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة" وكتاب "اللطائف الربانية على المِنح الرحمانية" و "المِنح الرحمانية" و"النزهة الزكية (الزهية) في ذكر ولاة مصر والقاهرة

[1] المصدر السابق.

[2] للأمثلة فقط انظر: الزركلي، الأعلام، ج7، ص: 292. والمحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص: 474، ج4، ص: 343.

المعزية"، هي من تأليف محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي، المعروف بابن أبي السرور، المتوفي في ربيع الأول عام 1087هـ/ أيار- حزيران 1676م[1].

وهذا أيضًا ما توصّل إليه الباحث المعاصر عبد الرحيم عبد الرحيم، الذي قال بأن محمدًا بن أبي السرور البكري الصدّيقي توفي باتفاق المصادر في ليلة الجمعة 12 ربيع الأول عام 1087هـ/ 25 مايو – أيار من عام 1676م. وقد اشتغل بعلوم الحديث والتفسير وعلوم القول وأصول التصوّف والتاريخ، واشتغل بالتدريس في الجامع الأزهر، وله العديد من المؤلفات التي عالجت تاريخ مصر منذ الحكم العثماني وحتى الفترة التي عاصرها. ولما تقدمت به السن اعتزل التدريس بالأزهر، واشتغل بالإفادة في منزله، وآلت إليه رئاسة البيت البكري، وأدى فريضة الحج عام 1071هـ/ 1660م، وكان مسموع الكلمة عند العامة والخاصة وشفاعته مقبولة عند الكبراء والوزراء[2].

وبذلك فإن عبد الرحيم عبد الرحيم انضمّ إلى ما رجّحه محمد الأمين المحبي الذي ذكر أن وفاة المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي كانت " ليلة الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وألف[3].

وتقول ليلى الصبّاغ أيضًا[4]: "إن الباحث في المؤلفات التاريخية المنسوبة إلى محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي، يُرجّح بأنها لمؤرخ واحد، وليست لأب وابن كما فرض بعض الباحثين ".

وقد عزت سبب هذا الترجيح إلى أمرين اثنين هما:

---

[1] فهرس الكتب العربية، دار الكتب المصرية (تاريخ)، ج5، القاهرة، 1438هـ، صفحات: 208، 275، 317، 388.

[2] البكري الصديقي، " كشف الكربة في رفع الطلبة" تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحيم، في: المجلة التاريخية المصرية، مجلد (23)، 1976، ص: 304-305.

[3] المحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص: 468. انظر أيضًا: محمد توفيق البكري، بيت الصديق، 1905، ص75.

[4] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 37-38.

1- المعلومات التي قدمها لنا المؤرخ في مؤلفاته التاريخية، هي ذاتها تقريبًا مع بعض الاختلاف البسيط في صيغ التراكيب التاريخية الكبرى التي حوتها، وأحيانًا كثيرة هي مكررة. فالمؤرخ نفسه يشير في كل مؤلف تقريبًا بأنه دوّن مؤلفًا آخر ويسميه.

2- وهو الأهم، أن معظم المخطوطات التي تحدّث فيها عن تاريخ مصر وولاتها وقضاتها العثمانيين بصفة خاصة، تحتوي أخبارًا عن حياته الخاصة والعائلية، وهي ذاتها تقريبًا.

وقد تكون مخطوطة " الروضة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية" والتي وصلت أخبارها إلى تاريخ 23 رمضان 1071هـ/ 22 أيار – مايو 1661م، أكثر كمالاً في تلك المعلومات الأُسَرية، وأبعد امتدادًا في الزمن من مؤلفاته الأخرى، وهي تُقدّم ملامح واضحة لشخصية المؤرخ وقراباته وأساتذته وثقافته[1].

مما سبق ذكره في، يمكن القول بأن المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي نشأ نشأة دينية وعلمية، فهو سليل أسرة البكري الشهيرة في مصر، والتي يتّصل نسبها من جهة الأب إلى الخليفة الأول أبي بكر الصدّيق، ومن جهة الأم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وبيت الصديق في مصر كان بيتًا للرئاسة والعلم في العصر العثماني، ولعب في حياة مصر الدينية والسياسية أدوارًا هامة لا تُحصى، فكان لا يُبْرَمُ أمرٌ خطيرٌ من أمور مصر إلا بموافقة زعيم البكرية والوفائية وعلماء الأزهر.

هذا بالإضافة إلى الثراء والجاه، حيث كان المؤرخ من أسرة ثرية وغنية واسعة الثراء، وهذا ما تشير إليه بعض المصادر التي عالجت هذا الجانب من حياة المؤرخ. فلا غرابة في ذلك، فابن أبي السرور من أسرة لها مكانتها الدينية المرموقة في المجتمع المصري، مما كان

[1] البكري الصدّيقي، الروضة الزهيّة، صفحات: 218، 236.

سببًا في ثراء هذه الأسرة، ورخاء حالتها الاقتصادية، حيث سجلت دفاتر الالتزام ووثائق المحكمة الشرعية في ذلك الوقت أسماء الكثير من هذه الأسرة كملتزمين منذ بدأ تطبيق النظام العثماني في مصر[1].

ومن خلال ما ذكره المؤرخ في مؤلفاته يمكن القول إنه كان يعيش عيشة علية القوم، فقد ذكر أن والده كان يملك بيتًا على بركة الرّطلي[2]، حيث كانت تقام بيوت الأثرياء وكبار موظفي الإدارة في مصر.

ويمكن القول أيضًا إن محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي توفي باتفاق المصادر في سنة 1087هـ/ 1676م، وقد اشتغل بعلوم الحديث التفسير وعلوم القول وأصول التصوف والتاريخ.

أما عائلته فهي ذات منصب مرموق في التصوّف إبان الفترة العثمانية في مصر، حيث أصبحت البكريّة عائلة صوفية في القرن السادس عشر للميلاد.

إن مكانة المؤرخ الرفيعة في المجتمع المصري، يسّرت له سبيل الاطلاع على أسرار ودقائق الأمور التي كانت تحصل في مصر العثمانية، الأمر الذي أثر على نهجه العام للتأريخ، والذي جعل تأريخه لمصر إبان القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد شهادة صادقة تعبّر عن واقع مصر والمجتمع المصري أصدق تعبير.

أما فيما يتعلق بهوية المؤرخ وشخصيته، والخلاف الذي ظهر بين الباحثين حول وجود مؤرخين، قد يكونا أبًا وابنًا، فقد بيّنْتُ من خلال ما تقدّم في هذا الجانب أن ما ذكره كارل بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى (1938م)، عن البكري الصدّيقي

---

[1] عبد الرحيم عبد الرحيم، الريف المصري في القرن الثامن عشر، 1986، ص: 74.

[2] بركة الرطلي تنسب إلى الشيخ خليل الرطلي، وكانت من متنزهات القاهرة الهامة، ويسكنها العلماء والقضاة، ثم تلاشى أمرها بعد ذلك.

قد يكون منقولاً عن الباحث الفرنسي (S. de Sacy)، الذي ترجم للبكري الصدّيقي عام 1787م مخطوط: "الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة" إلى اللغة الفرنسية، ويذكر S. de Sacy وهو غير متأكد بأن البكري الصدّيقي ولد عام 1005هـ/ 1596م.

وإذا ما نظرنا في بحوث المؤرخين العرب المعاصرة، فإننا نجد أن الباحث المصري محمد أنيس يذكر في كتابه " مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني "، أن البكري الصدّيقي توفي عام 1087هـ/ 1676م، وهذا أيضًا ما تؤكده ليلى عبد اللطيف التي كتبت في هذا الموضوع، حيث تؤكد على أن ميلاد البكري الصدّيقي كان عام 998هـ/ 1589م، وأن وفاته كانت عام 1087هـ/ 1676م.

وهذا ما أثبتّهُ فيما تقدّم عن هذا المؤرخ المصري المعروف، الذي أفصح هو نفسه عن ذلك في مؤلفاته مثل "المنح الرحمانية" و"الروضة الزهية" و"نصرة أهل الإيمان" و"عيون الأخبار"، والتي جاء فيها أن والده قد توفي عام 1007هـ/ 1598م، وكان عمره (أي المؤرخ)، آنذاك تسع سنوات، أي أن مولده كان عام 988هـ/ 1589م. وفي هذا دليل من قبل البكري الصدّيقي نفسه على صحة ما طُرِح هنا. وقد توصّل إلى هذه النتيجة أيضًا عبد الرحيم عبد الرحيم، الذي حقق ونشر مخطوط " كشف الكربة في رفع الطلبة" للبكري الصدّيقي، حيث ذكر في تقديمه لهذا المخطوط بأن تاريخ وفاة البكري باتفاق المصادر كان عام 1087هـ/ 1676م[1]. ويجب أن يشار هنا إلى أن الباحث المعروف عبد الكريم رافق الذي كتب عن المؤرخ في عام 1976م بالإنجليزية قد أكد أن تاريخ ميلاد البكري الصدّيقي هو فعلاً في عام 988هـ/ 1589م، إلا أنه أخفق عندما اتبع الباحث كارل بروكلمان وما

[1] وهذا ما رجحه أيضًا محمد الأمين المحبي في كتابه خلاصة الأثر، حيث ذكر أن وفاة البكري الصديقي كانت ليلة الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وألف. وانظر: المحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص: 468.

أورده في دائرة المعارف الإسلامية عن أن وفاة البكري الصدّيقي كانت عام 1060هـ/ 1650م.

وقد رجّحت ليلى الصباغ في تقديمها لمخطوط المؤرخ "المِنح الرحمانية"، أن المؤلفات المنسوبة للبكري تابعة له وليست لأب وابن كما ذكر بعض المؤرخين. وقد أكد هذا الترجيح ما ورد في مؤلفات المؤرخ نفسه، حيث إن المعلومات التي جاءت فيها هي ذاتها تقريبًا، بل هي مكررة في كثير من الأحيان. بالإضافة إلى ذلك فإن المخطوطات التي تحدث المؤرخ فيها عن تاريخ مصر تشمل معلومات عن حياته وهي معلومات متشابهة في معظمها. فمثلاً يذكر المؤرخ في مخطوط " الروضة المأنوسة" و" التحفة البهية" و" الكواكب السائرة"، معلومات عن أبيه وخاصة إقامة فرح له (المؤرخ) عام 1005هـ/ 1596م، بمناسبة ختانه، حيث جرت العادة أن يتم الخِتان في السابعة من عمر الصبي. إلا أن بعض المؤرخين قد فسر هذا الفرح بأنه كان بمناسبة مولده. ولذلك رأوا أن ميلاده كان عام 1005هـ/ 1596م، وهذا ما أثبتُّ عدم صحته في هذا البحث.

ولعل خير دليل يبطل ما جاء به الباحثون: شاو (Shaw) وبروكلمان وعبد الكريم رافق وغيرهم ممن ادعوا أن وفاة المؤرخ كانت عام 1060هـ/ 1650م، هو مخطوط المؤرخ نفسه "الروضة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية"، حيث وصل المؤرخ في سرده للأخبار حتى عام 1071هـ/ 1661م، وهذا يؤكد أن البكري الصدّيقي عاش أيضًا بعد عام 1060هـ/ 1650م.

وعليه فإن ما جاء به كارل بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية (1938م)، وما جاء به أيضًا في كتابه " تاريخ الآداب العربية" باللغة الألمانية عام (1938م)، وكذلك ما جاء به شاو – "Shaw" في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية)، وكذلك ما جاء به عبد الكريم رافق في مقاله باللغة الإنجليزية عام 1976م، بخصوص هوية المؤرخ محمد بن أبي

السرور البكري الصديقي، لا يمكن الأخذ به، وأنه مجانب للحقيقة، وأن ما انتهينا إليه هنا هو الأقرب للصواب.

البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها المؤرخ

نال المؤرخ البكري الصدّيقي تعليمه الأوّل على يد والده العالم، مثل حفظ القرآن وتفسيره وتعلّم الكتابة ورواية الحديث، فقد كانت هذه هي العادة المألوفة عند أولاد العلماء[1]. ويبدو أنه وهو لا يزال في السادسة من عمره أو دون ذلك كان يحضر دروس الشيخ محمد الرملي[2]، فقد ذكر أنه سمع أول (صحيح البخاري) عليه، ويؤكد أنه (أجازه بروايته)[3]. وقد كان من المألوف عند العلماء آنذاك أن تُمنح الإجازة من كبار الشيوخ لأولاد العلماء وهم في سن صغيرة جدًا، إذ كان آباؤهم يسعون لدى كبار المشايخ لمنحها لهم[4]. ولا يُعرف شيء كثير عن حياة محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي عند عمّه تاج العارفين، ولا مدى رعايته له، أو قدر اهتمامه بتعليمه، أو ما يمكن أن يكون قد زوده به من معرفة[5].

---

[1] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 72.

[2] محمد الرملي: هو من أئمة الفقه والعلم الديني المصريين في القرن العاشر للهجرة السادس للميلاد (919-1004هـ/ 1513-1596م)، كان مولده ووفاته في القاهرة. له العديد من المصنفات منها: فتاوى شمس الدين الرملي. لمزيد من التفاصيل انظر: نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص: 77-85. وكذلك انظر: الزركلي، كتاب الأعلام، ج6، ص: 374-376. وأيضًا: عمر كحّالة، معجم المؤلفين، ج8، ص255-256.

[3] البكري الصديقي، الروضة الزهية، ص: 77.

[4] البكري الصدّيقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 72-73.

[5] المصدر السابق، ص: 73.

وقد توفي تاج العارفين في طريقه عائدًا من أداء فريضة الحج وكان معه المؤرخ البكري الصدّيقي، حيث وافته المنية عام 1008هـ/ 1599م وكان له من العمر ثمان وأربعون سنة، إذ كان ميلاده عام960هـ/ 1553م[1].

بعد وفاة عمّه تاج العارفين رعاه عمه الشيخ محمد زين العابدين، حيث اتخذه كولده، وقال عنه المؤرخ نفسه: "عمّي ووالدي وسيّدي وتالدي"[2]. ولعل هذه الصفات هي التي جعلت بعض الباحثين لآل البكري ينظرون إلى محمد بن أبي السرور على أنه هو محمد بن زين العابدين بن محمد بن علي البكري المتوفي عام 1087هـ/ 1676 – 1677م. ولكن ما أورده المؤرخ في مؤلفة الروضة الزهية ينفي هذا الاحتمال، إذ ذكر ولد عمّه محمد زين العابدين الصديقي شيخ الإسلام ومفتي السلطنة بمصر في عام 1065– 1066هـ/ 1655– 1657م[3].

ومع أن المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري أظهر لنا مدى حُبّه لعمّه وتقديره له، إلا أنه لم يُفْضِ بترجمته كما فعل مع والده أبي السرور. فهو لدى ذكره لوفاة عمّه اكتفى بالقول: "وفي أيامه (أي في أيام إبراهيم باشا) توفي عمّي، ووالدي، وسيّدي، وتالدي، صوفي عصره وزمانه، ومفسر وقته وأوانه، الشيخ محمد زين العابدين ابن الأستاذ الشيخ محمد البكري الصدّيقي...، وذلك في عصر يوم الاثنين رابع ربيع الثاني سنة ثلاث عشرة وألف فجأة بقلعة الجيل، بحضرة الوزير إبراهيم باشا. فإنه كان ألفّ له رسالة في

---

[1] نجم الدين الغزي، لُطف السّمر، ج1، ص: 348، حاشية: 5. حيث يوجد اختلاف بالنسبة لتاريخ وفاته.

[2] البكري الصدّيقي، النزهة الزهيّة، ص: 93.

[3] إبراهيم العبيدي المالكي، عمرة التحقيق في بشائر أهل الصديق، دار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم(418 تاريخ)، ص: 128.

الأترج، وطلع له بها، فعندما فتحها الوزير وقرأ فيها، نزل عليه الأمر المحتوم، فقضى نحبه"[1].

وهكذا لم يبقَ من أعمام محمد بن أبي السرور الأربعة حيًا سوى أبي المواهب. ولا يشير المؤرخ إلى مدى صلته به، وهل احتضنه ورعاه بعد وفاة عمّه زين العابدين أم تركه لنفسه، وقد بلغ من العمر خمسة عشر عامًا. وقد عايش أبو المواهب ابن أخيه أربعة وعشرين عامًا بعد وفاة زين العابدين، إذ توفي عام 1037هـ/ 1627م، وقد ترجمه المؤرخ ابن أبي السرور في مخطوطته "الروضة الزهيّة" كما اعتاد عند وفاة أحد من أقربائه أو من علماء مصر الكبار[2].

أما عمّه الرابع عبد الرحيم فقد ذكر أنه: "كان أميًّا لا يعرف الكتابة، إلا أنه أصابه من الولاية إصابة"[3]، كما يذكر المؤرخ بأنه عندما توفي عمّه عبد الرحيم تزوج أرملته عمّه أبو المواهب، وهي ابنة الشيخ محمد الرملي. ويضيف أن أبا المواهب توفي عام 1037هـ/ 1628م، أما مولده فكان عام 974هـ/ 1567م.

وعلى ضوء ما تقدّم، فإن البيئة الثقافية التي نشأ المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي هي بيئة أسرة عِلم وأدب – لها هيبتها العلمية وسطوتها وصِلاتها الكثيرة بعلماء العصر، على الرغم من بعض المآخذ على أفرادها، هذا بالإضافة إلى أنها أسرة ثرية كان لها أثرها على النفوذ في المجتمع المصري.

هذه البيئة العلميّة والماديّة والمعنويّة، كان لها أثرها على المؤرخ، حيث بدأ منذ طفولته بأخذ العِلم عن والده وبحضور دروس محمد الرملي وهو ما زال في السادسة من عمره. وبذلك أصبح من المؤكد أنه بتوجيه من أعمامه بعد وفاة والده وبدفع من البيئة العلمية

---

[1] البكري الصديقي، النزهة الزهية، ص: 84. أي في تاريخ: 1010هـ/ 1601م.

[2] لبكري الصديقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 82.

[3] البكري الصدّيقي، الروضة الزهيّة، ص: 87.

الأدبية التي عاشها، تابع ثقافته الذاتية، سواء كان من خلال احتكاكه المباشر بالعديد من علماء عصره، أو عن طريق قراءة المؤلفات المتنوعة القديمة والمعاصرة له والتي يعدها ضرورية لثقافته آنذاك، أو بحضوره دروس كبار مشايخ زمنه. فمثلاً من الكتب التي عاصرها وصرّح بأنه اطّلع عليها وقرأها، كتاب عبد الوهاب الشعراني[1]، والتي قال عنها بأنها " تزيد عن سبعين مؤلفًا اطلعت على غالبها، ونقلت أسماء ما بقي"[2].

أما المشايخ الذين أخذ عنهم المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي فهم كُثر، إلا أنه لم يذكر منهم إلا خمسة في مؤلفاته وهم: الشيخ أبو حفص سراج الدين عمر الحانوتي الحنفي المتوفي عام 1013هـ/ 1604م، وهو من كبار علماء الحنفية. وقد سمع عليه (الأربعين النووية)[3]. والشيخ أبو محمد عبد الله زين الدين الدّنوثريّ[4] وكان عارفًا باللغة والنحو وكذلك قاضيًا، ويقول عنه المؤرخ أنه "وهو من مشايخي الذين أخذت منهم، ومن تلامذة والدي الذين أخذوا عنه"[5]، وقد توفي عام 1025هـ/ 1616م.

والشيخ أبو عُيَيْنَه عامر بن العزيزي الشافعي[6]، المتوفي عام 1034هـ/ 1625. ومن المشايخ الذين أخذ عنهم المؤرخ ودرس عليهم، الشيخ أبو الفدا إسماعيل بن السجيدي الشافعي، والذي كان من أكابر الشافعية[7]. كما تتلمذ – المؤرخ البكري الصديقي – على نور الدين

---

[1] عاش الشعراني في مصر بين الأعوام(898-973هـ/ 1493-1565م)، وهو من كبار المتصوفة في مصر، له العديد من المؤلفات، أشهرها: لواقع الأنوار في طبقات الأخيار. لمزيد من المعلومات انظر: علي مبارك، الخطط التوقيفية، ج14، ص: 109. والزر كلي، كتب الأعلام، ج4، ص: 331-332.

[2] البكري الصدّيقي، الروضة الزهيّة، ص: 58.

[3] هذا الكتاب يشمل، أربعين حديثًا نبويًا اختارها يحيى بن شرف الحوراني النووي الشافعي، وهو من أئمة الشافعية عاش بين الأعوام (631-676هـ/ 1233-1277م).

[4] انظر ترجمته في: البكري الصديقي، الروضة الزهية، ص: 109، والمحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص: 53-56.

[5] البكري الصدّيقي، الروضة الزهيّة، ص: 109.

[6] المصدر السابق، ص: 122.

[7] انظر ترجمته في: البكري الصدّيقي، الروضة الزهيّة، ص: 195. والمحبي، خلاصة الأثر، ص: 318.

أبي الحسن الأجهوري المالكي، المتوفي عام 1066هـ/ 1656م. وقد وصفه المحبي في خلاصة الأثر بقوله عنه أنه " شيخ المالكية في عصره بالقاهرة، إمام الأئمة... "[1].

هذا بالإضافة إلى أنه ترجم في مؤلفة " الروضة الزهية" عددًا منتقى من العلماء والأدباء والمتصوّفة المعاصرين له، ومنهم أقرباؤه وبخاصة أولاد عمومه وهذا دليل على صلته واحتكاكه بهم ومعرفته لهم.

من خلال هذا السرد المختصر للعلماء والأدباء والمتصوفة الذين ترجم لهم المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي في كتابه "الروضة الزهية"[2]، نرى أنه لم يفرق بين العالم الشافعي الذي ينتسب إليه، وبين العالم الحنفي أو المالكي أو الحنبلي، وإنما ترجم بموضوعية، واقتصر في ذلك على علماء القاهرة وأدبائها ومتصوفتها[3].

ويمكن أن نستنتج من خلال ما تقدّم أن المؤرخ كانت له علاقة وثيقة بالنخبة الفكرية المتنوعة في عصره وبالذات في القاهرة، وأنه كان يعيش في خضمّ هذا الجو الفكري السائد في تلك المدينة خلال العقود السبعة من القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد. وبذلك فقد كان المؤرخ على اتصال وتفاعل واسعَيْن وعميقَيْن بثقافة مصره وعصره، وقد ساعده في ذلك البيئة العلمية الصوفية والتي تتمتع بالثراء العريض والأرستقراطية، وتحظى بالنفوذ لدى الحُكّام في مصر، والاحترام الاجتماعي والديني من طبقة المثقفين المصريين، وما يشبه الولاء لدى الطبقات العامة، وقد ورث المؤرخ الكثير من كل هذا.

---

[1] انظر ترجمته أيضًا في: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج2، ص: 1628.

[2] البكري الصدّيقي، الروضة الزهيّة، ص: 91.

[3] البكري الصدّيقي، المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، 1955، ص: 85-102.

مخطوط "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"

التّعريف بالمخطوط:

المخطوط الذي بين أيدينا **"نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"**، للمؤرخ محمد بن أبي السّرور البكري الصدّيقي. توجد النُّسخة الأصليّة لهذا المخطوط في المكتبة الوطنيّة بالرّباط في المغرب تحت رقم (D. 527)، ومُصَوّرة بنُسْخَتَيْن: الأولى على ميكروفيلم رقم(B43-4799)، والثانية على ميكروفيلم رقم (156د00-MMF/)، وهي مكتوبة بالخط المغربي، سهلُ القراءة، ومؤلَّفة من(119) ورقة[1]، ومن (237) صفحة سوى صفحة العنوان. في كُلّ صفحة (17) سطر، في كُلّ سطر ما بين (8- 13) كلمة. حرص المؤرخ على إبراز العناوين والفصول (المقاصد) بخط أحمر بارز، وهكذا أيضًا بالنسبة لأوّل كلمة في بداية كلّ جملة، مع العِلم أنّه لم يضع نقطة في نهاية الجُمَل. أمّا ترقيم المخطوط، فقد جاء ترقيم صفحات وليس ترقيم ورقات، مع الإشارة إلى أنه يوجد أخطاء في الترقيم وتكرارها كما هو الحال في الصّفحات 20-21، وكذلك صفحات 122-125. والمخطوط مُصَوّر أيضًا في معهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة تحت رقم(2132 تاريخ)، وقد حصلتُ على نُسخة مُصَوّرة منه.

[1] لقد ذكرت الباحثة ليلى الصبّاغ في المِنَح الرّحمانيّة ص121 أنّ عدد الأوراق هو (115)، وهذا خطأ. حيث تبيّن لي من خلال مراجعتي للنّسخة الأصليّة أنّ العدد الصحيح لصفحات المخطوط هو كما ذكرته أعلاه. كما تبيّن لي أيضًا أنه وقع خطأ آخر في ترقيم الصفحات كما أشرتُ إلى ذلك أعلاه. وقد يكون هذا الخطأ هو السبب في عدم التّدقيق في عدد الصفحات وكذلك عدد الأوراق عند بعض الباحثين. وأشير هنا إلى أنّ الإخوة المسؤولين في قسم المخطوطات قاموا بمراجعة المخطوط وقد تمّ تصحيح الخطأ بعد ملاحظتي إليهم بذلك.

المخطوط وأهميّته التاريخيّة[1]:

لقد ذكر هذا المؤَلَّف "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، المؤرخُ إسماعيل باشا البغدادي في كتابه "إيضاح المكنون" إلا أنه لم ينسبه إلى البكري الصدّيقي أو لغيره[2].

وقد جاء في هذا المؤَلَّف بعد المقدّمة التي اعتاد البكري الصدّيقي على ذِكرها في باقي مؤلفاته الأخرى، ما يلي: "وبعد، فهذا أُنْمُوذج لطيف، ومجموع ظريف، أذكر فيه الدولة الشّريفة العثمانيّة، وأخذهم للديار المصريّة. ورتّبته على مقاصد، سائلاً من الكريم الماجد أن يديم دولتهم إلى الأبد، بجاه الواحد الأحد، وسميته "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، فأقرأ وبالله المُستعان"[3].

ومما يؤكد أن هذا المؤَلَّف هو فعلاً للبكري الصدّيقي وليس لأحد سواه، هو ما جاء به المؤرخ في نهايته حيث قال: " قال مؤلفه أبو عبد الله محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي، لطف الله به في الدارَيْن، هذا آخر ما أوردنا ذكره من أخبار الدولة العثمانية على سبيل الاختصار"[4].

من هنا نعلم: أن البكري الصدّيقي كتب هذا المؤلَّف مختصرًا في أخبار الدولة العثمانية، ومن خلال دراسة هذا المؤلَّف يُلاحظ أنه شبيه جدًا بما جاء في "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية" من بدايته وحتى المقصد الثامن، ثم إن المقصد العاشر وحتى نهاية المخطوط تقريبًا مع ملاحظة بعض الزيادات أو الحذف.

أما بالنسبة لتاريخ تدوين هذا المؤلَّف فإن البكري الصديقي قد ذكر ذلك، حيث يقول بأنه "جمع هذا التاريخ في سنة خمس وخمسين وألف"[5] أي في عام 1645م.

---

[1] راجع: أبو جابر، سليم، البكري الصدّيقي وأثره في تأريخ مصر العثمانيّة، ط1، 2005، ص200-203.

[2] إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون، ج2، 1947، ص: 651.

[3] البكري الصديقي، نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان، مخطوط المغرب، ص: 1.

[4] المصدر السابق، ص: 229.

[5] المصدر السابق، ص124.

وكعادة المؤرخ البكري الصديقي، فإنه في هذا المؤلَّف أيضًا، نجده قد قسّمه إلى تسعة عشر(19) مقصدًا، هي بالترتيب كما جاءت في الأصل[1]:

1- في ابتداء دولة بني عثمان وأول من تسلطن منهم، وهو السلطان عثمان غازي.
2- في ذِكر السلطان أورخان بن السلطان عثمان.
3- في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان أورخان.
4- في ذِكر سلطنة السلطان بايزيد بن السلطان مراد.
5- في ذِكر سلطنة السلطان محمد بن بايزيد.
6- في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان محمد.
7- في ذِكر سلطنة السلطان محمد فاتح القسطنطينية.
8- في ذِكر سلطنة السلطان مولانا بايزيد بن السلطان محمد.
9- في ذِكر سلطنة السلطان سليم الأول فاتح مصر، ابن السلطان بايزيد.
10- في ذِكر سلطنة السلطان سليمان بن السلطان سليم.
11- في ذِكر سلطنة السلطان سليم بن السلطان سليمان.
12- في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان سليم.
13- في ذِكر سلطنة السلطان محمد بن السلطان مُراد.
14- في ذِكر سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد.
15- في ذِكر سلطنة السلطان محمد بن السلطان محمد، أخي المرحوم السلطان أحمد، المتقدم ذكره، المَرَّةُ الأولى.
16- في ذِكر سلطنة السلطان عثمان بن السلطان أحمد.
17- في ذِكر سلطنة السلطان مصطفى بن السلطان محمد (المَرَّةُ الثانية).
18- في ذكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان احمد أخي المرحوم السلطان عثمان.

[1] المصدر السابق، ص1- 4.

19- في ذكر سلطنة السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد، أخي المرحوم السلطان مراد.

ويتبيّن من خلال عرض البكري الصدّيقي لهؤلاء السلاطين، أنه يريد أعمالهم وفتوحاتهم. وقد توسع في أخبار فتح بلاد الشام ومصر، وفتح بغداد، وقد أنهى ذلك بذكره فتح العثمانيين لجزيرة "كريت"، واستسلام إحدى قلاعها في ثاني شعبان 1055هـ/ 23 أيلول 1645م، والإعلان عن الزينة في مصر لثلاثة أيام. ومما يُميّز هذا المؤلَّف عن مؤلَّفه "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية"، و"فيض المَنّان بذِكر دولة آل عثمان"، أن البكري الصدّيقي خصّصه للتدوين لسلاطين الدولة العثمانيّة دون التطرق إلى مصر وولاتها، مع أن تثبيت نسبة الأتراك إلى عثمان بن عفان– الخليفة الإسلامي الثالث- والواردة في "المنح الرحمانية" عند الحديث عن عثمان غازي، أول سلاطين بني عثمان، مفتقدة وغير موجودة هنا.

ويمكن القول إن هذا المؤَلَّف استلّه البكري الصدّيقي من مؤلَّفه "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية" مع بعض الإضافات أو التعديلات أو الحذف أحيانًا حسب ضرورة التدوين للتاريخ في تلك اللحظة، وأنه أرّخ فيه حتى عام 1055هـ/ 1645م.

منهج المؤرّخ في تدوين الأحداث التاريخيّة[1]

من الظواهر التي تميّزت بها مؤلفات المؤرخين في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد في مصر إبّان العصر العثماني، إتباعها المنهج العِلمي في التاريخ، وذلك بتقسيمها إلى مقدمة وأبواب أو فصول، ثم خاتمة. ومثل هذه الطريقة تُعَدُّ أمثل الطرق وأفضلها في مناهج البحث العِلمي في العصور الماضية وفي العصر الحديث أيضًا. فالمقدمة قصرها هؤلاء المؤرخون على موضوعات مُعيّنة. فمنهم من خصّصها للحديث عن فضل مصر وما ورد بشأنها من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال العلماء والحكماء. وهم بذلك يحاولون التّشبه بمؤرخي مصر في العصور السابقة، الذين دأبوا على افتتاح تواريخهم بمقدمات ماهدة تحتوي على مثل هذه الموضوعات، وتدلّ من ناحية أخرى على اعتزازهم بانتسابهم لمصر. ومنهم من قصر مقدمته للدفاع عن المعرفة التاريخية دون غيرها من الموضوعات.

وإذا نظرنا إلى التأريخ نفسه نجد أن هؤلاء المؤرخين لم يسيروا على وتيرة واحدة، فمنهم من قسّم كتابه إلى أبواب أو مقاصد، والأبواب إلى فصول، مثل البكري الصدّيقي في معظم كتاباته، والإسحاقي في كتابه "لطائف أخبار الأُوَل". ومنهم من جعل كتابه بابًا واحدًا مثل أحمد شلبي عبد الغني في كتابه "أوضح الإشارات". وإذا ما نظرنا إلى مخطوط "نُصرة أهل الإيمان"، موضوع هذا البحث، نجد أنّ المؤرخ البكري بدأهُ بقوله: "وبعد، فهذا أنموذج لطيف، ومجموع ظريف، أذكرُ فيه الدولة الشّريفة العثمانيّة، وأخْذِهم للدّيار المصريّة. وقد رتّبته على مقاصد، سائلاً مِن الكريم الماجد أن يديم دولتهم إلى الأبد،

[1] لمزيد من التفاصيل راجع: أبو جابر سليم، البكري الصدّيقي وأثره في تأريخ مصر العثمانيّة، ط1، 2005، ص: 158- 168.

بجاه الواحد الأحد، وسمّيتُهُ: نُصْرَة أهل الإيمان بدولة آل عثمان، فاقْرأْ وبالله المُستعان"[1].

وقد اتّبع المؤرخون في مؤلفاتهم المنهج الحَوْلي الذي يدور حول عهود الولاة والسلاطين والباشاوات. فدرجوا على كتابة اسم الحاكم بخطّ بارز، أو في عنوان مستقل، وسنة ولايته على مصر وتاريخ عَزْلِهِ أو وفاته. ثمّ التأريخ لأوضاع مصر في عهده تأريخًا حَوْليًّا مُختَصَرًا في العصور القديمة، ثمّ أقلّ اختصارًا، وهكذا، إلى أن يصبح الكتاب سِجِلاً يوميًا لِما وقع بمصر من الحوادث الكبرى والصغرى في عصر المؤرخ. وهم بهذه الطريقة يُشبهون من بعض النّواحي مؤرخي مصر في العصر المملوكي، الذين دار تأريخهم أوّلاً وأخيرًا حسب السّنين[2].

وقد اتّضح من خلال مراجعة المصادر المتعلقة بهذا الشأن، أن مؤرخي العصر العثماني يتفقون مع أسلافهم من مؤرخي العصور السابقة في "المنهج عمومه"، وإن اختلفوا معهم في تفصيلاته، إذ أنهم أرّخوا تأريخًا حوليًا في عهد كل باشا على حِده، ذاكرين أوضاع مصر في عهده على الطريقة الحَوليّة، ولا يقطعون سياق الأحداث بدخول سنة جديدة، وإنما يقطعونها إذا عُزِل باشا وخَلَفَهُ آخر في الحكم.

كذلك أتفق مؤرخو العصر العثماني مع أسلافهم من المؤرخين التغلغل في أغوار المجتمع المصري من خلال تأريخهم لعهود الباشاوات العثمانيين. فقد اهتمّوا بدراسة كل التفاصيل ودقائق الأمور، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من واقع مجتمعهم إلا دوّنوها في كتبهم، حتى إنّ الدارس لتاريخ مصر في العصر العثماني، يمكنه الوقوف على المراحل والأطوار التي مرّ بها المجتمع المصري إبّان حكم العثمانيين من كل الجوانب، الإدارية

---

[1] البكري الصدّيقي، نُصْرَةُ أهل الإيمان بدولة آل عثمان، ص: 1-2.

[2] السيّد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، 1981، ص: 81 وما بعدها. انظر أيضًا:
M. Holt, Political and Social Change in Modern Egypt, London: 1968, pp. 79-90.

والاجتماعية والاقتصادية والحضارية[1]. ويعود السّبب في ذلك إلى أنّ الحياة الداخلية في مصر وما كانت تعج به من حياة وحركة ومؤامرات واضطرابات، إلى غير ذلك، جعلت الأحداث في ذلك العصر تأخذ وقعًا سريعًا ومتلاحقًا ومتنوعًا على المستوى المحلّي في هناك.

والحقيقة التي يمكن طرحها، هي أنّ هؤلاء المؤرخين مع إعجابهم الشّديد وولائهم المنقطع النظير للعثمانيين وللسلطان العثماني- كما هو الحال بالنسبة للمؤرخ البكري الصدّيقي- قدّموا مادة تاريخية قيّمة، يمكن للدارس والباحث الاعتماد عليها في التأريخ للدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى مطلع القرن الثالث عشر/ التاسع عشر للميلاد.

أما مؤرخنا محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي، فَيُعَدّ مؤرخًا تقليديًا. أي أنه بدأ كتبه منذ أقدم العصور أو بدء الخليفة حتى يصل إلى وقته. وهذا يؤدي به إلى الخَلْط في العديد من الأمور، وأحيانا يؤدي به إلى استخدام الخرافات في تدوينه للتاريخ. كما أنه لم يكن مؤرخًا حوليًا دائمًا، مثل مؤرخي القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد. ولذلك فإنّ المؤرخ البكري الصدّيقي يعد نسيج وحده، كما أنه ينفرد بأنه من أكثر مؤرخي القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد إنتاجًا[2]، وإنْ كان يُلاحَظُ أيضًا أنه يتمتّع بمصداقيّة كبيرة في كتاباته. وذلك لأنه كان وثيق العلاقة بالحُكام والأمراء وموظفي الإدارة الذين يبدو أنه بالتّقرب منهم كان يسألهم ويحاورهم. وقد ذكر في بعض مؤلفاته أكثر من مرة قوله: "وسمعتُ من الوزير" أو "وسألتُ الموظّف"، وغير ذلك من العِبارات التي تدلّ على أنه كان على صِلة وقرب شديدَيْن من الحكام والسلاطين العثمانيين أصحاب اتخاذ القرار في مصر.

---

[1] المصدر السابق، ص: 85 وما بعدها.

[2] البكري الصدّيقي، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق وتعليق: عبد الرازق عيسى، ط1، القاهرة 1997، ص: 130.

وفي مخطوط المؤرخ المعروف باسم "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية"، وكذلك "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان" والذي يشبه إلى حدّ كبير الأوّل، فقد دار تأريخ البكري الصدّيقي حول سلاطين الدولة العثمانية، اسم السلطان في أول الباب أو المَقْصَد الخاص به- خط بارز- ذاكرًا تاريخ اعتلائه عرش السلطنة وتاريخ عَزْلِهِ أو وفاته ومُدّة حُكمه، كما قام بذكر أهم أخباره وإنجازاته لذلك السلطان، مُتّبعًا التّرتيب الحَوْلي في كل ما يسرد من أخبار.

وقد دوّنت ليلى الصباغ[1] مأخذها على منهجية المؤرخ في المخطوط "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية"، حيث قالت إنه لا يمثّل في الواقع مستوى رفيعًا من ناحية المنهجية التاريخية العلمية. وقد عزت ذلك إلى أنّ المؤرخ لم يفصح عن المصادر التي استقى منها تلك المعلومات، وبخاصة منها التي سبقت مرحلة معاصرته للأحداث. كما أنه- أي المؤرخ- لم يبيّنها في مقدمة كتابه. بل ولم يشر إليها في سياق ذكره للأحداث[2]. وقد اعتبرت ليلى الصبّاغ عدم بيان المصادر التي اعتمد عليها المؤرخ في سَرْدِهِ للأحداث التي لم يعاصرها "فجوة في منهجيته". إلا أنها اعترفت أنّ المؤرخ كان شاهد عيان لعدد من الأحداث التي عاصرها، لأنه صرّح بذلك في بعض مخطوطاته، بالإضافة إلى صلات أسرته وصلاته الشخصية بالسلطات الحاكمة، وفكره التاريخي الراغب في تتبّع الأحداث، مع الأخذ بالحسبان ثقافته التي مكّنته من أن يكون ذلك الشاهد المُلاحِظ للأحداث التي عاينها[3].

وفي مخطوط آخر للمؤرخ وهو "الروضة الزهيّة في ذِكر ولاة مصر والقاهرة المُعزيّة"، نجد أنّ البكري الصدّيقي اتّبع فيه المنهج التقليدي في التأريخ، شأنه في ذلك شأن الإسحاقي

---

[1] البكري الصدّيقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق وتعليق: ليلى الصباغ، 1995، ص: 165-169.

[2] المصدر السابق، ص: 165.

[3] المصدر السابق، ص: 166.

(ت-1060هـ/ 1649م) في كتابه "لطائف أخبار الأُوَل فيمن تصرّف في مصر مِن أرباب الدول". حيث قام البكري بتقسيم هذا المخطوط إلى مقدمة ونتيجة وخاتمة. لقد تناول المؤرخ في المقدمة الحديث عن مصر بإيجاز شديد جريًا على ما فعلة مؤرخو مصر الذين دأبوا على افتتاح تأريخهم لمصر بمقدمات مُمَهِّدة. وأمّا النتيجة – وهي الهدف الرئيسي من الكتاب – فقد اشتملت على حُكّام مصر منذ أقدم العصور وحتى عام 1042هـ/ 1632م، وهي حقبة زمنية طويلة اتّبع فيها البكري المنهج التقليدي في التأريخ. وأمّا الخاتمة فكان موضوعها نهر النّيل الخالد وأهميته في حياة مصر، وقد اتّسم منهجه هذا بأربع سِمات رئيسية هي:

أولاً: اتّسم تأريخ البكري لمصر في العصور التي سبقت العصر العثماني بالإيجاز الشديد، حيث اعتمد المؤرخ في ذلك على مؤلفات المؤرخين الأوائل مثل عبد الرحمن بن الحَكَم(ت -257هـ/ 1871م)، وانتهاء بابن إياس الحنفي (ت -930 هـ/ 1523م).

ثانيًا: قصر البكري جُلّ اهتمامه في تاريخه السابق على العصر العثماني على كتابة اسم الحاكم- واليًا كان أم سلطانًا – بخط بارز، ذاكرًا سنة ولايته وتاريخ عَزْلِهِ أو وفاته، ومُدّة حُكمه، وأخبار مصر موجزة في عهده. وهذا الأسلوب المنهجي كان دأب مؤرخي مصر في العصر العثماني، حيث يؤرخون للعصور السابقة. ويُعْتَبَر الاختصار الشديد الذي لازم فترة ما قبل العصر العثماني ظاهرة علمية جديدة، فقد زخرت المكتبة الإسلامية بالمؤلفات التاريخية التي غَطّتْ هذه الفترات السابقة. ولعلّ المؤرخ البكري اكتفى بتلك الإشارات الموجزة عن تاريخ مصر قبل العصر العثماني، لأنه أرَّخَ لها تأريخًا مُستفيضًا في تاريخه الكبير "عيون الأخبار ونُزهة الأبصار".

ثالثا: اقتصر المؤرخ في تأريخه لسلاطين الدولة العثمانية على السلاطين الذين خضعتْ مصر في عهودهم للحُكم العثماني، أي منذ عهد السلطان سليم الأوّل، الذي تحولتْ مصر في عهده إلى ولاية عثمانية عام 923هـ/ 1517م، حتى وصل إلى عهد السلطان مُراد

الرابع، الذي تولّى السلطة واعتلى عرش السلطان عام 1032هـ/ 1622م، حتى عام 1049هـ/ 1640م.

رابعًا: اتّبع المؤرخ في تأريخه لعصره طريقة التأريخ التقليدية التي تدور حَوْل عهود الباشاوات في مصر، حيث كان يكتب اسم الباشا – بخط بارز- وتاريخ قدومه إلى مصر، وتاريخ عَزْلِهِ، ومُدّة حُكمه باليوم والشهر والسّنة. ثمّ يسردُ أخبار مصر في عهده بالتفصيل. فنجد أنه استخدم بعض العِبارات في ذلك مثل: "وفي أيامه حدث كذا". وقد اعتمد البكري في تأريخه للحقبة التي عصرها على مشاهدته للأحداث بنفسه، أو النّقل عن الثّقات من الرواة. وهنا أيضًا، نجده استخدم من العِبارات مثل: "شاهدت أنا ذلك، أو بَلَغَنِي من بعض الكَتَبَة"[1].

ويمكن القول من خلال ما تقدّم، إن منهج المؤرخ البكري الصدّيقي في سَرْدِهِ للأحداث التاريخية على وجه العموم يمتاز بما يلي:

المِيزة الأولى: إنّ المؤرخ هو مؤرخ تقليدي، يبدأ تواريخه وتأريخه منذ أقدم العصور، حيث نلمس النّزعة الإسلامية الواضحة في مؤلفاته.

المِيزة الثانية: إنّ المؤرخ يُعَدُّ مؤرخًا مُعاصرًا، حيث كان يُدوّن الأحداث إبّان وقوعها ومشاهدته لها بنفسه، وهذا ما ظهر جليًّا في مخطوط "الكواكب السائرة".

المِيزة الثالثة: إنّ المؤرخ كان يتوخّى الدّقة واستقصاء الأحداث والحوادث والتحفّظ في ذِكرها، حيث حرص على أن يسجّل الأحداث بصدق وأمانة.

المِيزة الرابعة: إنّ المؤرخ حاول أن يعطي تصوّرًا عِلميًا لِسَيْرِ الأحداث في مصر، وذلك من خلال ملاحظاته الذكية ومراجعته الواعية المتأملة لتلك الأحداث. فقد لاحظ أن مصر تقع فيها "فِتنة" كل عشر سنوات، وقد جاءت ملاحظته هذه، عند الحديث عن الفِتنة السادسة التي وقعت في عهد الوزير محمد باشا بن حيدر (1056-1085هـ/ 1645-1647م).

---

[1] وردت مثل هذه العبارات في مخطوطة " النزهة الزهية ". وقد قام بتحقيقها عبد الرازق عيسى عام 1998.

وقد ساقته تلك الملاحظة إلى مراجعة التاريخ ليسرد لنا عمّا فصّله في مكانه من سَيْر الأحداث التاريخية.

إنّ تتبّع المؤرخ لتلك الظاهرة في التاريخ المصري هو في حدّ ذاته اقتراب من منهج علميّ للبحث التاريخي في تلك الفترة. وعلى أية حال- وحسب ما لُوحِظَ من خلال مؤلفات المؤرخ البكري الصدّيقي- فإنّ اهتمامه واعتنائه بعِلم التاريخ، ومعاصرته لتلك الحقبة إبّان العصر العثماني في مصر (القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد) بالذات، يَسَّرا له الوقوف على أسرار دقيقة وهامّة عن المجتمع المصري، حيث سجّلها تسجيلاً واعيًا، مُستفيضًا في هذا التّراث من مؤلفاته المُتعدّدة الأغراض في مجاليّ التاريخ والحضارة.

اللغة والأسلوب عند البكري الصدّيقي[1]

لقد صاغ المؤرخون في العصر العثماني مؤلفاتهم في أسلوب لغويّ تلقائي، لا يُعنى كثيرًا بقواعد اللغة العربيّة والنّحو والإملاء، إذ كان يهمّ هؤلاء المؤرخين – أوّلاً وأخيرًا- إظهار الحقائق التاريخيّة وتدوينها.

ومهما قيل عن المستوى العلمي وهبوطه في مصر في العصر العثماني، فإنّ استواء اللغة العربيّة عند هؤلاء المؤرخين أمثال الإسحاقي والبكري الصدّيقي وغيرهما، كافٍ لِدحْضِ كلّ فِرية تحاول النّيل من مؤرخي وعلماء ذلك العصر.

وحسبُنا أن نذكر هنا، أنّ وقوع مؤرخي العصر العثماني في بعض الأخطاء اللغوية والإملائية أمر ليس بجديد على مؤرخي مصر، وإنّما أمثال هذه الأخطاء لا تخلو منها كُتُب

[1] لمزيد من التفاصيل راجع: أبو جابر سليم، البكري الصدّيقي وأثره في تأريخ مصر العثمانيّة، ط1، 2005، ص: 239-243.

المقريزي ومن خلفه من العلماء في ميدان التأليف والتّدوين التاريخي في أواخر العصر المملوكي[1].

وإذا ما عُدنا لكتابات البكري الصدّيقي ومستوى اللغة في مؤلفاته، فقد كان مؤرخًا معروفًا لدى معاصريه بوصفه كاتبًا ذا أسلوب مُتفرد وغنيّ في حقول العلوم الدّينيّة والشّعر. ولكنّه مؤرخًا لم يحظَ بهذه المكانة كما يجب، وهذا مردّه إلى التقليل من قيمة كتابة ودراسة التاريخ في تلك الحقبة.

لقد شعر ابن أبي السّرور بأنّ كتابة التاريخ تحتاج إلى بعض الوثائق، وعليه، قام بتوظيف بعض كتاباته المبكّرة خدمة لمواقف تاريخية معيّنة، وهو يرجع إلى بعض الكتب الأخرى ويقتبس منها حرفيًّا. على أنّ أسلوبه يختلف عن الكتب التي اقتبس منها، حيث إنه أخفق في أن يكون مثل سلفه ابن إياس الذي اقتبس منه مستشهدًا به ومحاولاً تقليد أسلوبه وطريقة نَظْمِه.

إنّ إحدى السّمات البارزة لكتابات البكري الصدّيقي هي: إنه يحاول أن يعكس اللفظ الدّارج عن طريق إدخال اللغة العاميّة إلى أعماله، وتسَبّب هذا في انعدام الانسجام في أسلوبه، وذلك لمحاولته جعل هذه الجُمَل العاميّة تبدو وكأنها فُصحى برغم بُنيتها النّحوية غير السّليمة. حتى أنه في اقتباساته لم يبدُ قادرًا على تجنّب هذه الأخطاء. وقد دفعته الظروف والأحداث التي تذكّره بآية من القرآن أو بيت من الشّعر أو مَثَل، إلى أن يوظّف الاقتباس حتى عندما يتعذّر رؤية العلاقة بين الحدث وهذا الاقتباس. أمّا السّمة الثانية لكتابات البكري الصدّيقي، فهي غموض الأسلوب. إذ تزخر كتاباته بعدد كبير من الكلمات غير الموجودة في أي قاموس عربيّ، وهذه الكلمات إمّا أن تكون خاصّة بأهل مصر، أو أن تكون أدْخِلَت على اللغة عن طريق الشّعوب المختلفة التي سكنت في مصر، وهي كلمات

[1] محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة، 1949، ص: 105. وانظر أيضًا: أحمد شلبي، أوضح الإشارات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحيم، 1994، ص: 19.

في مجملها تُستَعمل في معان خاصّة غير معروفة لعامّة الناس. ومن ذلك أسماء المواد التي استخدمها المصريون في الصناعة وأسماء النقود المعدنيّة والنباتات. جميع هذه الكلمات، والمصطلحات ووظائف حكوميّة أخرى، كلّها مأخوذة من اللغتَيْن التركيّة والفارسيّة، أو مُشتقّة من جذور عربية تحتمل أكثر من معنى واحد.

أمّا بخصوص الإملاء[1]، فإنّه يمكن القول بأنّ هناك شيئًا غريبًا لم يزل موجودًا ظهر بشكل بارز خلال التحقيق لمخطوط " نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، وكذلك من خلال مراجعة مخطوطات المؤرخ الأخرى، وهو حذف الهمزة تقريبًا من كلّ كلمة كما لو أنها ليست حرفًا عربيًّا. وفي كلمات كثيرة أخرى قُلِبَت الهمزة إلى (ياء)، مثل كلمة (فائدة) تظهر هكذا (فايدة)، وكلمة (العجائب) تظهر (العجايب)، وكلمة (نائب) تظهر (نايب) وكلمة (الحائط) تظهر (الحايط) وغيرها. وأحيانًا في كلمات أخرى إلى مَدّة (آ) ولكنّها حُذِفَت تقريبًا في كل الكلمات. على سبيل المِثال كلمة (ماء) تظهر هكذا (ما)، (الغلاء) تظهر هكذا (الغلا)، وكذا كلمة الأربعاء والثلاثاء والوباء والأمراء والهواء وما شاكلها، فقد حُذِفَت الهمزة فيها. كلّ هذا يشكّل مصدرًا للبلبلة وربّما يؤدي إلى تفسير بعيد عن المقصد الأصلي الذي كان يريده المؤرخ.

من خلال دراستي للمخطوط الذي بين أيدينا، ومقارنته بمخطوطات أخرى للمؤرخ البكري، وجدتُ سِمات تُلْفِتُ الانتباه بخصوص اللغة والنحو والإملاء عند مؤرخنا. وعليه فقد قُمْتُ بتدوين بعض الأمثلة لهذه السّمات حيث أمكن تصنيفها:

[1] لقد برزت هذه الظاهرة عند المؤرخ بشكل واضح تقريبًا في كل ورقة من أوراق مخطوط "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، موضوع هذا البحث، وكذلك في مخطوط " المِنح الرحمانيّة"، تحقيق: ليلى الصبّاغ، و"النزهة الزّهيّة في ذِكر ولاة مصر والقاهرة المُعزّية"، تحقيق: عبد الرازق عيسى.

1- يكثر في هذا المخطوط وكثير من كتاباته الأخرى استخدام "أكلوني البراغيث"، نحو قوله: "وقالوا له العسكر". وقوله: "فأرسلوا إليه الأخوات يقول له". وكذلك قوله: "فتقاتلوا الفريقَيْن برهة من الزّمن"، والذي يُلاحظ فيه انتصاب الفاعل.

2- في الإملاء: بالإضافة إلى ما ذكرته أعلاه، فإنّ مخطوط "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان" تجلّت فيه أخطاء ذلك العصر، مثل:

أ- في الهمزة المتوسّطة: "رءى" بدل رأى، "الرءيس" الرئيس، "تبدءي" بدل تبدئي.

ب- في الهمزة أوّل الكلمة: "ءاخر" بدل آخر.

ت- في التاء المربوطة والمفتوحة وحرف الهاء: " المنادات" بدل المناداة، "زينت" بدل زينة، "زاهره، باهره" بدل زاهرة وباهرة.

ث- في الألف الممدودة والمقصورة: "عصى" بدل عصا، "أبطى" بدل أبطأ، "أنشا" بدل أنشأ، "هيّا" بدل هيّأ.

ج- كما وردت أخطاء متكرّرة في بعض الكلمات مثل: "إللهي"، "ينموا"، "يسطوا".

3- يكثر في هذا المخطوط وبشكل بارز عدم مُراعاة قواعد التذكير والتأنيث في العدد والمعدود، مثل:

أ- "اثني عشر سنة".

ب- "إحدى عشر شهر".

ت- "وتوفّي سنة اثنين وسبعين وسبعماية".

4- أمّا الجوازم، ولا سيّما حرف "لم" فكأنها لا تعمل في الأفعال عند البكري الصدّيقي، وخاصّة المعتلّة منها، كما يظهر في الأمثلة التالية:

أ- "إنْ لمْ تأتيني".

ب- "ولم يخشى من المدافع".

ت- "إلاّ مَن لم يرى ما يركبه".

ث- "فلم يجيبه الأمير".

5- يُلاحَظ أيضًا أنّ البكري لا يحذف ياء الأسماء المنقوصة في كثير من الأحيان، مثل قوله: "من جواب كافي". و"مُتَأنّي في أفعاله".

6- وفي المفاعيل، فلا تُنْصَب في أحيان كثيرة، وخاصّة إذا وَليَت الفعل مباشرة، كقوله:

أ- "وأظهر تودّد وبشاشة وتأمين".

ب- "أنتم في كل ثلاثة أشهر تطلبون ترقّي".

ت- "فرأى شخص من الفلاحين ومعه زوجته ذاهب بها إلى الرّيف".

7- إفراد الاسم الموصول، ولو كان وصفًا لجمع أو مثنّى، كقوله:

أ- "وكان عدّة العساكر الذي معه".

ب- "وأخرج القفطانَيْن الذي كان لبسهُما".

وفي بعض الأحيان لا يلتزم بقواعد التذكير والتأنيث، فيكتب "الذي" بدل "التي" وبالعكس. في المقابل إذا ما راجعنا مخطوطة "المِنح الرحمانية"، يتّضح أنّ البكري الصدّيقي عرض مؤَلَّفَهُ بأسلوب لا تكلّف فيه، بسيط وممتِع، وإنْ لم يخلُ من بعض المبالغات، وصياغة لفظيّة منمّقة عند حديثه عن جدّه وأبيه. وقد طعّم ذلك الأسلوب بكثير من الشّعر الذي امتدح به الشّعراءُ بعض السلاطين العثمانيين أو الوُلاة الخيّرين. إنّ هذا الأسلوب هو ذاته الذي تميّز به مؤَلَّفَهُ "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان"، بسبب التّشابه في سَرْدِ الأحداث والوقائع التاريخيّة في المقاصد والأبواب في كِلا المخطوطتَيْن.

وخلاصة القول في هذا الجانب، أنّ البكري الصدّيقي قد تميّز بمدى سعة إطلاعه وغزارة علمه وشمول ثقافته، وتجاوبه مع مناحي الحياة المختلفة في مصر في ذلك العصر. حيث تميّزت مؤلفاته بثروة ضخمة من المصطلحات الإداريّة والعسكريّة والماليّة والاجتماعيّة الخاصّة بمصر العثمانيّة. ويرجع ذلك كلّه لكون المؤرخ من طبقة العلماء والمثقّفين في

عصره، ومن المُقرّبين للسلطان العثماني والمؤيّدين له. ولذلك كان من السّهل عليه الاطّلاع على مجريات الأحداث وتدوينها عن قُرب دون عناء كبير. ومع ذلك كُلّه، إلاّ أنّ مؤلفات البكري الصدّيقي لم تكن بمنأى عن الأخطاء النّحويّة واللغويّة والإملائيّة والإمالة التي تميّزت بها كتابات ومُدَوّنات ذلك العصر.

منهجُ التّحقيق للمخطوط

أوّلاً- لقد قُمتُ بقراءة نصّ المخطوط ومراجعته مراجعة دقيقة على المصادر التي اعتمد عليها مؤلّف المخطوط، البكري الصدّيقي. وقد استندتُ بالأساس في هذه المراجعة على النُسخة الأصليّة بمكتبة الرّباط (D. 527) والنّسخة المصوّرة في معهد المخطوطات بالقاهرة. كما قُمتُ بمقارنة وموازنة المخطوط مع مخطوط "المِنح الرحمانيّة في الدولة العثمانيّة" للمؤلف ذاته، والذي قامت الباحثة ليلى الصبّاغ بتحقيقه ونشرة عام 1995، والمشار إليه في هوامش وثَبْت المراجع لهذا الكتاب. كذلك استندتُ في تحقيق المخطوط الذي بين أيدينا على المصادر التاريخيّة والمؤلفات التي استقى منها البكري الصدّيقي معلوماته التاريخيّة والتي أوردها في المخطوط مثل المؤرخ: ابن إياس، الإسحاقيّ، ابن زُنْبُل، المقريزي وقُطب الدّين النّهروالي وغيرهم. وقد أشرتُ إلى ذلك مع التّعريف بهم في هوامش هذا الكتاب.

ثانيًا- لقد حرصتُ على وضْعِ المخطوط بين يديّ القارئ والباحث على أجمل وأفضل صورة، خاليًا من الأخطاء الكتابيّة أو الإملائيّة أو النّحويّة أو التّحريف في رَسْمِ حروف بعض الكلمات الواردة فيه. وعلى هذا الأساس، وبعد والرجوع لعدد من المصادر التي قد حُقّقت، وخاصّة للمؤرخ البكري الصدّيقي، والموازنة معها، فقد اتّبعتُ الخطوات التّالية مع الحِرص على الإشارة إلى ذلك في الهوامش وإبقاء الأصل وتثبيته بين معقوفتيْن، ليكون ذلك نموذجًا لأخطاء ذلك العصر الذي دوّن له مُؤرّخُنا:

أ- قُمْتُ بتثبيت الألفاظ السّليمة للكلمات التي وقع فيها أخطاء كتابيّة أو جرى عليها أحيانًا تحريف في رسم الحروف. وقد أشرتُ إلى ذلك في الهوامش.

ب- قُمْتُ بتثبيت الكلمات- التي حُذِفَتْ همزتها أو خُفّفَت إلى (ياء)، كما كان مُتّبَعاً في ذلك العصر- حسب قواعد الإملاء المُتّبَعَة في عصرنا هذا.

ت- تصحيح الأخطاء النّحويّة التي وقعت في بعض الكلمات، مع الإشارة إلى ذلك في الهوامش.

ث- قُمْت بإضافةِ أو حَذْفِ بعض الحروف أو الكلمات تماشيًا مع السّياق وسلامة النّص، مع تثبيت الإضافة بين معقوفتَيْن في النّص، وتثبيت المحذوف بين معقوفتَيْن مع الإشارة إلى ذلك كُلّه في الهوامش.

ج- صوّبْتُ بعض الجُمَل التي وقع فيها خطأ في تركيب مبناها، وذلك ليتناسب مع سلامة السّياق والمعنى، مع الإشارة إلى ذلك في الهوامش وتثبيت الأصل بين معقوفتَيْن.

ثالثًا- ضَبْطُ أسماء الأعلام، والشّخصيّات، والكُتُب، والأماكن، والقُرى، والمُدُن، والمواقع، والحوادث التاريخيّة، والمصطلحات، والآيات القرآنيّة التي وردت في نصّ المخطوط. كما قُمْتُ بتعريفها وتوضيحها وشرحها، مُعتمدًا في ذلك على المصادر والمراجع التاريخيّة المناسبة، والقواميس المُتخصّصة، مع تثبيت ذلك في الهوامش.

رابعًا- ضَبْطُ التّواريخ الهجريّة ومقابلتها بالتّواريخ الميلاديّة، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، والإشارة إليها في الهوامش. وذلك للتسهيل على القارئ والباحث الموازنة بين التّقويمَيْن، وليكون أيضًا على دِراية كاملة بالزمن الذي وقعت فيه الأحداث التاريخيّة.

خامسًا- لقد أشرتُ في مَتْن المخطوط، بين معقوفتَيْن، إلى بداية كُلّ صفحة ورقمها.

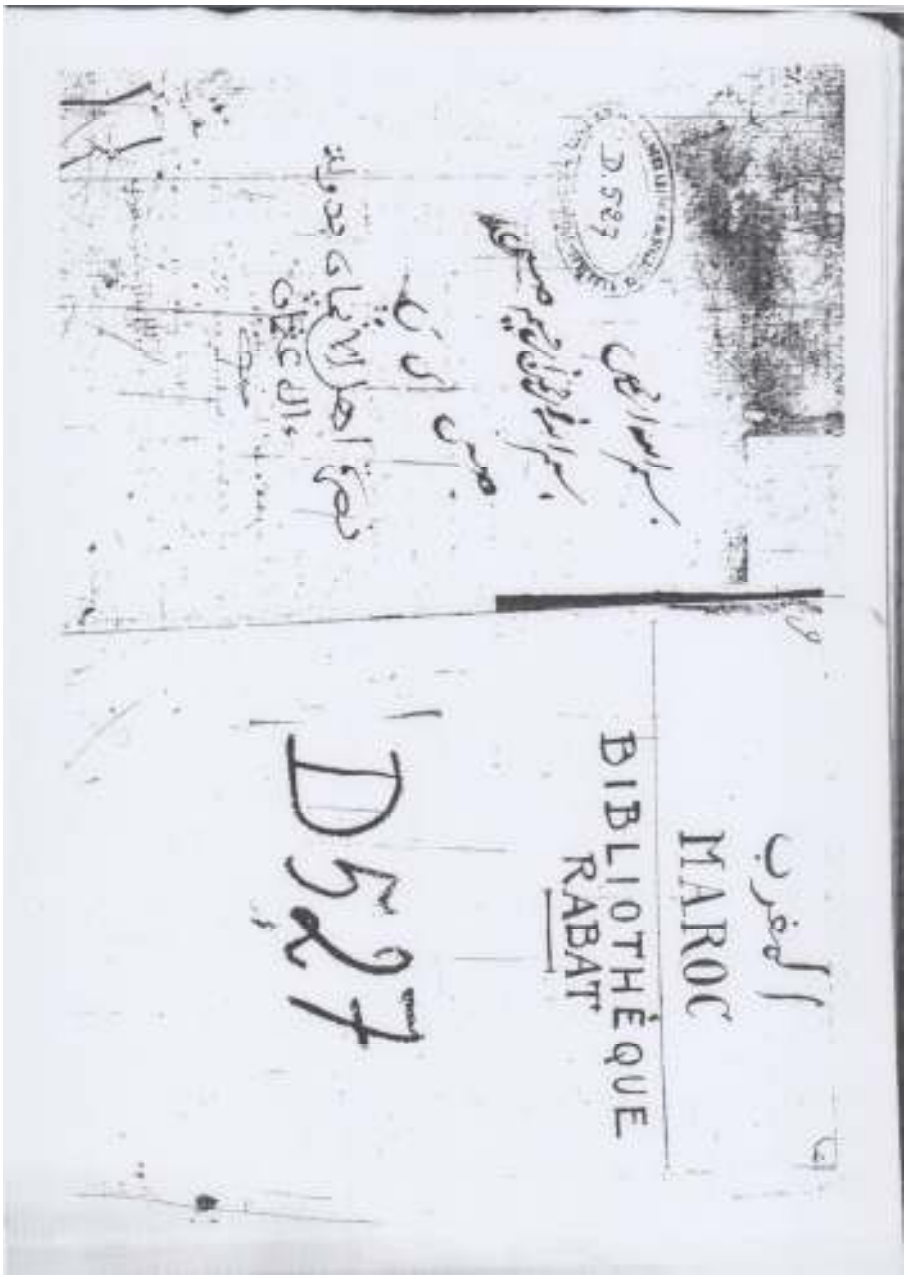

الورقة الأولى من المخطوط

الورقة الثانية من المخطوط

المغرب
MAROC
BIBLIOTHÈQUE
RABAT
D527

الورقة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرّحمن الرّحيم

نُصْرَةُ أَهل الإيمان بدولة آل عثمان

[2ب] **بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم**

الحمد لله الذي مَنَّ على خَلْقه بسيّد وَلد عدنان، وأسبغَ علينا فضْله[1] بِمِلّة الإيمان، واختار لنا مُلوكًا مِن آل عثمان، قامعين لأهل الكُفر والطُّغيان، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله، وحده، لا شريك له، ولا ضدّ له، ولا نِدّ له، المالك المَلِك الديّان، فلا يشغله شأن عن شأن، وأشهدُ أنّ سيّدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله، وحبيبه، وخليله، وأحد أهل العِرفان، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وشيعته، ووارثيه، وحزبه، ما ترنَّحتْ أعطاف البان، وتمايلتْ عرائسُ غرائس[2] الرّياض في كل أوان، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فهذا أنموذج لطيف، ومجموع ظريف، أذكرُ فيه الدولة الشّريفة العثمانيّة، وأخْذِهم للدّيار المصريّة. وقد رتّبته على مقاصد، سائلاً مِن الكريم الماجد أن يديم دولتهم إلى الأبد، بجاه الواحد الأحد، وسمّيته: [3أ] "**نُصْرَةُ أهل الإيمان بدولة آل عثمان**"، فاقْرأْ وبالله المُستعان.

المقصد الأول: في ابتداء دولتهم المُنيفة وأوّل من تسلطن منهم وهو مولانا السلطان عثمان غازي، رحمه الله تعالى. المقصد الثاني: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان أُورخان بن السلطان عثمان. المقصد الثالث: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد بن مولانا السلطان أُورخان. المقصد الرابع: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان بايزيد بن مولانا السلطان مراد. المقصد الخامس: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان محمد بن مولانا السلطان بايزيد.

---

[1] جاء في المِنح الرحمانية، ص121 [بفضيلة الإيمان].

[2] جاءت في الأصل [عرايس غرايس]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهكذا قمتُ بتصحيح كلّ الكلمات التي أُبْدِلَتْ الهمزة فيها بياء. وهذه من الأخطاء التي كانت شائعة في عصر المؤلف البكري الصدّيقي.

المقصد السادس: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد بن مولانا السلطان محمد. المقصد السابع: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان محمد فاتح - القسطنطينية- بن مولانا السلطان مُراد. المقصد الثامن: في ذكر سلطنة مولانا السلطان بايزيد بن مولانا السلطان محمد. المقصد التاسع: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان سليم الأول- فاتح مصر- بن مولانا السلطان بايزيد. المقصد العاشر: في ذِكر سلطنة مولانا السليمان بن [4ب] مولانا السلطان سليم. المقصد الحادي عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان سليم بن مولانا السلطان سليمان. المقصد الثاني عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد بن مولانا السلطان سليم. المقصد الثالث عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان محمد بن مولانا السلطان مُراد المقصد الرابع عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان أحمد بن مولانا السلطان محمد. المقصد الخامس عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مصطفى بن مولانا السلطان محمد، أخي المرحوم السلطان أحمد، المتقدّم ذِكره المُدّة الأولى. المقصد السادس عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان عثمان بن مولانا السلطان أحمد. المقصد السابع عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مصطفى بن مولانا السلطان محمد، المرّة الثانية. المقصد الثامن عشر: في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد بن مولانا السلطان أحمد، أخي المرحوم السلطان عثمان. المقصد التاسع عشر: في ذكر سلطنة مولانا السلطان ابراهيم بن مولانا السلطان أحمد، أخي المرحوم السلطان مُراد. [5أ] فأقول وبالله القبول.

المقصد الأول

في ابتداء دولتهم المُنيفة وأوّل من تسلطن منهم وهو مولانا السلطان عثمان غازي[1]. أصله من التّركمان[2] الرّحالة من طائفة[3] التتار[4]، تولّى السلطنة في بلاد الروم[5] في سنة ست[6] وتسعين وستمائة. وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، ويتصل نسبه الشّريف إلى يافت من أولاد سيّدنا نوح عليه الصلاة والسلام. وكان سليمان شاه هذا سلطانًا مُتمكّنًا في بلاد المشرق من بلاد ماهان[7] بغرب بلخ[8]. ولمّا ظهر جنكزخان[9] أخرب بلاد بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه[10]، وتفرّقت أهل تلك الممالك. فخرج سليمان شاه من بلاد ماهان بخمسين ألف بيت من التّركمان إلى أرض الروم، ومرّ بِحَلَب وعبر من نهر

[1] عثمان بن سليمان شاه التركماني المعروف بعثمان الأول. يرجع نسبه إلى التركمان النزّالة الرّحالة من طائفة التتار. راجع ترجمته في: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص237؛ القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص296-297؛ النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص250.

[2] وتعني القبائل التركية مثل: القارلوق والأوغوز. كما تعني الرعاة الرّحل الذين أجبرهم السلاجقة على الرحيل إلى إيران وأذربيجان والأناضول في القرن الحادي عشر للميلاد. وقد ظهرت الكلمة منذ القرن العاشر للميلاد. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص8؛ ابن خلدون، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، ج5، ص2-3.

[3] جاءت في الأصل [طايفة]، والصواب ما ثبت أعلاه. وكذا قُمْتُ بتصحيحها في كُلّ النّص.

[4] اسم قبيلة مغولية، اصبح يُطلق على جميع القبائل المغولية والتركية منذ القرن الثالث عشر للميلاد. راجع:
- الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص8-9؛ وكذلك: G. L. E. vol. X,P. 184,art. "Tatars"

[5] وهي آسيا الصُغرى أو تركيا اليوم. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص8.

[6] جاءت في الأصل [ستة]، والصواب ما ثبت أعلاه. 696هـ/ 1295م.

[7] وهي مدينة بكرمان. وكرمان تقع جنوبي بلاد فارس. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص48-50.

[8] وهي مدينة تقع شمالي خراسان، وهي اليوم من مدن أفغانستان الشمالية. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص479-480.

[9] أي الملك القوي جدًا. وهو زعيم المغول الكبير تيموجين (1162-1227م). راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص117-121.

[10] هو ابن تكش أمير خوارزم، توفي عام 1220م. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص76.

الفُرات، فغرق بفرسه في الفُرات وأُخْرِج منه، ودُفن أمام قلعة جور[1]. وتفرّق مَن معه من التّركمان في أطراف تلك البلاد، وذراريهم موجودون رحّالون نزّالون إلى الآن. وكان لسليمان شاه أربعة أولاد، فتوجّه منهم اثنان إلى بلاد العجم[2] وهما سُـنْقُر، ودُنـْدار[3] وتوجّـه إلى بلاد الروم اثنان وهما: أرطغرل وكون دغدي[4] [6ب] فقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي[5] وكـان سـلطان قـونيـة[6] وبلاد قرمان[7]. فأكرم أرطـغـرل وكون دغـدي، وأذِنَ لـهـما في الإقامة بأرضـه، فاسـتأذناه في الـجهـاد للكُفـّار. واجتمـع عليهما طائفة من التّركمان من الغُزاة[8]. وكان مقرّهما قرا حصار[9] وبلجك[10] مع مواصلة الغزو والجهاد إلى أن

[1] وردت في المنح "حور". يقول القرماني أن اسم القلعة هو "جعبر" بدل "خور" أو "خور". راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص13، والقرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص296.

[2] أي بلاد فارس أو إيران اليوم.

[3] جاءت في الأصل [دبيدار]، والصواب ما ثبت أعلاه. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص13-14.

[4] جاءت في الأصل [كوزدغدي]، والصواب ما ثبت أعلاه، ويعني الاسم بالعربية: ولد النهار. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص14، القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص296.

[5] هو علاء الدين قيقباد الأول (1220-1237م)، وهو سلطان دولة سلاجقة الروم. يقول القرماني أنّ وفاته كانت عام1289م. راجع: القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص294-299، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص14.

[6] تقع في مركز آسيا الصُّغرى، والممتدّة حتى الحدود الشاميّة. هذه المنطقة كلها تُعرَف ببلاد "قرمان". راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص14،ص28 وكذلك: Historical Atlas of the Muslim People. Djambatan-Amsterdam. p. 30

[7] هي المنطقة الواقعة وسط آسيا الصغرى، والممتدّة جنوبًا على الحدود الشّامية، وعاصمتها قونية. راجع: الصباغ، المنح الرحمانية، ص14

[8] أي "المجاهدون". ومفردها "غازي"، وتعني المسلم المجاهد.

[9] ومعناه "البُرج الأسود". جاءت في الأصل [قاراحصار]، والصّواب ما ثبت أعلاه. والمقصود به هنا هو "قراجه حصار" أو قراجه شهر" الموجود اليوم بالقرب من "إينونو". وعامة، هذا الاسم منتشر في المناطق الجبلية في آسيا الصُّغرى. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص15.

[10] مدينة صغيرة تقع على نهر قرّه صو رافد نهر سقاريا في الشمال الغربي من آسيا الصُّغرى. راجع: المرجع السابق.

توفي[1] أرطغرل إلى رحمة الله تعالى. وتفرّسَ[2] ولده مولانا السلطان عثمان هذا في الغُزاة والجهاد واستمرّ بعد والده في أشدّ الجهاد وقمع الكُفّار. وصار سلطانًا في سنة تسع وتسعين وستمائة[3] وتوفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة[4]، عن ستة[5] وستين عامًا من عمره. وكانت مدّة سلطنته ستًا وعشرين سنة. وقد بات مولانا السلطان عثمان ليلة في مدرسة أده بالي[6] للمسلك الصوفي، فرأى في المنام أنّ قمرًا خرج من حضن أده بالي، ودخل في حضنه، وعند ذلك نبتت[7] من[8] سريره شجرة عظيمة، سَدّت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار، والناس ينتفعون بتلك الأنهار لأنفسهم، ولدوابهم، وبساتينهم. فقصّ هذه الرؤيا على الشيخ، فقال له: لك البُشرى، إنك نِلْتَ مرتبة السلطنة، وينتفع بك وبأولادك المسلمون، وإني زَوّجْتُكَ ابنتي هذه. فوُلِد للسلطان عثمان غازي منها [7أ] الأولاد، وكان الشيخ بلغ من السّن مائة وعشرين سنة، ومات في سنة ست وعشرين وسبعمائة[9]، وماتت بعد شهر ابنته[10]، وهي زوجة السلطان عثمان، وأم ولده

[1] توفي عام 689هـ/ 1290م

[2] أي أظهر فروسيّته وشجاعته.

[3] جاء في الأصل [تسع وستين وستمائة]، والصواب ما ثبت أعلاه (699هـ/ 1299م).

[4] 725هـ/ 1325م.

[5] جاءت في الأصل "ست". والصواب لغويًا ما ثبت أعلاه.

[6] هو المولى أده بالي، من مواليد قرمان. رحل إلى الشام وتتلمذ على يد مشايخها حيث قرأ التفسير والحديث والأصول، ثم عاد إلى مسقط رأسه. توفي عام 726هـ/ 1325م. راجع: طاشكبري زاده، الشّقائق النغمانية، ص6-7، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص16.

[7] جاءت في الأصل "نبت". والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[8] جاءت في الأصل [عن]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[9] 726هـ/ 1326م.

[10] وهي "مال خاتون"، ومعناه " كنز المرأة". راجع: والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص16.

السلطان أورخان الآتي ذكره. ولمّا رأى السلطان علاء الدين السلجوقي[1] منه النجابة وفتْحَهُ لأطراف تلك البلاد، ورأى ما هو عليه من القابلية، فأمدّه بأنواع المواهب السنيّة، وأرسل إليه الراية السلطانية، والطَّبْل والزَّمر، ولقّبه بالسلطان[2] تقوية لقلبه على أهل الطغيان. ولمّا وصل الطَّبل والزَّمر إليه قام له قائمًا[3] على قدميه، وصارت هذه قانونًا إلى الآن. وافتتح قرا حصار ثمّ كوبري[4] ثمّ قلعة بلجك، يكي شهر[5]، وغير ذلك من الحصارات العالية المُنيفة. ثمّ زوّج ولده السلطان أورخان على نوفرخاتون بنت مكوز[6] صاحب يار حصار[7]، فعمل أبوها سِماطًا[8] عظيمًا، فلمّا حضره الغُزاة انتهزوا الفرصة وقتلوا مكوز[9] وافتتحوا يارحصار، فدخله مولانا السلطان عثمان غازي، وصار من جملة مملكته. وزاد في الجهاد، وبادر إلى طاعة ربّ العباد، فعاش كريمًا، ومات رحيمًا، رحمه الله تعالى على الدوام، وأبقى المُلك في ذُريّته إلى يوم القيام، بجاه خير الأنام علية الصلاة والسلام.

[1] هو علاء الدين قيقباد الثالث فرامُرز بن كيكاوس، آخر سلاطنة السلاجقة الروم. راجع: E. I. 1. vol. II,p. 681. art. "Kaykubad". والصبّاغ، المصدر السابق.

[2] وهي كلمة عربية تعني "الحُجّة". وقيل أنها مُشتقّة من"السليط"، وهو ما يُضاء به. وقد سُمّي الملك بهذ الاسم لأنّ الحُجّة تُقامُ به. راجع: المنجد، مادّة "سلط".

[3] جاءت في الأصل [قايما]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل [كويري] وبدون كلمة "حصار" بعدها. والصواب ما ثبت أعلاه. والمعنى الكامل هو "حصن الجسر" أي "كوبري حصار"، والذي يقع قرب "يني شهر" في مقاطعة خدواندكار. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص17.

[5] وتقع إلى الشمال الشرقي من بوصة جنوبي إزنيق وقرب بلجك.

[6] جاءت في الأصل [مكور]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاءت في الأصل [بال حصار]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهي تقع بالقرب من بورصة.

[8] المائدة الكبيرة والفاخرة، والجمع: اسمطَة. راجع: الخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص257.

[9] جاءت في الأصل [مكور]، والصواب ما ثبت أعلاه.

المقصد الثاني

[8ب] في ذِكر سلطنة مولانا السلطان أورخان[1] بن مولانا السلطان عثمان. جلس على تخت المُلك بعد وفاة والده، في سنة ست وعشرين وسبعمائة[2]، ومولده سنة ثمان وسبعين وستمائة[3]، وكانت مُدّة سلطنته خمسًا وثلاثين سنة. وهو الذي افتتح مدينة بورسا[4]، وجعلها مقر سلطنته، وفتح قلاعًا كثيرة، وله غزوات شهيرة، قد فاق والده في الجهاد. وكان فتحه لبورسا في أيام والده. واتسعتْ مملكته ونفذتْ كلمته، واجتمعتْ سائر ملوك النصارى على قتال عساكر المسلمين ودفعهم عن بلادهم، فاتفق ملك قرال[5] وأنكروس[6]، وسلطان لان[7]، وغيرهم، وأجمعوا أن يُعَدّوا[8] من بلاد رميلي[9] إلى جهة أناظولي[10] ويقاتلوا مولانا السلطان أورخان في محلّه. وكان له ولد يُسمّى سليمان بيك، استأذن والده أن يُعدّي إلى رميلي، ويقاتل الكفار، الذين اجتمعوا على قتاله، قبل أن يصلوا إلى أناظولي فأجازه والده حين رأى نجابته. فتوجّه مع خدمه فسمع به الغُزاة،

---

[1] راجع ترجمته في: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج3، 126-132، والنهروالي، الإعلام، ص252-253.

[2] 726هـ/ 1326م.

[3] 678هـ/ 1279م.

[4] وتُسمى أيضًا: بورسة وبروسا. وهي مدينة مشهورة في تركيا، تقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى.

[5] كلمة سلافونية تعني "الملك". وقد أطلق الأتراك هذا اللقب على ملوك أوروبا. راجع: G. L. E,vol. VI,p. 508

[6] كلمة سلافونية تعني " الهنغار" عند الأتراك.

[7] ولعّل المقصود بها ملك الصّرب. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص20.

[8] جاءت في الأصل [يتعدّوا]، والصواب ما ثبت اعلاه. ويُقصَد بها الأرض الأوروبية. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص20.

[9] تُكتب: رميلي أو روميلي أو روم إيلي. ويُقصَد بها الأرض الأوروبية. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص20.

[10] أو "أناطولي". وهي بلاد الأناضول أي آسيا الصّغرى.

فتبعه كل فارس شديد، فعدّوا إلى رميلي، فصادفوا الكُفّار في غفلة، وهم يريدون العبور إلى جهة أناظولي، فوقع بين الفريقين حرب عظيم، قُتل فيه من طائفة[1] الكُفّار جمّ غفير، وانهزم الباقون إلى القلاع والحصون، بعد [9أ] أن تبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون، ونصر الله المسلمين وخذل الكفَرَة أعداء الدين، ورجع سليمان بيك مؤيّدًا منصورًا.

[1] جاءت في الأصل [طايفة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

المقصد الثالث

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد بن مولانا السلطان أورخان[1]. جلس على تخت الملك في سنة إحدى وستين وسبعمائة[2]. وكان عمره أربعًا وثلاثين سنة وتُوفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة[3] عن خمس وستين سنة من عمره، وكانت مُدّة سلطنته إحدى وثلاثين سنة. وافتتح قِلاعًا كثيرة، وهو أول من اتخذ المماليك وسماهم الينجرية[4]، يعني "العسكر الجديد"، وألبسهم اللباد الأبيض المثني إلى خلف. وكانت له صولة عظيمة على الكفار، واجتمعت النصارى على مُلكهم، فقاتلهم السلطان مُراد قتالاً عظيمًا، فقتل سلطان الكُفّار، وانهزموا، فأظهر واحد من ملوكهم[5] الطاعة، فتقدّم ليقبّل يد السلطان. فلمّا قرب منه، أخرج خنجرًا كان أعدّه في كُمّه، فضرب به مولانا السلطان مُراد، فاستشهد إلى رحمة الله تعالى. ومن محاسن مولانا السلطان المُشار إليه، أنه كان لا يأكل إلاّ من كسْب يده، من غير أن يتعرّض لشيء من بيت المال. ومن مشايخ زمانه الشيخ العارف بالله [10ب] تعالى الشيخ بكتاش[6]، شيخ طائفة الينجرية. كان من جملة أصحاب الكرامات، وأرباب الولايات. وقبره[7] مشهور ببلاد التّركمان، وعلى قبره قُبّة، وعنده زاوية تُزار ويُتبرّك بها، ويُستجاب عنده الدعاء. وقد انتسب إليه في زماننا هذا بعض الملاحدة نسبة كاذبة، وهو بريء منهم بلا شك. قدّس الله روحه ونوّر ضريحه.

---

[1] راجع ترجمته في: النهروالي، الإعلام، ص253-254، القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص299.

[2] 761هـ/ 1359م.

[3] جاء في الأصل [اثنتين وسبعين وسبعمائة]، والصواب ما ثبت أعلاه (792هـ/ 1389م).

[4] أو "ينجشرية" أو "الانكشارية". راجع: الصبّاغ، "الجديد في العسكر الجديد". مجلّة "الفكر السياسي"، دمشق، العدد 3، ص188-206، والعدد4، ص83-84، 1976.

[5] هو أحد نُبلاء الصّرب، وليس ملكًا. اسمه ميلوش أو يلواش كابيلوفيتش. راجع: Creasy,p. 31.

[6] وتُنسب إليه الفرقة الصوفية البكتاشية. راجع: E. I. 2,vol. I,p. 1196-1199، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص23.

[7] يقع قبره بين "قره شهر" و"قيصرية". راجع: المصدر السابق.

المقصد الرابع

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان بايزيد[1] بن مولانا السلطان مُراد. جلس على تخت المُلك في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة[2]. وكانت مُدّة سلطنته ثلاث عشرة سنة[3]. واستولى على كثير من بلاد النصارى، وقلاعهم، وأراضيهم، وصارت النصارى تلجأ إلى ملوك الطوائف في بلاد الروم، فلزم أن يستولي مولانا السلطان بايزيد على ملوك الطوائف، وضيّق على جماعة منهم مثل ابن كرميان[4]، أخذه وحبسه مع أحد وزرائه، ففرّ مع وزيره من الحَبس، ومضى إلى تيمورلنك[5]. وهرب أيضًا ابن منتشي[6] وحلق لحيته وحواجبه. وكذلك ابن أبي الدين[7] هرب في صورة سقطي[8]، وكذلك ابن أسفنديار[9]، وغيرهم مِن أمراء تلك الديار، وملوكه، ووصلوا[10] إلى تيمورلنك وشَكَوا من مولانا السلطان بايزيد. وحسّنوا له المجيء إلى بلاد [11أ] الروم، فوصل إلى البلاد الشاميّة والحلبيّة وقتل فيها وسفك الماء، وأخذ تلك

[1] راجع ترجمته في: النهروالي، الإعلام، ص254-255، القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص300-303.

[2] 792هـ/ 1389م.

[3] جاءت في الأصل [ثمان وعشرين سنة]، وهذا خطأ. لأن مُدّة حكمه استمرت ثلاثة عشر عامًا فقط. راجع: النهروالي، الإعلام، ص254، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص25.

[4] أو "ابن كرمان". كما جاء في المنح الرحمانية، ص25-26.

[5] هو ملك ما وراء النّهر (771-808هـ/ 1370-1405م). راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، مادّة تيمورلنك، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص26.

[6] في المنح الرحمانية جاءت "والي منتسي". وهي إحدى إمارات الغزو تُطلّ على البحر المتوسط. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص26.

[7] وهو أمير إمارة "أيدين" الواقعة غربي آسيا الصّغرى. راجع: المرجع السابق.

[8] أي بائع السِّقط. وهو المتاع الرّديء. راجع: المُنجد، مادّة "سقط".

[9] هو أمير "قسطموني"، وهي إمارة تقع في الشمال من آسيا الصّغرى. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، مُجلّد 2، ص121-124.

[10] جاءت في الأصل [وصلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص26.

البلاد وأسر أهلها. ولو بسَطْنا ما فعله في تلك البلاد لطال جدًا، وقد شرحه ابن عرب شاه[1] في مولّف له في هذا المعنى، فليُراجع. فوصل تيمورلنك إلى أذربيجان، وخرج السلطان بايزيد إلى قتاله، وجمع عسكر الروم. ولمّا التقى الجمعان بقرب أنكورية[2]، هرب من عسكره طائفة التتار، وعسكرمنتشى، وعسكر كرميان، وتركوا مولانا السلطان بايزيد وحده وانضافوا[3] إلى تيمورلنك. ووقعت بينهم الحرب الشديدة[4]، وقُتل من أولاد مولانا السلطان بايزيد، مولانا السلطان مصطفى. وشرع عسكره في الانهزام، وثبت هو قليلاً بمن معه يقاتل إلى أن وصل إلى تيمورلنك. وقد عجزوا عنه لشجاعته، وقوّته، فرموا عليه بساطًا وأمسكوه وحبسوه، فحصل له حُمّى[5] غضبيّة، فتوفّي إلى رحمة الله تعالى. وكان قاضيه، المولى شمس الدين الفناري[6]. يُروى أنّ السلطان المذكور شهد عنده يومًا في قضيّة فردّ شهادته، فسأل عن سبب ردّه، فقال إنك تارك للجماعة. فبنى السلطان أمام قصره جامعًا، وعيّن لنفسه موضعًا ولم يترك الجماعة بعد ذلك. ثمّ أنه وقع بينهما خلاف، فترك المولى الفناري مناصبه، ورحل إلى قرمان فعيّن له صاحب قرمان كل يوم

[1] وتُكتب أيضًا "عربشاه". كما جاء في المنح الرحمانية ص27. وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (791-845هـ/ 1389-1450م)، وُلد ونشأ بدمشق. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، 280-284، الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص27.

[2] جاءت في المنح الرحمانية "بكوزية". وقد تكون "أنكورية" أنقرة لأنّ المعركة وقعت قُربها. الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص27.

[3] أي انضمّوا إليه. وفي المنح الرحمانية "هربوا". الصبّاغ، المصدر السابق.

[4] جاءت في الأصل [ووقع بينهم الحرب الشديد]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] جاءت في الأصل [حميّة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] هو محمد بن حمزة بن محمد الفناري الرومي (751-834 هـ/ 1350-1431م). راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص209.

ألف درهم، ولطلبته كل يوم خمسمائة [12ب] درهم، وقرأ عليه هناك المولى[1] يعقوب الأصفر[2] والمولى يعقوب الأسود[3]. فكان المولى الفناري يفتخر بذلك ويقول يعقوبان قَرَآ عليّ. ثمّ إنّ السلطان المذكور ندم على ما فعل في حق المولى الفناري، فأرسل إلى صاحب قرمان يسأل عن[4] المولى المذكور، فأجاب سؤاله، وأعاده إلى ما كان عليه من المناصب. وتسلطن بعد موت مولانا السلطان بايزيد من أولاده خمسة وهم: مولانا السلطان عيسى، ومولانا السلطان موسى، ومولانا السلطان سليمان، ومولانا السلطان قاسم، ومولانا السلطان محمد. وصار بينهم النّزاع نحو اثنتي عشرة[5] سنة إلى أن استقلّ بالمُلك مولانا السلطان محمد رحمه الله تعالى.

[1] وهي كلمة عربية تعني "السيّد" أو "العلِم". وتعني عند العثمانيين "القاضي الكبير"، لأنها كانت تُطلَق على الفقهاء والقضاة. راجع: Gibb & Bowen, op. cit, part2, p. 86، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص28.

[2] هو يعقوب القرماني، عالمًا في الأصول والتفسير، لم يُعرف تاريخ وفاته. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص39.

[3] هو يعقوب بن إدريس بن عبد الله القرماني الكِندي اللارندي من مواليد كِندة (789-833هـ/ 1387-1429م). راجع: حاجي خليفة، كشف الظّنون، ج1، ص103

[4] جاءت في الأصل [في]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[5] جاءت في الأصل [اثني عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

المقصد الخامس

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان محمد[1] بن مولانا السلطان بايزيد. جلس على تخت المُلك استقلالاً في سنة عشرين وثمانمائة[2]، وكان عمره إذ ذاك تسعًا وثلاثين سنة، وتُوفي في سنة ثمان وعشرين وثمانمائة[3]، وكانت مُدّة سلطنته تسع سنين. وكان شُجاعًا مِقدامًا، وافتتح قلاعًا كثيرة، منها قلعة قسطمونه[4]، وقلعة أسْ كُبْ[5] وقلعة سامون[6] وغير ذلك من القلاع المُنيفة. وظهرفي أيّامه بدر الدين بن سماونة[7] وادّعى السلطنة. وجمع جمعًا عظيمًا من مُريديه. فحين [13أ] بلغ مولانا السلطان محمد ذلك، أرسل عسكرًا لقتاله، فقتل من مُريديه نحو ثلاثة آلاف نفس، ومسك بدر الدين المذكور، وكان يرمى بسوء الاعتقاد، وله رسائل يشير فيها إلى غير ذلك. فصلبه مولانا السلطان محمد وسكنَت الفِتنة. ثمّ خرج عليه محمد بن قرمان[8] وأحرق بورسا. فلمّا بلغ مولانا السلطان محمد ذلك، جاء من بلاد رميلي، ووصل إلى قونية، ووقع بينه وبين ابن قرمان حرب شديد. وكانت الهزيمة على محمد بن قرمان، ومُسِكَ هو وولده مصطفى، وأُحضِر إلى مولانا السلطان محمد، فعاتبهما وعفى عنهما وأعطاهما مملكتهما. فانْظُرْ إلى هذه الخِصال الحميدة، والإرادة

[1] راجع ترجمته في: النّهروالي، الإعلام، ص255-256، والقرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص303-304.

[2] 820هـ/ 1417م.

[3] 828هـ/ 1424م.

[4] هي مدينة تقع في شمال آسيا الصّغرى. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص30.

[5] جاءت في الأصل [آس كير]، والصواب هو ما ثبت أعلاه، وهو الذي ذُكر في المصادر. وهي مدينة تقع على نهر الفاردار في شبه جزيرة البلقان. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج2، ص142-146، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص30.

[6] هي مدينة تقع في شمال آسيا الصّغرى وتُعرف باسم "سامسون". راجع: والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص31.

[7] جاءت في الأصل [سماوية]، والصواب ما ثبت أعلاه. هو بدر الدين بن قاضي سماونة وُلِد عام 760هـ/ 1358م في مدينة سماونة الواقعة قُرب أدرنة. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص33.

[8] هو أمير قرمانيا. راجع: القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص302-303.

السّديدة. ومولانا السلطان محمد المذكور هو أول مَن عمل الصُرّ[1] للحرميْن الشريفيْن من آل عثمان، فرَحِمَ الله تلك الروح، وأسكنها فسيح الجنان. وقد عمّر عِدّة مدارس. ولمولانا السلطان المذكور مع المولى فخر الدين العجمي[2] واقعة عجيبة، وهي أنّ البعض من أتباع فضل الله التبريزي[3]، رئيس الطائفة الحروفيّة[4] الضّالة احتال وتقرّب إلى أن خدم السلطان محمد، وأظهر له بعضًا مِن معارفه المزخرفة حتى مال إليه السلطان محمد وآواه مع أتباعه. فاغتمّ لذلك الوزير محمود باشا[5]، غاية الاغتمام، ولم يقدر[أنْ][6] يتكلم في حقه بكلمة خوفًا من السلطان. فأخبر به المولى فخر الدين [14ب] المذكور، فأراد الشيخ أن يسمع من لفظه ما قيل فيه. فاختفى في بيت محمود باشا، فدعا محمود باشا ذلك المُلحد إلى عنده، وأظهر له أنه مال إلى مذهبهم. فتكلّم المُلحد بجميع قواعدهم

[1] هو المال النّقدي الذي يُرسَل إلى الحرميْن الشّريفيْن من صدقات آل عثمان. راجع: المُحبي، خُلاصة الأثر، ج1، ص290.

[2] هو أحد علماء الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي. عيّنه السلطان مُراد الأول مُفتياً، وتُوفي في أدرنة. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص38-39.

[3] ورد اسمه في دائرة المعارف الإسلامية "فضل الله الإستراباذي". هو مؤسس فِرقة الحروفية، ويُقال أنه أُعدِم على يد ميران شاه ابن تيمورلنك عام 796هـ/ 1394م. راجع: E. I2,vol. II, p. 751-754.، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص33.

[4] هي فِرقة أنشأها فضل الله التبريزي (انظر الهامش السابق) في أواخر القرن الثامن الهجري وأدخلها الدولة العثمانية على يد أحد تلاميذه "علي الأعلى". وتعتقد هذه الفِرقة أنّ الله تمثّل في شخص الإنسان، فتجرّأت على القول بأنّ التبريزي هو الله مُجسّدًا.

راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج7، ص361-367، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص33.

[5] ويُسمى أيضًا "ولي محمود باشا"، أصله من الصّرب. شارك في فتح القسطنطينية. عُيّن صدرًا أعظم مرّتيْن، وفي الثانية عُزِل وأُعدِم عام 1474م. راجع: E. I. 1,vol. III,p. 124، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص33.

[6] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

الباطلة، حتى أدّتْ مقالته إلى القول بالحلول والاتحاد[1]. فعند ذلك لم يصبر المولى المذكور، حتى ظهر مِن مكانه وسبَّ المُلحد، بالغضب الشديد. فهرب المُلحد إلى دار السعادة[2] والمولى المذكور خلفه، فأخذ المُلحد، والسلطان ساكت عنه استحياءً من الشيخ. ثمّ أتى به إلى الجامع الجديد[3]، فأذّنَ المؤذّن، واجتمع الناس في الجامع، وصعد المولى المذكور المِنبر، وبيّن مذاهبهم الباطلة وحكم بكفرهم وزندقتهم ووجوب قتلهم، وعظّم ثواب مَن أعانَ على قتلهم. ثمّ أتى به مُصَلّى[4] المدينة مع أصحابه، وأحرق رئيسهم. وروي أنه نفخ النار بنفسه حتى احترقتْ لحيته، وكان عظيم اللحية. وجمع الناس الحطبَ وأحرقوا المُلحد، وقتلوا أصحابه بأسرهم، وأطفأوا نار الإلحاد. ويُروى أنّ المولى المذكور، لمّا مَرِضَ مَرَضَ الموتِ عادَهُ المولى علي الطّوسي[5]، فأوصى أنْ لا يُخلي ظهر العوام من عصا الشريعة، ولم يتكلّم غير ذلك. ثمّ مات ودُفِن بمدينة أدرنة[6]، أفاض الله عليه سحاب الغُفران وأسكنه دار الجِنان.

---

[1] أي حلول الله تعالى في الإنسان واتّحاده معه. راجع: ابن خلدون، المُقدّمة، ص470-474.

[2] هي مقر السلطان العثماني في أدرنه. راجع: الصبّاغ، المصدر السابق.

[3] هو الجامع الذي بناه بايزيد أمام قصره في أدرنة عام 801هـ، وقد أتمّه محمد الأوّل. وكان يُسمّى "كوبه لي جامع". أمّا اليوم فاسمه "الجامع العتيق" أو "أسكي جامع". راجع: E. I2,vol. II,p. 702، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص34.

[4] جاءت في الأصل [مصيل]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] هو علي بن محمد الطنوسي البتاركاني، تُوفي عام 877هـ/ 1473م. وهو من أهل سمرقند وأقام في الدولة العثمانية. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص146، وطاشكبري زاده، الشّقائق النعمانية، ص60-62.

[6] هي عاصمة تراقية، تقع إلى الشمال الغربي من القسطنطينية. فتحها العثمانيون عام 736هـ/ 1362م. وقد جعلها السلطان مُراد الأول عاصمة له في أوروبا قبل القسطنطينية، وظلّت هكذا حتى بعد فتح القسطنطينية. وتُعتبر المقام المختار للسلاطين العثمانيين منذ بداية القرن السابع عشر للميلاد. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المُعرّبة، مُجلد1، ص535.

المقصد السادس

[15أ] في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد[1] بن مولانا السلطان محمد. جلس على تخت المُلك في سنة ثمان وعشرين وثمانمائة[2]، وعمره ثمانية عشر سنة. وخلع نفسه من المُلك لولده مولانا السلطان محمد الآتي ذِكره، في سنة ست وخمسين وثمانمائة[3]، وكانت مُدّة سلطنته ثمان وعشرين سنة، وتوفي وهو مخلوع في سنة أربع وستين وثمانمائة[4]. وكان ملكًا جليلاً مُهابًا نبيلاً. كانت أيامه حسنة الأيام، وسلطنته عليّة المقام. جمع المحاسن البهيّة، والمآثر السّنيّة. فهو نخبة الزمان، وعين إنسان الأوان، فخمائله لا تُحَدّ، ومكارمه واسعة المدّ. وفتح قِلاعًا عديدة برأيه الثاقب، وفكره الواقد الصائب، وهي بلاد سدور[5] وقلعة بورة[6] وغيرهما. وقاتل إنكروس وأذاقهم أعظم البؤس وأسَرَ منهم خلقًا كثيرًا، وجمع منهم مالاً غزيرًا، وجعل الصُرّ للحرمَيْن الشّريفَيْن ثلاثة آلاف دينار، ولأشراف[7] مكّة مثل ذلك. واستمرّ على ذلك إلى أن كبر ولده مولانا السلطان محمد، فأجلسه على سرير المُلك وخلع نفسه كما تقدّم.

[1] راجع ترجمته في: القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص304-306، وأيضًا: Creasy,p. 59-74

[2] 828هـ/ 1424م.

[3] 856هـ/ 1452م.

[4] 864هـ/ 1459م.

[5] جاءت في المنح الرحمانية "سدوة". وقد تكون تصحيفًا ل "سروة" أو "سرفيا" أو "سمندرة". راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص36-37.

[6] قد تكون في مدينة "بور" في بلاد الصّرب الشرقية (يوغسلافيا). راجع: المرجع السابق.

[7] هم سُلالة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. راجع: ابن خلدون، المقدمة، ج4، 102، ج5، ص480، ص505، الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص37.

المقصد السابع

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان محمد[1] بن مولانا السلطان مُراد. جلس على تخت المُلك في حياة والده برضاه في سنة ست وخمسين [16ب] وثمانمائة. وكان عمره إذْ ذاك عشرين سنة. وتوفي في سبع وثمانين[2] وثمانمائة وكانت مُدّة سلطنته إحدى وثلاثين سنة، وكان من أجلّ ملوك آل عثمان، وأكثرهم جهادًا للكفرة، أهل الطغيان، وكان متوكّلاً على الله سبحانه وتعالى. وهو الذي أسّس مُلك هذه الدولة العثمانية، أيّدها الله تعالى، ورتّب قوانينها، والمَشْي عليها إلى الآن. وقد فتح مدينة قسطنطينية[3] الكبرى، وساق إليها السفن تجري بَرًّا وبحرًا، وهجم عليها بجنوده وأبطاله. وقدِم عليها بخيوله ورجاله. وحاصرها خمسين يومًا أشدّ الحصار، وضيّق على مَن فيها من الكفّار، وفتحها في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته، وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأولى[4] سنة سبع وخمسين وثمانمائة[5]. وبين فتح القسطنطينية وفتح مصر على يد مولانا السلطان سليم رحمه الله تعالى، مائة سنة وستون سنة، وصلّى في أكبر كنائس النّصارى صلاة الجمعة، وهي أياصوفية[6].

---

[1] راجع ترجمته في: النهروالي، الإعلام، 256-258.

[2] جاءت في الأصل [ثمان وثمانمائة]، (887هـ/ 1482م)، وهذا خطأ. والصواب ما ثبت أعلاه، لأن مَدّة حكمه كانت (855-886هـ/ 1451-1481م). راجع: القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص306، ص311.

[3] وهي مدينة اصطنبول عاصمة الدولة العثمانية سابقًا(857-1342هـ/ 1453-1923م)، ومن قبلها الدولة البيزنطية. تقع على الأرض الأوروبية من مضيق البوسفور. عُرِفَتْ بهذا الاسم منذ القرن العاشر للميلاد. راجع: E. I. 2. vol. IV, p. 233-259، الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص38، ص46-47.

[4] جاءت في الأصل [الثامن والعشرين من جمادى الآخرة]، وهذا خطأ. والصواب ما ثبت أعلاه (20جمادى الآخرة857هـ/ 29 أيار1453م).

[5] 875هـ/ 1453م.

[6] أسّسها كونستانس الثاني عام 360م. وتُعتبَر أول كنيسة كبيرة للمسيحية الشرقية. حوّلها محمد الفاتح إلى جامع في عهده. راجع: E. I. 2,vol. I, p. 787-800.

وهي قبّة تُسامي[1] قباب السماء، وتحاكي في الاستحكام قُبّة الأهرام، لا وَهتْ ولا وَهنَتْ، كأنّ أبراجها أبراج الأفلاك، ومسامير أبوابها كأنها[2] النجوم السّماك. وقد ولّى مولانا السلطان محمد قضاء القسطنطينية لمولانا خضر بيك[3] بن المولى جلال الدين. وهو أول قاض تولّى بها [17أ] وتُوفي وهو متولّ لقضائها في سنة ثلاث وستين وثمانمائة[4]. ودُفِن بها جوار حضرة سيّدي [أبي][5] أيوب الأنصاري رضي الله عنه. وكان رحمه الله ماهرًا في النّظم بالعربيّة والفارسيّة والتُركيّة. ونظَم في العقائد[6] قصيدة نونيّة أبدع في نظْمها وأتقن في مسائلها وقد شرحها المولى الفاضل الخيالي[7] شرحًا لطيفًا. وله نظْمٌ آخر من نوع المُستزاد لا بأْسَ بذِكره هُنا فَمِنْهُ قولهُ:

يا[مَنْ][8] مَلكَ الأنُسَ بِلُطْفِ المَلَكاتِ في حُسْنِ صفاتِ
حَرَّكْتَ جُنوني بفنونِ الحَرَكاتِ يا جُلّة ذاتي
العارضُ والخالُ وأصداغُك حَفّتْ أطْرافَ مُحيّاكْ
والجَنّةُ كيف أضْحَتْ بالشّهواتِ مِنْ كُلِّ جِهاتِ

[1] جاءت في الأصل [تسامت]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[2] جاءت في الأصل [كأنهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] فقيه وعالم في العلوم العقلية والنقلية. عيّنة محمد الفاتح مُدرّسًا وقاضيًا. تُوفي عام 863هـ/ 1458-1459م). راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص55-58.

[4] 863هـ/ 1459م.

[5] ساقطة في الأصل. والصواب ما ثبت أعلاه. وهو خالد بن زيد من بني النجار، صحابي معروف، شهد بدرًا وأُحُدًا. شارك في حملة يزيد على القسطنطينية حيث توفي على أبوابها ودُفِن هناك عام52هـ/ 672م. راجع: ابن سعد، الطّبفات الكُبرى، ج3، ص49.

[6] جاءت في الأصل [العقايد]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاءت في الأصل [الجناني]، والصواب ما ثبت أعلاه. فهو شمس الدين أحمد بن موسى الشهير "بالخيالي". توفي عام 862هـ/ 1458م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص85-87.

[8] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص40.

إذْ ضاقتْ[1] على الوَسْعِ عِباراتُ لِسانِ لا عَبرةَ فيها
في القَلْبِ نِكاتٌ كُتِبَتْ بالعَبَراتِ نحكي نَكَباتِ
قَدْ سال على بابك أنهارُ دُموعي لَيْلاً ونَهارًا
فالرَّحْمُ على السائلِ أُولِي الحَسَناتِ يوم العَرَضاتِ[2]
كَرّرْ عِدّةَ الوَصْلِ وصِلْها بخلافٍ فالوَعْدُ كفانِي
والصَّبُّ يَرى لذّته في الفَلَواتِ مِنْ ذِكْرِ فَواتِ[3]
لَو مرَّ على تُرْبِي مِنْ جِسْمِكَ ظِلٌّ يا مؤنسَ روحي
[18ب] حيّاكَ مِنَ القَبْرِ عِظامِي ورُفاتي مِنْ بَعْدِ وفاتِي
في حَظّي إذا[4] نُقِّلَ مَنْ فيهِ مثالٌ تَحْكِيكَ بِلُطفِ
مَن شارَبَهُ الخُضْرُ رَوى[5] في الظُّلُماتِ عَنْ عَيْنِ حَياتِي

وكان مولانا السلطان محمد المذكور أميرًا في حياة والده ببلدة مغنيسا[6]. وقد أرسل لهُ والده عدة من المعلمين، فلم يمتثل من أمرهم شيئًا ولم يقرأ على أحد منهم. فطلب السلطان المذكور رجلاً له مَهابة، فذكروا له المولى الكوراني[7] فجعله مُعلِّمًا لولده. وأعطاه

[1] جاءت في المنح الرحمانية، ص41، "إنْ ضاق".

[2] جاء في الأصل [فالرَّحْمَةُ على السائلِ وَلِيَ الحَسَناتِ يومَ العَرَصَاتِ]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى والوزن.

[3] جاء في الأصل [والصّبْرُ يُري لذّةً في الفَلَواتِ مِنْ ذِكْرِ فَواتِ]، والصواب ما ثبت أعلاه. راجع: الصبّاغ، المصدر السابق.

[4] جاءت في الأصل [في خِلّي ذا]، والصواب ما ثبت أعلاه لصحّة المعنى والوزن. راجع الصبّاغ، المصدر السابق.

[5] جاءت في الأصل [الخضْروي]، والصواب ما ثبت أعلاه لصحّة المعنى والوزن. راجع الصبّاغ، المصدر السابق.

[6] وتُسمّى أيضًا "مغنيا" أو "مغنيسيا". وهي مدينة تقع إلى الغرب من آسيا الصّغرى. وتُعرف اليوم باسم "مانيسا". راجع: E. I. 2,vol. V,p. 1159-1160، الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص42.

[7] هو أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني شهاب الدين، من أهل شهرزور. اشتهر بعلم التفسير وتوفي عام 893هـ/ 1488م. راجع: الزركلي، الأعلام، ج1، ص94.

بيده قضيبًا لِيَضْرِبَهُ بِهِ إذا خالف أمره. فذهب المولى الكوراني إليه ودخل عليه، والقضيب بيده. فقال: أرْسَلَني والدُك للتعليم، والضَّرْب إذا خالفتَ أمري. فضحك السلطان محمد من هذا الكلام. فضَرَبَهُ المولى الكوراني في ذلك المجلس ضَرْبًا شديدًا حتى خاف من السلطان محمد، وختم القرآن في مُدّة يسيرة، ففَرِحَ بذلك مولانا السلطان مُراد، وأرسل إلى المولى الكوراني أموالاً كثيرة، وهدايا عظيمة. ثمّ إنَّ مولانا السلطان محمد لمّا جلس على سرير المُلك بعد وفاة والده المرحوم، عرض على المولى المذكور الوزارة فلم يقبلها. وقال: إنَّ مَن ببابك من الخُدّام والعبيد، إنّما يخدمونك لأنْ ينال أحد منهم الوزارة، وإذا كان الوزير[1] من [19أ] غيرهم تنحرف قلوبهم عنك، فيختّل أمر سلطنتك فاستحسنه مولانا السلطان محمد، وعرض عليه قضاء العساكر[2] فقبله. ولمّا باشر أمر القضاء أعطى التداريس[3] والقضاء لأهْلِها من غير عرض على السلطان. فأنكر السلطان عليه هذا الأمر، ولكن استحى منه أن يظهره له. فتشاور مع الوزراء، فأشاروا عليه أن يقول له سمعتُ أنَّ أوقاف جدّي بمدينة بورسا قد اختّلت فلا بُدَّ مِن تداركها. فقال له مولانا السلطان هذا الكلام. فقال المولى المذكور: إنْ أمَرْتَني بذلك أصلحتها. فقال السلطان: هذا يقتضي زمانًا. فتَقلّدَ قضاء بورسا مع تولية الأوقاف فَقَبِل المولى ذلك، وذهب إلى مدينة بورسا. وبعد مُدَّة أرْسَلَ السلطان إليه أحد خُدّامه وبيده مرسوم السلطان، وختَمَهُ بأمر يخالف الشّرع، فحرق الكتاب، وضرب الخادم. فاشْمَأزَّ السلطان من ذلك وعزله، ووقع بينهما مناقرة[4]. فارْتَحَلَ المولى المذكور إلى مصر، وسلطانها يوميذ

[1] هو مساعد السلطان. وهو لقب ورُتبة يمنحها السلطان لمعاونيه والمقرّبين منه. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص43.

[2] هو منصب ديني إداري أنشأه السلطان مُراد. ويكون عادة رئيس القُضاة في الدولة. وسُمّي بهذا الاسم لأن صاحبه كان يرافق السلطان والجيش عند خروجهم إلى الحروب. راجع: Creasy. op. cit. 96.

[3] أي وظائف التدريس.

[4] أي جَدَل وخصومة.

قايتباي[1]، فأكرمَهُ غاية الإكرام، ونال منه القبول التّام، وعاش عنده زمانًا بعزّة عظيمة، وحِشمة وافرة، وجلالة تامّة. ثمّ إنَّ مولانا السلطان محمد خان نَدِمَ على ما فعل، فأرسلَ إلى السلطان قايتباي يلتمِسُ منه أنْ يرسل له المولى المذكور. فحكى السلطان قايتباي كتاب السلطان محمد [20ب] للمولى المذكور، ثمّ قال له: لا تذهبْ إليه فإنّي أُكْرِمُك فوق ما يُكْرِمُك هو. فقال المولى: هو كذلك إلاّ أنَّ بيني وبينه مَحبة عظيمة كما بين الوالد والولد، وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر. وهو يعرف ذلك مِنّي، ويعرف أنّي أميل إليه بالطّبع. فإذا لم أذهبْ إليه يفهم أنَّ المَنْعَ من جانبك، فتقع[2] بينكما العداوة. فاسْتَحْسَنَ السلطان قايتباي هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً، وهيّأ له ما يحتاج إليه من آلات السّفر، وبعث معه هدايا عظيمة إلى السلطان محمد. ولمّا وصل إلى القسطنطينية، أعطاه السلطان محمد قضاء بورسا ثانيًا. ووقع ذلك في سنة اثنتين وستين وثمانمائة[3]. ودام على ذلك مُدّة. ثمّ قَلّدَهُ منصب الفتوى، وعيّن له في كل يوم مائتي درهم، وفي كل شهر عشرين ألف درهم. وفي كل سنة ستين ألف درهم، سِوى ما يبعث إليه من الهدايا، والتُّحَف، والعبيد، والجواري. وعاش في كَنَف حِمايته مع نِعمة جزيلة، وَعَيْشٍ رغيد. وصنّف هناك تفسير القرآن العظيم، وسماه **"غاية الأماني في تفسير السّبع المثاني"**[4]،

[1] هو المَلِك الأشرف قايتباي، أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة. توفي عام 901هـ/ 1496م. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص6.

[2] جاءت في الأصل [فيقع]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[3] 862هـ/ 1458م.

[4] السّبع المثاني هي سورة الفاتحة في القرآن الكريم، وذلك لأنها من سبع آيات. للمزيد راجع: ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص119.

أوْرَدَ فيه مؤاخذات كثيرة على العلاّمتَيْن الزّمخشري[1] والبيضاوي[2] رحمة الله عليهما. وكان رحمه الله تعالى شيخ مولانا السلطان محمد خان، يقول به. وكان دائمًا يقول له: مَطْعَمَك حرام ومَلْبَسَك حرام، [21أ] فعليك بالاحتياط. فاتّفق في بعض الأيام أنه أكل مع السلطان محمد، فقال له السلطان: أيّها المولى، أنت أيضا أكَلْتَ من الحرام. فقال: ما يليك من الطعام حرام، وما يليني حلال. فحوّل السلطان الطعام، فأكل المولى، فقال له السلطان: أكَلْتَ من الجانب الحرام. فقال المولى: ما عندك من الجانب الحرام، وما عندي من الحلال، فلِهذا حوّلت الطعام. وقد بنى بإسطنبول مدارس للعِلم الشّريف، وجعل لها مُدرّسين، وطلبة بالعلوفة الوافرة، والمِنَح المتكاثرة. وصار إذا سمع بعالِم في أُفُق من الآفاق أحضره[3] إليه، وأقْدَمَ[4] عليه، وأجرى الجرايات بين يديه. ولمّا رأى العلماء رغبة مولانا السلطان في العِلم وأهله، أتَوا إليه مِن سائر الجِهات. وأراد المولى مُصلح الدين خواجا زاده[5] الذهاب إليه. لكن منعه فقرُه عن الذهاب والسفر. وكان له خادمًا من أبناء التُّرك، فأقرضه مائة درهم، فاشترى منها فرسًا لنفسه، وفرسًا لخادمه، وتجهّز للسفر، وذهب إلى السلطان. فلَقِيَهُ وهو ذاهب من القسطنطينية إلى أدرنة. فلمّا رآه الوزير

[1] هو محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري أبو القاسم. وُلِد في "زَمَخْشَر" من قرى خواروم، وتنقّل في بلدان عديدة. وهو أحد العلماء المشهورين في علم الدين والتفسير واللغة والأدب، وهو معتزلي المذهب. من أشهر كُتبه " الكشّاف" في التفسير. توفي عام1075هـ/ 1144م. راجع: الزركلي، الأعلام، ج8، ص55.

[2] هو عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي. وُلِد في المدينة البيضاء بالقرب من شيراز، وتوفي في مدينة تبريزعام 685هـ/ 1286م. راجع: الزركلي، الأعلام، ج4، ص248.

[3] جاءت في الأصل [أحضر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى واللغة.

[4] جاءت في الأصل [قدم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى واللغة.

[5] وتُكتَب أيضًا "خوجة". لها معانٍ عديدة بالفارسية: "الرئيس" أو "المعظّم" أو"الحاكم". أمّا في اللغة التركية فتعني "الأستاذ" أو "المعلم". وكلمة زاده تعني: من "بني" أو من "آل". و"مُصلح الدين"، هو مصطفى بن يوسف بن صالح البرساوي. أحد علماء الدولة العثمانية. وُلِد في مديتة بروسة وتوفي فيها عام 893هـ/ 1488م. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص354.

محمود[1] باشا، قال له: قد أحسنْتَ في مجيئك. إنّي ذكرتك عند السلطان، فاذْهَبْ إليه. فذهب وسلّم على السلطان، فإذا في أحد جانبيه زيرك[2]، وبجانبه الآخر المولى سيدي علي[3]. فتوجّه خواجا زاده إلى جانب سيدي [22ب] علي. فاعترض على المولى زيرك، وبقي في جنب السلطان، وذكر المباحثة، فأفحم المولى زيرك، حتى قال له مولانا السلطان محمد خان: كلامك ليس بشيء. فذهب المولى زيرك، وبقي المولى خواجا زاده عند السلطان، وتحدّث معه. ثمّ إنَّ السلطان محمد خان أحسن إلى المولى سيدي علي[4]. وبقي المولى خواجا زاده مهمومًا، حزينًا، حتى إنَّ خادمه صار يخدمه ويقول له: لو كان لك عِلم لأكْرمك السلطان كما أكرمهم. وفي بعض المنازل نام الخادم وخدم الخواجا الفرس بنفسه. ثمّ جلس مُفكّرًا حزينًا تحت ظِلّ شجرة، فإذا ثلاثة نَفَر من حُجّاب السلطان، يسألون عن خيمة المولى خواجا زاده، يظنّون أنّ له خيمة كسائر الأكابر، فأشار بعض الناس إليهم أنَّ هذا الرجل الجالس في ظِلّ الشجرة هو خواجا زاده. فأنكروا ذلك، ثم جاءوا وسلّموا عليه، وقالوا له: أنت خواجا زاده؟ قال: نعم. قالوا: أصحيح ما تقول؟ قال: نعم. قالوا: أأنت مُدرّس الأسدية[5]، وأنت الذي ألزَمْتَ المولى زيرك؟ قال: نعم. فتقدموا إليه وقبّلوا يديه، وقالوا: إنَّ السلطان جعلك مُعلّمًا لنفسه. قال المولى خواجا زاده: فظننتُ أنهم يسخرون بي.

[1] جاءت في الأصل "محمد". والصواب "محمود"، وهو ما ثبت أعلاه. وكذا جاءت في المنح الرحمانية، ص 47.

[2] هو محمد الشهير بزيرك. كان مُدرّسًا بمدينة بروسة ثمّ في القسطنطينية، ولم يقبل بأي منصب عرضه عليه السلطان. توفي في بروسة ولم تُعرف سنة الوفاة. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص74-76، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص48.

[3] هو علي بن محمد الطّوسي المتوفي عام 877هـ/ 1473م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص92.

[4] جملة "إلى المولى سيدي علي" تكررت مرّتان في الأصل. ويبدو أنّ المؤرخ زادها بغير قصد.

[5] اسم مدرسة في مدينة بروسة المتقدّم ذكرها.

ثمّ ضربوا[1] هناك خيمة وقدّموا إليه طُوَالة[2] خيل وفرشًا وعبيدًا[3] وأقمشة فاخرة وعشرة [23أ] آلاف درهم. فأسرجوا العبيد فرسًا منها وقالوا له: قُمْ إلى مولانا السلطان. والخادم المذكور نائم. فذهب إليه المولى خواجا زاده ونبّهَهُ من النّوم. فقال له: خَلِّني نائم. فقال: قُمْ فانْظُرْ حالي. قال: وعلى أيّ حال أنت فيه؟ قال: إنّي صِرْتُ مُعلّم السلطان. فقبّل الخادم يده، وتضرّع إليه، واعْتذر عن تقصيره في خدمته. ثمّ إنَّ المولى خواجا زاده أدّى ما عليه من الدَّيْن للخادم، وهو الثمانمائة درهم، وركب إلى السلطان. فقرأ عليه السلطان مَتْنَ عزّ الدين التّركماني[4] في التصريف[5]. وكتب هو شرحًا عليه. وتقرب عنده غاية التقرب حتى حسده الوزير محمود باشا. فقال يومًا للسلطان: يريد المولى خواجا زاده قضاء العساكر. فقال: لأي شيء يترك صحبتي؟ وقيل لخواجا زاده: أمَرَكَ السلطان أنْ تصير قاضي العساكر. قال: أنا لا أريد. قال: هكذا جرى[6] الأمر. فامْتَثَلَ أمره، وصار قاضيًا. وكان والده حينئذ في[7] قَيْدِ الحياة، فسمع أنَّ ولده صار قاضيًا للعساكر فلمْ يُصدقْ. ولمّا تواتر الخبر، سار من بورسا إلى أدرنة لزيارة ولده. فلمّا قَرُبَ من مدينة أدرنة استقبله المولى خواجا زاده، وتبعه علماء البلد وأشرافها[8]. فنظر والده فرأى جمعًا عظيمًا. فقال: مَن هؤلاء؟ قالوا له: هذا ولدُك. قال: ولدي بلغ هذه المرتبة؟! قالوا: نعم. فلمّا رآهُ المولى

[1] أي بَنوا خيمة.

[2] هي مكان طعام الخَيْل.

[3] جاءت في الأصل [فُرُش وعبيد]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] هو عزّ الدين بن إبراهيم الجزرجي الزّنجاني، وليس التّركماني كما جاء في الأصل. تُوفي في بغداد عام 655هـ/ 1257م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص50، والزّركاي، الأعلام، ج4، ص330.

[5] هو كتاب "تصريف الغزّي في التّصريف"، وهو مطبوع.

[6] جاءت في الأصل [أجرى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[7] الدّارج على لسان العرب "على" قيد الحياة.

[8] جاءت في الأصل [وأشرافه]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

خواجا [24ب] زاده، نزل عن فرسه، ونزل والده أيضًا، فقبّل يد والده، وعانقه، واعتذر إليه عن تقصيره. فقال المولى خواجا زاده لوالده: إنك لو أَعْطَيْتَنِي مالاً ما بلغتُ إلى هذا الجاه. ثمّ عرض[1] والده على السلطان. فأذِنَ له في الدخول عليه. فدخل هو وأبوه بهدايا جزيلة، وقبّل يد مولانا السلطان. ثمّ إنَّ المولى خواجا زاده، صنع ضيافة عظيمة لوالده. وجمع لها العلماء الأكابر، وجلسوا على مراتبهم، وجلس هو في صدر المجلس ووالده عنده. ولم يمكن لإخوانه[2] الجلوس في المجلس لازدحام الأكابر، فقاموا مقام الخُدّام. فقال المولى خواجا زاده في نفسه: بهذا أخبرني الشيخ الولي شمس الدين[3] رحمه الله تعالى. ولمّا بنى مولانا السلطان محمد خان مدارسه بالقسطنطينية، أعطى واحدة منها لمولانا الشيخ مصلح الدين مصطفى القسطلاني[4] المذكور. وكان يَدَّعي أنه لو أُعطِي المدارس الثمان[5] كلها، يقدر أن يُدرّس كل يوم فيها ثلاثة دروس. ثمّ جعله مولانا السلطان محمد في أواخر سلطنته قاضيًا بالعسكر المنصور. وكان في ذلك الزمان قاضي العسكر واحدًا. وكان الوزير

[1] جاءت في الأصل [أعرض]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[2] جاءت في الأصل [يمكن لإخوانهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص355.

[3] هو شمس الدّين محمد بن علي الحُسيني البخاري. وُلِد في بُخارى وانتقل إلى بروسة وتوفي هناك عام 833هـ/ 1428م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص35-36.

[4] هو أحد علماء الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني. توفي في اصطنبول عام 901هـ/ 1495م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص87.

[5] هي المدارس التي بناها السلطان محمد الفاتح وتُسمى "مدارس الصّحن"، وذلك لأنه بنى أربع منها إلى الشمال من مسجده ثمّ بعد ذلك أربع إلى جنوبه. راجع: القرماني، أخبار الدوَل وآثار الأوَل، ص309.

محمد باشا القرماني[1] يخاف من المولى القسطلاني، لأنه كان لا يُداري الناس، ويتكلّم بالحقّ على كلّ حال. فعَرَضَ على مولانا السلطان محمد خان، وقال: إنَّ الوزراء [25أ] أربعة، ولو كان قاضي العسكر اثْنَيْن أحدُهُما في رميلي والآخر في أناطولي، كان[2] أسهل في إتمام مصالح المسلمين، ويكون زينة للديوان العالي[3]. فمال السلطان إلى رأيه. فجعل المولى القسطلاني قاضي عساكر رميلي، وجعل المولى بن الحاج حسن[4] قاضيًا بأناطولي. وكان أول مَن فعل ذلك السلطان محمد خان أثابه الله العفو والغفران.

[1] هو المعروف باسم "محمد باشا روم"، لأن أصله رومي. تربّى في السّراى السلطانية وعمل في العسكر. شارك في حملة السلطان محمد الثاني على قرمانيا عام 871هـ/ 1466م، ومن هنا جاء الاسم " القرماني". راجع: E. I. 1. vol. III,p. 739.، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص53.

[2] جاءت في الأصل [يكون]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] ويُعرَف "بالديوان الهمايوني" والذي يُعقَد في السّراي برئاسة الصّدر الأعظم. وفيه كانت تُرفَع ظلامات الناس للسلطان العثماني الذي ترأسه حتى جاء السلطان محمد الفاتح وتنازل عن ذلك للصّدر الأعظم. راجع: Gib & Bowen, part I,p. 115-116، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص54.

[4] هو محمد بن مصطفى الحاج حسن. عالِم رومي ومتخصّص بالعلوم العقلية والشرعية. عمل مُدرّسًا ثمّ قاضيًا. توفي في القسطنطينية عام 911هـ/ 1505م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص97.

المقصد الثامن

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان بايزيد[1] بن مولانا السلطان محمد. جلس على تخت المُلك في سنة سبع وثمانين وثمانمائة[2]، وتوفي في طريق أدرنة سنة ثمان[3] عشرة وتسعمائة، بعد أن خلع نفسه من المُلك لولده مولانا السلطان سليم الآتي ذكره. وذلك عن نحو من اثنتين[4] وستين سنة من عمره. وكانت مُدّة سلطنته إحدى وثلاثين سنة، فتح فيها فتوحات كثيرة منها: قلعة ملوان[5]، وقلعة كَوْلَك[6]، وقلعة أوقرمان[7]، وذلك في سنة ثمان وثمانين وثمانمائة[8]. وقاتله أخوه السلطان جم[9]، فبرز السلطان بايزيد لقتاله، وتقاتلا، فانهزم السلطان جم، وفرّ إلى مصر، وحَجّ في زمن السلطان قايتباي المحمودي. ثمّ عاد فأكرمه إكرامًا عظيمًا. ثمّ إنّ السلطان جم جمع طائفة من الغُزاة ونازع أخاه على المُلك. [26ب] فقاتله السلطان بايزيد، فانكسر السلطان جم ثانيًا، وفرّ إلى بلاد النصارى. فأرسل له السلطان بايزيد أحد عبيده في صورة حلاّق مجهول، فدخل على السلطان جم فتأنّس به، وسأله عن صنعته. فقال: حلاّق، فاسْتَخْدَمَهُ، وأمره أنْ يحلق رأسه. فحلق له

[1] راجع ترجمته في: الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص 86-87.

[2] 887هـ/ 1482م.

[3] 918هـ/ 1512م. في المنح الرحمانية: تسع عشرة وتسعمائة (919هـ/ 1513م).

[4] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] لم يُعثَر لها على تعريف دقيق. وقد تكون هي قلعة "مودون" كما ذكر الغزّي في الكواكب السائرة، والصبّاغ في المنح الرحمانية. وبذلك فهي تقع على الساحل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة البلقان.

[6] جاءت في الأصل [لوكلك]، والصواب ما ثبت أعلاه. ويبدو أنها إحدى القلاع القرمانية. راجع: القلقشندي، صُبح الأعشى، ج4، 135.

[7] وتُكتب: "أكرمان" و "آق كرمان". والاسم يعني " المدينة البيضاء"، وتقع على مصب نهر الدنيستر. ضمّها العثمانيون إليهم عام 889هـ/ 1484م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج2، ص428.

[8] 888هـ/ 1483م.

[9] ويسميه العرب "جمجمة"، (864- 900هـ/ 1459-1495م). راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج7، ص70.

بموس مسموم، وهرب في الحال. فسرى السَّم في رأسه، وإلى جميع بدنه، ومات إلى رحمة الله تعالى. وله أشعار لطيفة بالتّركية. وفي أيامه ظهر إسماعيل شاه[1] بن الشيخ حيدر[2]، في سنة خمس وتسعمائة[3]. وكان له ظهور عجيب، سفك الدماء، وأظهر البِدَع، ومذهب الرافضة[4]. وشَرْحُ ذلك يحتاج إلى تاريخ مُستقل. وظهر مِن أتباعه شخص في بلاد الروم، يُقال له شيطان قولي[5] ظفر في البلاد، وأهلك العباد، وعظم شأنه، وقوي سلطانه. فأرسل إليه مولانا السلطان بايزيد وزيره الأعظم علي باشا[6] بعسكر كثيف لقتاله، وأمدّه بجيش عظيم. فاستشهد علي باشا، وذهب إلى جنة رضوان. وكُسِر عسكر هذا الشّيطان مع قتله، وذهاب روحه إلى النيران. وكان مولانا السلطان بايزيد مِن أهل الخير مُحِبًا للعلماء والفقراء وقد دخل الخلوة[7] وجلس فيها أربعين يومًا. ودخل معه الخلوة مولانا محيي

[1] هو مؤسس الدولة الصّفويّة في إيران في القرن السادس عشر للميلاد. يعود نسبه إلى فِرقة متصوّفة في "أردبيل" من أعمال "أذربيجان" والتي تربط نسبها بموسى الكاظم من أئمّة الشيعة الإثني عشرية. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص144.

[2] هو ابن الشيخ جُنيد الأردبيلي الصّفوي، توفي عام 898هـ/ 1488م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج8، ص157.

[3] 905هـ/ 1449م.

[4] وهم من شيعة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. راجع: ابن خلدون، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، ج3، ص172.

[5] ولقبه الحقيقي هو "شاه قولي"، أي عبد الشّاه. ولقد اسماه العثمانيون " عبد الشيطان". راجع: E. I. 2, vol. I,p. 407.

[6] هو علي باشا خادم. توفي عام 917هـ/ 1511م. راجع: المصدر السابق.

[7] هي الاختلاء عن الخَلق في مكان طاهر، وهي من ضروريات بعض الطُرق الصوفية. ويُفضّل أن تكون في مسجد جماعة مع نيّة الاعتكاف والصوم. راجع: المحبّي، خلاصة الأثر، ج1، ص250.

الدين[1] والد المولى أبي السعود[2] المُفسّر رحمه الله [27أ] تعالى[3]. ولمّا بنى السلطان بايزيد مدرسته بأماسية[4] نصّب المولى العالِم العامل، الفاضل الكامل، علاء الدين علي بن علي بن أحمد بن محمد الجمالي[5] مُدرّسًا بها، وفوض إليه أمر الفتوى هناك. ثمّ أعطاه إحدى[6] المدارس الثمان، فدرّس هناك مُدّة كثيرة. ثم توجّه بِنيّة الحج إلى مصر، فاتّفق أنه لم يتيسّر له الحج في تلك السنة، لِفِتْنَةٍ[7] حدثت بمكّة المشرّفة، وتوقّف المولى المذكور بمصرسنة. وفي أثنائها توفي المولى حميد الدين بن أفضل الدين[8] بقسطنطينية، فأمر السلطان بايزيد خان أن يكتب الفتوى مدرسو المدارس الثّمان. ولمّا أتى المولى المذكور مِن الحج أعطاه منصب الفتوى، وعيّن له كل يوم مائة درهم. ثمّ إنّ مولانا السلطان بايزيد بنى مدرسة بقسطنطينية، وأضافها للمولى المذكور، وعيّن له [كل][9] يوم مائة وخمسين درهمًا لأجل التدريس، فصارت وظيفته[10] كل يوم مائتين وخمسين درهمًا. فحسده على

[1] هو محمد بن مصطفى العماد، من المتصوفة. عُرِف بالعِلم والزهد والتقوى. توفي عام 920هـ/ 1514م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النغمانية، ص206، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص59.

[2] هو أبو السعود المفتي، محمد بن محمد بن مصطفى العماد. وُلِد عام 898هـ/ 1493م وتوفي في القسطنطينية عام 982هـ/ 1574م. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص398، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص59.

[3] جاءت في الأصل [تعلى]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] هي مدينة تقع في آسيا الصغرى في ولاية سيواس. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج2، ص610.

[5] هو فقيه تركي، تنقّل بين المُدن التّركية للتدريس فيها في زمن السلطان محمد الثاني والسلطان بايزيد الثاني. توفي عام 932هـ/ 1526م. راجع: الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص184.

[6] جاءت في الأصل [أحد]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] وقعت عام 907هـ/ 1501م. راجع: ابن طولون، مُفاكهة الخِلاّن، ج1، ص261، 265، 267، 277.

[8] هو حميد الدين بن أفضل الحسيني، عالِم تركي عمل في التدريس والقضاء في عهد كلٍ من محمد الفاتح وبايزيد الثاني. توفي عام 908هـ/ 1502م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص105-106.

[9] ساقطة في الأصل. زيدت على النّص لسلامة المعنى.

[10] جاءت في الأصل [وضيفته]، والصواب ما ثبت أعلاه.

ذلك البعض من العلماء، وهو مولانا الحميدي[1]، وجمع البعض من فتاويه، وقال: إنه أخطأ فيها، وأرسلها إلى الديوان العالي. فأرسلها الوزير إلى المولى المذكور فكتب في أجوبتها، في أثناء تلك الأيام، وقال: إنّي حين نزلتُ من الغرفة حَصَلَتْ لي جذبة، ولم يبقَ بيني وبين الحق سبحانه وتعالى [28ب] حجاب. وكان رحمه الله يصرف جميع أوقاته في تلاوة القرآن، والعبادة، والدرس، ويُصلّي بالجماعة الصّلوات الخمس. وكان كريم النّفس، طيّب الأخلاق، مُتواضِعًا، يُبَجّل الصغير كما يُوقّر الكبير. لسانه طاهرًا لا يذكر أحدًا بسوء. وكانت أنوار العبادة تتلألأ في صفحات وجهه. وكان يقعد في علوّ داره، والزّنبيل[2] مُعلّق، فيُلقي المستفتي ورقته فيه فيجذبه المولى المذكور، ويكتب جوابه، ثم يدلّي الفتوى لصاحبه. وكان لمولانا السلطان بايزيد خان أولاد نُجباء، كِرام وهم: جهان شاه، والسلطان أحمد، والسلطان قورقد، والسلطان سليم، والسلطان محمود، والسلطان عبد الله، والسلطان محمد باشا. فلمّا أن كبروا قلّدهم أبوهم الصناجق[3] العالية في بلاد الروم. فجعل لأكبرهم وهو السلطان أحمد مملكة أماسية وما والاها، وكان يؤمّل أنْ يكون ولي عهد أبيه. وجعل لمولانا السلطان قورقد مملكة منتشا[4] وتوابعها، وجعل لمولانا السلطان سليم خان مملكة طرابزان[5]، وجعل لمولانا السلطان محمود مملكة مغنيسا، وجعل لمولانا

[1] هو سيدي الحميدي، عالِم تركي عمل بالتدريس والقضاء. اتقن العربية ونظم بها شعرًا. توفي عام 912هـ/ 1513م. راجع: طاشكبري، الشّقائق النّعمانيّة، ص180.

[2] أي الجِراب أو القفّة.

[3] وهي كلمة تركية، جمع صنجق. والصنجق هو اللواء أو الرّاية. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص62.

[4] أحيانًا يكتبها المؤرخ بالألف المقصورة "مُنتشى".

[5] وتُسمى أيضًا "طرابزون". وهي مدينة في شمال آسيا الصغرى. وقد سمّاها العرب " أطرابزند" أو طرابزندة". ضمّها السلطان محمد الفاتح لملكه عام 864هـ/ 1460م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج2، ص 303-306.

السلطان محمد مملكة الكُفّار[1] وما والاها من بلاد التّتار. فأمّا السلطان جهان شاه، والسلطان محمد، والسلطان محمود، فانتقلوا بالوفاة في حياة والدهم المُشار إليه، رحمهم الله تعالى. [29أ] ورأيتُ حكاية غريبة لا بأس بذكرها، وهي أنّ السلطان بايزيد حذّره منجّم حاذق مِن أهل عصره، بأنّ ذهاب مُلكه يكون على يد ولد يولد له مِن الآن. وكان ذلك قبل أنْ يولد له مولانا السلطان سليم. فطلب امرأة يُعْتَمَدُ عليها. وكانت قابلة الجواري، وهي مشهورة بالخير والصلاح. فقال لها: إذا وضَعَتْ إحدى الجواري المتعلقات بي ولدًا، ولدًا ذكَرًا فاقْتُلِيه. وأكَّدَ عليها ذلك غاية التأكيد. فمِن ذلك العهد لم يولد له ولد ذَكَر غير مولانا السلطان سليم. فلمّا رأته صبيًّا قالت: بأيّ وجه ألقى الله تعالى في قتل هذا الطفل المعصوم؟! فلمْ تقتله. وأخبرت السلطان بايزيد بأنه بنت فسمّاهُ سليمة. واستمرّ الأمر مكتومًا إلى أنْ كبر. فظهر عليه علامات القهر والغَلَبة، فكان يضرب البنات [مِن][2] أخواته[3] ويأخذ ما كان بأيديهنّ. فدخل مولانا السلطان بايزيد في يوم عيد إلى داخل السّرايا وأمر بإحضار جميع بناته فَحَضَرْنَ جميعًا، ومَعَهُنَّ مولانا السلطان سليم المذكور. فوضع بين أيديهنَّ أنواع الحلاوة والفواكه، فخطف ما بين أيديهنَّ مِن الفواكه، ووضع الكُلَّ بين يدي نفسه، والكُلُّ خائفات[4] منه، فتعجّبَ مولانا السلطان بايزيد من ذلك. وفي أثناء ذلك دار بينهم يعسوب[5] نحل فأرادوا [30ب] مسك اليعسوب فلم يمكن، وهو يلسعُ من يريد إمساكه. فَمَدَّ إليه السلطان سليم يده على توانٍ منه، فاختطفه وهو طائر ومرَسهُ بكفّهِ، فقتله. فتعجَّبَ مولانا السلطان بايزيد مِن ذلك وقال للقابلة: ليس هذا

[1] أو "الكفا" كما جاءت في المنح الرحمانية. وهي شبه جزيرة القرم شمالي البحر الأسود. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص62.

[2] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة اللغة والمعنى.

[3] جاءت في الأصل [إخوته]، والصواب ما ثبت أعلاه، لأنّ سياق النّص يفيد أنه وحيد بين أخواته.

[4] جاءت في الأصل [خايفات]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل [يعصوب]، والصواب ما ثبت أعلاه.

ببنت وإنه ذَكَر. فقالت القابلة: هو ذَكَر، وليس ببنت. فقال لها السلطان: كيف خالفتِ أمري في قتله؟ فقالت له: خوفًا مِن الله تعالى أنْ أقتله ولا ذنب له. فلمّا سمع السلطان بايزيد ذلك منها قال: إنا لله وإنّا إليه راجعون. ما قدّره الله سبحانه فهو كائن. وكان مولانا السلطان بايزيد يُحِبُّ أهل الحرمَيْن الشّريفَيْن، ويُحسِنُ إليهم أحسانًا كثيرًا، ورتَّبَ لهم الصُرَّ في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهبًا يُصْرَفُ نِصفُها على فقراء مكة، ونِصفُها على فقراء المدينة[1]، فكانوا ينتفعون بها، ويتّسعون بها، ويدعون له. وإذا ورد عليه أحد مِن أهل الحرمَيْن الشّريفَيْن، يُنْعِمُ عليه، فيرجع مِن عنده بصِلات عظيمة. وممّن ورد عليه في شبابه خطيب مكة المُشرّفة، الشيخ محيي الدين بن[2] عبد القادر بن عبد الرّحمن العرافي[3]، والشيخ شِهاب الدين أحمد بن الحسين العُلَيْف[4] الشاعر، شاعر البطحاء[5]، وفاضلها، ونالا منه خيرًا كثيرًا. وصنّف العُلَيْف باسمه تاريخًا سمّاه "الدّر[31أ] المنظوم في مناقب السلطان بايزيد مَلك الرّوم" لا يخلو مِن فوائد لطيفة. وممّا نَظَمَهُ الشّهاب العُلَيْف في مَدْحِهِ مِن قصيدة رائقة[6] مَطْلَعُها قوله: شعر:

خُذوا مِن ثنائي موجِبَ الحمدِ والشُّكرِ ومن دُرِّ لَفْظِي طيِّبَ النّظْمِ والنَّثْرِ

ومنها قوله أيضًا:

فيا راكِبًا يَسْرِي على بطنِ ضامرٍ إلى الرُّوم يَهْدِي نَحْوَها طيِّبَ النَّشْرِ

[1] أي المدينة المنوّرة. وهي غنيّة عن التعريف.

[2] جاءت في الأصل [ابن]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] لم يُعْثَر له على ترجمة.

[4] هو أحمد بن الحسين بن محمد بن الحسين المكّي، شِهاب الدين، المعروف "بابن العُلَيْف". وُلِد في مكة وتوفي فيها عام 926هـ/ 1520م. راجع: النهروالي، الأعلام، ج1، ص115.

[5] والمقصود هنا، بطحاء مكة. أي مسيل الوادي المغطّى بالحصى.

[6] جاءت هذه الأبيات أيضًا في المنح الرحمانية مع تطابق يكاد أن يكون كاملاً. راجع الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 66-69.

لَـكَ الخَيْـرُ إنْ وافَيْـتَ رُومًـا فَسِـرْ بهـا رُوَيْـدًا لإسـطنبولَ سـاميةِ الـذِّكْرِ
لـدى مَلِـكٍ لا يَبْلـغُ الوَصْـفُ كُنهَـهُ شـريفِ المسـاعِي نافـذِ النَّهْـيِ والأمْـرِ
إلـى بايزيـدَ الخَيـْرِ والمَلِـكِ الـذي حمى بَيْضَـةَ الإسـلامِ[1] بـالبِيضِ والسُـمْرِ
وَجـرّدَ للـدِّينِ الحَنِيفـيّ صـارِمًا أبـادَ بِـهِ جَمْـعَ الطّواغيـتِ والكُفْـرِ
وَجاهَـدَهُم فـي اللهِ حَـقَّ جِهـادِهِ رَجـاءً لِمَـا يَبْقَـى مِـن الفَـوْزِ والأجْـرِ
لـهُ هَيْبَـةٌ تَمْـلأُ الصُّـدُورَ وَصَـوْلَةٌ مُقَسَّـمَةٌ بَـيْنَ المَخافَـةِ وَالـذُّعْرِ
أطـاعَ لـهُ مـا بَـيْنَ رُومٍ وفـارِسٍ ودانَ لـهُ مـا بَـيْنَ بُصْـرَى[2] إلـى مِصْـرِ
هـو البَحْـرُ إلاّ أنّـهُ دائـمُ العطـا وذلـك لا يَخْلُـو مِـنَ المَـدِّ والجَـزْرِ
هـو البَـدْرُ إلاّ أنّـهُ كامِـلُ الضِّـيا وذاكَ خَلِيفُ النّقْصِ مِن مُعْظَمِ الشّـعْرِ
هـو الغَيْـثُ إلاّ أنَّ للغَيْـثِ مَسْـكَةً وذا لا يَـزالُ الـدّهرَ يَنْهَـلُّ بـالقَطْرِ
هـو السَّـيْفُ إلاّ أنَّ لِلسَّـيْفِ نَبْـوَةً ومالِكُنـا ماضـي العَزِيمَـةِ[3] فـي الأمْـرِ
[32ب] سَلِيلُ بَنِي عُثمانَ والسَّادةِ الأُولى عَـلا مَجْـدُهُم فَـوْقَ السَّـماكيَنْ والنَّسْـرِ[4]
مُلُـوكٌ كِـرامُ الأصْـلِ طَابَـتْ فُـرُوعُهُم وهَـلْ يُنْسَـبُ الـدِّينارُ إلاّ إلـى التِّبْـرِ
مَحـوا أثَـرًا لِلْكُفْـرِ بالسَّـيْفِ فاغْتَـدَتْ بِهِـم حَـوْزَةُ الإسـلامِ[5] سـاميةَ الـذِّكْرِ
فَيَـا مَلِكًـا فـاقَ المُلُـوكَ مَكَارِمًـا فَكُـلٌّ إلـى أدْنَـى مَكَارِمِـهِ يَجْـرِي

[1] أي جماعة الإسلام وأصلهم وموضع سلطانهم ومقرّ دعوتهم. راجع: ابن منظور، لسان العرب، مادّة "بيض".

[2] ولعلّ الشاعر يقصد مدينة البصرة في العراق، وهي غنيّة عن التعريف.

[3] جاءت في الأصل [وذلك ماضٍ للعزيمة]، والصواب ما ثبت أعلاه لكي يستقيم المعنى والوزن. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص67.

[4] السَّماكيَنْ والنَّسْرِ، أسماء لكواكب في السّماء. راجع: المُنجد، ط17، ص 351، ص805.

[5] أي ما يضمّه ويشمله الإسلام بين تخومه.

لَـئِنْ فُقْـتَهُم فـي رُتْبَـةِ المَجْـدِ والعُـلا فـإنَّ [الليـالي][1] بَعْضُـها لَيْلَـةُ القَـدْرِ
فَـدَتْكَ مُلُـوكُ الأرْضِ طُـرًّا لأنّهـا سِـرارٌ[2] وأنْـتَ البَـدْرُ فـي غُـرّةِ الشَّـهْرِ
تَعَالَيْـتَ عَـنْهُم رِفْعَـةً ومَكانَـةً وذاتًـا وأوْصَـافًا تَجِـلُّ عَـنِ الحَصْـرِ
لـكَ العِـزَّةُ العَليـاءُ والرُّتْبَـةُ التـي قَواعِـدُها تَسْـمُو علـى مَنْكِـبِ النَّسْـرِ
سَـمَوْتَ عُلُـوًّا إذ دَنَـوْتَ تَواضُـعًا وقُمْـتَ بِحَـقِّ اللهِ فـي السِّـرِ والجَهْـرِ
غَـدَتْ بِـكَ أرضُ الـرُّوم تَزْهُـو مَلاحَـةً وتَرْفُـلُ فـي ثَـوْبِ المَلاحَـةِ والفَخْـرِ
ألَسْـتَ ابـن عُثمـانَ الـذي سَـارَ ذِكْـرُهُ مَسِـيرَ ضِـياءَ الشَّـمْسِ في البـَرِّ والبَحْـرِ
يَمِينُـكَ تَـرْوِي عَـن يَسَـارٍ ونائـلٍ وَوَجْهُـكَ يَـرْوِي في البَشَاشَـةِ عَـنْ بِشْـرِ
وإنّـي لَصَـوّانٌ لِقَـدْرِ قلائـدي عَـنِ المَـدْحِ إلاَّ فِيـكَ يـا مَلِـكَ العَصْـرِ
فقابِـلْ رَعـاكَ اللهُ شُـكْرِي بِمِثْلِـهِ فإنَّـكَ لِلمَعْـروفِ مِـن أعْظَـمِ الـذُّخْرِ
فـلا زِلْـتَ مَحْـرُوسَ الجَنـابِ مُؤَيَّـدًا مِـنَ اللهِ بـالتَّوْفِيقِ والعِّـزِ والنَّصْـرِ

فلمَّا أتَتْ هذه القصيدة إلى مولانا السلطان بايزيد، وقرأها، فرح بها غاية الفرح، وأمر أنْ يعطي له ألف دينار جائزة [33أ] عليها. وكان مولانا السلطان بايزيد مَرِض بمرض النَّقْرَس[3]، وهو أكثر مرض آل عُثمان، وضعف عن السفر والقتال عِدَّة سنين، وصار العسكر لشدَّتهم، وشدَّة شكيمتهم، يطلبون سلطانًا شابًا لأجل القتال والغنيمة، ورأوا مولانا السلطان سليم خان أقوى بأْسًا. فمَالَ العسكر إليه، ومالَ هو إليهم. فشرع مولانا السلطان سليم في قتال والده وركب عليه بجميع العساكر فانكسر السلطان سليم ثم

[1] جاءت في الأصل [الأماني]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى. وكذا جاءت أيضًا في: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص68.

[2] هي آخر ليلة في الشّهر.

[3] النَّقْرَس: هو نوع من أنواع التهابات المفاصل، ويُسمّى أيضًا "داء الملوك". ويحدث بسبب ترسيب الأملاح في أنسجة المفاصل وما يحيط بها من غضاريف وعظام وعضلات. ونسبة انتشار هذا المرض عند الرجال أكثر منها عند النّساء، ويكون غالبًا بسبب زيادة الوزن والإفراط في الأكل أو الإفراط في شُرب الكحوليات. ويبدو أنّ هذا ما كان يحصل لسلاطين الدّولة العثمانيّة.

عطف على والده ثانيًا لمّا أرسل العسكر إليه فكسر والده. فلمَّا رأى السلطان بايزيد مَيل العسكر وأرباب الدولة لولده، فاسْتَشَارَ بعض وزرائه في أمر مولانا السلطان سليم، فأشاروا عليه بتسليم المُلك له، وأبرموا عليه في ذلك. فلمَّا رأى أنه لا بُدَّ من تسليم المُلك لولده، عَهِدَ إليه بالسلطنة، وخلع نفسه منها، وتقاعد هو بأدرنة، فعند ذهابه إليها مات في طريقهِ رحمه الله تعالى.

المقصد التاسع

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان سليم[1] فاتح مصر، بن مولانا السلطان بايزيد. جلس على تخت المُلك بعد خَلْعِ أبيه في سنة سبع عشرة وتسعمائة[2]. وكان عمره إذ ذاك سِتًا وأربعين [34ب] سنة، وتوفي في سنة ست وعشرين وتسعمائة[3]، عن أربع وخمسين سنة من عمره. وكانت مُدَّة سلطنته تسع سنين وثمانية أشهر. وكان سلطانًا قهّارًا ذا هَيْبة وشهامة مُتكاثرة، كثير الفحص عن أخبار الناس. وكان في التجسّس [له][4]غاية، وله الجواسيس لنقل الأخبار، ومهما نقلوا له شيئًا فعل بمُقتضاه. وكان كثير المطالعة لكتب التواريخ، جمع منها جملة كبيرة بالتّركية والعربيّة والفارسيّة. وكان حسن النَّظم بالعربيّة، فمِن نَظْمِهِ بالعربي على ما قيل: شعر[5]:

المُلْــكُ لله مَــنْ يَظْفَــرْ بِنَيْــلِ غِنــىً يــزدادُ[6] قَسْــرًا أو يَضْــمَن مِنْــهُ الــدَّرَكا
لَــوْ كــانَ لِــي أو لِغَيْــرِي قَــدْرُ أُنْمُلَــةٍ فَــوْقَ التُّــرابِ لَكــانَ الأمْــرُ مُشْــتَرَكا

ثمّ لمّا استوى مولانا السلطان سليم على سرير المُلك، وفرغ مِن دَفْنِ والده، خرج لقتال أخيه السلطان أحمد، فقهره وغلبه، وخنقه. ثمّ فرّ أخوه السلطان قورقد إلى كهف جبل، فَعُرِفَ مكانُهُ، فَقُبِضَ عليه، وجيء به إليه فخنقه أيضًا. ثمّ شرَعَ رحمه الله في أخذ

[1] راجع ترجمته في: الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص143، ودائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، مادّة "سليم الأوّل".

[2] 917هـ/ 1512م.

[3] 926هـ/ 1520م. وتشير الصبّاغ إلى أنه يوجد تشويش في مُدّة ولايته، حيث تذكر أنّ بعض المصادر المحقّقة ذكرت أنّ مُدّة خلافته هي ما بين: 918- 926هـ/ 1512- 1520م.

[4] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى.

[5] البيتان من البحر البسيط.

[6] جاءت في المنح الرحمانية "يَزْدُدْهُ". وقد جاء البيت كاملاً في الكواكب السائرة، ج1، ص208 على النّحو التالي:

المُلْكُ لله مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ غِنىً يُسْلَبْهُ قَسْرًا ومَنْ ذا يَضْمَنُ الدَّرَكا

الممالك مِن الملوك، فبدأ بقتال إسماعيل شاه، فكسره وهزمه. وإسماعيل المذكور، هو أول مَن أظهر الرّفض في بلاد العَجم، ووضع التّاج الأحمر على رؤوس عسكره [35أ] فسُمّوا لذلك قزلباش[1].

ذِكر فتح مولانا السلطان سليم لمصر المحروسة

هذا، ولمّا فرغ مِن أخذ بلاد العجم، وقتال شاه إسماعيل، وكان بينه وبين السلطان الغوري[2] مُصافاة ومَحبّة. فلأجل ذلك، أرسل الغوري إلى جهات حَلَب يمنع القوافل عن الذهاب إلى عسكر مولانا السلطان سليم مَحبّة في شاه إسماعيل. فحين رجوع مولانا السلطان سليم إلى سرير مُلكه، سأل عن سبب تأخير القوافل. فأُخْبِرَ أنَّ سبب ذلك السلطان الغوري، فغضب غاية الغضب، وتحرك على الغوري. فحين تحقّق الغوري مجيء مولانا السلطان سليم لأخْذِ بلاده، وذلك في يوم الاثنين، سابع عشر ربيع الأوّل سنة اثنتين[3] وعشرين وتسعمائة، أنفق على عسكره نفقة السّفر[4]. وقد تحقّق أمْر خروج التجريدة[5]، فأخرج لكل مملوك مائة دينار إحسانًا، وجامكيّة[6] أربعة أشهر، وَثَمَن جَمَل.

[1] وتُكتَب أيضًا "قزل باش" كما ورد في المنح الرحمانية، ص73.

[2] هو المَلك الأشرف سيف الدين بن بردي. آخر سلاطين المماليك في مصر والشام، حكم من عام 906هـ/ 1500م إلى عام 922هـ/ 1516م. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص58-59، والحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص113.

[3] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة (922هـ/ 1516م).

[4] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص27.

[5] أي الحملة العسكريّة. وهي مكوّنة فقط من الخيّالة أي الفرسان. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص42.

[6] وجمعها جوامك. ويُقصَدُ بها الرّاتب أو العَطيّة. راجع: النهروالي، البرق اليماني، ص76، وابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص306.

ثمّ إنَّ السلطان الغوري كتب أولاد[1] الناس قاطبة إلى السّفر، ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكيّة أربعة أشهر. وكان سبب ذلك القاضي شرف الدين الصغير[2]، كاتب المماليك، قال: إنّا نَظَرْنا في كُتب التواريخ، أنّ الملك الظاهر برقوق[3] لمّا خرج إلى التجريدة لم ينفق على أولاد الناس شيئًا قاطبة، فكثر عليه [36ب] الدعاء مِن أولاد الناس بسبب ذلك. وكانت هذه الواقعة مِن أعظم مساوئه في حقّ أولاد الناس[4]. قلتُ: والمُراد بأولاد الناس، يعني المتقاعدين الآن في زماننا. وفي يوم الخميس عشرينه، وقف جماعة من أولاد الناس إلى السلطان الغوري بسبب النّفقة، وساعدهم الأمير علاّن الدّودار[5]، فلمْ يأمر لهم السلطان الغوري بشيء. وقال: أنا ما عندي نفقة غير جامكيّة أربعة أشهر. فالذي يرضى بذلك يسافر، والذي ما يرضى يجلس بمصر يستريح. فَرَدّ جماعة كثيرة مِن أولاد الناس جامكيّة الأربعة أشهر [التي][6] أخذوها، واستمرَّ الأمر مبنيًّا على السّكون. وفي يوم السبت ثالث عشرينه، أكمل السلطان الغوري النّفقة على العسكر قاطبة من قرانصة[7]

[1] أولاد الناس: هم فئة من المجتمع تعود أصولها إلى آباء من المماليك وأمّهات مصريات. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص33.

[2] لم يُعثر على ترجمة له. إلاّ أنه ذُكِر في المنح الرحمانية، ص154، والبرق اليماني، ص80، والكواكب السائرة على أنه ناظر الدولة.

[3] هو السلطان الظاهر سيف الدين برقوق (1382-1396م). راجع: وابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص67-68، ووليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص121.

[4] هم أولاد المماليك الذين كانوا يعملون بالتجارة وإدارة المشروعات الصغيرة والكبيرة والخدمات الحِرفية. راجع: ابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص9، ص23.

[5] أي صاحب الدّواة ومسؤول تحرير الرسائل وكتابة الأوامر السلطانية. والكلمة مُركّبة من "دواة"، و "دار" الفارسيّة وتعني صاحب. راجع: سليمان، أحمد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ص109.

[6] جاءت في الأصل [الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] هم الجُند القرانيص، وهم الموصولون بالديوان، أصحاب الأرزاق الكبيرة ويكونون في منزلة أمراء الخمسوات. ويُسمّوْن أيضًا الوُغّاد. راجع: ابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص308، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص76.

وجلبان[1]. فقلتُ: **المراد بالقرانصة هم مماليك السلاطين الأُوَل، والجلبان هم مماليك سلطان الوقت**. ونادى لهم في الجيوش أنَّ السّفر أوّل الشهر، فاضطّربتْ أحوال الناس وارتجّتْ القاهرة، وعزّ وجود الخَيل والبِغال. وصار[2] المماليك يهجمون [على][3] الطواحين ويأخذون منها الخَيل، والبِغال، والأكاديش[4]. فَغُلِّقَت الطواحين قاطبة، وامتنع الخُبز مِن الأسواق، وكذلك الدَّقيق. ووقَعَ القَحْطُ بين العامّ والخاصّ، وكثر الدعاء على السلطان [37أ] الغوري، وغُلّقتْ أسواق القماش مِن المماليك، واختفى الصيارف والخياطون، واختفى طائفة مِن العلماء لأجل السفر. وصارت أحوال مصر مِثل يوم القيامة، كل واحد يقول روحي. وقد أعاب العسكر على السلطان هذا الرّهج[5] الذي وقع منه، ولم يمشِ على سُنَن[6] الملوك السابقة عند خروجهم للسّفر. ثمّ نفق السلطان الغوري على أمراء الطبلخات[7] وأمراء العشرات، وصار يستدعيهم واحدًا بعد واحد، مثل تفرقة الجامكيّة[8].

---

[1] أو الأجلاب، أو المشتروات. وهم مماليك السلطان الذي ما زال في سدّة الحُكم. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص75.

[2] جاءت في الأصل [وصارت]، والصواب ما ثبت في الأصل لسلامة اللغة.

[3] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى.

[4] ومفردها إكديش أو كديش. وهو نوع من الدّواب ما بين الحمار والبَغْل. وهو صِنف من الخيول العجميّات غير أصيل، ويُقال لها "همالج" أو "براذين". جلبها العرب من بلاد التُّرك والرّوم. راجع: الخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص71، عيسى، أحمد محمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص90.

[5] الرَّهَجُ والرَّهْجُ، أي الغُبار أو السّحاب الرّقيق. والقصد هنا: الخطأ الذي وقع فيه السلطان. راجع: ابن منظور، لسان العرب، مادّة "رهج".

[6] جَمْعُ "سُنّة". وهي العادة أو النّهج أو الطريقة.

[7] ومفردها "طبلخانه". وتُكتب أيضًا "طبل خانه" أو "طبلخاناه". وهي دار بها من الكوسات التي تدق على باب السلطان وأربع طبلات كبيرة وأربعة زمور (ومفردها زُمّارة) وعشرون نفيرًا، ولها رئيس وعدّة خَدَم. راجع: ابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص307.

[8] أي توزيع الرّواتب.

فأعطى أمير طبلخاناه خمسمائة دينار، وأعطى لكل أمير عشرة، مائتي دينار. وأما الخليفة، فلم يرسل له شيئًا، فحصل عليه المشّقة، وترامى على جماعة من الأمراء في أنْ يُقرضوه[1] مبلغًا بفائدة، ودخل في جملة دَيْن، وهذا الأمر لم يتفق قط. وكانت عادة جميع يرق[2] الخليفة إذا سافر يكون على السلطان. وكان السلطان يرسل للخليفة خمسمائة دينار جوامك أتباعه من ماله، فلم يلتفت السلطان لشئ من ذلك، وشحّ معه في أمر النّفقة. وكان الخليفة مظلومًا مع السلطان الغوريّ في هذه الواقعة. ثمّ إنَّ السلطان عرض المماليك القرانصة والشيوخ العواجز، وكتب منهم جماعة إلى الشّرقية، والغربية، والصعيد[3]، وألزمهم أنْ [38ب] يخرجوا بلا نفقة، وكانوا خمسمائة مملوك. وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه، نزل السلطان الغوريّ من القلعة وتوجّه إلى الريدانية[4]، ورتّب الفرّاشين كيف ينصبون الوِطاق[5] إذا برز السلطان الغوريّ، ورتّب منازل الأمراء وكيف يكون منزل السلطان. وكان [في ذلك اليوم قد أمر السلطان][6] بأن يكون ولده أميرآخور[7]

[1] جاءت في الأصل [يفرضوه]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[2] اليَرَق أو اليَراق. هي كلمة تركية تعني "الأسلحة". راجع: Dozey. II. p. 859، والنهروالي، البرق اليماني، ص80.

[3] وهي أقاليم إدارية، حيث قُسّمت مصر في العهد العثماني إلى 24 كاشفيّة. وكل إقليم مسؤول عنه "كاشف" وهو منصب إداري في العهد العثماني وكذلك العهد المملوكي. راجع: Dozey. II. p. 479، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 124-125.

[4] هو أحد أحياء القاهرة سابقًا. ويقع خارج سور المدينة الفاطمي بالقرب من باب النّصر. وقد سُمّي بهذا الاسم نسبة إلى مُنشئه "ريدان الصقّلي"، حيث عُرِف أيضًا باسم "بستان ريدان". ويُسمى اليوم بحي العباسية. راجع: محمد عطية الله، القاموس الإسلامي، ج2، ص 619.

[5] الوِطاق كلمة تركية تعني "الخَيْمة" وجمعها "وِطاقات"وهي الخيمة الكبيرة الخاصة بالحكماء والعظماء. ويُقصَد بها أيضًا المخيّم والأثاث والمحطّة. راجع: ابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص308، والنهروالي، البرق اليماني، ص 80.

[6] جاءت الجملة في الأصل [وكان ذلك اليوم السلطان أمر بأن]، فقمتُ بتصحيحها كما ثبت أعلاه لتصحيح اللغة والمعنى.

[7] مدير اسطبل الخَيْل أو المُشرف على اسطبل السلطان أو الأمير. وهي أحدى الوظائف ذات الشأن الكبير. راجع: ابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص305، والنهروالي، البرق اليماني، ص 75.

كبير، يعمل يرقه ويسافر صحبته. وكان في الأول رسم بأن يكون مُقيمًا في مصر بباب السلسلة إلى أنْ يحضر السلطان. وفي يوم الأحد ثاني ربيع الآخر، فرّق الغوريّ على المماليك الجلبان لبّود خَيل في خُوَد وأتراس وبدلات ما بين زنود وركب فولاذ، وغير ذلك من آلة السلاح الذي في الزردخاناه[1]. فتزاحمت عليه المماليك، وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم، ولا يرضوا بالذي يفرّقه السلطان الغوريّ عليهم، وعجز عن رضاهم في ذلك اليوم، وكَثُرَ تمرّدهم[2] في هذه الأيام إلى الغاية. أعجوبة لا بأس بِذِكرها وإنْ لم تكن مِن المعنى. قيل: إنَّ في التاريخ المذكور ولَدَتْ امرأة ولَدًا له رأسان، وأربعة أيدي وأربعة أرجل. فعُرِض على السلطان الغوريّ، فتعجَّبَ منه. وقيل: إنه وقع مثل ذلك في أيام الإمام علي[3] رضي الله عنه. وفي يوم الخميس سادسه أصرف السلطان الغوريّ للعسكر المتوجه للسّفر ثمن اللحوم المنكسرة، [39أ] وهي ثلاثة أشهر لكي يستعينوا بها، ولم يصرف للذين تأخروا بمصر شيئًا، وأحالهم على الطّباخين يصرفوا لهم في غيبته. وفي ذلك اليوم، أبرز السلطان الغوريّ خادمه إلى الرّيدانية، وقد تحقّق سفره إلى البلاد الشاميّة. ثمّ نادى للعسكر في الميدان أنَّ كل مَنْ جَهَّزَ يرقه ولا يبقى له علقة، يخرج ويسافر ويتقدم قبل خروج السلطان الغوريّ. ولكن إلى الآن لَمْ يُعلّق الجاليش[4]. وكانت العادة القديمة إذا سافر سلطان إلى البلاد الشاميّة، يُعَلَّقُ الجاليش قبل خروجه بأربعين يومًا، فلم يَمْشِ السلطان الغوريّ على طريقة الملوك السالفة. وفي يوم الخميس المذكور

[1] بيت الزّرد، أي بيت السلاح. وتُطلق أحيانًا على السلاح نفسه أو على مصنع آلات الحرب.

[2] جاءت في الأصل [تتمردهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[3] هو رابع الخلفاء الراشدين، وهو غنيّ عن التعريف.

[4] الجاليش أو الشاليش: هي كلمة تركية قديمة وقد تكون أيضًا فارسية. وهي تعني الحرب أو المعركة. وتُطلَق كذلك على الرّاية الكبيرة التي تعلوها كتلة كبيرة من الوَبَر الطويل، حيث كان سلاطين المماليك يعلّقونها أربعين يومًا على الطّبلخاناه قبل سفرهم أو خروجهم إلى المعركة أو الحملة العسكريّة. راجع: Dozey. I. p. 168 ، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص302.

أرسل السلطان الغوريّ إلى أمير المؤمنين[1] محمد المُتَوكّل[2] نفقة السفر على يد حُسام الدين الالواحي بوّاب الدّهيشة[3]. وكان السّاعي له في ذلك الأمير طومان[4] الدوادار الكبير[5]، ولولا هو[6] ما كان يُرسل له شيئًا، فإنّ القضاة الأربع، أرسل يقول لهم: اعملوا يَرْقَكم، ولم يُرسل لهم شيئًا من النّفقة، وقد حصل لهم غاية الكُلْفة والمشقّة، لأنّه[7] من حين سافر الأشرف برسباي[8]إلى آمد[9] سنة ست وثلاثين وثمانمائة[10]، لم يخرج الخلفاء ولا القضاة الأربع الى البلاد الشامية. وكان للقضاة الأربع والخليفة على السلطان عادة إذا سافر إلى البلاد [40ب] الشاميّة، يرسل لهم نفقة، فتغافل السلطان الغوري عن ذلك. ثمّ بعد أيام

[1] جاءت في الأصل [المومنين]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهكذا ستظهر لاحقًا في كلّ النّص.

[2] هو أبو عبدالله محمد بن يعقوب المُلقّب بالمتوكّل على الله، وآخر الخلفاء العباسيين، وصل إلى الخلافة العباسية عام 927هـ/1521م، وتوفي عام 950هـ/1543م. راجع: الصبّاغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص5.

[3] كلمة عربية تعني: خان أو وكالة أو مكان للتجارة في سوق تجاري. يُبالَغ في تحسينها حتى تصبح مُدهشة. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص76، وعبد الرحيم، التحفة البهية، ص36.

[4] هو آخر سلاطين المماليك في مصر (922هـ/ 1516م- 923هـ/ 1517 م). كانت مُدّة سلطنته على مصر ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا. وهو ابن أخي السلطان قانصوة الغوري، حيث عيّنه نائبًا عنه في مصر عند سفره إلى الشّام لمحاربة السلطان سليم. تولّى الحُكم في مصر بعد مقتل الغوريّ، وانهزم في معركة الريدانية حيث هرب إلى الأعراب وألقيَ القبض عليه وأُعْدِمَ شنقًا على يد السلطان سليم عام 923هـ/ 1517م. شغل طومان باي رتبة "دوادار كبير". راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص68-116، والزّركلي، الأعلام، خ3، ص336-337.

[5] وهي وظيفة الدوادارية: أي حَمْل دواة السلطان وإبلاغه بالرسائل الصادرة عنه وتقديم الشكاوى إليه. راجع: ابن زُنْبُل، آخرة الملوك، ص307.

[6] أي الأمير طومان باي.

[7] جاءت في الأصل [لأنّ]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[8] هو السلطان الأشرف سيف الدين برسباي، أحد كبار المماليك. توفي عام 841هـ/ 1438م.

[9] هي مدينة ديار بكر. تقع على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة. فتحها العرب المسلمون، وفيما بعد ضمّها العثمانيون إلى ملكهم. راجع: معجم البلدان ح2، ص494، وعبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص36.

[10] 863هـ/ 1433م.

أرسل إلى الخليفة سيفًا مُسقطًا بالذهب على يد شخص الزردكاشية[1]، وقد تكلّف الخليفة في هذه الحركة على مصرف يرقه وغير ذلك، نحو الخمسة آلاف دينار أو أكثر. وفي يوم الجمعة سابعه، خرج جماعة كثيرون من مماليك السلطان الغوري، وتوجهوا إلى السّفَر نحو البلاد الشاميّة، وقد نادى السلطان قبل ذلك، أنّ كل مَن جَهّزَ يرقه، يخرج ويسافر قبل خروج السلطان. وصار يخرج كل يوم جماعة مِن العسكر، وفي ذلك اليوم حضر خليفة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، وقد حضر يطلب مصلحة مِن السلطان. فلمّا مَثُل بين يديه قال له: اعمل يَرْقَكَ حتى تسافر صحبتي إلى حَلَب. فلمّا سمع ذلك تَعَلّلَ وأخبر أنه ضعيف، ولم يقدر يسافر. فحنق السلطان منه وألزمه السفر، ولم يقبل له عُذرًا، وأرسل يقول لخليفة سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه: اعمل يَرْقَكَ حتى تسافر صحبتي. فلمّا تحقّق القضاة سفر السلطان الغوري، أخذوا في عمل يرقهم، وعيّنوا معهم جماعة كثيرة من النّواب، فَتَقلّقُوا في أمر السّفر. فعند ذلك، فرضوا[2] القضاة الأربع على نوابهم مبلغًا له صورة على كل واحد منهم على قدر مقدرته، فقامت [41أ] الثائرة[3] على القضاة بسبب ذلك. ثمّ لمّا بلغ السلطان الغوري ذلك، فأنكر على القضاة هذه الفِعلة. ولمّا كان يوم الجمعة، طلع قاضي القضاة الشافعي، كمال الدين الطويل[4]، وصلّى بالناس صلاة الجمعة، ثمّ استأذن في الدخول على السلطان الغوري وهو بالدهيشة. فلمّا جلس بين يدي السلطان شرع يحلف له أنّه لم يُدْخِل في يده شئ مِمّا فرضوه على النّواب الذين يقيمون بمصر. فلمّا سمع السلطان الغوري ذلك قال: لا

[1] مُفردها "زردكاش". وتعني المسؤول عن صنع السلاح وصيانته. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص86.

[2] أي ألزَموا. في التحفة البهية، ص 37 جاءت " أفرضوا"، امّا في بدائع الزهور، ح5، ص34 فجاءت "أفردوا".

[3] في التحفة البهية، ص37 وردت "الأشَلة".

[4] هو محمد بن علي الطويل كان مولده عام 846هـ/ 1442م. توفي في القاهرة عام 933هـ/ 1526م ودُفن بتربة باب النصر هناك. راجع: شذرات الذهب، ج8، ص220.

تشوّشوا على أحد من النّواب، فالذي يسافر من تلقاء نفسه يسافر، والذي ما يسافر لا تلزموه السّفر. فَبَطُلَتْ تلك الحادثة الشنيعة ولله الحمد، بعد ما كان جماعة من النّواب شرعوا في بيع قماشهم وكتبهم، وقد حصل لهم الضّرر بسبب ما فرضوه عليهم. ثمّ عرض السلطان الغوري، الفرّاشين والبابيّة[1] والشُربداريّة[2] والزّردخانيّة[3] من النفطية وغير ذلك. وعيّنَ الأمير علم الدين، مهتار[4] الطبّالين وألزمه أن يصرف على مَن يسافر صُحبته من الطبّالين والزّمّارين من عنده، وقال له: أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة[5] عدة سنين، فأنْفِقْ عليهم مِن عندك، وإلاّ عندنا من يلي هذه الوظيفة. وكان قبل لمّا فرضوا القضاة على نوّابهم [42ب] مبلغًا مساعدة، فأفرد شمس الدين الظريف نقيب[6] القُرّاء على طائفة[7] القُرّاء والمؤذنين وألْزَمَ الوعّاظ أنْ يسافروا صحبته، كما فعل القضاة مع نوّابهم. وفي يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج ثقل[8] السلطان الغوري. وكان مُلخّص أمره، أنه

[1] هو لفظ روميّ معناه أبو الآباء. وهو لقب عام لجميع "الطشت خاناه" ممّن يعمل بالغسل والصّقل. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص28، وعبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص36.

[2] مفردها "شُربدار". وهو لقب يُطلق على مَن يتصدّى للخدمة بالشراب خاناه، وهو المكان المُعَد للأشربة المختلفة التي يحتاجها السلطان. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص97، وعبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص38.

[3] هم المسؤولون عن السجن المخصّص للأمراء وأصحاب الرّتب، أو عن السلاح والعتاد الحربيّ. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص86.

[4] كلمة فارسيّة تعني "الأكبر". وهو لقب يُطْلق على كبير كل طائفة من الغلمان، كمهتار الشراب خانه، ومهتار الطشت خاناه. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص146.

[5] جاءت في الأصل [الوضيفة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] هو الشخص المسؤول عن القُرّاء والوعّاظ والمؤذنين. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص38.

[7] في التحفة البهيّة، ص38، وردتْ "جماعة".

[8] أي طلب، كما جاء عند ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص35.

خرج من الميدان قبل طلوع الشمس، ونزل مِن حَدْرَة البقر[1]، وطلع من الصّليبة[2]. وكان ما اشتمل عليه خمسة عشر نوبة هِجْن بأكوار زَرْكَش[3]، وخمسة عشر نوبة بأكوار مخمل وكنابيش[4] زركش. وأمّا الخيول فثلاثمائة فرس بخُوَذ فولاذ مُلَوّن بالذهب، وغواشي مُخمل مُلَوّن مُزركش، وسروج ذهب، وسروج بداوي، وطبول بازات[5]. وكان في الثقل المذكور أربعة وعشرون كرسيًّا بأغشية حرير أصفر، وكان فيه رؤوس خيل خاص، منها: اثنان بأرقاب مزركش، وكنابيش، وسروج بلُّور، وعقيق مُحلاّة[6] بالذهب.

وكان مع هذا جماعة مِن خواصّ السلطان الغوري، مِن أمراء العشرات[7]، ورؤوس النوب بالزّينة العظيمة[8]، وبعض خُدّام مِن الطّواشية. ثمّ جاء الصّنجق[9] السلطاني وانجرّت

[1] تقع مكان دار البقر التي برسم السواقي السلطانية، والتي تقع ما بين القلعة وبين بركة الفيل، حيث سميت فيما بعد بحدرة البقر. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص38.

[2] هو شارع يبدأ من جهة المنشيّة وينتهي عند أوّل شارع حدرة الحناء قُبالة حارة بئر الوطاويط. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ط2، ص 313-316، والصبّاغ، المنح الرحمانيّة، ص260.

[3] والمعنى هو: إنّ الهِجن كانت مُزيّنة بأكوار مزخرفة ومزركشة بالتطريز. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص86.

[4] مفردها "كنبوش". وهو البرذعة التي توضع تحت سرج الفرس، وتوضع فوقها الغاشية وهي غطاء مزركش فوق البرذعة. والمقصود هنا: اللثام الذي يُغطّى به الوجه من الذّقن إلى الخيشوم خشية هواء الصباح البارد. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص131.

[5] هي الطّبول المُطَعّمة بالمينا. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص107.

[6] جاءت في الأصل [محلات]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاء في التحفة البهيّة "العشراوات". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص39.

[8] جاء في التحفة البهيّة "العظمى". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص39.

[9] أي العَلَم. أو اللواء والذي يُرْفَع فوق رأس السلطان في المواكب الرسميّة. وتُكتب بالسين أيضًا. راجع: عيسى، أحمد محمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص90.

الكوسات[1]، والخليفة، فكان أربع طبول، وأربع زمور، وعشر كوسات. وكان عادة طبل السلطان يكون فيه أربعين حَمْل مِن الكوسات. وانتظم الموكب واصطفّت العساكر والرّعية بسبب الفرحة [43أ]. فلمّا مرّ ذلك لَمْ يُعجِبْ أحدًا[2] مِن الناس، واستقلّوا الخيول الذي به، وقال مَن أدرك سفر السلطان برسباي: لمّا خرج إلى آمد، كان[3] مِن جملة ما في موكبه أربعمائة فرس مُزيّنة بالخُوَد الفولاذ، وأين هذا مِن مولانا السلطان عثمان- رحمه الله على توالي الأزمان، الآتي ذكره إنْ شاء الله تعالى في هذا الكتاب- حين خرج إلى قتال القَرَق[4]، فإنه خَرَّجَ ثقل وِطاقة، على ما سَمِعْتُ، على خمسة آلآف بغل وإكديش. فنسأل الله تعالى أنْ يديم المُلك فيهم إلى آخر الزمان. وفي ذلك اليوم خرج أمير المؤمنين المتوكّل على الله[5]، وكان أمامه[6] طَبْلَيْن وزمْرَيْن، ونفير. ولم يخرج في ذلك اليوم غير وِطاق السلطان الغوري فقط، وكانت العادة القديمة أنْ يخرج السلطان عَقِب وِطاقه، ثمّ تتابعت وِطاقات الأمراء بعده شيئًا فشيئًا. فلمْ يمشِ السلطان الغوري على النظام القديم، وخالف عوائد الملوك في أشياء كثيرة، منها: أنه لم يعلق الجاليش على الطبلخاناه[7]، كعادة الملوك السالفة، فإنّهم يعلّقون الجاليش، ويعرضون العسكر، ثمّ

[1] الكوسات: هي الصّنج وهي مصنوعة من النّحاس، تشبه التّرس الصغير ويُدَقُّ بإحداها على الآخر مع الطُّبول بإيقاع مُعيّن في المواكب السلطانيّة.

[2] جاء في الأصل [أحد]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] جاء في التحفة البهيّة "فكان". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص39.

[4] القَرَق أو القوزاق، هي دولة ألبانيا اليوم. وتعني بالروسيّة أو القيرغيزيّة " البدو"، وكذلك المغامرين أو الجوّالة. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص347-238.

[5] هو آخر خلفاء بني العباس، توفي عام 950هـ/ 1543م. راجع: الصباغ، المنح الرحمانية، ص 107، وكذلك تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص5.

[6] جاء في التحفة البهيّة "قُدّامه". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص39.

[7] الفِرقة الموسيقيّة السلطانيّة والتي تصاحب السلطان في الأسفار والحروب. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص106-107، وعبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص40.

ينفق عليهم نفقة السفر، ويستمر الجاليش مُعلّقًا إلى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين. قلتُ: وقد حُكِيَ عن السلطان برقوق[1] لمّا جرّد لتمرلنك[2]، خرج وِطاقه [44ب] من باب الميدان[3].

وكان الظاهر برقوق يرتب وِطاقه[4] بنفسه وهو راكب على فرسه، وفي يده طَبر[5]، وصار يُرَتّب بنفسه مِن الميدان إلى الضوّة[6]. ويُحكى أيضًا أنّ السلاطين المتقدّمة، كانوا يخرجون إلى البلاد الشاميّة عندما تنتقل الشمس إلى بُرج الحَمَل، في أوّل[7] فصل الربيع والوقت رطب. وأمّا السلطان الغوري، فإنه سافر في قوة الحَرّ والشمس في بُرج الأسد، فحصل للعسكر مَشقّة في الطريق. وكانت العادة القديمة أنّ السلطان إذا خرج يخرج من على التُّرَب ولا يشقّ القاهرة إلاّ عند العَوْدِ. وكان السلطان الغوريّ لا يقتدي إلاّ برأي نفسه في جميع أموره[8]، لأنه خرج من القاهرة من القصبة كما سيأتي بيانه. وفي يوم الجمعة رابع عشره، نزل السلطان الغوريّ من القلعة وتوجّه إلى القِرافة[9] وزار قبر الإمام

[1] هو الظاهر سيف الدين برقوق توفي عام 1396 م. وقد كان سلطانًا على مصر وسورية. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص40.

[2] جاء في التحفة البهيّة "تيمورلنك". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص40.

[3] هو أحد أبواب القصر الغربيّ. سُمّي بذلك لأنه يُفتَح على ساحة الميدان للقصر الغربيّ. راجع: المقريزيّ، المواعظ والإعتبار، ج2، ص496.

[4] جاء في بدائع الزهور"طَلَبه". راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص37.

[5] الطّبْر: كلمة فارسيّة تعني الفأس. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص106.

[6] جاءت في الأصل [الصوّة]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهي المنطقة الممتدّة بين الطبلخاناه السلطانية وباب القلعة والمعروف بباب المدرج على رأس الضوّة. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقيّة، ج5، ص، 98.

[7] جاء في التحفة البهيّة "أوائل". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص40.

[8] جاء في التحفة البهيّة "الأمور". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهيّة، ص40.

[9] تقع شرقي الفسطاط، وهي مكان دفن الموتى. وهي اثنتان: القِرافة الكبرى وتقع محل "حوش أبي علي"، والقِرافة الصغرى وتقع محل "الإمام الشافعي". راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص21.

الشافعي[1] رضي الله عنه والإمام اللّيث[2] رضي الله عنه، وكان صحبته ولده أمير آخوركبير[3]. وفي ذلك اليوم برز سنيح الغوري[4] وتوجه إلى الريدانيّة، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم. ولمّا كان يوم السبت خامس عشره، خرج السلطان الغوري للبلاد الشاميّة والحلبيّة، وللناس مُدّة طويلة لم يروا سلطانًا خرج إلى البلاد الشاميّة على هذا الوجه مِن حين توجّه الأشرف [45أ] برسباي العلائي إلى آمد. وكان سفر برسباي المذكور في سنة ست وثلاثين وثمانمائة[5]، وكان بين المُدّتَيْن نحوًا من سبعة وثمانين سنة. ولمّا كان صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر المقدّمين عند السلطان الغوري في الميدان، وهم في غاية الأبّهة، فخلع[6] السلطان على جميع الأكابر مِن أهل دولته على قدر مراتبهم وطبقاتهم. ثمّ خلع على المباشرين[7] كذلك، ثمّ خلع على القضاة كذلك، ثمّ مِن بعدهم خرج أمير المؤمنين المتوكّل على الله بن المُستمسك بالله يعقوب العباسي، وهو لابس العمامة

[1] هو محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي، أحد الأئمة الأربعة المعروفين عند أهل السنّة، وهو صاحب "المذهب الشافعي". وُلِد في عزّة عام 150هـ/ 767م وتوفي في مصر عام 204هـ/ 820م. راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص251، ومبارك، علي، ج6، ص25.

[2] هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، إمام أهل مصر في عصره في الحديث والفقه. أصله من خراسان، وُلِد في قلقشنده عام 94هـ/ 713م وتوفي في القاهرة عام 175هـ/ 791م. راجع: الزركلي، الأعلام، ج6، ص115، ابن خلكان، وفيّات الأعيان، ج1، ص438.

[3] هو الناظر في أمور الإسطبلات والمناخات السلطانية، ورئيس العاملين بها. راجع: سليمان، أحمد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي، ص 11-12، وعبد الرحيم، التحفة البهية، ص41.

[4] هو مخزن طعام السلطان والمواد الغذائية اللازمة لسفره. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص93.

[5] 836هـ/ 1432م.

[6] جاءت في التحفة البهية "فأخلع". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص41.

[7] هم الموظفون الذين يتولّون الأمور الإدارية. راجع: عيسى، أحمد محمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص140.

السوداء البغداديّة التي بالعذبتَيْن[1] وعليه قِبا بعلبكي، وطراز أسود حرير. ثمّ مشت الجنائب[2]، فكانوا طُولتَيْن[3] خيل بكنابيش، وسروج ذهب، وبعضهم سروج بلّور، وشئ مِن عقيق. ثم مِن بعدهم جماعة مِن رؤوس النوب مشاة، والجاوشية، والطبردارية[4]، مشاة أمامه بالأطبار[5]، وبقية العسكر[6] على طبقاتهم، ومشى البخوريّ بالمجمرة يبخّر. ثمّ أقبل السلطان الغوري وكان أمامه الخليفة بنحو من عشرين خطوة، وكان السلطان راكبًا على فرس شقراء، بسرج ذهب وكنبوش، وعلى رأسه كلوته[7]، وهي الآن يقال لها زنت، وهو لابس قَبَا بعلبكيّ أبيض بطراز ذهب، على حرير أسود عريض، قيل أنّ فيه [46ب] خمسمائة مِثقال ذهب.

وكان في ذلك اليوم في غاية الأبّهة والعظمة، فإنه كان حسن الهيئة، والصنجق السلطاني على رأسه، ومقدم المماليك سنبل[8] العثمانيّ خلفه، وصحبته السلحداريّة[9]، والجمّ الكبير

[1] هي عمامة مصنوعة في بغداد. سُمّيتْ بذلك لأنّ لها طرفين مُتدلّيان من فوق الرقبة او القفا. وقد كان يلبسها الخلفاء العباسيون. راجع: عيسى، أحمد محمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص108.

[2] جاءت في الأصل [الجنايب]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في التحفة البهية " طوالتَيْن". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص41.

[4] كلمة فارسية، مفردها "طبردار"، وتعني الشخص الذي يحمل الطبر (الفأس) حول السلطان عند ركوبه المراكب، أي حامل الفأس. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص106.

[5] مفردها "الإطبارة"، وتعني البلطة التي يستعملها المحارب لتحطيم ما يعترض طريقه. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص102.

[6] جاءت في التحفة البهية "العساكر". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص42.

[7] جاءت في بدائع الزهور "كِلْفتاة". راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ح5، ص41.

[8] ساقطة في التحفة البهية. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص42.

[9] أي حامل السلاح أو السّيف من الفرسان. وهي واحدة من ست فِرَق في الجيش العثماني. راجع: الصباغ، المنح الرحمانية، ص275.

من الخاصكيّة[1] فدخلوا من باب زويلة[2]، وشقّوا القاهرة في ذلك الموكب، فارتجّت الناس في هذا اليوم. وضجّت العوام له بالدعاء، وانطلقت النساء بالزغاريد[3] مِن الطّيقان، فاستمرّ في ذلك الموكب حتى خرج من باب النّصر[4]، وكان يومًا مشهودًا. ثمّ في عقيب ذلك اليوم، نزلت حوشخاناه[5] ملآنة من الذهب والفضة. قيل: إنّ ضِمنها ألف ألف خارجًا عن المعادن، ثمّ فرّغ الخزائن من الأموال التى جمعها من أوائل سلطنته إلى أنْ خرج في هذه التجريدة، وفرّغ أيضًا حواصل الذّخيرة، وأخذ ما فيها من التُّحف وآلات السلاح الفاخرة مِمّا كان بها مِن ذخائر الملوك السّالفة، ونزل صُحبة ذلك كتاب الخزينة والخزندارية[6]، فكانت تلك الحوشخاناه على خمسين جَمَل. ثمّ نزلتْ الزردخاناه، وهي مُحَمّلة على مائة جَمَل، وأمامها طَبْلَيْن وزمرَيْن إلى أنْ وصلوا إلى الوِطاق. وفي يوم الأحد سادس عشره، أرسل السلطان الغوريّ نَادَى في القاهرة، أنّ السلطان يرحل يوم الجمعة عشرينه، فلا يتأخّر [47أ] مِن العسكر الذي تعيّن أحد، ولا يحتجّ بحجّة ولا عُذر. فلمّا أقام السلطان في الوِطاق، وعيّن جماعة مِن نوّاب المذاهب الأربعة، وعيّن جماعة مِن المؤذّنين، والقُرّاء،

[1] أي خاصّة السلطان من المماليك، وهو الذي قام شخصيًا بالإشراف على تربيتهم. راجع: ابن زنبل، آخرة المماليك، ص306.

[2] هو أحد أبواب القاهرة من جهة الجنوب. وقد سُمّي بذلك نسبة إلى قبيلة زويلة الأمازيغيّة البربريّة. وهو يُعتبر أضخم وأكبر أبواب القاهرة. راجع: المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج2، ص77.

[3] جاءت في الأصل [بالزغاريت]، والصواب ما ثبت أعلاه. راجع: ابن منظور، لسان العرب، مادّة "زَغْرَدَ".

[4] هو أحد ابواب القاهرة الثمانية من الجهة البحرية. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ط2، ج1، ص36.

[5] أي المكان الذي تُخزن فيه المواد. والكلمة مكوّنة من مقطعَيْن: "حوش" و "خانة". وحوشخاناه: أي المواد المرسلة في أكياس. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص 42.

[6] هو اسم مركّب من "خزانة" وهي مكان خزن المال، و "دار" أي المُمْسِك، ومفردها "خزندار"، وهو الشخص الذي يتحدّث على خزانة السلطان أو الأمير. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص68.

والأطباء، والكحّالين[1]، والجرّاحين[2]. ولمّا كان الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر، رحل مِن الأمراء المقدّمين ثلاثة. وفي يوم الأربعاء، تاسع عشره، رحل مِن الأمراء المقدّمين ثلاثة. وفي يوم الخميس عشرينه رحل مِن الأمراء المقدّمين ثلاثة. ويُقال إنّ عِدّة المماليك الذين خرجوا في هذه التّجريدة مِن القرانصة[3] والجلبان وأولاد الناس[4] خمسة آلاف. وقيل: إنه تأخر بمصر من المماليك القرانصة، والعواجز، والشيوخ، والمماليك الجلبان في الطباق، والقلعة، وأولاد الناس، نحو ألفَي نفر على ما قيل. وشتّان ما بينه وبين المرحوم، مولانا السلطان عثمان، أسكنه الله أعلى فراديس الجِنان، وذلك حين خروجه لقتال القَزَق الآتي ذكره، إنْ شاء الله تعالى. فكان خروجه في سنة ثلاثين وألف[5]، فإنه خرج في ستمائة ألف. وكان معه مَن جُملة مماليكه شخص يُدعى دُلاَوَر باشا[6]، كان معه من قسم المماليك اثْنَيْ عشر ألف مملوك، ما بين رُماة وغير ذلك، على ما سمعتُ، وذلك خلاف أتباعه الخارجين على مُلكه. فأسأل الله تعالى أنْ يديم [48ب] دولتهم إلى يوم القيام، بجاه خير الأنام. وفي يوم الجمعة حادي عشرينه، وصل كِتاب مِن عند مولانا السلطان سليم

[1] مُفردها "كحّال"، وهو طبيب العيون دون سائر الجسد. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 365.

[2] مُفردها "جرّاح"، أي الطبيب المختص بالجراحة. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 365.

[3] هم المماليك القدامى الذين ورثهم السلطان الغوري. وكان منهم كبار المماليك والأمراء والمقدّمين. راجع: عبد الرحيم، التحفة الهية، ص34، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص76-77.

[4] هم فئة من المجتمع تعود في أصولها إلى آباء من المماليك وأمّهات مصريات. راجع: عبد الرحيم، التحفة الهية، ص33.

[5] 1030هـ/ 1621م.

[6] هو الصدر الأعظم في الدولة العثمانية من أصل كرواتي. تولّى عدة مناصب منها: ولاية بغداد وديار بكر. قُتل عام1031هـ/ 1622م. راجع: الصباغ، المنح الرحمانية، ص 350-351، وكذلك: E. I. 2. vol. II, P. 285. art "Dilawar Pacha"

يخاطبه فيه بألفاظ رفيقة، منها: إنّك والدي، وسألتك الدعاء، وإنّي ما منعتُ التّجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة، وإنّما هم نفروا من معاملتكم في الذهب والفضة، فامْتنعوا مِن جَلْبِ المماليك إليكم، وإنّ البلاد التي[1] أخذتها مِن علي دُوَلات أعيدها لكم، وجميع ما تَرَوْه فعلناه. فلمّا سمع السلطان الغوريّ أحضر الأمراء المقدّمين، وقرأ عليهم كِتاب السلطان سليم، فانْشرح الأمراء المقدّمون والسلطان الغوريّ بهذا الخبر، واستبشروا بالصّلح والعَوْدِ إلى الأوطان عن قريب. وكان هذا كله من حذق مولانا السلطان سليم، حتى يبلغ بذلك مقاصده، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد. وفي عقيب ذلك حضر الأمير إينال باي دوادارسكين الذي كان توجّه إلى حَلَب، بسبب الكشف عن أخبار مولانا السلطان سليم، فوجد السلطان الغوريّ، قد برز خيامه إلى السّفر، وخرج من القاهرة، فأخبر أنّ قاصد مولانا السلطان يقصد الصّلح بينه وبين السلطان الغوريّ، فقّدم إينال باي تقْدِمة حافلة. ومِمّا وقع للسلطان الغوريّ [49أ] وهو بالوِطاق، أنّه ليلة رحيله من الريدانيّة خلع على الأمير طومان باي دوادار كبير نائبًا عنه، وخلع على الأمراء والحُجّاب والنّواب وقرّرَ في بعض الوظائف. ومِمّا قَرّرَهُ في وظيفة الحِسْبة الشّريف القاضي بركات بن موسى[2]، وجعله مُتحدثًا في جميع أمور السلطنة. ثمّ إنه في ليلة رحيله أُوقِدت المشاعل، فطارت شرارة على خيمة السلطان فاحترق منها جانبًا، فتفاءل الناس بذلك. وأمّا الزيني بركات المذكور، فتضاعفت عظمته إلى الغاية، وصار في مقام[3] نظام المُلك[4]، وهو المتصرّف، والأمير الدوادار الكبير معه، كاللولب يدور به كيف شاء، وخلع على

[1] جاءت في الأصل [الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] هو بركات بن موسى الزّيني المحتسب. جعله السلطان الغوري متحدّثًا في جميع أمور السلطنة حيث أصبح هو المتصرّف في أمور البلاد. راجع: عبد الرحيم، التحفة الهية، ص45.

[3] جاءت في الأصل [نظام مقام]، وهذ غير صحيح. والصواب ما ثبت أعلاه. هكذا أيضًا في التحفة الهية، ص45.

[4] هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، وُلِد عام 408هـ/ 1018م. أصله من نواحي "طوس". لُقّب بقوام الدين ونظام المُلك، اغتاله ديلمى عام484هـ/ 1092م، ودُفِن في أصبهان.

الأمير ألماس وولاّه والي القاهرة[1]. ولمّا رجع الأمير الدوادار مِن عند السلطان الغوريّ، وشقّ من الصليبة في موكب حافل، وأمامه المشاعليّة[2] تنادي بالأمان والاطمئنان، والبيع والشراء، وأنْ لا أحدًا يمشي بسلاح مِن بعد العشاء، وأنْ لا مملوكًا ولا غلامًا، يشوّش على مُتسبّب، وأنّ مَنْ كان له ظلامة[3] أو حقّ شرعيّ على أحد، ولمْ يدفعْه، فعليه بِباب الدوادار. فارتفعت له أصوات الناس بالدّعاء، وكان الأمير الدوادار مُحِبًّا للرعيّة، قليل الأذى في حقّ الناس. **قال ابن إياس**[4] **فَيَشْعُر**[5]:

[50ب] لقد شرّفَ الأكوانَ نائبُ غيبةٍ أميـــرُدوادارُ إلـــى النّهـــي والأمْـــرِ
كـــريمٌ شـــجاعٌ فـــي المجـــامعِ فـــارسٌ لـــه نصـــرةٌ فـــي الحـــربِ بـــالبيض
إذا يشـــتكي المظلـــومُ مِـــن جَـــوْرِ ظـــالمٍ لـــهُ طلعـــةٌ بالعـــدلِ تُـــؤذَنُ بـــالفجرِ
فيـــا رَبّ كُـــنْ عَوْنًـــا لـــهُ ومُســـاعدًا علـى كـلِّ مـا يخشـاهُ مِـن حـادثِ

وفي يوم السّبت ثاني عشرين ربيع الآخر، رحل السلطان الغوريّ من المُخَيّم بالريدانيّة، وتوجّه إلى خانقاه سرياقوس[6]، فأقام بها يومًا وليلةً، ورحل عنها يوم الأحد. وفي يوم

[1] هو مدير أمن القاهرة، ويُعرف أيضًا بزعيم مصر، و"الصوباشي". راجع: عبد اللطيف ليلى، الإدارة المالية في مصر العثمانية، ص229-235.

[2] مفردها "مشاعليّ". وهي مجموعة من الجُند تحمل المشاعل ليلاً وتطوف بها في شوارع المدن أمام الأمراء وأثناء الاحتفالات. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، ص 397.

[3] أي مَظْلَمَة.

[4] هو محمد بن أحمد بن إياس الحنفي أبو البركات، أصله من المماليك، وُلد وتوفي في مصر 852هـ/ 1448م-930هـ/ 1524م. مؤرخ معروف، عاصر دخول العثمانيين لمصر وأرّخ ذلك. من أشهر مؤلفاته "بدائع زهور في الوقائع الدهور". راجع: الرزركلي، الأعلام، ج6، ص232-233.

[5] ابن إياس، بدائع زهور في الوقائع الدهور، ج5، ص46-47.

[6] الخانقاه السرياقوسية، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون للصوفيّة عام 723هـ/ 1323م، وتُسمّى أيضًا "الخانكاه". وسرياقوس هي إحدى "مراكز شبين القناطر" في محافظة القليوبية. راجع: عبد الرحيم، لطائف أخبار الأوّل، ص305، ص339، والصبّاغ، المنح الرحمانية، 304.

الاثنين رابع عشرينه، رسم الأمير الدوادار للأمراء المقدّمين الذين عيّنهم الغوريّ إلى الشرقيّة، والغربيّة، بأنْ يخرجوا ويسافروا لأجل حِفْظ البلاد مِن فساد العُربان فامْتثلوا أمْرَهُ. ثمّ نادى أيضًا للمماليك السلطانيّة بذلك. وفي جمادى الأولى، خرج الأمير مامي الصغير المُحتسب[1]، وسافر ولحق السلطان الغوريّ، وخرج صُحبته صبيّ صغير عمره ثلاثة عشر سنة، يُقال له قاسم بك بن أحمد بن بايزيد بن عثمان خان. وكان عَمّهُ مولانا السلطان سليم بن بايزيد لمّا قتل أخاه أحمد بك، فَفَرّ ابنه قاسم هذا هو وأولاده ودخلوا إلى حَلَب في الخفية، وأقام بها إلى أنْ خرج السلطان الغوريّ إلى البلاد الشاميّة، فأخَذَهُ صُحبته ليبلغ بذلك مقاصده، فلمْ يُفِد ذلك [51أ] شيئًا. ومن الحوادث أنّ ألماس والي القاهرة، أفشى[2] الظّلم، لأنه كان يتّفق مع أرباب الأدراك[3] والحقدان[4]، يحضروا سكان الخطط والحارات، لأجل عمارة الدّروب، فَيُجْبُوا[5] منهم الدّراهم، كل إنسان على قَدْر حاله فَجَبَوا[6] من الناس أموالاً لها صورة. فكانت الحقدا[ن][7] تقدر على أهل الأماكن الدّراهم بحسب ما يختاروه من ذلك، فإذا هرب

[1] لم يُعثَر له على ترجمة سوى أنه كان من أكابر الأمراء الجراكسة (أي الصناجق). شارك سنان باشا في حملته على اليمن، وعُرِفَ عنه الحزم والشجاعة وإرهاب العُربان. والمحتسب: أي أمير العسكر والمتكلّم عن الحروب. راجع: النهروالي، البرق اليماني، ص213، والصباغ، المنح الرحمانية، ص180.

[2] جاءت في التحفة البهية "أنشأ". راجع: عبد الرحيم التحفة البهية، ص46.

[3] مُفردها "دَرَك"، أي الحارس. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص101، وعبد الرحيم، الريف المصري، ص57.

[4] جاءت في التحفة البهية، ص47، وفي بدائع الزهور، ج5، ص54 "الخفراء". ومفردها خفير وغفير، وتعني الحارس الذي يحرس القرية وزراعتها، أو يحمي منطقة أمنيّة تُعرف بالدَرَك. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص47.

[5] جاءت في الأصل [فيجيبوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص47.

[6] جاءت في الأصل [فجبا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] أي الحُرّاس. وقد سبق ذِكرها أعلاه.

صاحب الدار سَمَّرَوا[1] على أولاده حتى يحضر صاحب البيت ويدفع ما قدّروه عليه، وكذلك المرأة الأرملة حتى تؤدّي[2] ما قُدّر عليها أو تموت جوعًا وعطشًا، وكذلك بيوت الأكابر يقدّروا[3] عليها الخمسة ذهب، والعشرة، بحسب اجتهادهم. وكان ذلك بِخطّ المقس[4]، وخط باب البحر[5]، وسُوَيْقَة اللبن[6]، والحُسَيْنيّة[7]، وسوق الدُّرّيس[8] وخطّ بِركة الرّطليّ[9]، وغير ذلك مِن الأماكن والخطط، ففعلوا في هذه الحركة ما لا فِعْلُهُ هُنَاك مِن وجوه الظُّلم، وهم يزعمون أنّ بذلك نَفْعًا للمسلمين بعمارة الدّروب. ثمّ أراد الوالي المذكور أنْ يحيي جامع طولون، ومشهد السّيدة نفيسة، وجميع الأماكن والحوانيت[10] التي هناك، وزعموا أنهم ينشؤوا سورًا على حَدْرَة ابن قُمَيْحَة[11] إلى أرباب القِرافة، وذلك حِيلة

[1] جاءت في الأصل [سمر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. راجع: ابن إياس، بدائع زهور في الوقائع الدهور، ج5، ص54.

[2] جاءت في التحفة البهية، ص47 "تدفع".

[3] جاءت في التحفة البهية، ص47 "يُقرّروا".

[4] جاءت في الأصل [خط المقدس]، والصواب ما ثبت أعلاه. وخطّ المقس: هو خط مشهور في ذلك العصر، وموضعه الآن سكة حديد القاهرة. راجع: عيسى، أحمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص 152.

[5] هو أحد الأبواب التي كانت موجودة بالقصر الكبير الشرقي، هُدِم في أيام الملك الظاهر رُكن الدين بيبرس البُندُقداري. راجع: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص425-427.

[6] تصغير لسوق، مُخصّصة لبيع اللبن، وتقع بين خط باب البحر والحسينيّة. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص47.

[7] منطقة سكنيّة جديدة نشأت في العصر العثماني خارج باب الفتوح. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص47.

[8] هو سوق قريب من بركة الرطلي. راجع: المصدر السابق.

[9] جاءت في الأصل [الرطيلي]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهي تقع في منطقة الفجّالة، سُمّيتْ بذلك لأنه كان يسكنها شخص يصنع أوزان الأرطال الحديدية. وتُسمّى أيضاً بركة الحاجب وبركة الطوّابة لأنه يُصنع فيها الطّوب. والبركة غير موجودة هذه الأيام. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج3، ص 264-265.

[10] جاءت في التحفة البهية، ص47 "الدّكاكين".

[11] كانت على امتداد خط باب القِرافة. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص48.

على أخْذِ أموال الناس. فلمّا بلغ الدّوادار ذلك، زَجَرَ ألماس والي القاهرة المذكور، [52ب] وهدّدَهُ، فحلف الدّوادار أيْمانًا أنه ما له عِلم بذلك، وأبطل هذه الحادثة المهُولة. ومِن الحوادث أنّ جماعة حاجب الحُجّاب[1]، قصدوا أنْ يحيوا[2] مظلمة أخرى بأن يحيوا مِن أملاك بركة الرّطليّ، بسبب قطع طين فم البِركة المذكورة مالاً بزيادة، فإنه قد عَلا جدًا، حتى امْتنع الماءُ مِن الدخول إليها. فلمّا بلغ الدّوادار ذلك أيضًا أبطله، وعيّن شخصًا لفتح فم البِركة، وأنْ يأخذ مصرف ذلك مِن مال وقف الحاجب التي البِركة مِن جُملة أوقافه. ثمّ إنّ الأمير الدّوادار، كان يركب في كل يوم، ومعه العسكر، ويتوجّه إلى بِركة الحاج الشّريف[3]، فإذا رجع دخل من باب النّصر، وكان ذلك كلّه خوفًا مِن العرب والفلاحين حتى لا يطمعوا في شئ من البلاد[4].

ومن الحوادث أنّ الأمير الدّوادار، نائب الغيبة المذكور، منع الناس أنْ لا يسكنوا الجسر الذي بِبِركة الرّطليّ الذي صار غَيْطًا[5] لِعَمّ مؤلّفه[6]، وهو المرحوم المغفور له الشّيخ تاج العارفين الصدّيقي رحمه الله، وهو تجاه منزل مؤلّفه، وأيضًا مِن السّكنى في المسطاحي[7]، ومنع المراكب أنْ لا يدخلوا إلى البِركة المذكورة، ولا الخليج قاطبة، وعمّر جسرًا على خليج

[1] مُفردها حاجب، وهي وظيفة كبيرة في العصر المملوكي. من وظائفه الإشراف على مواكب السلطان، وتقديم الرّسُل والضيوف إليه، والمسؤول عن الحُجّاب يُسمّى "حاجب الحُجّاب". راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص133، وعبد الرحيم، التحفة البهية، ص48.

[2] جاءت في التحفة البهية، ص48 "يُحدثوا".

[3] تقع شمال القاهرة، وقد كان مُتنزّهًا في عهد الفاطميين والأيوبيين. راجع: عيسى، أحمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص33.

[4] جاءت في التحفة البهية، ص48 "البلد".

[5] الحقل أو المزرعة عند أهل مصر.

[6] أي عمّ البكري الصدّيقي، صاحب هذا المؤلف الذي بين أيدينا.

[7] جاءت في التحفة البهية، ص49 "المصطاحي" بالصاد. وهي منطقة ببركة الرّطلي كان يسكنها الناس.

الزّينبيّة[1]، وعند قنطرة الحبش[2]، فآل أمر الجزيرة الوسطى إلى [53أ] الخَراب، ولم يسكن بها أحد، ومُنِع المقاصفية أنْ لا يَنْصُبوا مقصفًا في الجسر، ولا في الزّينبيّة، فتعطّلتْ تلك الجهات، وتعطّلتْ بيوت المسطاحي، وحِكر الشّامي[3]، وقد صار الآن كومًا، وهو ما بين بِركة القَرَع[4] والخليج الحاكمي[5]، وصارت بيوت بِركة الرّطلي في ذلك الزمان خاوية على عروشها، ولا سيّما بيوت أولاد الجيعان[6]، وبيت كاتم السّر[7]، وغير ذلك من بيوت الأعيان. فخسر الناس أجر أماكنهم، وكلّم القاضي بركات بن موسى المُحتسب الأمير الدّوادار، أن يسمح للناس في دخول المراكب على العادة القديمة، وأن يسكن الجسر، فأبى ذلك، وتعلّل بأنّ العوامّ يفسدون نساء الآغاوات[8] المسافرين صحبة السلطان الغوريّ. ثمّ إنه في في آخر السّنة، سمح لبعض البيّاعين أن يدخلوا بمراكبهم، فلمّا دخلوا لم يجدوا أحدًا يبيعون له. ثمّ إنّ الجسر والجزيرة، وتلك الجهات، كَبِركة الرّطلي، هُجِروا وتُرِكوا وصاروا خرابًا إلى أن سكن الأستاذ الأعظم الجد الشّيخ محمد الصدّيقي رحمه الله تعالى، هو وأولاده

[1] جاءت في التحفة البهية، ص49 "الزّنيّة".

[2] جاءت في التحفة البهية، ص49 "الجبس". وهي قنطرة كانت قائمة على خليج الزينية أو الزينبيّة الذي كان يصبّ في بِركة الفيل. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص49.

[3] يقع هذا الحِكر في جهة بركة الرّطلي. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص49.

[4] هي المعروفة ببِركة الحاجب في أرض الطّبّالة. وبِركة الحاجب هي بِركة الرّطليّ أيضًا وبركة الطّوابة.

[5] سُمّي كذلك في العصر المملوكي على يد العامّة ظنًّا منهم أنّ الخليفة الحاكم بأمر الله هو الذي أمر بحفره. وله أسماء أخرى مثل: الخليج الكبير وخليج القاهرة وخليج مصر وخليج اللؤلؤة. راجع: الشّشتاوي، مُتنزّهات القاهرة في العصرَيْن المملوكي والعثماني، ص187-226.

[6] هي أسرة ذات مكانة عريقة في العصر المملوكي. صادر أملاكها خاير بك واستأصل أموالهم بعدما كانوا في عِزّة من زمن السلطان قايتباي إلى خايربك. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص 148-316.

[7] أي كاتم أسرار السلطان، وكانت وظيفته أن يوقّع نيابة عن الملك. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص49.

[8] مُفردها آغا. وهي كلمة تُركية مُحرّفة عن أصلها الفارسيّ، ومعناها الأب أو العم أو الأخ الكبير أو السيّد الآمر. ورئيسهم يُسمّى قُرّة آغا أي كبير الآغوات. راجع: الخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص11-13.

فأحيا بِركة الرّطلي المذكورة، وجِهاتها واطْمأنّت الناس به، وسكنوا إلى جانبه. ومن الحوادث في غيبة السلطان الغوريّ أنّ الأمير ألماس والي الشرطة، [54ب] صار يَحْجُر على الناس بأنْ يُعَمّروا على الحارات، والأزقّة دروبًا، فجعل دَرْبًا في رأس سوق الدُّرّيس، وقد دُثِر، ودَرْبًا في الحُسَينيّة، ودَرْبًا على قنطرة الحاجب، وقد دُثِرَ أيضًا، ودَرْبًا عند بِركة الغرّابين[1]، وآخر عند خوخة القطّانين[2] بالقرب مِن منزل مؤلفه[3]، ودَرْبًا آخر عند المقياس[4]، وَسَدَّ عِدّة خُوَخ كانت بالقاهرة، وصار على رؤوس الناس طَيَرَة بسبب المناسر[5] والحريق، وأمر أيضًا ألماس المذكور بأنْ يُعَلّقوا على كل دُكّان قنديلاً، وأنْ لا أحد يخرج مِن منزله بعد العشاء، ولا يمشي بسلاح. ومِن الوقائع اللطيفة أنّ الأمير الدّوادار لم يحصل منه أذِيّة لأحد مِن الرّعيّة، ولا مِن الأجناد، وأبْطَلَ حوادث كانت على عهد السلاطين السابقة. وفي يوم الثلاثاء خامس عشرين ربيع الآخر، وصل السلطان الغوريّ إلى الصّالحيّة، ثمّ توجّه إلى قَطْيَا[6]، فلمّا وصل إليها، لاقاه النائب بها، ومَدّ له مَدّة حافلة. وفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى، وصل السلطان الغوريّ إلى مدينة غَزّة، فلمّا وصل لاقاه النائب بها، وفعل معه كما فعل نائب قَطْيَا، ورحل عنها. ثمّ توجّه إلى جِهة الشّام[7]،

[1] وتُعرف ببركة الشّقاف، وهي على شكل مستطيل ومساحتها حوالي عشرة أفدنة. تغيّر اسمها إلى بركة الغرّابين في أواخر العصر المملوكي، ثمّ ببركة البرقان. دُمّرتْ في زمن الخديوي إسماعيل. راجع: الشّشتاوي، مُتنزّهات القاهرة في العصرَيْن المملوكي والعثماني، ص142-144.

[2] كانت قائمة في منطقة بركة الرّطلي. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص50.

[3] أي منزل مؤلف المخطوطة التي بين أيدنا.

[4] جاءت في التحفة البهية، ص50 "المقس". ولعلّ المؤرخ يقصد خط المقس الذي سبق ذِكره.

[5] مُفردها منسر، ويُقصد به بالعاميّة جماعات اللصوص، وفي الأصل فِرق من الجنود، أو مجموعة من الخيل. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص172.

[6] تقع بالقرب من محطّة الرّمانة على الطريق بين الشّام ومصر، بين القنطرة والعريش. راجع: رمزي، محمد، القاموس الجغرافي، ص350.

[7] أي مدينة دمشق حيث استقبله نائبها.

فوصل إليها يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة، فلاقاهُ سيباي النائب بها، فدخل في موكبه وأمامه[1] [55أ] الخليفة والقضاة الأربع، وسائر الأمراء، وأرباب الوظائف، والجَمّ الكبير من العسكر. وكان على رأسه القُبّة[2] والطّير[3]، كما جَرَتْ به عوائد الملوك من قديم الزمان، وزُيّنَتْ له مدينة دمشق، وفُرِش له تحت حوافر فرسه الشّقق الحرير، وازدحمتْ عليه المماليك، بسبب نُثّار[4] الذّهب والفضّة، فكاد السلطان الغوريّ أنْ يسقط من على ظهر فرسه من شدة الازدحام. ثمّ دخل مِن باب النّصر الذي بمدينة دمشق، وتوجّه إلى المسطبة[5] التي يقال لها مسطبة السلطان، وهي بالقابول[6] هناك[7]، ورسم لبعض عمّال[8] دمشق بعمارتها، وكانت تشّققت مِن قِدَم الزمان عليها، هذا والموكب على ما قاله ابن إياس[9]: لم يتّفق لسلطان مِن بعد الأشرف برسباي، لمّا توجّه سنة ست وثلاثين وثمانمائة[10]، سوى للسلطان الغوريّ هذا، فلو رأى ابن إياس المواكب السلطانيّة العثمانيّة، خلّد الله مُلْكهم بجاه خير البريّة، الذي يتّفق في كل موكب منها نحوًا مِن ثلاثين

[1] جاءت في التحفة البهية، ص51 "قُدّامه".

[2] هي من شارات الملك في العصر الإسلامي المتأخر. وهي عبارة عن مظلّة تُحمل فوق رأس السلطان لتقيه الحَر أو المطر، مصنوعة من الحرير المزركش. راجع: الخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص347.

[3] جاءت في بدائع الزهور، ج5، ص53 "والجلالة"، أي العظمة.

[4] أي الذين ينثرون الذّهب والفضّة احتفاءً بالسلطان.

[5] أي المنصّة التي يقف أو يجلس عليها السلطان أثناء استقبال الوفود أو استعراض القوّات. راجع: الخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص396.

[6] هو مقرّ السلطان وقصره، وهو أيضًا المقرّ الرسمي لنائب دمشق. راجع: سليمان، أحمد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي، ص165.

[7] جاءت قبلها، في التحفة البهية، ص51 "فنزل".

[8] جاءت في التحفة البهية، ص51 "حُجّاب".

[9] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص53.

[10] 836هـ/ 1432م.

ألف عسكري، بما في ذلك مِن إسباهيّة[1] وجاوشية[2]، ومُتفرّقة[3]، وأمراء، وأجِلاّء، وأتباع، وغير ذلك. فنسأل الله تعالى زيادة رفعتهم، وإبقائهم على ما هم عليه مِن أتباعِ الشّرع الشّريف، لا زالوا محفوفين بعون الله العزيز اللطيف. ثمّ إنّ السلطان الغوريّ، [56ب] أقام بالمسطبة المذكورة تسعة أيام. ثمّ إنّ قاضي القضاة كمال الدين الطويل[4]، خطب بجامع بني أميّة جُمعتَيْن، ولم يحصل للسلطان الغوريّ هناك صلاة جمعة. ثمّ إنّ مدينة دمشق استمرّتْ مُزيّنة سبعة أيام. ثمّ إنّ السلطان الغوريّ رحل مِن هناك إلى حِمص، ثمّ إلى حماة[5]، فلاقاه نائبها جان بردي الغزالي[6]، ومَدّ له مَدّة عظيمة أعظم ممّا فعله نائب دمشق[7]. ثمّ إنّ السلطان الغوريّ لمّا رحل عن حماة أنزل بها قاسم بك بن أحمد بن

[1] الإسباهيّة أو السباهيّة: الفُرسان في الدولة العثمانية. راجع: Gibb & Bowen, I. P. 46.

[2] الجاوشيّة أو الجاويشيّة: مُفردها جاويش أو جاووش. وهي كلمة تركية قديمة تعني جُندي ذو رتبة صغيرة أو الرسول أو التابع. وقد استعملهم السلطان العثماني في مجلسه لإعلامه بالوافدين لمقابلته، أو كمراسلين يبعث بهم بأوامره. وقد كانوا يخرجون مع السلطان أثناء حملاته. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 151، والخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص119.

[3] هي فرقة عسكرية لها مهام متفرّقة ومختلفة في النصف الأول من القرن السادس عشر. وكانوا من الخيّالة، لم يزد عددهم على مائتي شخص، وكانوا يرافقون السلطان في حملاته. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص135، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص294-294.

[4] هو محمد بن علي الطويل، وُلِد عام 846هـ/ 1442م، ويُنسب إلى أولاد التّرك. عاد إلى القاهرة بعد معركة مرج دابق وتوفي ودُفِن فيها عام 933هـ/ 1526م. راجع: الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص45-46، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 90.

[5] مدينتا حِمص وحماة، هما مدينتان معروفتان في سوريا اليوم. وهما غنيّتان عن التعريف.

[6] هو بُردي بن عبد الله الجركسي المشهور بالغزالي. جعله السلطان سليم واليًا على دمشق وغزّة وصفد والقدس. قُتِل عام 927هـ/ 1521م بعد أن ثار طالبًا الاستقلال ببلاد الشّام في عهد السلطان سليمان. راجع: ابن طولون، إعلام الورى، ص 244- 253.

[7] هو الأمير المملوكي الذي كان يتولّى أمر حُكم دمشق نيابة عن السلطان المملوكي، حيث كانت دمشق تُعرف بالشام. راجع: عبد الرحيم، التحفة الهية، ص52.

بايزيد المُتقدّم ذِكْرُه. ثمّ إنّ السلطان الغوريّ رحل إلى حَلَب، فدخلها يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة، وفي حال دخوله حضر قاضي مولانا السلطان سليم بن عثمان خان، وقاضي عسكره، وهو شخص يُقال له رُكن الدين، وأحد أمرائه وهو قُرَاجا باشا وغيره من الأمراء، وصحبتهم سبعمائة عليقة[1]، فنزلوا بمدينة حَلَب[2]. ثمّ إنّ السلطان الغوري لمّا حضر بين يديه قاضي مولانا السلطان سليم وقُرَاجا باشا المذكوران، شرع في عتابهما من جهة أخذ مولانا السلطان سليم لبلاد علي دُوَلات، فقالوا: نحن فوّض لنا أستاذُنا الأمر. وقال: ما اختاره السلطان الغوريّ مِن أمر فافْعَلُوه، ولا تشاوروني فيه، وكان ذلك كُلّه تدبيرًا [57أ] وذَكاءً مِن مولانا السلطان سليم، لِيُبْطِلَ هِمّة الغوريّ عن القتال، وَثَنْيِ عَزْمه عن ذلك، وليكون في ذلك حَقْن دماء المسلمين بين الفريقَيْن. ثمّ إنّ قاضي مولانا السلطان سليم أحضر فتاوى عن العلماء بأنّهم أفْتُوا بقتال شاه إسماعيل، وأنه لا يدخل بينه وبين شاه إسماعيل العوفي. ومِن بعض مُداهنات مولانا السلطان سليم للسلطان الغوريّ، أنه أرسل يطلب منه سُكّر وحلوى، فأرسل له الغوريّ على ما قيل مائة قِنطار[3] سُكّر وحلوى وغير ذلك. ثمّ [إنّ][4] السلطان سليم توجّه إلى قيسارية[5]، فحينئذ خلع[6]

[1] العليق هو طعام الحيوان من تِبْن وشعير وغيره. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص326.

[2] تقع شمال سورية، وهي مدينة تاريخية عريقة، وتعتبر أكبر ولاية بعد دمشق في العصر العثماني. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص52.

[3] هو وحدة وزن، وهو لفظ عربيّ. وهو في مصر وبلاد الشام مائة رِطْل، والرّطل بين 2,5 إلى3 كغم. راجع: الخطيب، مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص355.

[4] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

[5] مدينة فلسطينية تاريخية، تقع جنوب مدينة حيفا على الساحل. بناها الكنعانيون، وهي تعريب للكلمة الرومانية سيزاريا.

[6] الخلعة لغةً، هي ما يخلعه الخليفة أو الأمير أو المَلك على أحد الناس من الثياب الفاخرة. وقد تكون أحيانًا مالاً. راجع: عطية الله، القاموس الإسلامي، ج2، ص272.

الغوريّ على قُضاة مولانا السلطان سليم الخلع السُّنيّة. ولمّا وصلوا إلى مولانا السلطان سليم، أرسل للسلطان الغوريّ هديّة في نظير ما تَقدّم، وأرسل هدايا لجماعات: منها هديّة للخليفة، وهدية للأمير سودون العجمي، أمير كبير. فأمّا ما كان مِن هديّة السلطان، فأربعين مملوكًا، وأبدان سمّورعدد، وأثواب مُخمل عدد، وأثواب صوف كذلك، وأثواب بعلبكي كذلك. وأمّا ما أرسل إلى أمير كبير، هديّة كهديّة الخليفة، وهي بَدَنَيْن سمّور، وثوب مُخمل، وثوبَيْن صوف. ثمّ إنّ قاضي عسكر مولانا السلطان سليم، أهدى هديّة للغوريّ، وهي ثوبَيْن صوف، وسجّادة عال. ثمّ أرسل مولانا [58ب] السلطان سليم أيضًا قُرَاجا باشا، على يده مطالعة تتضمّن أمر الصّلح. وأمّا ما حُكِيَ عن الغوريّ، فإنه لمّا دخل إلى حَلَب، صار يتلطّف بخواطر أصحابه وعسكره، ويُنعم عليهم بالأموال والهدايا والتُّحَف. وأمّا العسكر الذي لم يُنفقْ عليهم حال طلوعه، فإنه أرضى خواطرهم بكُلّ طريق أمكن، لأنه حصل لهم غلاء شديد، فكان كلّ رطل خُبز بثلاثة دراهم، واللّحم بتسعة دراهم، والدّبس بِنِصْفِ فِضّة[1] الرّطل، كل ذلك بالرّطل المِصري. والإرْدَب[2] القمح، يساوي اثنَيْن ذهب. وأمّا عليق الجِمال فكانت العليقة بمائة درهم وأربعة وعشرين درهمًا. ثمّ أحضر مُقدّمين الألوف والنّواب[3]، وأمراء الطبلخاناه[4]، وأمراء العشرات[5]، وحلّفهم على المصحف الشّريف بأنهم لا يخونونه، ولا يغدروا به، فحلفوا كُلّهم على ذلك. ثمّ نادى

[1] هو نقد عثماني فضّي يعادل1/ 40 من القرش، ويُدعا أيضًا بارة. راجع: Gibb & Browen, Islamic Society and the West. part II, p39.

[2] من المكاييل، معروف بمصر، وسعته ما بين 70-72 كغم من القمح، ومن الشعير56 كغم. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، 126.

[3] رُتبة عسكريّة في الجيش المملوكيّ. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص22.

[4] هو الأمير الذي تُدق الطبول والأبواق على أبوابه، ويُعَدّ من الطبقة الثانية من مراتب الإمارة. وغالبًا يكون تحت إمْرته أربعين فارسًا، حيث يكون منهم أصحاب الوظائف وكبار الولاة.

[5] أمير عشرة: هو أمير تحت إمْرته عشرة فرسان وأحيانًا عشرين، وهو من الطبقة الثالثة من مراتب الإمارة.

العسكر بالعَرْض في الميدان الذي بِحَلَب، فعرضوا، وأدخلهم مِن تحت سَيْفَيْن كهيئة قَنْطرة، كما هي عادة الأتراك، وعندهم أنّ هذا هو القَسَم العظيم. ثمّ أرسل خلف قاسم بك بن أحمد بن عثمان المُقدّم ذِكره، وأحضره وخلع عليه، وأشْهَرَ أمره بِحَلَب. ولمّا وردت الأخبار على السلطان الغوريّ، بأنّ السلطان سليم، قبض على قاصده الذي جَهّزَهُ إليه، وهو مَغْلَبَاي أحد الدّواداريّة، ووضعه في الحديد، فاضْطَرّبَتْ أحواله [59أ] وأحوال الناس الذين[1] معه. ثمّ إنّ السلطان الغوريّ، خلع على أمرائه وجَهّزَهم إليه، وخلع على نوّاب البلاد. ثمّ نادى للعسكر بالرّحيل والنّزول على جِيلان[2] لقتال مولانا السلطان سليم، وظنّ في نفسه [أنه][3] إذا قاتله ينتصر عليه، هيهات، لا يكون إلاّ ما أراد الله تعالى. ثمّ إنّ السلطان الغوريّ، أرسل مُكاتبيه لمصر لنائبه، يخبره ويوصيه على الرّعية، وكان [ذلك][4] في يوم الأحد ثالث رَجَب[5]، فحينئذ أطلق الأمير الدّوادار نائب السلطان الغوريّ بمصر جميع مَن كان في الحبوس[6]، وأرضى أصحاب الدّيون مِن ماله، واسْتَتْوَبَ جماعة مِن الحراميّة، وتصدّق على القُرّاء، ورَسَمَ بقراءة خِتمات، ويُدعى في آخرها للسلطان الغوريّ بالنّصر. ثمّ في يوم السّبت سادس عشر رجب، حضر كِتاب على يد ساعي مِن عند الأمير علان دوادارسكين، أنّ مولانا السلطان سليم، كان السلطان الغوري يُكَذّبُ في أمره، ولمْ

[1] جاءت في الأصل [الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] جيلان: هي كَورة فارسيّة جنوبي بحر الخزر، وشمال جبال ألبرس، ويحدّها من الشرق طبرستان، ويحدّها من الشمال نهر الكربنهر الرّس. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص54.

[3] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

[4] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

[5] جاءت في التحفة البهية، ص54 "شعبان".

[6] مُفردها "حَبْس"، أي السّجن.

يُصدق إلى أنْ حضر مغلباي دوادار سكين، وهو في حال نَحس، بِزَنَط[1] على رأسه، وهو لابس كِبْر[2] عتيق دَنِس[3]، وهو راكب على إكديش هزيل، وقد نُهِبَ جميع يرقه، وأُخِذَتْ خيوله. وأخبر أنّ السلطان سليم أبَى الصّلح وقال له: قل لأستاذك يلاقيني على مَرْج دابق[4]، وأخبر أنه وضعه في الحديد، وقصد أن يحلق لحيته، وقدّمه للشّنق [60ب] ثلاث مرّات، وقاسى منه الهدلة ما لا خير فيه، حتى شفع فيه بعض وزرائه، وحمّله الزّبل مِن تحت خَيْله. فلمّا سمع السلطان الغوريّ مِن مغلباي ذلك، تحقّق وقوع الفِتنه بينه وبين السلطان سليم خان، فأنعم على مغلباي بألف دينار، وخيول وقماش، في نظير ما ذهب منه. والذي استفاض للناس مِن أخبار الغوريّ، أنه صلّى صلاة الظّهر وركب مِن ميدان حَلَب يوم الثلاثاء ثامن عشرين[5] رجب، وصحبته أمير المؤمنين المتوكّل على الله، والقضاة الأربع، فكان مقدّمه نائب حَلَب ونائب الشّام، وجماعة النّواب، كمّا قدّمنا ذلك آنفًا، فتوجّه إلى جيلان فبات بها. فلمّا أصبح يوم الأربعاء رَحَل مِن جيلان إلى مرج دابق، فأقام بها إلى يوم الأحد سابع عشرين رجب، فلَمْ يشعر إلاّ وقد دهمه عساكر مولانا السلطان سليم، فصلّى الغوريّ الصّبح وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة[6]، وعلى كتفه طَبْر. ثمّ ركب

[1] هو نوع من الغطاء، لا يُغطّي إلاّ على أمّ الرّأس. راجع: سليمان، أحمد السعيد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي، ص123.

[2] هو ثوب أو زيّ طويل يلبسه كبار السّن في بلاد الشام وفلسطين.

[3] أي قديم ووسِخ.

[4] سهل يقع إلى الشمال الغربي من مدينة حَلَب، وبه قرية تُسمّى دابق. توفي ودُفن فيه السلطان سليمان بن عبد الملك عام 717م. وقعت فيه المعركة بين السلطان العثماني سليم الأول والسلطان المملوكي قانصوه الغوري عام 1516م، حيث انتصر فيها السلطان سليم وقُتِل الغوريّ. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص416.

[5] جاء في التحفة البهية، ص55 "العشرين من رجَب".

[6] هو رداء واسع وطويل من الحرير أو الكتّان الرقيق. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص144.

يَرْقُب العسكر بنفسه وأمير المؤمنين على يمينه وهو على هَيْأة في المَلْبَس، وعلى رأسه الصنجق[1] الخليفتي، وجماعة الفُقراء، وهم خليفة سيدي أحمد البدوي[2] والشيخ عفيف الدين خديم سيّدتي نفيسه، رضي الله عنها. وهؤلاء الجماعة كلّهم كانوا مغصوبين في التّوجّه صُحبته. وكان قاسم بك بن أحمد [61أ] بن عثمان خان، واقفًا بإزاء الخليفة، وعلى رأسه صنجق حرير أحمر. وأمّا الصنجق السلطاني واقفًا خلف السلطان الغوريّ بنحو من عشرين ذِراعًا[3] حامله سنبل العثماني، والقضاة الأربع، والأمير تمراز الزردكاش أمير المُقدّمين، وكان على مَيْمَنة العسكر سيباي نائب الشام، والمماليك القرانصة دون الجلبان. فقاتلوا قتالاً شديدًا هم وجماعة النّواب، فَكُسِر عسكر مولانا السلطان سليم، وأخذوا منه سبع صناجق، وأخذوا المكاحل[4] التي على العجل، ورُمات البُنْدُق[5]. وكانت النُّصرة أولاً للغوريّ وجماعته، غير أنّ جماعة الغوريّ لاحوا عليه من وجوه: أحدُها أنّ المماليك القرانصة تشوّشوا مِن الغوريّ لِكَوْنِه قال للمماليك الجلبان: لا تقاتلوا، ودعوا المماليك القرانصة يقاتلوا وحدهم. فَثَنوا عزمهم عن القتال، لمّا أراد الله تعالى في سابق علمه، وعفا بالغوريّ بِما فعله مع الرّعيّة في آخر مُدّته، وبِما فعله هولاء المماليك الجلبان. فإنه كان يميل إليهم، فصاروا يفعلون في الرّعيّة ما شاؤوا. وقيل: إنه لا يقبل فيهم شكوى أصلاً. ورأيتُ في بعض التّواريخ عن بعض أهل الخير، أنه كان مُجتازًا ببعض

[1] كلمة تركية تعني الراية أو اللواء. راجع: Gibb & Browen, part I, p. 138.

[2] هو أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني البدوي، مغربيّ الأصل وُلد في مدينة فاس عام 596هـ/ 1200م. ذهب إلى مصر، واشتهر بالتصوّف. توفي في مدينة طنطا عام 675هـ/ 1276م.

[3] أي ذِراع اليد، وتتراوح ما بين 50,3سم -48,54سم تقريبًا. راجع: فالتر، هانتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص88-91.

[4] المكحال أو المكحلة: هي آلة حرب تُرمى بها القذائف. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص87.

[5] البُنْدُق أو البنادق: آلة حربية ومفردها بُنْدُقيّة.

الشّوارع في آخر أيام السلطان الغوريّ، وإذا [62ب] بأحد المماليك الجلبان مسك دلاّلاً[1] وسام منه صِنفًا، فلمْ يرضَ في ثمنه، فأخذه من غير ثمن. فصار الدّلال يقول: شرع الله، فرجع إليه وضربه بالدّبّوس[2]، وقال: هذه[3] شرع الله. كل هذا بحضور ذلك الرّجل الذي مِن أهل الخير، فصار يدعو على الغوريّ وجماعته، وإزالة هذه الدولة. ثمّ مَضَى كل منهم على حال سبيله. فلمّا كان الليل، تضرّع ذلك الرجل الذي هو من أهل الخير، وطلب من الله تعالى إزالة مُلكهم. ثمّ نام، فإذا [به قد][4] رأى في منامه كأنّ جماعة قد نزلوا من السماء وبأيديهم المزاب[5] وهم يكنسون الطرقات والبيوت ويرمون الكِناسة في البحر. فقال لهم ذلك الرجل: ما هذا؟ فقالوا: نحن ملائكة من السماء أرسلنا اللهُ تعالى لِكَنس الغوريّ ودولته من الأرض. فمِن شِدّة ما حصل لذلك الرجل من الفَرَح، استيقظ مسرورًا، وكان ذلك على ما قيل ثلث الليل الأخير. ثمّ إنّ الرجل صغى بسمعه، فسمع قارئًا يقرأ في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿فانْتَقَمَنا مِنْهُم فَأغْرَقْنَاهُم فِي اليَمِّ﴾[6] الآية. فكان كذلك لأنه حين قتلهم مولانا السلطان سليم، صار يرميهم في البحر، [و]هذا[7] مِن ظُلم الرّاعي، فإنه في آخر ولايته ظَلَمَ وطَغَى وبَغَى. وقالت الحُكماء: العَدْلُ إنْ دام عَمّرَ، والظّلمُ [63أ] إنْ دام دَمّرَ. وقال الشافعي:

---

[1] الدّلاّل: هو الشخص الذي يعرض السّلع للبيع (يُدَلّل عليها)، ليحصل على أعلى سعر ثمّ يبيعها. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص56.

[2] الدّبّوس: هي عصا طولها 60سم تقريبًا، ورأسها عادة مكسو بالحديد. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص81.

[3] أي الدّبّوس.

[4] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

[5] جاءت في الأصل [المذاب]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهي فارسية الأصل، تعني الميزاب من الحجر أو الفخّار أو المعدن لتصريف مياه المطر. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص56.

[6] سورة الأعراف(7)، الآية(136). وهي :(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِين).

[7] زيدت الواو لسلامة المعنى.

لا تَظْلِمَــنّ إذا مــا كُنــتَ مُقْتَــدِرًا إنّ الظّلـومَ على حـدٍّ مِـن الـنّقَمِ
تنـــامُ عينـــاكَ والمظلـــومُ مُنتبـــهٌ يَـدْعُو عليـكَ وعـينُ الله لَـمْ تَـنَمِ

وأمّا الأحاديث، والأخبار، والمواعظ، والأشعار في قضيّة الظالم والمظلوم، فكثيرة جدًا، ولكن ليس لذِكرها هُنا محلّ. ومحصّلهُ، أنّ بِجَوْر الغوريّ وظُلْمِه للرّعيّة، سبّبَ الله تعالى له هذه الأسباب، وسلّط عليه مولانا السلطان سليم، فأجذ بلاده وأهلكه. ثمّ إنّ جماعة الغوريّ، وهم المماليك القرانصة، لمّا ثَنوا عَزْمهم عن القتال، ظَفَرَتْ عليهم جماعة السلطان سليم، وقتلوا الأتابكي سودون العجمي ومَلِك الأمراء، سيباي نائب الشّام، فانْهزمَت المَيْمَنة. ثمّ إنّ خاير بك، نائب حَلَب، انهزم وهرب فكُسِرَتْ المَيْسَرة. وأين هذا وأين هذا مِمّا فعله المرحوم مولانا السلطان أحمد، والد سلطاننا الآن مع وزيره الأعظم درويش باشا، بسبب أنه أراد أنْ يقتل إنسانًا. فصاحَ الرجل: شَرْعُ اللهِ! فلمْ يَلْتَفِت الوزير لذلك وقتله. فسمع بذلك المرحوم مولانا السلطان أحمد رحمه الله، فحنقَ عليه وقتله بالأطْبار[1]. وكان أعظم الأسباب في قَتْلِهِ [64ب] هذه الفِعلة الشّنيعة، فانظرْ [إلى][2] طاعة آل عثمان للشّرع الشّريف خِلافًا لغيرهم من أهل التّعسيف[3]. ويقال: إنّ خير بك كان موانسًا على السلطان الغوريّ في الباطن، وهو مع السلطان سليم خان. وقد ظهر مِصداق ذلك فيما بعد، فكان هو أول مَن هرب قبل العسكر قاطبة. فصار الغوريّ واقفًا تحت الصّنجق في نفر قليل مِن المماليك، فشرع ينادي يا أغاوات، هذا وقت المُروّة[4]. فلم يسمع له أحد قولاً، ولا وجد له مُعينًا، ولا ناصرًا، فانْطلقَ في قلبه جمرة نار لا تُطْفَى حرارتها. وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، وانعقد الغُبار بين الفريقَيْن حتى صاروا لا يَرون

[1] مفردها "طَبْر" أي الفأس، وقد سبق شرحها.

[2] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى.

[3] جاءت في الأصل [التّسعيف]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] ولعلّه يقصد "المروءة" أيضًا.

بعضهم بعضًا، وكان نهار غَضَب مِن الله تعالى على الغوريّ وجماعته، وَشَخَصَتْ أبصارهم. وقد قال في هذه الواقعة ابن إياس[1] رحمه الله:

لمّـا الْتَقـى الجَيْشـانِ مَـع سـلطانِنا في مَرْجِ دابقَ قـال هلْ مِن مُسْـعفِ
فَلَـهُ لسـانُ الحـالِ أصـبحَ قـائلاً عرّضْـتَ نفسَـكَ لِلـبلا فاسـتهدف

ولمّا اضطرّبَت الأحوال خاف الأمير تمراز على الصّنجق، فأنزله وطواه وأخفاه. ثمّ تقدّم إلى الغوريّ وقال له: يا مولانا السلطان، إنّ عساكر مولانا السلطان سليم قد أدْرَكَتْنا، فانْجُ بنفسك واهربْ إلى حَلَب. فقيل: إنه لمّا تحقّق ذلك، نزل عليه [65أ] في الحال خَلْطُ فالِج أبطل شَقَّتَهُ، وأرخى حَنَكَتَه، فطلب ماءً، فأَتَوا به في طاسة[2]، فشرب منه قليلاً، وأراد أنْ يهرب، فانْقلب من على فرسه، فمكث نحو درجتَيْن، ومات من شدّة قهره. وقيل، إنّ مرارته فقعتْ وطلع مِن حَلْقِه دم أحمر. وقيل، ذهب تحت سنابك الخيل والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك. ومن العجائب[3]، أنه لم يُدْفَن في مدرسته التي أصرف عليها، على ما نقله ابن إياس، مائة ألف دينار، ومات هذه الميتة[4]. وكان عمره إذ ذاك، نحو ثمانية وسبعين سنة. ولمّا أُشِيع موته، زحف عسكر مولانا السلطان سليم على مَن كان حول الغوريّ، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدّمين، قريب السلطان الغوريّ وهو صاحب المدرسة التي بالجودريّة[5]، وفي ذلك عِبرة لِمَن اعْتَبَر، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[6]. ثمّ وقع النّهب في

[1] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص70.

[2] أي وعاء كبير، يُستعمل أيضًا للطبخ. وهو معروف في بلاد الشّام.

[3] جاءت في الأصل [العجايب]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل [الموتة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] هي المدرسة أو الجامع التي أنشأها الظاهر بيبرس في حارة الجودريّة عام 622هـ/ 1264م. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج4، ص144.

[6] سورة الرّعد (13)، آية (19). والآية كاملة: (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

عسكر الغوريّ، وزال مُلْكُه على لَمْحِ البصر، فكأنّه لم يكن. فسبحان مَن لا يزول مُلْكُهُ ولا يتغيّر سلطانه. وكانت مُدّة سلطنة الغوريّ خمسة عشر سنة، وتسعة أشهر، وعشرين يومًا، فإنه وَلِيَ مصر في مستهلّ شوال سنة ست وتسعمائة[1]، وتُوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنين وعشرين وتسعمائة[2]، هذا ما ذكره ابن إياس في تاريخه[3]. فكان[4] الناس [66ب] معه في هذه المُدّة في غاية الضّنك والشِّدّة، وقال ابن إياس في الغوريّ[5] شِعرًا:

أعَجِبوا لِلأشرفِ الغوريّ الذي مُذْ تزايدَ ظُلْمُهُ في القاهرةْ
زالَ عنهُ مُلْكُهُ في ساعة خَسِرَ الدنيا إذًا والآخِرةْ

وكذلك حُكْم الله تعالى في جميع الظّلَمَة. وقد كانت هذه الواقعة من طلوع الشّمس إلى بعد الظّهر، وانتهى الحال على ما قدّره الله تعالى، وله الحمد والمِنّة على إزالة الدولة الظّالمة، ومجيء الدولة العادلة. هذا وقُتل في تلك الساعة مِن عسكر مولانا السلطان سليم خان، ومن عسكر الغوريّ ما لا يُحصى عددًا، ما بين أمير وكبير ومُشير، وغير ذلك. فكان القتل في القرانصة دون الجلبان، فإنه لم يُقتل منهم إلاّ القليل لكونهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة كما تقدّم ذِكْرُه. وقُتِل مِن أمراء حَلَب والشّام ما لا يُحصى، وقُتِل أيضًا ناظر[6] الجيش عبد القادر القصروي، وجماعة كثيرة من الجُند، فكانت ساعة يشيب فيها الوليد ويذوب لسَطْوتها الحديد. وكان مرج دابق فيه جُثَث مرميّة، وأبدان بلا رؤوس، ووجوه معفّرة بالتّراب، قد تغيّرتْ محاسنها، وصار في ذلك المَحّل خيول مرميّة ميّتة،

[1] 906هـ/ 1500م.

[2] 922هـ/ 1516م.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص71.

[4] جاءت في الأصل [فكانت]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] ابن إياس، المصدر السابق.

[6] رُتبة عسكريّة تعني قائد الجيش أو المسؤول عنه.

وسروج [67أ] مغرّقة[1]، وسيوف مُسقطة[2]، وخُوَذ[3] وزرديات[4]، وغير ذلك، لمْ يلتفتْ إليها أحد، وكل مِن العسكرَيْن قد اشتغل بنفسه. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم، زحف بعسكره الجرّار، وأتى إلى وِطاق الغوريّ، وجلس في خيامه واحتوى على الزردخاناه، وما فيها مِن الأواني الفاخرة، وعلى السّنيح[5]، وعلى خزائن المال والتُّحَف، ونزل كل أمير مِن أمرائه في وِطاق أمير مِن أمراء الغوريّ، فكان الكبير للكبير، والأمير للأمير، والجليل للجليل، والحقير للحقير. كما يُقال مصائب قوم عند قوم فوائد. وكانوا أحَقّ بقول القائل:

أمِنْـتُمْ ونِمْـتُمْ واغْتَـرَرْتُمْ بِمُهْلَـةٍ وأمِنْتُمُـوا لِلـدَّهْرِ وهـو خَـوَّانُ
خُذُوا حِذْرَكَمْ مِن سَطْوَةِ الدَّهْرِ إنّها إذا لَـمْ تَكُـنْ كانَـتْ فَسَـوْفَ تَكُـونُ

ومُحَصّلهُ، أنه لم يقع لأحد مِن سلاطين مصر مثل هذه الكائنة، ومات تحت صنجقه في يوم واحد نحو العشرة آلاف. ولكنّ هذا جميعه بِما فعله في المسلمين هو وأمراؤه وعسكره، فإنهم جاروا وتركوا النّظر في مصالح المسلمين، والعمل بالشّرع الشّريف، والقانون المُنيف. فَرَدَّ الله عليهم أعمالهم، وسلّط عليهم مولانا السلطان سليم، كما قيل في المعنى شعر:

[1] هي السّروج المطعّمة بالفضّة أو بغيرها من المعادن. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص90.

[2] أي السّيوف المصقولة والمطعّمة بالمعادن.

[3] مُفردها خوذه، وهي غطاء يلبسه المحارب والفارس لحماية رأسه.

[4] مُفردها زرديّة، وهي درع يلبسه المحارب والفارس فوق الثّياب الخارجيّة وفوقه خوذة. راجع: دهمان، المرجع السابق، ص 86.

[5] السّنيح: جَمْعُها "سُنُح"، وهي الدُّرُّوالحُليّ. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "سَنَحَ".

أيــنَ الملــوكُ الــذي في الأرض قــد ظلمــوا فــالله مِـنْهم لقــد أخلى أمــاكِنَهم[1]
[68ب] أضْحوا بأجـداثهم تحـت الثّرا جِيَفًـا وأصـــبحوا لا تُـــرى إلاّ مســـاكنهم

وَلَعَذابُ الآخرة أشقّ، لأنّ الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2] وقال صَلّى الله عليه وسلم: "كُلُّكُم راعٍ وَكُلُّكُم مَسؤولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ". وقال ابن إياس في الغوريّ شعر[3]:

طــالِعْ تــواريخَ المُلــوكِ فَهَــلْ تَــرا أوَلا سَـــمِعْتَ بحـــادثٍ مِمّـــا جـــرا
لا زالـــتِ الأيـــامُ تَبْـــدُو فِعْلَهـــا بعجائـــبٍ وغرائـــبٍ بـــين الـــوَرا
لكـــنَّ هـــذا حـــادثٌ مـــا مِثْلُـــهُ سَـــبقَتْ لِســـلطانٍ ولا متـــأمّرا
والأشـــرفُ الغُـــوريّ كـــان مَلِيكُنـــا لكنّـــهُ قـــد جـــارَ فِينـــا وافْتَـــرا
والبَغْـيُ[4] أوْجَـبَ هَزْمـهُ مـعَ جَيْشِـهِ قـدْ كـانَ ذلـك في الكتـابِ مُسَـطَّرا
أعْمالُـــهُ رَدّتْ إليـــهِ بِمـــا جَنـــى[5] والـــدَّهْرُ جَـــازاهُ بـــأمْرٍ قُـــدِّرا

وكان للسلطان الغوريّ محاسن ومساوئ، لكنّ مساوئه أكثر مِن محاسنه. فَمِمّا هو مِن محاسنه، فإنه كان رَضِيّ الخُلُق، يملُك نفسه في الغضب. ومنها، أنه كان ماسكُ اللّسان عن السَّبّ للناس في شِدّة غضبه. ومنها، أنه كان يفهم الشّرع ويحب سماع الآلات والغِناء، وليس له هَرَج. وكان يقرأ التواريخ والسِّيَر، ودواوين الأشعار، وقد اطّلعتُ له على ديوان شعر في غاية الحُسن. وكان قريبًا من الناس يُحِب المَزْحَ والمُجون [69أ] في مجلسه. غير أنه كثيف الطّبع في ذاته. وكان عنده لِينُ جانب ورياضة بخلاف طَبْع الأتراك، ولم

[1] جاء البيت أيضًا في: بدائع الزهور، ج5، ص73، والتحفة البهية، ص61 مع استبدال الفاء ب [و] في لفظ الجلالة.

[2] سورة المُدّثّر(74)، آية (38).

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص88-89.

[4] جاءت في بدائع الوهور "والموت".

[5] جاءت في الأصل [جنا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

يكن عنده شَمَمٌ، ولا مَكْرٌ، ولا رَفَاعَة. وأمّا ما عُدّ من مساوئه، فإنها كثيرة لا تُحصى، منها: إنه كان قد أحدث في أيام دولته مِن المَظالم ما لا يحدث في سائر الدول مِمّن قَبْلُهُ. ومنها، أنّ معاملة الذّهب، والفِضّة، والفلوس، أنجس المُعاملات. ومنها، ما قدّره على الحِسبة في كل شهر، وهو ألفان وسبعمائة دينار، مكان السُّوَقَة تبيع البضائع بما يختارون مِن الأثمان، ولا يقدر أحدٌ يُكَلّمهم، فيقولون له: علينا مال سلطان، فكانت غالب البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك. وجعل على دار الضّرب مالاً له صورة في كل شهر، فكانوا يضعون في الذّهب والفِضّة، النّحاس والرّصاص جَهارًا، فكان الأشرفيّ الذّهب إذا صفّوه يظهر فيه من الذّهب اثني عشر نِصفًا. وقد سلّم الغوريّ دار الضّرب إلى رجل يُدْعَى جمال الدين، يلعبُ في أموال المسلمين، وسَبْك ذهب السلاطين السالفة، حتى صار لا يلوح لأحد من الناس من ذهب السلاطين المُتقدّمة دينار ولا دِرهم. ثم عزل جمال الدين المذكور، وَوَلّى رجلاً يهوديًا يُقال له يعقوب، فاسْتباح أموال المسلمين. فكان النّصف ينكشف من ليلته، ويصير من جُملة الفلوس [70ب] النّحاس الحُمر. واستمر الغِشُّ في معاملة دولته إلى أنْ مات. وقد ورد في الحديث: "مَنْ غَشّنا ليس مِنّا". ومنها، أنه كان يُوَلّي الكُشّاف ومشايخ العُربان على بلاد المنقطعين والأوقاف، فيأخذوا منهم الأموال بالظّلم والجَوْر. فكان كل أحد منهم يريد أن يذهب من بلاده إلى غيرها مِن عِظَم الظّلم الذي يصيبهم. ومنها، أنّ حُسين[1] نائب جَدّه[2]، كان يأخذ العُشر من التّجار الذين يأتون من الهند، المِثْل عشرة أمثال، فامْتَنَعَت التّجار من دخول بندر[3] جده، وآل الأمر إلى الخراب، وعزّ وجود

[1] هو حسين الرّومي أحد قادة الحملة العثمانية على مصر. عيّنه السلطان سليم واليًا عثمانيًا مقرّه جدّة ليراقب تحركات البرتغاليين الطامعين في البحر الأحمر. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص127.

[2] هي مدينة على ساحل البحر الأحمر. كانت مدينة ميناء زاهرة في عهد المماليك في القرن الخامس عشر للميلاد. راجع: الصبّاغ، المرجع السابق.

[3] كلمة فارسية بمعنى ميناء أو مدينة ساحلية. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، 87.

الشّاشات مِن مصر، وعزّت الأصناف التي كانت تجئ من بلاد الإفرنج[1]، وكذلك بندر الإسكندريّة وبندر دمياط. فامْتَنَعَت التّجار من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظّلم. وكانت الأراذل من الناس تتقرّب إلى السلطان بنوع من أنواع المظالم. ومنها، أنه قدّر على مبيع الغِلَل قَدْرًا معلومًا يُؤخذ على كل إرْدّب، وهو ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري. وكان أول مَن أحدث المَكْس[2] على الغِلَل، قايتباي لأنه جعل على كل إرْدَبّ نِصف فِضة، فزادها الغوريّ النّصفَيْن، وزاد على البطيخ والرّمان، حتى قَدّر[3] على مبيع البَلَح، وجَدّد في أيامه عدّة مكوس من هذا النّمط، ولم يترك أحدًا من التّجار حتى صادره. وصادر[71أ] أمير المؤمنين[4] المُستمسك بالله يعقوب، وأخذ منه مالاً له صورة، ودخل في جُملة ديون. وأمّا مَن مات تحت عقوبته بسبب المال، فمنهم القاضي بدر الدين ابن مزهر كاتم السِّر، ومنهم شمس الدين ابن عوض وعلم الدين كاتب الخزينة، وغير ذلك وجماعة كثيرة من المُباشرين[5] والعُمّال كل هؤلاء ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات. ومن أفعاله الشّنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقطاعهم ورِزْقهم من غير سبب، وأعطى[6] ذلك للمماليك الجلبان، كما تقدّم ذلك. ومنها، قطع جوامك[7] الأيتام مِن الرجال والنساء والصغار، وحصل لهم الضّرر الشّامل بسبب ذلك. ومنه، أنه قطع معتادات الناس من الدّيون من تقادم الزمان، وجدّد أخْذ الجِمايات من المنقطعين من قبل أن يزيد النّيل. ثمّ

[1] أي بلاد البرتغال. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص187.

[2] نوع من الضّرائب. وقد جاءت في بدائع الزهور، ج5، ص90 [مكوس].

[3] أي قدّر الضّرائب على ما يُباع من البَلَح.

[4] جاءت في الأصل [المومنين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] هم الذين يتولّون الإدارة والإشراف على مُتحصّلات الدولة. راجع: عيسى، أحمد محمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص140.

[6] جاءت في الأصل [أعطا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] أي الرّواتب الشّهرية.

زاد شُحّه حتى صار يحاسب السوّاقين[1] الذين في سواقي القلعة، والخولة[2] الذين كانوا في الميدان بثمن رَوَث الأبقار، وما يتحصّل من ذلك في كل يوم، وعمل عليهم مبلغًا يؤدونه للذّخيرة. وكان المباشرون[3] والعُمّال معه في غاية الضّيق، لا يغفل عن مصادرتهم شهرًا كاملاً. وكان يباشر ضَبْط الخزائن بنفسه، ما يدخل وما يخرج، ويأخذ هذه الأموال العظيمة فيصرفها في عمائر ليس [72ب] فيها نَفْعٌ للمسلمين، ويزخرف الحيطان، والسُّقوف بالذّهب[4]، وهذا عين الإسراف لبيت المال. وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من الكتّاب، وما كان له حكم يخرج على[5] وجه مُرضٍ[6]، بل على أمور مُنْكَرة. وكان يغفل عن أمور القتلى ويدفعها إلى الشّرع، ويضيّع حقوق الناس. وكان يكْسَل عن علامة المراسيم[7]، فلا يعلم عليها إلاّ القليل، فيعطّل مصالح المسلمين بسبب ذلك، حتى كانت تُشترى العلامة العتيقة بأشرفيّ ذهب، لأجل أن تُلْصَق على المرسوم لقضاء الحوائج. ولو شرحنا مساوئه كلّها التي ذكرها ابن إياس[8] وغيره، لطال الشّرح.

[1] مُفردها "ساقي"، وهو الذي يدير سواقي القلعة لاستخراج الماء. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص 63.

[2] مُفردها "خولى"، وهو الذي يعتني بالأرض والأشجار ويسقيها، وهو المشرف على عُمّال الأرض. راجع: عيسى، أحمد محمد، شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم، ص67.

[3] جاءت في الأصل [وكانت المباشرين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] جاءت في الأصل قبل كلمة السّقوف. والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[5] جاءت في التحفة البهية، ص64 "عن".

[6] جاءت في الأصل [مُرضي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] مُفردها مرسوم. وهي تعني الأمر الصادر عن السلطان أو الوزير.

[8] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص93-94.

وأمّا ما أنشأه بالقاهرة، فَمِن ذلك الجامع والمدرسة اللّتان أنشأهما عند الشّرابشيّين[1]، والوكالة[2]، والحواصل[3]، والرّبوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة[4]. ومَحَل الشّرابشيّين الآن حريريّن وقباقبيّة[5]، وأمّا المصبغة، فعلى عهدها. ومِن إنشائه، المنارة التى عمّرها بالجامع الأزهر[6] وهي التي برأسَيْن، وأنشأ هناك الرّبع[7] والحوانيت[8] التي بالأسواق خلف الجامع المذكور، وأنشأ الرّبوع التي بخان الخليل[9]، وجدّدَ عِمارة خان الخليل، وكان أخذه مِن وَقْف جهركس بالظّلم واليد العالية، فخرب وقف جهركس بهذا

[1] الشّربشين هو خط يقع بين سوق الجملون وسوق الخشيبة. أُنشئ فيه السلطان الغوريّ قبّة عظيمة وضع فيها المصحف العثماني بعد تجديد تجليده. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج5، ص145.

[2] الوكالة هو عبارة عن مبنى فندق. الطوابق السّفلى تُعرَض فيها البضائع، والعليا مخصّصة لبيت التّجار. كما خُصّص فيه جناح خاص "أسطبل" لخيول وجِمال التّجار. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص64.

[3] مُفردها "حاصل". وهو المخزن الذي تُخزَن فيه البضائع أو أي مواد أخرى.

[4] هو المكان الذي تُصبَغ فيه النسوجات والأصواف.

[5] مُفردها "قبقاب". أي شبشب مصنوع من الجلد والخشب. راجع: عبد الرحيم، المصدر السابق.

[6] الجامع الأزهر: من أكبر الجامعات في العالم الإسلامي وأوّل مسجد أُسس في القاهرة. بناه جوهر الصّقلّي عام 362هـ/ 972م. وسُمّي بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها. كان هدفه الأول نشر المذهب الشّيعي الإسماعيلي. ارتفع شأنه وذاع صيته في مجال العلم والعلماء منذ عهد السلطان بيبرس، حيث قصده طلبة العلم من كل أطراف العالم لتلقّي علوم القرآن والسّنّة والشّريعة واللغة، فأصبح لكل إقليم رواق خاصّ به. راجع: دائرة المعرف الإسلامية المعرّبة، مج2، ص51- 70.

[7] الرُّبع: هو عدّة مساكن مُخصّصة لسكنى العامّة، وتحتها حوانيت. راجع: ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج10، ص303.

[8] عُرِفَتْ هذه المنشآت باسم "خط سوق الأزهر". وكانت تمتد من نهاية شارع التبليطة عبر شارع الغريب حتى شارع الدّراسة. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج5، ص76-82.

[9] خان الخليلي: هو سوق كبير في القاهرة، يوجد به الكثير من الوكالات والأسواق المتخصّصة. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج2، ص108.

السبب، وأنشأ [73أ] به الحواصل والحوانيت. وأنشأ في باب القَنطرة[1] رُبْعَيْن وحوانيت، وكذلك الرّبْعَيْن اللذَيْن بين الصّورَيْن، والطّاحون عند المصبغة. وأنشأ الرّبع الذي بالبُندقانيّين[2] لولده، وتزايد في زخرفته، وأنشأ هناك رُبْعًا ووكالة. وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة، ونقل إليه الأشجار من البلاد الشّامية وأجرى إليه الماء البحري من سواقي نَقّاله، وأنشأ به المناظر، والبحرة، والمقعد، والمبيت برسم المحاكمات[3]. ثمّ إنّ الغيط خَربَ لقِلّة الماء المنقول إليه من البحر. وفي زمن الوزير مصطفى باشا[4] اعتنى بالغيط المذكور، وعمّره، وحفر فيه بئر معين، فطلعت من أجل المياه التي بجامع قوصون[5]، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وألف. وأنشأ جامعًا خلف الميدان بخطبة ومنارة، وجدّد عِمارة القلعة منها: الدّهيشة وقاعة العواميد وقاعة البحرة[6]. وأنشأ المقعد القِبطيّ الذي بالحوش، وهو الديوان الكبير الآن لحُكّام مصر، وجدّد أيضًا عِمارة المطبخ الذي بالقلعة، وسائر البيوت التي بها، وجدّد عِمارة سبيل المؤمنين، وجعل عقوده بالحَجَر. وأنشأ الرّبع والوكالة[7]

[1] أحد أبواب القاهرة في السّور الغربيّ، بناه جوهر الصّقلّي عام 971م. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج6، ص65.

[2] هو اسم شارع يبتدئ من آخر شارع الورّاقين، وينتهي بشارع الحمزاويّ. بنى فيه السلطان الغوريّ بيتًا لولده. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج2، ص83-85.

[3] أي أصبح المبيت فيه عقوبة للمعارضين. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص65.

[4] تولّى أمر ولاية مصر عام 968هـ/ 1560م -971هـ/ 1564م. وهناك اختلاف في مُدّة ولايته. أنظر ترجمته في: عبد الغني، شلبي، أوضح الإشارات، ص137-138، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص375-377.

[5] أنشأه الأمير قوصون عام 730هـ/ 1329م. وهو ما زال قائمًا في شارع محمد علي بالقاهرة. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج3، ص254-255.

[6] وهذه كلّها أسماء لقاعات في القلعة أنشأها السلطان الغوريّ. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص94.

[7] هو اسم للخان، وهو مكان نزول التّجار الغرباء والرّحالة. وقد سمّاها أهل الشّام والمصريون "قيسارية". راجع: المحبّي، خُلاصة الأثر، ج4، ص77-84.

التي بالجسر[1] الأعظم، وجدّد عِمارة ميدان الحصار الذي بالقرب من قناطر السِّباع[2]، وبناها بالحَجَر الفَصّ[3]. وأنشأ المَجْرَاة ونقلها [74ب] مِن دَرْب الخولى[4] إلى موردة الخلفاء[5]، وجدّد عِمارة المِقياس[6]، وأنشأ القصر على تلك المِسطبة التي كانت بها. وأنشأ المقعد المُطِل على البحر، وجدّد عمارة قاعة المقياس والجامع الذي هناك، وقنطرة الجزوليّ وعلاّها حتى صارت المراكب تدخل من تحتها، وجدّد عمارة قناطر السّباع، وأنشأ فيها المساطب التي عليها الدعائم التي عند قبر الأمير يشبك بالمطريّة[7] المعروفة الآن بالملقة، وهي الآن مِن محاسن مُتَنَزّهات مصر. وأنشأ بالطّيبة[8] التي على ساحل البحر الأحمر المالح، قلعة لطيفة بها أبراج وجامع وخطبة، وأنشأ بثغر رشيد[9] سُورًا[10] وأبراجًا لحفظ الثّغر،

[1] جاءت في الأصل [الحَبس]، والصواب ما ثبت أعلاه، وما ثبت أيضًا في التحفة البهية، ص66، وبدائع الزهور، ج5، ص94.

[2] هي قنطرة السّيدة زينب، وأوّل مَن أنشأها الظاهر بيبرس حيث نصبَ عليها سِباعًا من الحجارة فسُمّيت بهذا الاسم. وقد هدمها وأعاد بناءها الملك الناصر محمد بن قلاوون عام735هـ/ 1334م. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج3، ص15-16.

[3] نوع من الحجارة الثّمينة. راجع: ابن إياس، المصدر السابق.

[4] درب كانت به مجراة لنقل المياه. راجع: ابن إياس، المصدر السابق.

[5] أي مكان أخذ المياه، كانت على النيل. راجع: ابن إياس، المصدر السابق.

[6] هي عمارة مقياس النيل بالروضة، حيث تُقاس نسبة ارتفاع وانخفاض مياه النيل. راجع: ابن إياس، المصدر السابق.

[7] ابن إياس، المصدر السابق.

[8] الطّينة هي اسم منطقة على سواحل مصر على البحر الأحمر، أنشأ فيها الغوريّ قلعة جميلة وبها أبراج. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص67، وابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص94.

[9] ثُغر: أي منطقة. والاسم "رشيد" مُشتَق من الكلمة القِبطية "رشيت". هو ميناء مصري قديم على البحر المتوسط، ويقع على الشاطئ الغربي لفرع الدلتا المعروف بفرع رشيد. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج11، ص75-81.

[10] في الأصل جاءت [صور]، والصواب ما ثبت أعلاه.

وجدّد عِمارة الأبراج بالإسكندرية، وأصلح طريق العَقَبة[1] ودوّار حَقن[2]، وأنشأ هناك خانًا وأبراجًا على بابه، وقد دُثِر الآن وليس له وجود، وجعل الحواصل لأجل ودائع الحُجّاج. وأنشأ في الأزلم[3] خانًا وجعل فيه حواصل، وعمّر الخان الذي بالعَقَبة، وحفر هناك الآبار في عِدّة مواضع مِن مناهل الحاج. وأنشأ بمكة المُشَرّفة مدرسة، ورِباطًا للمجاورين[4] والمُنقطعين هناك. وأجرى العين بِعُسْفان[5] بعدما كانت انقطعت سنين. وأنشأ بجَدّة سُورًا[6] على جَنْب البحر المالح، وفيه عِدّة أبراج بسبب حفظ بندر جَدّه [75أ] من الفِرنج، وله غير ذلك من الآثار الحسنة، نفع الله بها المسلمين. ومِن هنا نرجع إلى حديث مولانا السلطان سليم خان، رحمه الله تعالى، فإنه بعد نُصرته على السلطان الغوريّ، رحل من مَرج دابق فدخل إلى حَلَب، ومَلَكها مِن غير مانع، ونزل بالميدان الذي بها في المكان الذي كان به الغوريّ. وأمّا ما كان مِن أمر الغوريّ وعسكره، فإنهم توجّهوا إلى حَلَب بعد الكَسْرة، وأرادوا الدخول إليها. فَوَثَبَ عليهم أهل حَلَب قاطبة وقتلوا جماعة منهم، ونهبوا أسلحتهم وخيولهم، وجرى عليهم من أهل حَلَب أكثر مِمَا جرى عليهم مِن عسكر السلطان سليم. فكان بين أهل حَلَب وبين المماليك الغوريّة حَظّ نفس مِن حيث[7] توجّهوا قبل

[1] أي مدينة العَقَبَة في الأردن اليوم، وهي على ساحل البحر الأحمر، تقع بين مدينة الفسطاط (القاهرة) ومكّة المُكرّمة. واسمها القديم كما ذكره ياقوت الحموي "أيلة". راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ض292.

[2] أنشأ فيه الغوريّ خانًا وأبراجًا على بابه، كما أنشأ فيه الحواصل لبضائع الحُجّاج. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص95.

[3] هي إحدى محطّات الحج الهامّة في مصر. راجع: المصدر السابق.

[4] أي بجوار مكّة. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص91.

[5] وتُسمّى أيضًا "عين بازان"، فأجرى الغوري هذه العين من جديد بعد انقطاعها مُدّة طويلة. راجع: ابن إياس، المصدر السابق.

[6] في الأصل جاءت [صور]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاءت في التحفة البهية، ص68 "حين".

ذلك صُحبة قايتباي، أمير آخور كبير، لأنه أخذ بيوت أهل حَلَب غَصْبًا، وصارت جماعته يؤذونهم، ويأخذوا أمتعتهم وأولادهم، ويفسقون في نسائهم، فَفَرِحوا بكسرتهم وأخذوا بثأرهم منهم. وأمّا الذي ظفر منهم بالهرب، فهرب ودخل إلى دمشق في أقبح حال مِن غير قِماش، ولا خيول، وبعضهم راكب على حِمار، وبعضهم راكب على جَمَل، وبعضهم عَرْيان وعليه عَباءة[1] أو بِشْت[2]. فأقام الأمراء، [76ب] والمباشرون[3] والعسكر في الشّام حتى تكاملوا. وإنّ الأمراء لمّا دخلوا الشّام صاروا في حَرّ الشّمس، ولم يجدوا ما يستظلّون به حتى صنع لهم الغِلمان[4] شيئًا يستظلون به من فروع الشّجر. وأمّا ما كان مِن أمر السلطان سليم، فإنه أقام بالميدان الذي بحَلَب، فتوجّه اليه أمير المؤمنين المتوكّل على الله، والقضاة الثلاثة وهم: قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل، وقاضي القضاة محيي الدين الدّميري المالكي[5]، والقاضي شهاب الدين الفتوحي الحنبلي[6]. وأما قاضي القضاة الحنفي محمد بن الشّحنة[7]، فإنه هرب مع العسكر إلى الشّام، ونهب جميع يرقه

[1] جاءت في الأصل [عباة]، والصواب ما ثبت أعلاه، وتُكتَب أيضًا [عباء]. وهو كِساء مشقوق واسع بِلا كُمّيْنِ يُلبَس فوق الثّياب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "عباء".

[2] كساء من صوف غليظ النّسج، لا كُمّيْنِ له يرتديه أهل الرّيف. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "بِشْت".

[3] جاءت في الأصل [المباشرين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] مُفردها "غُلام"، أي الخادم. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "غَلَمَ".

[5] هو محيي الدين بن برهان الدين الدّميري، قاضي القضاة المالكي. شغل هذا المنصب في عهد السلطان الغوري. أسره السلطان سليم عندما دخل حَلَب، ودخل مصر عام 922هـ/ 1517م. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص147.

[6] هو أحمد بن حمزة شهاب الدين الرّملي المنوفي. فقيه شافعي وتلميذ لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري. من أشهر كُتُبه "كتاب الفتاوى". توفي عام957هـ/ 1550م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج1، 117.

[7] هو حسام الدين محمود بن شحّة، قاضي قُضاة الحنفية، وتولّى هذا المنصب في عهد السلطان الغوريّ وصَحِبَه إلى حَلَب. وعندما دخل السلطان سليم، هرب الشّحة ولم يُؤسّر. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص147.

وقِماشه، ودخل إلى الشّام في أنحس حال. ولمّا دخل أمير المؤمنين[1] على السلطان سليم خان، قام إليه وأجلسه، وجلس بين يديه وعظّمه. فلمّا أراد الانصراف، خَلَع عليه خَلعة مِن ملبوس وأنعم عليه بمال له صورة، ورَدّهُ إلى حَلَب، ووكّل به مَن يحفظه أنْ لا يهرب مِن حَلَب. ولمّا دخلوا عليه جماعة القضاة، وبَخّ بهم بالكلام وقال لهم: بَلَغِني أنّكم تأخذون الرّشوة على الأحكام، وتَسْعون بالمال حتى تَتَوَلّوا القضاء. فلأيّ شئ ما كنتم تمنعون سلطانكم عن المَظالم التي[2] كان يفعلها بالناس. وكان السلطان سليم ذا [77أ] مَهابة عظيمة، واسع الصّدر، مربوع القامة، دُرّي اللّون مليء الجسد، وافر الأنف. وكانت عمامته صغيرة دون عمائم أمرائه. وفي حال دخوله إلى حَلَب، هرب منه قانصوه الأشرف نائب القلعة، وتوجّه إلى الشّام، وترك أبواب قلعة حَلَب مُفَتّحة. ولمّا بلغ السلطان سليم ذلك، أرسل إليها[3] شخصًا من جماعته أعرج أجرود[4]، وفي يده دَبّوس خشب، فطلع لى قلعة حَلَب، فلمْ يَجِدْ بها مانِعًا يردّه. فخَتمَ على الحواصل التي بها، واحتوى على ما فيها مِن مال وسلاح وتُحَف وغير ذلك. وكان ذلك من مولانا السلطان سليم خان مَكِيدة لأنْ يُقال: أخذ قلعة حَلَب شخصٌ أعرج، وفي يده دَبّوس خشب، وهو أضْعَفُ ما في عسكره، وليس هذا بِقُوّة ولا بحيلة، وإنّما ذلك بمعونة الله تعالى، وَلِحُسْنِ نِيّته. وقد قيل في المعنى:

لا تَحْقِرَنَّ صغيرًا في مُخاصمةٍ إنَّ الذُّبابة تُدْمي مُقْلَةَ الأسَدِ

ثمّ إنّ السلطان سليم لمّا دخل إلى حَلَب، وعَرَض حواصلها، رأى ما أدْهَشَهُ مِن مال وسلاح وتُحَف. قيل: إنّ المال الذي وجده بها نحو مائة ألف ألف دينار، ووجد أيضًا مِن

[1] جاءت في الأصل[المومنين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] جاءت في الأصل[الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] أي القلعة.

[4] جاءت في بدائع الزهور، ج5، 152 "أعور".

الرُّخُوت[1] المُرَصَّعة، ومِن العِدَد المُذَهّبة، والسروج والزّرديّات والخُوَذ الفولاذ وطُبول البازات[2]، والكنابيش، ما لا يُحصى، لأنّ السلطان الغوريّ كان [قد][3] احتوى [78ب] على شئ كثير مِن وجوه الظّلم. وأخرج أيضًا من الخزائن من ذخائر الملوك السّالفة من عهد ملوك التُّرك والجراكسة، ما لا يُحصى. فاحْتوى على ذلك كلّه مولانا السلطان سليم خان، من غير تَعَب ولا مَشَقّة. وقد قيل في المعنى شعر[4]:

ألاَ إنّما الأقسامُ تَحْرِمُ سَاهِرًا وآخرُ يأتي رِزْقُهُ وهو نائمُ

ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم صلّى الجمعة بجامع يُقال له جامع الأطروش[5] بحَلَب. وقد أُوقِدَتْ له الشّموع على الحوانيت، وارتفعتْ له الأصوات بالدّعاء. ولمّا ذكر الخطيب الدّعاء له في الخُطبة وقال: اللّهُمّ انْصُرْ مولانا السلطان سليم خان خادم الحرمَيْن الشّريفَيْن، بكى السلطان وسجد شكرًا لله تعالى، حيثُ قيل في حقّه، خادم الحرمَيْن الشّريفَيْن. ولمّا خرج مِن الجامع أرسل للخطيب ما كان عليه مِن المَلبوس. وكان الخواجا[6] إبراهيم السّمرقندي، والخواجا يونس العادليّ، وجماعات كثيرة من أخِصّاء الغوريّ مع السلطان سليم في الباطن، وربمّا أخبروه بأحوال الغوريّ وما يقع من أخبار المملكة. فلمّا وقع للغوريّ ما وقع، أظهروا عين المَحبّة لمولانا السلطان سليم خان، وكانوا يحطّون على

[1] مُفردها "رَخْت"، وهو كلمة فارسية معناه السّرج الذي يُسْرَج به الحصان. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 208.

[2] هي الطّبول المُطعّمة بالمينا. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص107.

[3] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى.

[4] ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص4.

[5] جامع كبير كان قائمًا في مدينة حَلَب، صلّى فيه السلطان سليم صلاة الجمعة، حيث لقّبه خطيب الجامع بلقب "خادم الحرمَيْن الشّريفَيْن". راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص70.

[6] كلمة فارسيّة معناها التاجر. ومن معانيها أيضًا: السيّد وربّ البيت والتاجر الغني والحاكم والمعلّم والخِصي. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص69.

الغوريّ، ويظهرون ما كانوا يخفونه من [79أ] أحواله الشّنيعة. وكان هذا مِن مَحَبّتهم لمولانا السلطان سليم، كما قيل في المعنى:

صَـــــرِّحْ بِـــــذِكْرِ المَحَبَّـــــةْ مـــا فـــي المُغَمْغَـــمِ[1] فائـــدةْ
إنّـــــي رَضِـــــيتُ بِحُبّـــــكَ أيْـــش هـــو يكُـــون النـــاسْ[2]

ومِمّن كان يحب مولانا السلطان سليم في الباطن ويخفي ذلك، أحد أمراء المُقدّمين، وهو الأمير خير بك، فإنه أول ما انْكَسَرَ مِن عسكر الغوريّ، وعمل حِيلة وهرب إلى حَماة. ولمّا مَلَكها السلطان سليم، أرسل خلعة، وخلع عليه، وصار مِن جُملة أمرائه، ولَبِس زِيّ التّراكمة، وسمّاه مولانا السلطان سليم خائن بك، لكونه خان سلطانه. وأمّا الخليفة والقضاة الثلاثة المُتَقدّم ذِكرهم، فإنهم صاروا في التّرسيم[3] بِحَلَب، لا يخرجون منها. وأقام أيضًا جماعة كثيرة بِحَلَب مِن أعيان الناس، لكِنْ من غير ترسيم. ثمّ توجّه مولانا السلطان سليم بالجيش المنصور إلى الشّام المحروس، فخرج أهل الشّام لغاية، وطلبوا منه الأمان. فأجابهم إلى سؤالهم، فبالغوا في الدعاء له، وخلع على كل مَن يستحقّ التشريف. ودخل إلى الشّام بموكب عظيم، وأقام يُمَهّد أمور المملكة بحُسن رأيه القويم، وخُطِب باسمه بدمشق المحروسة، وأمر بعِمارة قُبّة الشّيخ العارف بالله تعالى سيدي محيي الدين [80ب] بن العربيّ[4] وعمل عليها أوقافًا، وجعل مَطبخًا للطعام لفقراء الشّيخ

[1] الكلام غير الواضح. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "غَمْغَمَ".

[2] جاء في التحفة البهية، ص71 "أنا رَضِيتُ بِعِشْقِي فَايش كانَ الناسُ".

[3] التّرسيم: معناه اعتقال الشّخص، أو وضْعه تحت المراقبة. درج استعماله في العصر المملوكيّ. راجع: ابن طولون، إعلام الورى، ص290.

[4] هو محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الأندلسي والملقّب بالشيخ الكبير. أحد علماء المتصوّفة الكبار، وُلِد في الأندلس عام 560هـ/ 1165م وسافر إلى الشام والأناضول والعراق والحجاز. توفي في دمشق عام 638هـ/ 1240م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج1، ص231.

المذكور، وجعل للأوقاف ناظرًا[1] يجمع غلّتها، ويقيم رَسْمَها، وهذا لم يُعْهَد لغيره من ملوك الجراكسة، ولا مِمّن كان قبلهم. ولا شَك أنّ بَرَكة مولانا الشّيخ محيي الدين بن العربيّ، هي التي جلبتْ مولانا السلطان سليم خان. ثمّ توجّه مولانا السلطان سليم إلى افتتاح مصر المحروسة. فلمّا وصل إلى خان يونس[2]، قتل وزيره الأعظم حسام باشا. ولمّا وصل إلى غزّة[3] توجّه بركابه الشّريف إلى زيارة بيت المقدس[4] المُنيف، وكان ذلك بمفرده. وزار أيضًا خليل الرّحمن[5]، وعاد في أسرع مُدّة من الزمان. فكان كُلّما مرّ ببلدة أو قرية، أحسن إلى أهلها. ثمّ إنه لمّا بلغ أهالي مصر ما وقع للغوريّ وجماعته، كَثُر الزّعيق والصّراخ في غالب حارات مصر. وفي يوم الاثنين ثامن عشر شعبان، رسم الأمير الدّوادار نائب مصر بعَرض من في الحبوس. ثمّ إنه صار يُظهر العدل والإنصاف بزيادة عمّا كان عليه أوّلاً، وصار يركب في موكب عظيم، أعظم من الأوّل، وذلك لمّا تحقّق موت السلطان الغوريّ، وكانت نفسه تُحدّثه بالسلطنة، وكان كذلك كما سيأتي بيانه. ثمّ إنه لما كان يوم الجمعة، أمر الخُطَباء أنْ يدعو للخليفة [81أ] وحده، وأن يقولوا بعد ذلك اللّهُمّ وَلّي[6] علينا خِيارنا، ولا تُوَلّي[7] علينا شِرارنا. واستمرّ الحال على ذلك مُدّة، ومصر بلا سلطان. وبذلك وقع الضّرر

[1] أي المُراقب والمفتّش.

[2] هي مدينة جنوبي غَزَّة في فلسطين.

[3] غَزَّة: هي مدينة فلسطينية معروفة، تقع على الساحل الجنوبي من فلسطين، على الطريق بين مصر والشّام. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص202.

[4] هي مدينة القُدس الشّريف وفيها المسجد الأقصى وقبّة الصّخرة المُشَرّفة وكنيسة القيامة. وهي غنيّة عن التّعريف.

[5] أي مدينة الخليل، وما تُسمّى أيضًا "حبرون". تقع غربيّ مدينة القدس، وفيها الحَرم الإبراهيميّ أي النّبي إبراهيم عليه السلام. وهي غنيّة عن التعريف.

[6] جاءت في الأصل [أوْلِ]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاءت في الأصل [تُوَلّ]، والصواب ما ثبت أعلاه.

للرّعايا مِن جماعة العُربان[1] بنواحي الشّرقيّة[2] والمَنزلة[3] وقطعوا الطّرقات. وأمّا عسكر الغوريّ فقد لقوا مَن العُربان ما لا رأوه مِن العسكر العثماني مِن قِبَلِ النّهْبِ وإشْفاء الغلّة[4]. ثمّ وقع الاتّفاق بين العسكر والأمير الدّوادار بتجهيز آلات الحرب، وأنّ الأمير الدّوادار يتسلطن قبل مجئ السلطان سليم. وكان القائم في ذلك، الأمير تغطباي[5] نائب القلعة، مع الأمير علان الدّوادار. ثمّ إنّ الأمير الدّوادار عرض العسكر في منزله وقال لهم: كونوا على يقظة حتى نرى[6]. وفي يوم الأحد ثاني شهر رمضان، جاء ساعٍ[7]، وأخبر أنّ عسكر الغوريّ دخل إلى الشّام، وفيهم قاضي القضاة ابن الشّحنة، وقد أخذ جميع ما يملِكه. وأخبر أنّ السلطان سليم مَلَك ثلاث عشرة[8] قلعة وخُطِبَ باسمه، ومَشّى حُكمه فيها. وفي يوم الجمعة سادسه صَلّى صلاة الجمعة طومان باي، وخرج إلى مُلاقاة الأمراء الذين قد حضروا مِن الشّام، وهم في أسوء حال مِن الجُوع، والعَطَش، والضّعف، والعُرِيّ. فدخلوا وأطواقهم[9] مُفَكّكة، وأظهروا الحُزن على السلطان [82ب] الغوريّ. صاروا يدخلون كلّ يوم شيئًا فشيئًا، حتى تحقّق أنه لمْ يبقَ منهم أحد. فاجتمع رأي الجميع على سلطنة الأمير طومان باي الدّوادار، وصار هو يمتنع من ذلك تعزّزًا منه، والأمراء يقولون له: ما عندنا أحد نُسلّطه غيرك طَوْعًا أو كَرْهًا. ثمّ إنّ الأمير الدّوادار ركب وصُحبته جماعة من

[1] العُربان: قبائل من أصول عربيّة وصلت مصر وأقامت بها. وأمراء العُربان أي رؤساء القبائل.

[2] أي إقليم الشرقيّة بمصر. وبه اليوم محافظة الشرقيّة.

[3] قد تكون محطّة من محطات الحج الواقعة على طريق الحج في مصر.

[4] أي إشفاء غليلهم.

[5] جاءت في التحفة البهية، ص72 "تقطباي".

[6] جاءت في الأصل [نرا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] جاءت في الأصل [ساعي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[8] جاءت في الأصل [ثلاثة عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[9] مُفردها "طوق"، وهو آلة حرب يشبه القوس.

الأمراء المُقدّمين منهم: الأمير علان، والأمير آنسباي، والأمير تِمراز وغيرهم. وتوجّهوا إلى عند العارف بالله تعالى الشّيخ أبي السعود[1]، الذي بكوم الجارح رضي الله عنه. فلمّا تكامل المجلس عنده، ذكروا له أمر الدولة وأمر الدّوادار، وأنه امْتنع من السلطنة وتَعلّلَ بأنواع العِلَل منها: إنّ خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها دِرهم ولا دِينار، فإذا تسلطن لا يُنفق على العسكر شيئًا. ومنها، أنّ السلطان سليم مَلَك البلاد الشّاميّة، وخان يونس، وغزة، وبيت المقدس، وهو زاحف على مصر، وأنّ الأمراء لا يُطاوعون على الرّجوع للسّفر ثانيًا. ومنها، أنه يخاف إذا تسلطن يغدروا به ويَرْكبوا عليه ويخلعوه من السلطنة. فعند ذلك أحضر لهم مُصحف شريف وحلف الأمراء الذين حضروا صُحبته بأنهم إذا سَلْطَنُوه، لا يخونوا ولا يغدروا، ويرضوا بقوله وفعله. فحلف[2] الجميع على ذلك. [83أ] ثمّ إنّ الشّيخ حَلّفهم أنْ لا يعودوا يظلموا الرّعيّة، ولا يجدّدوا مَظْلَمة، ويبطلوا جميع ما أحدث الغوريّ مِن المَظالم، ويُبطلوا ما كان على الحوانيت من المُشاهرة والمُجاعلة[3]، وأن يُجْرُوا الأمور على ما كانت في دولة الأشرف قايتباي، ويُمشوا الحِسْبة على ما كانت في زمن يَشْبَك الجماليّ، لمّا كان مُحْتَسِبًا، فحلفوا على ذلك.

ثمّ إنّ الشّيخ رضي الله عنه قال للأمراء: إنّ الله تعالى ما كَسَرَكُم وأذلّكم وسَلّط عليكم السلطان سليم بن عثمان، إلاّ بِدعاء الخَلْق عليكم في البّر والبحر. فقالوا له: تُبْنا إلى الله تعالى عن المَظالم مِن هذا اليوم. ثمّ انْفَضّ المجلس على ذلك، وخرجوا مِن عند الشّيخ أبي السعود على أنْ يُسَلْطِنوا الأمير الدّوادار، وأخذ الشّيخ عليهم العهد بِحَضْرَته، وترشّح الأمير الدّوادار للسّلطنة.

[1] هو صوفيّ عاصر السلطان الغوري والسلطان طومان باي والفترة الأولى من العهد العثماني. توفي عام 933هـ/ 1526م في كوم الجارح الموجود خارج مصر العتيقة. راجع: الشّعراني، الطبقات الكُبرى، ج2، ص702-707.

[2] جاءت في الأصل [فحلفوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] المشاهرة والمجاعلة هما نوعان من الضرائب أو الرّشوة كانتا تُفرض على أصحاب الحوانيت على غير وجه حقّ.

ولمّا كان يوم الجمعة ثالث عشر[1] شهر رمضان، صلّى الأمير الدّوادار صلاة الفَجْر، وركب معه الأمراء المُقدّمين، وأمامه الفوانيس والمشاعل، وشقّ الصّليبة، وهو بتخفيفة صغيرة، ومَلوطة بيضاء، وكذلك الأمراء الذين طلعوا صُحبته. فارْتفعتْ له الأصوات بالدعاء، فطلع إلى باب السّلسلة. فلمّا استقرّ بها، أرسل خَلْفَ أمير المؤمنين محمد المتوكّل على الله وأولاد ابن عمّهم [84ب] خليل. وحضر القضاة، الحنفي حسام الدين بن الشّحنة، والقاضي شرف الدين البرويني أحد نوّاب الشّافعيّة، وجماعة مِن نوّاب القضاة الذين بالقاهرة. فلمّا تكامل المجلس واجْتمع سائر العسكر، والأمراء، والمُقدّمين، وغيرهم من الأكابر والأصاغر، فأظْهر أمير المؤمنين وكالة مغلّفة عن ولده محمد المُتوكّل على الله، بأنه وكيله في جميع أموره، وما يتعلّق به من أمور الخِلافة وغيرها، وكالة مفوضّة، وثبت ذلك على يد القاضي شمس الدين بن وحيش. فاكْتَفُوا بذلك، لأن الخليفة المتوكّل على الله، كان في أسْر مولانا السلطان سليم خان، وكذلك القضاة الثلاثة. ولمّا تَمّت البَيْعَة للأمير الدّوادار طومان باي، وبايعه الخليفة يعقوب والد المتوكّل على الله، بطريق الوكالة عنه في ذلك، بحضور الشّرف يحيى البرويني وحضور جماعة من القضاة. ثمّ أحضروا له السّلطنة، وهي: الجبّة السّوداء، والعمامة السّوداء، والسّيف البدّاوي. وأُفِيض عليه شِعار المَلِك، وتَلَقّب بالمَلِك الأشرف، مِثل الغوريّ. ثمّ قدّموا له فرس النّوبة بغير كنبوش، ولا سَرج ذهب، ولا وجدوا له في الزردخاناه لا قُبّة ولا طَبر. فركب مِن على سُلّمَة الحُرافة[2] التي بباب السلسلة، والخليفة [85أ] أمامه. فطلع مِن باب سِر القصر الكبير[3]، وجلس

[1] جاء في التحفة البهية، ص73 "رابع عشر".

[2] هي السّفينة الحربيّة الكبيرة التي تحمل الأسلحة الناريّة من باب السّلسلة. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص74.

[3] هو الباب السّريّ للقصر الكبير، حيث يخرج منه السلطان. راجع: عبد الرحيم، المصدر السّابق.

على سرير المُلْك، وقبّلَ[1] له الأمراء الأرض، ودَقّت له البشائر[2]، ونُودِي باسمه في القاهرة. ولمّا انتهى مِن أمر المبايعة، خلع على أمير المؤمنين، ونزل إلى داره في موكب حافل، ولم يعلم المسكين ما خُبِّيَ له في الغَيب، وزالت دولة الغوريّ، كأنها لم تَكُنْ. فسُبحان مَن لا يزول مُلْكُهُ ولا يتغيّر سُلطانه. وقال ابن قانصوة[3] في ذلك:

قــد ذهــبَ الغــوريُّ إلــى ربّــهِ وذا الـــــذي قـــــدّره اللهْ
المُلْــكُ للهِ فَمَــنْ شــاءَ مِــنْ عِبـــــادِهِ لِلمُلْـــــكِ وَلاّهْ

ولمّا كان يوم الجمعة، خرج السلطان طومان باي، وصلّى صلاة الجمعة وخطب له الشّرف يحيى البرويني، واستمرّ يخطب به كل يوم جمعة، وصرّح باسمه في الخُطبة. وكذلك جميع الخُطَباء بمصر صرّحوا باسمه، بعد ما كان الخُطباء لم يذكروا أحدًا في الخُطبة سِوى الخليفة نحو خمسين يومًا كمَا تقدّم ذِكْرُهُ. واستمرّ السلطان طومان باي يهيّئ نفسه لمُلاقاة مولانا السلطان سليم، والعسكر لم يُطِعْه ويُعطوا التّهاون، إلى أنْ أخذ مولانا السلطان سليم، حَلَب والشّام وخان يونس وغزة كمَا تقدّم، وجميع بلاد الدّوادار. هذا ولمّا تحقّق السلطان [86ب] طومان باي، قُرب مولانا السلطان سليم مِن الدّيار المِصرية، وذلك في يوم الاثنين ثاني عشر الحجّة الحرام، سنة اثنتين[4] وعشرين وتسعمائة، أخرج الزّر[د]خانات[5] والعُجُل الخشب، عُدّتها مائة عَجَلة يسحبها زَوْج أبقار، وفيها مَكْحَلة نُحاس ترمي بالبُنْدُق الرّصاص. فنزل السلطان طومان باي مِن المقعد

[1] جاءت في الأصل [قبّلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] جاءت في الأصل [البشاير]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص 105، وعبد الرحيم، المصدر السابق.

[4] جاءت في الأصل [اثنينِ]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة (922هـ/ 1516م).

[5] حرف [د] ساقط في الأصل، زيد لإتمام الكلمة.

وركب، وفي يده جريدة[1]. وصار يُرَتّب العسكر والعُجُل. ثمّ يسحبُ بعد ذلك مائة جَمَل مُحَمّلة: بارود، ورصاص، وحديد، ورِماح وغير ذلك. وأمام العَجَلات، أربع طُبول وأربع زُمور. وكان أمامها مائتي فارس ما بين تُرْكمَان ومغاربة، وبأيديهم صناجق بعلبكي وكيدك أحمر[2]، وهم يقولون اللّهُمّ انْصُر السلطان طومان باي يعقوب. وكان القائل يقول لهم: قولوا الله ينصر السلطان سليم. ثمّ إنهم شقّوا مصر على عادة السلاطين في مواكبهم. فلمّا وصل الموكب إلى تُربة العادل[3] صَفُّوا العُجُل إلى أنْ يخرجوا. وفي يوم الأربعاء رابع عشر الحجّة، حضر إلى الأبواب المصريّة الناصريّ محمد القوصونيّ[4] رئيس الطّب، فهرب مع العُربان وقابل السلطان طومان باي، وهو في زِيّ عجيب، وشكل غريب مِن الزّوالة. وأخبر عن السلطان سليم، أنّ العسكر مُخْتَلِف، وأنه مات له [87أ] مِن الجِمال والخيول ما لا يُحصى، مِن الثّلج الذي وقع في الشّام، وأنّ الغَلاء معهم موجود، وأنّ عسكره قد تقلّق مِن الثّلج والبَرْد[5]. ثمّ إنّ السلطان طومان رَسَمَ لطوائف العُربان بأن يرجعوا لبلادهم، وقد أشار عليه بعض الأمراء، بالذي ليس فيه نَفْع في خروجهم. وفي يوم الخميس حادي عشره[6]، ورد على السلطان طومان باي أخبار فِتنة، وهي أنّ مولانا

[1] الخَيْل أو الحِصان بدون فارسة. والقصد هنا أنه يقود حِصانه وهو يمشي على قدَمَيْه. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "جرد".

[2] اسمان لِنوعَيْن من الصناجق.

[3] أي مَقْبرة العادل. وقد تكون هي تربة العادليّة التي بناها السلطان العادل طومان باي الأشرفيّ خارج باب النّصر. راجع: مبارك، علي، الخطط التذوفيقية، ج1، ص130.

[4] هناك أكثر من شخص بهذا الاسم من عائلة " القوصوني" المشهورة بالأطباء. وعلى الأرجح هو: محمد شمس الدين القوصوني، علاّمة ورئيس الأطباء في القاهرة، وهو طبيب السلطان الغوريّ أيضًا. توفي في القاهرة عام 917هـ/ 1511م. راجع: الخفاجيّ، ريحانة الألبا، ج1، ص82.

[5] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص135.

[6] جاء في التحفة البهية، ص76 "خامس عشره".

السلطان سليم، خرج من غزّة وهو قاصد إلى مصر، وأنه قسّم عسكره فِرْقَتَيْن: فِرقة تحضر مِن على الدّرب السّلطاني[1]، وفِرقة تحضر مِن على التّيه[2]. ثمّ لمّا بلغه ذلك، أرسل للأمراء وشاورهم في ذلك، فاتّفق الأمراء على أنْ يُقَسّموا عسكر مِصر فِرْقَتَيْن: قِسم يتوجّه إلى ناحية عجرود[3]، وقِسم يسافر في الدّرب السلطاني، ثمّ كَثُر القيل والقال، واضطّربت الأحوال. ثمّ إنّ طائفة المغاربة اختلفوا على السلطان طومان باي، فلمّا حتّهم على السّفر أرسلوا يقولون له: نحن ما [لنا][4] عادة بسفر، وإذا سافرنا ما نسافر إلاّ لقتال الفِرنج[5]، وأمّا حَرْبُ المسلمين فلا نقاتلهم، وأظهروا الغَرَض للسلطان سليم. ولمّا بلغ السلطان طومان باي ذلك، تشوّش وأرسل لهم أحد جماعته يقول لهم: إنْ لمْ تُطيعوا بِأسْرِكم وتقاتلوا، وإلاّ أمَرْتُ المماليك [88ب] أنْ يقتلوكم عن آخِركم، حتى لا يبقى منكم أحد. ثمّ إنّ السلطان سليم أرسل يقول لشيخ العرب أحمد بن بقر، أدْخُلْ تحت طاعتنا ولك الأمان، وَلاَقِنَا[6] على الصّالحيّة[7] وصُحبتك ألف إرْدَب شعير. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، أراد أن يتوجّه ويلاقي السلطان سليم من الصّالحيّة، فنهوه الأمراء عن التّوجّه وقالوا: ما ينفع بيننا وبينه قتال إلاّ في الرّيدانيّة. ثمّ اضطّربت الأحوال، وصارت التّجار

[1] أي الدّرب السلطانية التي تخضع للسلطان وإشرافه.

[2] اسم وادٍ واسع ليس فيه ماء في صحراء سيناء. يُقال إنّ بني إسرائيل قد تاهوا فيه بعد خروجهم من مصر مع النّبي موسى عليه السلام. يقع بين أيْلَة ومصر وبحر القزم. راجع: ورثيلاني، نُزهة الأنظار، ص328.

[3] بلدة مندرسة كانت في العصر العثماني إحدى محطات طرق الحاج المصري. عبد الرحيم، التحفة البهية، ص76.

[4] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى. وكذا جاءت أيضًا في التحفة البهية، ص76.

[5] أي من غير المسلمين. ويُقال أيضًا "الفِرنجة".

[6] جاءت في الأصل [ولاقينا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] تقع في محافظة الشّرقيّة بمصر، بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 644هـ/ 1047م. راجع: رمزي، محمد، القاموس الجغرافي، ج1، ص112-113.

تأخذ أمتعتها وأموالها مِن الحوانيت، ويدخلونها في أماكن لا يُعْتَنا بها. ثمّ إنّ السلطان سليم وصلتْ أوائل عسكره إلى العريش[1]. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، رَسَمَ بِحَفْر خندق بسبيل علاّن[2]، من الجبل الأحمر إلى آخر غيطان المَطَريّة[3] ونُصِبت الوِطاقات على ذلك المحل. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، رسم الأمير مامي[4] المُحتسب بأن ينادي في القاهرة للسّوَقة وأرباب الصنائع والزّياتين واللّحامين، بأن يخرجوا ببضائعهم إلى الوِطاق عند تربة العادل، ويتسبّبوا[5] على العسكر الذي هناك. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، رسم للوالي بأن ينادي في القاهرة للعسكر الذي يخرج إلى الرّيدانيّة ولا يتأخر منهم أحد، ومَن تأخر شُنِق على باب داره، وجعل يُكَرّر المناداة في النّهار مرّتين. [89أ] فصارت العساكر تتوجّه إلى الوِطاق بُكْرة النّهار وترجع المساء، فبلغ ذلك السلطان طومان باي، فحَجَر عليهم بأن يباتوا في الوِطاق. وفي يوم الجمعة عشرينه، وصَلَتْ أوائل عسكر السلطان سليم إلى قطيا. ثمّ في يوم السّبت حادي عشرينه، عرض السلطان طومان باي عسكره بالوِطاق، ووعدهم بكل خير إذا نُصِر، هيهات. ثمّ إنه اهتمّ بعمل حائط تستر المَكاحِل التى نَصَبها بالرّيدانيّة، وصار على ما قيل يحمل الحِجارة للبنّائين بنفسه. فلمّا أبصر العسكر ذلك منه، صاروا يفعلون كَفِعله حتى بنوا الحائط المذكور. ثمّ إنّ عسكر مولانا السلطان سليم خان، وصَلَتْ أوائله إلى بلبيس[6]. ثمّ في يوم الأحد ثاني عشرينه، حضر الأمير قانصوه

[1] مدينة مصريّة، تقع شمال سيناء على ساحل البحر المتوسط.

[2] هي المنطقة الممتدّة من الجبل الأحمر، شمال شرقيّ القاهرة إلى المطريّة. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص77.

[3] الغِيطان: أي السهول، ومفردها "غيط". وهي كلمة مصريّة.

[4] هو أحد أكابر أمراء الجراكسة، عُرِف عنه الشجاعة والحزم وإرهاب العُربان. شارك في حملة سنان باشا على اليمن. راجع: شلبي، أوضح الإشارات، ص 116.

[5] جاءت في التحفة البهية، ص 77 "يبيعوا".

[6] بلدة قديمة جدًا، تقع في محافظة الشرقيّة. راجع: رمزي، محمد، القاموس الجغرافي، ج1، ص100.

العادلي الذي كان كاشف الشّرقيّة، وكان السلطان طومان باي قد أرسله ليكشف أخبار مولانا السلطان سليم، فقبض على شخصَيْن منهم، وحزّ رأسَيْهما[1] وأحضرهما إلى بين يدي السلطان طومان باي. وكان صُحبتهما شخص من أبناء حَلَب من جماعة خير بك نائب حَلَب. فلمّا وقف بين يدي السلطان طومان باي، أخبره أنّ الواصل إليه نائب حَلَب وصُحبته ابن سوار وجماعة من الأمراء، وأنّ هذا الجاليش[2] تحته من عسكر السلطان سليم ثمانية [90ب] آلاف فارس، لَكِنْ بطلتْ خيولهم من التّعب والجوع. ووجد مع ذلك الرجل الحَلَبي عدّة مُطالعات من أمراء الجراكسة الذين[3] دخلوا تحت طاعة مولانا السلطان سليم خان، وَوُضِعَ الرّجل في الحديد، وأُشِيعَ أنّ عسكر السلطان سليم لمّا وصلوا إلى بلبيس، نادى أميرهم لأهل بلبيس بالأمان والاطمِئنان[4]، وأنْ لا أحد من العسكر العثماني يشوّش على أحد مِن أهل بلبيس. ثمّ إنّ عسكر السلطان سليم لمّا وصلوا العريش، وتحقّق طومان باي ذلك، أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقيهم من هناك، فلمْ تُمَكّنه الأمراء من ذلك. ولو أراد الله تعالى بالنّصر لوقعت الملاقاة من هناك، فإنّ خيول السلطان سليم قد بطلتْ من الجوع والعطش، وكان غالبهم مُشاة من حين خروجهم من الشّام وهم في غاية التّعب، فرُبّما كانوا يكسروهم قبل أن يدخلوا إلى الخانقاة. لكنّ الله تعالى أعمى بصيرتهم وبصرهم، بسوء نيّاتهم، وصفاء نيّات عساكر مولانا السلطان سليم خان. ثمّ رسمَ السلطان طومان باي لعسكره بالمبيت تجاه الِوطاق، وهم على ظهور

[1] جاءت في الأصل [روسهما]، والصواب ما ثبت أعلاه اسلامة اللغة.

[2] الجاويش أو الجاليش أو الشّاليش: هي كلمة تركية قديمة أو فارسية، تعني الحرب أو المعركة. كذلك أطلقت على الراية التي تعلوها كتلة من الوبر الطويل، حيث كان السلاطين المماليك يعلّقونها أربعين يومًا على مبنى الطّبلخانة قبل خروجهم للحرب. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 118، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص302.

[3] جاءت في الأصل [الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] جاءت في الأصل [الاطمان]، والصواب ما ثبت أعلاه.

خيولهم لابسين آلة الحرب، ولا ينامون إلاّ بالنّوبة، خوفًا من هجوم عسكر مولانا السلطان سليم. فلمّا قرب عسكر مولانا السلطان [91أ] سليم من الخانقاة، خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقِماشهم، ودخلوا إلى القاهرة خوفًا على أنفسهم، وكذلك غالب فلاحين الشّرقيّة. ثمّ إنّ العُربان صاروا يقبضون على كل مَن يرونه من العثمانيّة ويحزّوا رأسه[1] ويحضرونها إلى السلطان طومان باي، فيأْمُرْ بأنْ تُعلّق تلك الرّؤوس على باب النّصر وباب زويلة. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، سيّر العسكر إلى بِركة الحاج[2]. وفي يوم الأربعاء ثامن عشرين ذي الحجّة، وصل عسكر السلطان سليم إلى بِركة الحاج، فاضطّربت الأحوال، وغُلّق باب النّصر وباب الفتوح[3] وباب الشعريّة[4] وباب البحر وباب القنطره، وغير ذلك من الأبواب. وغُلّقت الأسواق التي بالقاهرة، وتعطّلت الطواحين. ولمّا تحقّق السلطان طومان باي وصول العسكر العثماني إلى بِركة الحاج، زعق النّفير بالوِطاق، وركب العسكر قاطبة مع الأمراء ودُقّت الطُّبول، وركب السلطان طومان باي بنفسه، وصار يرتّب العسكر على قَدْر منازلهم، من الجبل الأحمر إلى غاية غيط المَطريّة. وكان للسلطان طومان باي هِمّة عالية، ولو كان الغوريّ حيًّا، ما فعل بعض ما فعله طومان باي هذا. لكنْ لمْ يُعْطِه الله تعالى النّصر. فلمْ يقعْ في ذلك اليوم قتال، ولمْ [92ب] يَجْسُر السلطان طومان باي أن يتوجّه للسلطان سليم خان. ولما كان يوم

[1] جاءت في الأصل بصيغة الجمع. والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] بِركة الحاج: تقع على طريق الحج المصريّ، ولها عدّة أسماء منها: بركة الجُبّ وبركة عميرة وبركة الحج والحُجاج وبركة الحاج الشريف. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج1، ص4، وعبد الرحيم، التحفة البهية، ص79.

[3] باب الفتوح: يقع برأس حارة بهاء الدين، تمّ بناؤه عام 480هـ/ 1087م، ولا يزال حتى اليوم. راجع: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص274.

[4] باب الشعريّة: هو باب وحي في القاهرة، يقع إلى الغرب من باب الفتوح شرقيّ النيل. أزيل عام 1884م بسبب خلل مبانيه. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص43.

الخميس، زحف عسكر مولانا السلطان سليم، ووصلتْ أوائله إلى الجبل الأحمر. ولمّا بلغ السلطان طومان باي ذلك، نادى لعسكره بالذّهاب إلى عسكر السلطان سليم حتى سَدَّ الفضاء، وهم كقطع الليل، فتلاقيا الجيشان في أوائل الرّيدانيّة، فوقع بين الفريقَيْن مَقْتَلة عظيمة مَهُولة، يطول شرحها، أعظم من الوقعة التي في مرج دابق. فقُتِل من العثمانيّة ما لا يُحصى عددًا، وقُتل سنان باشا[1]، وكان أكبر وزراء مولانا السلطان سليم خان، فدفنه مولانا السلطان سليم في محلٍّ بجانب الشّيخ دمرداش. وقُتل مِن وزرائه وعسكره جماعة كثيرة، حتى صارت الجُثث مُلقاة على الأرض، من سبيل علاّن إلى تُربة يشبك الدّوادار. ثمّ إنّ العثمانيّة جاءوا أفواجًا وانْقَسَمُوا فِرْقَتَيْن: فِرقة جاءت مِن تحت الجبل الأحمر، وفِرقة جاءت للعسكر عند الوِطاق بالرّيدانيّة، فرموا عليهم بالبُنْدُق والرّصاص، فقُتل مِن عسكر طومان باي ما لا يُحصى عددًا وقُتل مِن الأمراء المُقدّمين جماعة كثيرة، منهم أزْبَك المُكَحّل وغيره. ثمّ انكسر طومان باي وولّى مُدْبِرًا، وتَمّتْ عليه الهزيمة. فثبتَ بعد الكَسرة طومان باي نحو عشرين درجة، وهو يقاتل [93أ] بنفسه في نَفَر قليل مِن الرُّمات. ثمّ إنّ طومان باي خُفِي ولم يُعْلِم لمُخْبِر، وهذه ثاني كَسَرة وقعت لعسكر مصر. وأمّا الفِرقة الثانية من العثمانيّة، وهي التي توجّهتْ من تحت الجبل، فإنها نزلت وِطاق طومان باي، فنهبوا كل ما فيه من قِماش وسلاح وآلات حرب وغير ذلك. حتى لا أبقوا شيئًا، لا قليلاً ولا كثيرًا، وكان ذلك بما جرتْ به المقادير، والحكم لله العليّ الكبير. ثمّ إنّ جماعة من العثمانية، لمّا هرب السلطان طومان باي، دخلوا إلى القاهرة وقد نهبوها بالسّيف. ثمّ توجّه جماعة منهم إلى المقشرة، وقد أحرقوا بابها وأخرجوا كلّ مَن كان بها مِن المحابيس. وكان بها جماعة من العثمانيّة سجنهم طومان باي، لمّا كان في الرّيدانيّة، فأطلقوهم وأطلقوا مَن كان بالرّحبة والقاعة. ثمّ توجّهوا إلى بيت خاير بك

[1] هو سنان باشا الخادم. تولّى الصدارة العظمى في عهد السلطان سليم عام 920هـ/ 1514م، وبقي فيها حتى مقتله عام 923هـ/ 1517م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، 87.

المعمار، أحد المُقدّمين، فنَهَبوا ما فيه[1]، وكذلك بيت يونس التّرجمان، وبيوت جماعة مِن الأمراء والمباشرين ومياسير الناس. وصارت الزّعق[2] والعياق[3] والغلمان ينهبون البيوت بحجّة العثمانيّة، فانْطلقَ في أهل مصر جمرتان[4]: أحدهما من العثمانيّة، والثانية من الزّعق والعياق والغلمان. ثم دخلوا جماعة من العثمانيّة إلى الطواحين [94ب] وأخذوا ما فيها من البِغال والأكاديش، وأخذوا جِمال السّقايين. وفي يوم الاثنين، سلخ سنة اثنتين[5] وعشرين وتسعمائة، دخل أمير المؤمنين المتوكّل على الله إلى القاهرة، وصُحبته وزراء السلطان سليم، وجماعة من عساكره، والقضاة الثلاثة المَبْدِي بِذِكْرهم، الذين كانوا في الأسْر من حين مات الغوريّ. ثمّ دخل مِن باب النّصر وشقّ من القاهرة، وتجاهه المشاعليّة تنادي بالأمان والاطمئنان، والبيع والشّراء، والأخذ والعطاء، وأنْ لا أحد من العسكر يشوّش على أحد. وقد غُلِّقَ باب الظّلم وفُتِحَ باب العَدْل، وأنّ مَن كان عنده مملوك جركسيّ، ولا يُعلِم به شُنِق، والدّعاء للمَلِك المُظَفّر مولانا السلطان سليم خان بالنّصر، فضَجّ الناس له بالدّعاء. وفي يوم الجمعة رابع محرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة[6]، خُطِب باسم مولانا السلطان سليم على منابر مصر والقاهرة. وقد ترجم له الخُطباء فقالوا: وانْصُر اللّهمّ مولانا السلطان بن السلطان مالك البرّيْن والبَحْرَيْن، وكاسر الجَيْشَيْن، وسلطان العِراقَيْن، وخادم الحَرَمَيْن الشّرِيفَيْن، المَلِك المُظَفّر سليم شاه. اللّهمّ انْصُره نَصْرًا عزيزًا، وافْتَحْ له فَتْحًا مُبينًا، يا مالك الدنيا والآخرة، يا ربّ العالمين. ثمّ إنّ

[1] جاءت في الأصل [فيها]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] جاءت في التحفة البهية، ص80 "الزُّعر"، ومفرده أزعر. أي العامّة وقُطّاع الطّرق.

[3] وهم عامّة الناس والسّوَقة.

[4] أي فِرْقتان أو جماعتان.

[5] جاءت في الأصل [اثنَيْن]، والصواب ما ثبت أعلاه (922هـ/ 1516م).

[6] 923هـ/ 1517م.

السلطان سليم أرسل [95أ] جماعة الينجريّة[1]، وأوقفهم على أبواب المدينة يمنعون النّهّابة من نَهْبِ البيوت. ثمّ إنّ عسكر العثمانيّة، صاروا يذهبون إلى التّرب والخرابات بسبب المماليك الجراكسة، فكل مَن وجدوه منهم جزّوا رأسه ورأس من هو عنده من الحجازيّن وغيرهم. ثمّ إنّ السلطان سليم، أرسل خلف المَقَرّ الناصري محمد بن الغوريّ. فلمّا حضر ألْبَسَهُ قُفْطان[2] مُخمل أخضر مُذَهّبًا، وألْبَسَهُ عمامة عثمانيّة، وأعطاه ورقة بالأمان على نفسه، ورسمَ له أن يسكن في مدرسة أبيه، التي أنشأها بالشّرابشيّن. ثمّ توجّه الأمير يوسف البدويّ الوزير، فأعطاه الأمان، وألْبَسَهُ قُفْطانًا، وجعله مُتحدّثًا على جِهات الغربيّة. ويوسف البدويّ هذا، جدّ والدة المرحوم الوالد، رحمه الله تعالى. وكذلك خلع على الأمير تِمراز، وجعله كاشف المِنْيَة وغير ذلك من الجِهات القبلية. وخلع على الزّيني بركات بن موسى، وجعله مُتَحدّثًا على الحِسْبة. وفي يوم الاثنين سابع[3] المحرم، نقل مولانا السلطان سليم خان وِطاقه من الرّيدانيّة ونَصَبَهُ في بولاق[4] مِن تحت الرصّيف إلى آخر الجزيرة الوسطى. ثمّ أحضروا له مفاتيح القلعة، فلم يلتفت إلى ذلك، واختار الإقامة على شاطئ نهر النّيل. ولمّا كَثُرَت [96ب] العثمانيّة بالقاهرة، صاروا كل مَن رأوه مِن أولاد الناس لابس زمط[5] أحمر وتخفيفة يقولون له: أنت جركسيّ، فيقطعوا رأسه. فلَبِستْ أولاد الناس كلها عمائم حتى الأمراء، وأبطلوا لبس التخافيف الزّموط من مصر. وفي يوم

[1] أي الإنكشاريّة وهي الفِرقة الرئيسية في الجيش العثمانيّ، وقد سبق ذِكْرُها.

[2] القُفْطان: هو ثوب فضفاض سابغ مشقوف المقدّم، يضمّ طرفَيْه حزام، ويُصْنَع من الحرير أو القطن، وتُلْبَس فوقه الجبّة. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "قَفَط".

[3] جاءت في التحفة البهية، ص81 "ثاني المُحَرّم".

[4] هي المنطقة الشّمالية الغربية من من مدينة القاهرة، وهي تطّل على نهر النيل. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج4، ص18.

[5] جاءت في التحفة البهية، ص82 "زَنَط". وهو لباس جركسيّ يوضع على الرأس.

الثلاثاء ثامن[1] المُحَرّم، ركب السلطان سليم خان، ودخل إلى القاهرة من باب النّصر، وأمامه الخليفة والقضاة الأربع، وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر، وشَقّ القاهرة في موكب حافل، وأمامه الجنائب الكثيرة، والعساكر ما بين رُكبان ومشاة، حتى ضاقت بهم الشّوارع، واستمرّ الموكب إلى باب زويلة. ثمّ خرج من تحت الرّبع، وتوجّه من هناك إلى بولاق، ونزل بالوِطاق الذي نَصَبه تحت الرّصيف. ولمّا شقّ القاهرة، ارتفعتْ له الأصوات بالدعاء، فأقام بالوِطاق المذكور إلى يوم الثلاثاء. ولمّا كانت[2] ليلة الأربعاء، تاسع الشّهر بعد العشاء، لم يشعر السلطان سليم إلاّ وقد هجم عليه طومان باي وأحاط به. فاضطّربت أحوال مولانا السلطان سليم إلى الغاية، لأنهم هجموا عليه بِجِمال مُحَمّلة كَتّان[3]، وأُطْلِقَ فيها النّار، فاحْترق بعض خيام مولانا السلطان سليم، ووقع فيهم السّيف تحت الليل، فقُتل من عسكر مولانا السلطان سليم ما لا يُحصى عددًا، [97أ] واجتمع هناك الجَمّ الغفير من الزّعق والعيّاق من النّواتيّة[4] وغيرهم. وصاروا يرمون على عسكر السلطان سليم بالمقاليع[5] إلى أن طلع النهار، فلاقاهم الأمير علاّن الدّوادار الكبير من الناصريّة عند الميدان الكبير. فوقع بين عسكر مصر وعسكر السلطان سليم هناك، وقعة تشيب منها النّواصي، فملكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى، إلى قنطرة باب البَحْر إلى قنطرة قديدار. واسْتمرّت الحرب ثائرةً[6] بين الفريقَيْن من طلوع الفجر إلى بعد المغرب ونهبت

[1] جاءت في التحفة البهية، ص82 "رابع مُحَرّم".

[2] جاءت في الأصل [كان]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] الكَتّان: هو نبات من الفصيلة الكَّتانيّة، يُتّخَذ من أليافه النّسيج وتُستعمَل جذوعه في الحروب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "كَتِن".

[4] أي البحّارة: راجع: النهروالي، البرق اليماني، ص80.

[5] أداة مصنوعة من نسيج الشّعر أو الصّوف الثّخين أو الجِلد. تُستعمل كسلاح يُرمى به الحَجَر. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص404.

[6] جاءت في الأصل [واستمر الحرب ثائرا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

العُربان وِطاق العثمانيّة الذي كان بالرّيدانيّة. ثمّ إنّ المماليك الجراكسة، صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانيّة، كما كانت العثمانيّة تكبس على الجراكسة. وصار الطالب مطلوبًا. ولمّا كان يوم الخميس عاشر[1] المحرم، واشْتَدّ القتال بين العثمانيّة وبين الجراكسة، ونادى السلطان طومان باي في الناصريّة، وقناطر السّباع للزّعق والعياق، بأنّ كلّ مَن قَبَضَ على عثمانيّ، يأخذ سَلَبَه[2]، ويقطع رأسه ويحضرها بين يدي السلطان طومان باي. ثمّ إنّ العثمانيّة أخرجوا الجراكسة من بولاق وجزيرة الفيل، وملوكها منهم. فحين فَعَلَت العثمانيّة ذلك، أخربت الجراكسة عَقْد قنطرة قديدار، خوفًا من العثمانيّة أن يهجموا عليهم. [98ب] ثمّ إنّ العثمانيّة، أخرجوا الجراكسة من الناصريّة إلى قناطر السِّباع. ثمّ إنّ السلطان طومان باي بَرَك[3] في جامع شيخون الذي بالصّليبة، وصار يركب بنفسه ويَكِرّ من الصّليبة إلى قناطر السِّباع في نَفَر قليل من عسكره. ثمّ رسَمَ بِحَفْر خندق في رأس الصّليبة، وآخر عند قناطر السِّباع، وآخر عند رأس الرّميلة[4]، وآخر عند جامع طولون، وآخرعند حَدْرَة البقر. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، رسَمَ بِحَفْر خان الخليل، فمنعه بعض الأمراء من ذلك، وأمره أن يقسّم عسكره أربع فِرَق: فِرقة إلى جِهة قناطر السِّباع، وفِرقة إلى جِهة الرّميلة، وفِرقة إلى جِهة جامع طولون، وفِرقة إلى جِهة باب زويلة. فلمْ يُقْتَلْ من المماليك الطومانيّة إلاّ القليل، وصاروا يختفون في الإصطبلات خوفًا من القتال، وقد دخل الرّعب في قلوبهم خوفًا من العثمانيّة. ثمّ إنّ طائفة العثمانيّة توجهوا

[1] في التحفة البهية، ص83 "سادس".

[2] السّلَب: الثياب والسلاح. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "سَلَبَ".

[3] أي نَزَل في جامع شيخون، الذي يقع في شارع الصّليبة وتجاهه خانقاه شيخو، وقد أنشأهما الأمير سيف الدين شيخو الناصريّ عام 756هـ/ 1355م. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج2، ص315.

[4] هي منطقة المنشيّة اليوم. وهي تمتدّ في القطائع بين قصر ابن طولون وجامعه. أصبحت فيما بعد سوقًا للخَيل وساحة زمن المماليك والعثمانيين. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج2، ص292-297.

من على مصر القديمة، وطلعوا مِن على القِرافة الكبرى وملكوا من باب القرافة الكبرى[1] إلى مشهد[2] السّيدة نفيسة رضي الله عنها. ثمّ إنّ السلطان طومان باي، قصد أن يهدم قناطر السِّباع، ثم رجع عن ذلك. ثمّ إنّ الجراكسة هزموا جماعة من العثمانيّة، فهربوا وطلعوا إلى منار جامع المؤيد شيح[3] وصاروا يرمون على الناس بالبُنْدُق [99أ] الرّصاص، ويمنعوهم من دخول باب زويلة. وصارت القتلى من الجراكسة والعثمانيّة، أجسادهم مرميّة على[4] الأرض من بولاق إلى قناطر السِّباع، ومن الرّميلة إلى تحت القلعة، وفي الحارات والأزقّة، وهم أبدان بلا رؤوس، ورؤوس بلا أبدان. هذا والغُربان واقفة عند قنطرة عمر يعرّون الناس، ولولا لُطْف الله تعالى، لهجموا [على][5] بيوت الناس في القاهرة، وينهبون الأسواق. واستمرّ طومان باي يقاتل عسكر مولانا السلطان سليم، ويقتل منهم ويقتلوا هم من جماعته، من يوم الأربعاء إلى يوم السّبت، ثاني عشر[6] من الشّهر من طلوع الشّمس، فرأى طومان باي عين الغَلَبة. وقد تكاسل عسكره عن القتال واخْتفوا في بيوتهم، وتفرّقت الأمراء، كلّ جماعة في جِهة. فتوجّه طومان باي نحو بِركة الحَبَش[7]، وكان قليل الحظّ غير مسعود الحركات في أفعاله. وكان كمَا قيل في المعنى شعر:

[1] القِرافة: هي مكان دفن الموتى، وتقع شرقي الفسطاط. وهي اثنتان: القرافة الكبرى، وتقع بحوش أبي علي بالقرب من البساتين. والقِرافة الصغرى، وهي محل الإمام الشافعي. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج1، ص21.

[2] أي مكان دفنها. من سلالة آل البيت، وقد وُلِدَتْ رضى الله عنها بمكة سنة 145هـ وتوفيت سنة 208هـ.

[3] يقع جامع المؤيد شيح في شارع المناخليّة، بناه الملك السلطان المؤيد عام 818هـ/ 1416م. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج2، ص127.

[4] جاءت في الأصل [في]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل بعد كلمة [بيوت] التي حذفتُ منها ال التعريف لسلامة المعنى.

[6] في التحفة البهية، ص84 "ثامن مِن مُحَرَم".

[7] بِركة الحَبَش: هي أقدم بِركة في القاهرة، لها عدّة أسماء منها: بِركة المعافر وبِركة حِمْيَر. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص89.

قَلِيلُ الحَظّ ليسَ لهُ دواءٌ ولوْ كانَ المَسِيحُ لهُ طَبيبُ

وهذه ثالث[1] كسرة وقعت للعسكر المصريّ مع عسكر السلطان سليم، وقد غُلّت أيديهم عن القتال حتى نفد القضاء والقَدَر، وكان ذلك في الكِتاب مَسْطورًا. ولمّا انْهزم السلطان طومان باي، وقعت[2] في مصر المُصيبة التي لم يُسمع بمثلها فيما تقدّم من الزّمان، [100ب] لأنه انهزم في صبيحة السّبت المذكور، فانْتشرت العثمانيّة في الصّليبة، وأحرقوا جامع شيخون، فاحْترق سقف الإيوان الكبير والقُبّة التي كانت له، لِكَوْنِ السلطان طومان باي كان به وقت الحرب. وأحرقوا البيوت التي حوله في دَرْب أبي غزيّة[3]. ثمّ إنّ العثمانيّة بطشت في العبيد والغلمان والعوام من الزّعق وغيرهم، ولعبوا فيهم بالسّيف، وراح الصالح بذنب الطالح، وربّما عوقب من لا ذَنْب له. فلا حَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. فصارت جُثثهم مرميّة في الطُّرُقات، من باب زويلة إلى الرّميلة، إلى الصّليبة، إلى قناطر السِّباع إلى الناصريّة، إلى مصر القديمة. وكان عدّة مَن قُتِل في هذه الواقعة على ما نقله ابن إياس في تاريخه[4]، وهي مدّة أربعة أيام، فوق العشرة آلاف. ولعّل ذلك من الطائفتَيْن ومن الرّعيّة. ثمّ إنّ العثمانيّة كانوا[5] يكبسون على الجراكسة في البيوت والحارات، فمن وجدوه منهم ضربوا عُنقه، حتى أنهم هاجموا[6] الجامع الأزهر، وجامع

[1] في التحفة البهية، ص84 "رابع".

[2] جاءت في الأصل [وقع]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] هو دَرْب مجاور لجامع شيخون، وقد احترقت البيوت التي كانت به في هذه المعركة. راجع: عبد الرحيم، التّحفة البهية، ص85.

[4] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص156.

[5] جاءت في الأصل [كان]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[6] جاءت في الأصل [هجموا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

طولون[1] وجامع الحاكم[2]، وغير ذلك من الجوامع والمدارس والمزارات. قال ابن إياس[3]: وكان المشاعليّ إذا ضرب عُنق أحد من الجراكسة والعُربان يعزل رؤوس الجراكسة جِهة ورؤوس العُربان جِهة. ثمّ تُنصَب الحِبال على الصّواري[4] وتُعلّق [101أ] عليها تلك الرؤوس في الوِطاق الذي بالجزيرة الوسطى. قال ابن إياس[5]: وأخبرني مَن أثِق به، أنه شاهد جُثّة الأمير قانصوه أحد أمراء المُقدّمين، الذي كان نائب قَطيا، وهي مُلقاة تجاه سبيل الغوريّ، والكِلاب تنهش في جُثّته، ومصارينه وشَحْم بطنه، فإنه كان جسيمًا. قال: وقُتل من الأمراء ما لا يُحصى عددًا. هذا، ولمّا هرب السلطان طومان باي، وقُتِل مَن قُتِل مِن العسكر كما تقدّم، رجع مولانا السلطان سليم إلى وِطاقه الذي بالجزيرة الوسطى، ونصب في وِطاقه صَنْجَقَيْن: أحدهما أبيض والآخر أحمر. وذلك إشارة عندهم لرفع السّيف عن أهل المدينة. هكذا عادتهم في بلادهم إذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسّيف، كل هذه الأقوال لإبن إياس[6]. وفي تلك الأيام صار الخليفة المتوكّل على الله، هو صاحب الحَلّ والعَقد، والأمر والنّهي بالدّيار المصريّة. وصارت أولاد السلاطين في دهاليز بيته مثل: المَقر العلائي علي بن المؤيد، وأحمد بن الظّهر خشقدم، وأولاد المَلك المنصور، وغير ذلك من الأمراء وأعيان الناس مِن المباشرين وغيرهم. وكان أحقّ بها وأهلها، فإنه كان من أهل الخَير

[1] جامع طولون أحد الجوامع العتيقة في مصر، بدأ ببنائه أحمد بن طولون عام 263هـ/ 877م وفرغ منه عام265هـ/ 879م. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج2، ص309-310.

[2] جامع الحاكم: بناه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المُعز لدين الله عام 380هـ/ 991م. عُرِف بجامع الخُطبة لأن الأمير خطب الجمعة وصلّى بالناس فيه، ويُعرف أيضًا بجامع الأنوار. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج4، ص167-168.

[3] ابن إياس، المرجع السابق.

[4] مُفردها "صارية"، أي أعمدة.

[5] ابن إياس، المرجع السابق.

[6] ابن إياس، المرجع السابق، ص157.

والدّين والصلاح. وكان مولانا السلطان سليم إذا أراد فعل أمْر يُخالف القانون ينهاه عن ذلك، فيمتثل مولانا السلطان [102ب] سليم ما أمره به، لِما يعلمه من النّصح والخَير. وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المُحّرم، نادى السلطان سليم خان بعد العَصر في القاهرة، بأنّ الأمراء المُقدّمين، وأمراء الأربعين، وأمراء العشرات الذين تخلّفوا واخْتفوا بعد الوَقْعَة من عسكر الغوريّ وطومان باي يظهروا، وعليهم الأمان. ثمّ إنّ السلطان سليم كتب للأمراء أمانًا في ورقة طويلة، وعلّقها المشاعليّ في جريدة، وفيها أنهم يتوجّهوا إلى مدرسة الغوري[1]، فظهر جُملة من الأمراء وقابلوا مولانا السلطان سليم في الوِطاق. فَوَبَّخَهم بالكلام، وبَصَق في وجوههم، وذَكَر لهم ظُلمهم وما كانوا يصنعون في المسلمين. ثمّ رسمَ بأنْ يَطْلعوا إلى القلعة، وأنْ يقيموا بها مع الحِفْظ عليهم. فامْتَثَلوا أمْره الشّريف وطَلَعوا. ثمّ أرسل جان بردي الغزاليّ، يطلب الأمان من مولانا السلطان سليم خان، وقد وصل إلى الخانقاه وصُحبته جماعة من المماليك الجراكسة، الذين هربوا بعد الكَسْرة. فأرسل مولانا السلطان سليم الأمان لهم. ثمّ ظهر أنّ السلطان طومان باي، لمّا وقعت عليه الكَسْرة التي كانت بالصّليبة، هرب وظهر بالبهنسا[2]، وأقام بها لمّا ضجر من الذي قاساه من الحروب والشّرور. وأرسل القاضي عبد السلام قاضي البهنسا، [103أ] ليطلب له الخليفة الأمان من مولانا السلطان سليم. وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر المُحَرّم، دخل جان بردي الغزاليّ إلى القاهرة، وعلى رأسه ورقة فيها أمان مولانا السلطان سليم. فتوجّه إليه وهو في الوِطاق وقابله هناك. وقيل: إنّ جان بردي الغزاليّ، كان متواليًا مع السلطان سليم في زمن الغوريّ كما تقدم ذِكر ذلك آنفًا. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم، طَلَع إلى القلعة في

[1] تقع في وسط شارع الغوريّة، أنشأها السلطان قانصوه الغوري. وهي عبارة عن جامع ومدرسة، وتحتوي على أربعة إيوانات. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج2، ص112-114.

[2] البهنسا: تقع في مركز بلدة بني مزار في محافظة المنيا. راجع: عبد اللطيف، ليلى، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص378.

موكب حافل وتوطّن بها. وفي يوم الثلاثاء خامس عشرين المُحَرّم، خلع مولانا السلطان سليم على الشّرفي يونس الإستادار قَفْطانًا، وجعله مُتَحَدّثًا على جِهات الشرقيّة، ليمسح البلاد ويكشف على الإقطاعات التي للجراكسة وغيرهم، وعلى الأوقاف وما أشبه ذلك. وأخذوا قواسيم[1] من أولاد الجِيعان، ونزل إلى الشّرقيّة. ثمّ إنّ مولانا السطان سليم، قرّر فخر الدين بن عوض، وبركات أخو شَرف الدين الصّغير، وجعله مُتَحَدّثًا على جهات الغربيّة. وقرّر الزّيني بركات بن موسى وجعله مُتَحَدّثًا على جِهات المَحَلّة. وقرّر شَرف الدين الصغير ناظر الإصطبل في الجِهات القِبْليّة. فأظْهر كل من هؤلاء من أنواع المَظالم في حقّ الناس، بسبب الإقطاعات والرّزَق[2]. وفي هذا الشّهر المذكور، غَلَت الأسعار بمصر من غِلال وغيرها، حتى [104ب] ارْتَفع الخُبز في الأسواق. قال ابن إياس[3]: وذلك إنّ العثمانيّة لمّا دخلوا القاهرة، نهبوا المغلّ التي في الشّون[4] وأطعموها لخيولهم حتى لم يبقْ في الشّون شئ من الغِلال. ونهبوا القمح الذي في الطّواحين، فاضطّربت الأحوال. وكان الأمر كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أذِلَّةً﴾[5] الآية. فلا حَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. ثمّ ظهر أمر طومان باي، وأنه بالصعيد عند أولاد عمر، ومنع المراكب من الدخول إلى مصر بالغِلال، فبموجِب ذلك، حصل الغَلاء. وفي يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصّعيد بأنّ طومان قَوِيَتْ شوكته،

[1] في التّحفة البهية، ص87 "قوائم".

[2] أراضي الرّزق: هي الأراضي التي أنعم بها السلاطين السابقون على بعض الناس وأصبح حق الإنتفاع بها ينتقل بالوراثة لورثتهم. وهي مُعفاة من الضّرائب سوى ضريبة الحماية مقابل حماية الدولة لها من السّطو. راجع: عبد الرحيم، الرّيف المصري، ص69.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص162.

[4] أي نهبوا الغلّة التي في المخازن. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "شَوَنَ".

[5] سورة النّمل (27)، آيه (34). والآية كاملة: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ).

واجتمع عنده من العُربان، ومن الأمراء شئ كثير. ثمّ إنه لمّا قَوِيَ توجّه إلى ثَغْر اسكندرية بَيْرَق[1] كبير من آلات الحرب. ولمّا تحقّق ذلك مولانا السلطان سليم، أخذ حِذْره منه، وصارت على رؤوس أهل مصر الطَيرة[2] مِمّا وقع لهم في تلك الوَقْعَة التي كانت بالصّليبة، وكان أمْر الله قَدَرًا مَقْدُورًا. ثمّ بعد أيام أرسل طومان باي يقول لمولانا السلطان سليم: إنْ كُنْتَ تروم أنْ أجعل السّكّة[3] والخُطبة باسمك، وأكون نائبًا عنك بمصر، وأحْمِل إليك من خَراج[4] مصر حسب ما يقع عليه الاتفاق بيننا من المال، وأصير أرسله إليك في كلّ [105أ] سنة، فارْحَلْ عن مصر أنت وعسكرك إلى الصّالحيّة وتَحْقِن دماء المسلمين بيننا، ولا تدخل في وِزْر أهل مصر. وإنْ كُنْتَ لم ترضَ بذلك، فاخْرُجْ إلى بَرّ الجزيرة. والله يعطي النّصر لِمَن يشاء، ولا تحسب أنّي أرسلتُ إليك عن عَجْز، وإنّ معي ثلاثين ألف فارس ما بين مُقدّمين ألوف وأربعينات وعشرات. وإنّ معي من المماليك السّلطانيّة نحو عشرين ألفًا. وما أنا بِعاجز عن أمثالك، ولكنّ الصّلح خَيْر لِصَوْنِ دماء المسلمين. فلمّا وقف مولانا السلطان سليم على مُطالعة طومان باي، أرسل أمير المؤمنين، والقضاة الأربع، وأحْضَرَ جماعة من وزرائه، وأمرهم بالمسير إليه، وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى طومان باي، بأنه إنْ حضر يفعل له ما أراد. فامْتَنَع الخليفة من الذّهاب إليه، وقال: أرْسِلُ دواداريّ صُحبة القضاة، فسافرت القُضاة الأربع ودوادار الخليفة إلى عند طومان باي. وفي هذه الأيام قَوِيَت الإشاعات بأنّ طومان باي، جمع من العساكر والعُربان ما لا يُحْصَى عددًا، وهو زاحف على السلطان سليم. وكَثُرَ القيل والقال، ووقع الاضطّراب في مصر بسبب

[1] البيرَق: الرّاية أو العَلَم. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "بَرَقَ".

[2] أي الخِفّة والطّيش. وهنا المقصود طَيرة الغضّب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "طَار".

[3] أي سكّ النّقود.

[4] الخَراج: ما يخرج من غَلّة الأرض. وهنا القصد الضريبة أو ما يؤخّذ من أموال الناس. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "خَرَجَ".

ذلك. وفي أثناء هذا الشّهر وردت الأخبار بأنّ القُضاة الأربع وبَرْدَبَك دوادار الخليفة، وقاصد مولانا السلطان سليم، مصلح الدين، الذين أرسلهم [106ب] وجماعة العثمانيّة، لمّا وصلوا إلى قريب البِهنسا، خرج عليهم جماعة من خليفة طومان باي، فقتلوا العثمانيّة وهرب بُرْدَبَك الدّوادار بعد أن سلبوه أثوابه ونُهِب ما كان معه هو وغيره. وأُشِيع قَتْل قاضي البِهنسا عبد السلام، ونهبوا ما كان مع القُضاة، وما سَلِموا من القَتْل إلاّ بعد جُهد كبير. ولمّا بلغ مولانا السلطان سليم خان ذلك، اضطّربتْ أحواله، وتحقّق أنّ طومان باي أبا عن الصّلح، بعد أنْ كان طلب الأمان. ثمّ إنّ السلطان سليم نقل وِطاقه من الجزيرة إلى بِركة الحَبَش. وفي يوم السّبت ثامن عشرينه، وصل عسكر طومان باي إلى ترسة بالقرب من الجزيرة[1]، فرسمَ مولانا السلطان سليم بعمل وحسات[2] على شاطئ البحر لِقُربه من العسكر، وكذلك في بّر مصر القديمة. ثمّ إنّ السلطان سليم رسمَ بأنّ الأمراء المسجونين من عسكر طومان باي يحضروا إلى الوِطاق، فحضروا في أسوأ حال، وهم على بِغال وحمير وجِمال، ومُشاة بغير شاشات. وقيل: إنهم كانوا من أكابر الأمراء. فلمّا مَثلوا بين يديه، وبّخهم بالكلام. ثمّ أمَر بِضَرْبِ أعناقهم، فضُرِبَتْ أعناقهم في الوِطاق، وصارت الكِلاب تنهش في جُثثهم وهي مُلقاة على الأرض، وهم على ما قيل، كانوا مائتي أمير. وقيل: إنّ سبب قَتْل هؤلاء الجماعة، ما فعله [107أ] طومان باي بجماعة السلطان سليم الذين توجّهوا في قضية الصّلح. وفي يوم الأحد سادس ربيع الأول عدّى السلطان سليم إلى بَرّ الجزيرة بسبب قِتال طومان باي، وأقام بها إلى يوم الخميس عاشر الشّهر المذكور. فتلاقيا العسكران على وِرْدان، وقيل على المنارات، فكان بين العسكرَيْن وَقْعَة لم يُسْمَع بمثلها، أكبر من الوَقْعَة التي كانت بالرّيدانيّة، وكُسِرت العثمانيّة حتى رموا[3] أنفسهم في

[1] في التحفة البهية، ص89 "الجيزة".

[2] في التحفة البهية، ص89 "وحشات".

[3] جاءت في الأصل [أرموا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

البَحر. ثمّ إنهم كسروا طومان باي وهزموه، وجاءت النّفطيّة بالبُنْدُق الرّصاص، فولّى طومان باي مهزومًا إلى قرية تُسمّى البوطة[1] أعلى "تروجة"[2]، وهذه رابع كَسْرة على عسكر مصر وطومان باي. وكان طومان باي ليس له سَعْد، كلمّا أراد أنْ ينتصر على مولانا السلطان سليم ينكسر. فكان كما قال القائل[3]:

إذا لـمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِن اللهِ لِلْفَتى فَـأوَّلُ مـا يَجني عليـهِ اجتهـادُهُ

ولمّا انتصر مولانا السلطان سليم، وقتل جانبًا من العرب، وجانبًا من عسكر طومان باي، وتكاملت الرؤوس، رسمَ مولانا السلطان سليم بإحضار مراكب. فلمّا أحْضِرَتْ[4] وضعوا فيها الرؤوس التي قُطِعَتْ. ثمّ عَادوا[5] إلى بولاق وأتوا بمنارَيْ خشب، وعلّقوا عليها الرؤوس، وحملتها النّواتية، ولاقوهم جماعة السلطان سليم خان من البَرّ بالطّبول [108ب] والزّمور، ونادوا في القاهرة بالزّينة وشقّوا بتلك الرؤوس من باب البَحر إلى باب القنطرة، وطلعوا بهم من على سوق أمير الجيوش[6]، وشقّوا بهم من القاهرة، وكان يومًا مشهودًا. قيل: كان عدّة الرؤوس التي قُطِعَت[7] في هذه الوَقعة ودخلوا القاهرة، نحو من ثمانمائة رأس ما بين جراكسة، وعُربان، وغير ذلك. والذين قُتِلوا في الوَقعة وألقوهم في البحر أكثر من ذلك. ثمّ إنّ طومان باي لمّا هرب وتوجّه إلى البوطة، فكان له هناك أصحاب، من

[1] البوطة: من البلاد القديمة في مصر، كانت تابعة لمركز أبو حِمْص. وعندما أنشئ مركز أبو المطامير عام 1930 ألحِقَت به. راجع: رمزي، محمد، القاموس الجغرافي، ص232.

[2] ابن إياس، بائع الزهور، ج5، ص171

[3] ابن إياس، المصدر السابق.

[4] جاءت في الأصل [حضروا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] جاءت في الأصل [عدوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[6] هو سوق للأقمشة يقع في حارة برجوان. عُرف بهذا الاسم أيام الفاطميين، وكان أحد الأسواق العامرة جدًا حتى يومنا هذا. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ط2، ج2، ص83.

[7] جاءت في الأصل [الذي قُطيعوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

جُملتهم حسن بن مرعي وشكر. فعزموا عليه للضّايفة، فركب طومان باي لحُسْن ظنّه كونه صاحبه، فنزل عنده على سبيل الضّيافة. ثمّ إنّ طومان باي أحضر مُصْحفًا وحلّف حسن عليه بأنْ لا يخونه ولا يغدُر به، ولا يَغْمِز[1] عليه، فحلف أنه لا يخونه بوجه من الوجوه، فطاب خاطر طومان باي على ذلك. فلمّا استقرّ عنده أحاطت به العُربان من كل جانب. ثمّ أعْلَمَ السلطان سليم بذلك، فأرسل إليه جماعة من العسكر فقُبِض على طومان باي قبضًا باليد، ووضعوه في الحديد وتوجهوا به إلى السلطان سليم. فلمّا رأى ذلك مَن كان مع طومان باي من العسكر والأمراء، تفرّقوا من حوله وتشتّتوا في البلاد. وتَمّت الحِيلة على [109أ] طومان باي، وخانه حسن بن مرعي بعد حَلْفِهِ على المُصحف الشّريف، وهو من أعزّ أصدقائه. وكان له عليه اليد الطُّولى في زمن الغوريّ، فما أثّرَ فيه الخَير. ومِن بعض ما قيل في المعنى[2]:

لا تَــرْكَنَنَّ إلــى الخَريــفِ فَمَــاؤُهُ مُسْــــتَوْخَمٌ وهـــواهُ خَطّـــافُ
يَمشي معَ الأجسامِ مَشْيَ صدِيقِها ومِنَ الصّديقِ على الصّديقِ يُخَافُ

ولمّا أقبل طومان باي بين يدي مولانا السلطان سليم خان، كان لَبْسه كالعرب الهوّارة بزنط[3]، وعليه شاش وملوطه بأكمام كِبا، فعاتبه السلطان سليم ببعض كلمات. ثمّ أمر بإخراجه، فتوجّهوا به إلى خيمته، فأقام بها، وأحاط به الينجريّة بالسّيوف لأجل الحِفظ. فأقام هناك أيامًا وهو بِوِطاق السلطان سليم وهو في الحديد، إلى يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول من تلك السّنة. وكان ذلك اليوم أول الخماسين[4]. ثمّ إنّ السلطان سليم بَلَغَه

[1] أي لا يسعى به شرًا، ولا يتجسّس عليه ويُخبِر عنه. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "غَمَزَ".

[2] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص175.

[3] في بدائع الزهور، ج5، ص175.

[3] في بدائع الزهزر، ج5، ص175 "زمط".

[4] هو يوم فِطْر النّصارى وعيدهم الكبير. راجع: عبد الرحيم، التحفة الهية، ص91.

أنّ الناس تُكذّب في أمْر طومان باي وتُصدّق، فحنق من ذلك، وأمَر بأنْ يُؤْتَى به على زِيّه الذي جاء به ويركب إكديش، وهو في الحديد، فطلع مِن إمْبابة[1] إلى بولاق. ثمّ جاءوا به على المِقياس[2] وأمامه نحو من أربعمائة فارس من العثمانيّة، وهو على هيئته يُسّلم بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو [110ب] لا يدري ما يُفْعَلُ به. فلمّا وصل أنزلوه من على فرسه، وأرخوا له الحِبال، ووقفتْ حوله العثمانيّة بالسّيوف مُصّلة[3]. ولمّا تحقّق طومان باي ذلك، وقف على أقدامه وقال لِمَن حوله: إقْرَؤوا الفاتحة. فقرأ الفاتحة ثلاث مرّات. ثمّ قال للمشاعليّ: افْعَلْ ما تُريد. فلمّا وضع الحَبل في عُنُقه ورفعوه، فانْقَطَعَ به، فسقط به على باب زويلة، فقيل: إنه انْقَطَعِ به الحَبْل مرّتَيْن. ثمّ شنقوه وهو مكشوف، وعلى جسده شاية جوخ أحمر ضيّقة، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كِبار، وفي رِجْلِه لباس جوخ أزرق. ولما شُنِق وَطَلَعَتْ روحه، صرخ الناس وتباكتْ عليه. فإنهم لم يروا منه إلاّ الخَير، لأنّ مُدّته قد كانت يسيرة، وهي خمسة أشهر وستة وعشرون يومًا[4]. فإنه تسلطن رابع عشر رمضان، وكان شابًّا عمره نحو أربعة وأربعين سنة، وكان شُجاعًا بطلاً. وأقام مُعَلّقًا على باب زويلة ثلاثة أيام، حتى فاحتْ رائحته، ورآه الخاص والعام. وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتًا، ووضعوه فيه، وكَفّنوه وصَلّوا عليه، ودفنوه بِحَوْش مَدْفَن الغوريّ. ومَضَتْ دولته كأنها لم تَكُنْ، رحمه الله تعالى. وقد قال ابن إياس[5] في ذلك شعر:

لَهَفِـــي علـــى سُـــلْطَانِ مِصْـــرَ قَـــدْ وَلّـــى وزالَ كأنّـــهُ لـــمْ يُـــذْكَرا

[1] في بدائع الزهزر، ج5، ص175 "إنبابة"، وفي التحفة البهية، ص91 "إمبابة" وهو الصواب وما ثبت أعلاه. وهي اليوم إحدى المحافظات المصريّة.

[2] في التحفة البهية، ص91 "المِقس".

[3] في التحفة البهية، ص91 "مُصلّتة".

[4] في التحفة البهية، ص91 "مِقدار ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا".

[5] ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص177.

[111أ] شَـنَقُوهُ قَسْـرًا[1] فَـوْقَ بـابِ زوِيلـةْ وَلَقَـــدْ أذاقُـــوهُ الوَبـــالَ الأكْبَـــرا
يـــا ربِّ فَـــاعْفُ عَـــنْ عَظـــائِمِ جُرْمِـــهْ واجْعَـلْ جِنَـانَ الخُلْـدِ فِيـهِ لـهُ قَبْرا[2]

وكان شَنْقُ طومان باي من غاية سَعْد مولانا السلطان سليم. ولم يُسْمَعْ بمثل هذه الواقعة من الفتح الإسلامي، ولا فيما تقدّم مِن الزمان، أنّ سلطان مصر شُنِق على باب زويلة. ثمّ بعد ذلك صفا الوقت للسلطان سليم. ثمّ أخذ مولانا السلطان سليم في التّجهيز إلى بلاد الرّوم، فجعل يونس باشا[3] نائبًا عنه بمصر. ثمّ خلع شخص من جماعته، وقرّره نائبًا عنه لِغَزّة. ثمّ خلع على شخص آخر وقرّر نائبًا بالمقدس، فخرج من القاهرة في أواخر الشّهر. وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه، صنع بعض النّفطيّة إلى السلطان سليم نفطًا، وتوجّه إليه به في الوِطاق بإمبابه[4] فأحرقوه أمامه. ثمّ إنّ السلطان سليم عزم على إرسال جماعة من أهالي مصر إلى الرّوم. وفي يوم الجمعة سادس عشرينه، أتى مولانا السلطان سليم من وِطاقه الذي بإمبابه[5] وعدى إلى بولاق. ثمّ توجّه إلى القاهرة وشقّ من باب الخَرَق[6]، فزُيّنت له القاهرة وصلّى بالجامع الأزهر صلاة الجمعة، وتصدّق هناك على مُجاوري الجامع بصدقة كبيرة. ثمّ توجّه إلى بولاق من الطريق التي جاء منها،

[1] في التحفة البهية، ص92 "ظُلْمًا".

[2] ابن إياس، المرجع السابق "جنّات النّعيم"، وفي التحفة البهية، ص92 "جنّات الخُلد".

[3] يوسف باشا: هو أمير الحاج بمصر، فهرب منها عندما ثار الناس عليه. راجع المنح الرحمانية، ص 124.

[4] جاءت في الأصل "انبوبه"، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] في بدائع الزهور، ج5، ص178 "إنبابه"، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] باب الخَرَق: في الأساس كان منظرة أقِيم على الخليج الكبير، وكان في عهد الفاطميين موردًا للسقائين. أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ضمن الميدان السلطاني الذي أنشأه لتدريب مماليكه عام 639هـ. راجع: مبارك، على، الخطط التوفيقية، ج3، ص7.

وكان في موكب [112ب] حافل. ثمّ بعد أيام دخل إلى حمّام الأستادار[1] الذي ببولاق. ثمّ خرج وعاد من الطريق التي أتى منها. ثمّ أنعم على الحمّاميّ في ذلك اليوم بثمانية وعشرين دينارًا، وأعجبه الحمّام إعجابًا تامًّا. ثمّ رجع إلى الوِطاق. ثمّ إنّ جماعة من وزراء مولانا السلطان سليم، جلسوا في المدرسة الغوريّة، وجعلوا يطلبون جماعة من القُضاة والمباشرين والشهود، وأعيان تُجّار المغاربة، وتُجّار الورّاقين، والشّرب، والباسطيّة، وجماعة من السُّوَقة والمُتسبّبين في البضائع، وطائفة من البنّائين، والنّجارين، والمُرخّمين، والمُبلّطين والحدّادين، وغير ذلك من المُعلّمين، حتى طلبوا جماعة من اليهود. فلمّا تكاملوا في المدرسة المذكورة، عيّنوا جماعة منهم أنْ يسافروا إلى بلاد الرّوم[2]. فكتبوا أسماءهم في قوائم وألزموا كل إنسان أنْ يُحضر كفيلاً[3] يكفله. فلمّا أحضروا الكُفلاء أطلقوهم. وفي يوم الأربعاء، غُرّة جمادى الأولى، حضر قاصد من عند إسماعيل شاه العوفي، وعلى يده مطالعة لمولانا السلطان سليم خان. فلمّا قرأها انْفعل انْفِعالاً كبيرًا. وفي أوائل هذا الشّهر حضر قاضي القضاة كمال الدين الطويل، وقاضي القضاة محيي الدين الدّميري، والقاضي شِهاب الدين الفتوحيّ الحنبليّ. وكانوا توجّهوا إلى جِهة البِهنسا بسبب الأمان الذي توجّهوا به من السلطان [113أ] سليم إلى طومان باي. ولمْ يُفَدْ مِن توجُّه هؤلاء القضاة شئ كما تقدّم ذلك آنفًا. فلمّا حضروا، أخبروا بصّحة قَتْل القاضي حسام الدين بن الشّحنة وأخيه أبي بكر. وفي يوم الاثنين سادسه، عدّى مولانا السلطان سليم خان إلى المقياس، وكان في ذلك اليوم رياح عاصفة، فكاد أنْ يغرق، وما بقي من غَرَقه شئ.

[1] الأستادار: كلمة فارسية تعني المتولّي للأخذ، أي الأمير المسؤول عن رعاية بيوت السلاطين والإشراف عليها وكذلك عن فتح باب القصر وإغلاقه. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص27، وعبد الرحيم، التحفة البهية، ص93.

[2] في التحفة البهية، ص93 "إسطنبول".

[3] في التحفة البهية، ص93 "ضمانًا".

فلمّا سَلِمَ من الغَرق نقل وِطاقه بالمقياس والرّوضة، تجاه مصر القديمة. ثمّ إنّ أمراءه أخرجوا السّكان الذين بالرّوضة ومصر القديمة، وسكنوا في دورهم، فحصل للناس الضّرر بسبب ذلك. وأعجبه المقياس، وأقام به مُدّة طويلة. وكان[1] وزراؤه يعدّون للرّوضة في كل يوم ويطالعونه بالأمور التي يفعلونها في الناس من خَير وشّر. وفي يوم السّبت ثامن عشره، خرجت طائفة المُهندسين، والبنّائين، والنّجارين، والحدّادين، والمرخّمين، والمُبلّطين من المسلمين والنّصارى حتى الفَعَلة. وذلك بسبب المدرسة التي أراد السلطان سليم [أنْ][2] يفعلها بأرض الرّوم، مِثل مدرسة السلطان الغوريّ. وأرسل أيضًا، طائفة من المغاربة. وفي هذا اليوم خرج إلى سفر الرّوم طائفة أخرى[3] من نوّاب القُضاة والشّهود، منهم: القاضي شمس الدين الحَلَبي أحد نوّاب الشّافعيّة، وفد خرج [114ب] من مصر بغاية العُسْر، وخرج زين الدين الشّرنقاشي، أحد نوّاب الحنفيّة، والقاضي شمس الدين بن جمال الدين، أحد نوّاب الشّافعيّة، والقاضي شِهاب الدين بن الهيثميّ، أحد نوّاب الحنابلة، والشّريف البُرديني، وآخرون من نوّاب القُضاة. وخرج أيضًا في ذلك اليوم، جماعة كثيرة من تُجّار الورّاقين والشّرب. وفي آخر هذا الشّهر، أرسل مولانا السلطان سليم يقول لأمير المؤمنين: عْمِلْ يرقك حتى تسافر صُحبتي. فلمّا تحقّق ذلك الخليفة، اضطّربتْ أحواله، وشَرَع في عمل يرقه، وأنه يسافرهو وأولاد عَمّه. وفي شهر جمادى الأولى، وكان أوّله يوم الجمعة، ففي ذلك اليوم خرج المقر العلائي علي بن الملك المؤيد، وابن المَلِك الأشرف إينال. وقد كان تعيّن إلى سفر الرّوم فخرج في ذلك اليوم، وخرج أيضًا جماعة من الفُقهاء، وأعيان التُّجار مِمّن تَعَيّن إلى الرّوم. فمن ذلك شمس الدين بن زَرْوَق، وكان القاضي بدر الدين بن الوقّاد، أحد نوّاب الحنفيّة تعيّن إلى الروم. فلمّا

[1] جاءت في الأصل [كانت]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة اللغة.

[3] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة اللغة.

تحقّق ذلك اخْتفى، وحصل على نقيب الجيش من[1] الدفتردار ما لا خَير فيه، لِكَوْنِه كفيله. وفي يوم السّبت ثاني الشّهر المذكور، عَرَض مولانا السلطان سليم عسكره في بَرّ الجيزة، وعيّن جماعة يسافرون[2] صُحبته إلى ثغر [115أ] إسكندريّة. وفي يوم الاثنين رابعه، عدّى مولانا السلطان سليم من المقياس إلى مصر القديمة وشقّ من جامع طولون إلى القَلعة. ثمّ عاد من يومه إلى المقياس وأقام به. وفي يوم الخميس سابعه، نزل مولانا السلطان سليم من المقياس في مراكب، هو وجماعته، وقصدوا التّوجّه إلى ثغر إسكندريّة. وكان معه من فُرسان عسكره ألف فارس، وتوجّه يونس باشا من البَرّ بعسكر آخر يُلاقيه هناك. وفي يوم الثلاثاء، ثاني عشر جمادى الأولى[3]، خرج أمير المؤمنين المتوكّل على الله وصُحبته أولاده، قاصدًا سفر الرّوم، وخرج العلائي علي بن طاهر بك، وخرج الشّرفيّ يونس بن الأتابكي سودون العجميّ، وآخرون من الأعيان. فتوجّهوا إلى بولاق، ونزلوا من هناك في مراكب ليتوجّهوا إلى ثغر رشيد. فحصل للناس على فَقْدِ أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف وقالوا: قد انقطعت الخلفاء من مصر. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم، لمّا دخل إلى ثغر إسكندريّة، رسمَ بأنّ الجماعة الذين أتَوا من مصر لسفر الرّوم، يُوضَعوا في الخانات[4]، وفي الأبراج إلى أنْ يتكاملوا، ثمّ يسافروا دُفعة واحدة. فوضعوهم في أبراج إسكندريّة، ونساؤهم في الخانات. فقاسوا مَشَقّة عظيمة. وفي يوم الجمعة، ثاني عشر جمادى الأولى، خرج إلى [116ب] سفر الرّوم، الشّهابي أحمد، ناظر الجيش، وابن الجماليّ، ناظر الخاص[5]، وخرج صُحبته بدر الدين أخوه، وخرج أيضًا ناصر الدين الغزّي، ويحيى

[1] في التحفة البهية، ص95 "إبن". وهذا لا يستقيم مع معنى السّياق.

[2] جاءت في الأصل [يُساقون]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل [جماد الأوّل]، والصواب ما ثبت أعلاه

[4] الخانات: الفنادق.

[5] هو الشّخص الذي ينظر في الأموال الخاصّة بالسلطان ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويدقّقه ويوقّع على اعتماده. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، 150.

الطنبساويّ مُوَقّع الدّرج[1]، وجَانْبك دوادار باي. وفي يوم الجمعة المُتقدّم ذِكْرُه، حضر مولانا السلطان سليم من ثغر إسكندريّة، وكانت غَيبته في هذه السّفرة خمسة عشر يومًا، ذِهابًا وإيابًا وإقامة. وأتاه في هذه السّفرة الهدايا الحافلة. ثمّ حضر إلى المقياس، وشقّ على الرّوضة بَرًّا، فانْطلقت له النّسوان من الطّيقان[2] بالزّغاريد. وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه، عَرَض يوسف باشا، الذي قرّره نائب السلطنة بمصر، عسكر السلطان سليم. وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه، خرج إلى سفر الرّوم الشّيخ زين العابدين قاضي القُضاة، والشّيخ كمال الدين الطويل. وخرج أيضًا زين الدين البتنوخيّ، ناظر المواريث[3]، وخرج أيضًا جماعة من الزّردكاشيّة، منهم: يحيى بن يونس، ومحمد العادليّ المعروف بابن البدويّة، وزين الدين محمود الأعور، وأحمد بن الهواديميّ، وآخرين من الزّردخانيات. وخرج إبراهيم مُقَدّم الدولة. وفي يوم الأربعاء، رابع جمادى الآخرة، نادى مولانا السلطان سليم في عسكره، بأنّ كلّ من كان مُتزوّجًا من مصر بامْرأة يطلقها، وإلاّ شُنِق. فمنهم مَن طَلّق ومنهم مَن [117أ] أبقاها في عِصْمته. وفي يوم الخميس خامسه عدّى مولانا السلطان سليم من الرّوضة، وطلع إلى الرّميلة، وعَرَض عسكره في الميدان الذي تحت القَلعة، وعيّن جماعة منهم يقيمون في مصر صُحبة يونس باشا. وعيّن جماعة أُخَر يسافرون معه، ورسمَ للمُشاة أنْ يسافروا في البَحر، واستمرّ يعرض في عسكره ثلاثة أيام متوالية. وفي ذلك اليوم، خرج حريم[4] خير بك، وحريم جان بردي الغزاليّ يُقِمْنَ[5] بحَلَب إلى أنْ يأتي السلطان سليم إلى حَلَب، وقد قَوِيَت الإشاعات بسفر مولانا السلطان سليم عن قريب

[1] هو الشّخص الذي يعتمد ويوقّع كشوف الحساب. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص96.

[2] مُفردها طَوْق، وهي الأبنية التي على شكل أقواس. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "طوق".

[3] أي المسؤول عن المواريث وتوزيعها.

[4] أي نِساء.

[5] جاءت في الأصل [يقيموا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

إلى الدّيار الرّومية. وفي يوم الجمعة سادسه، خرج جماعة من المباشرين إلى الرّوم، منهم: القاضي عبد الكريم، أخو الشّهابيّ أحمد بن الجيعان، كاتب الخزائن[1] الشّريفة، وخرج الناصريّ محمد بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان، كاتب الخزائن أيضًا. وخرج عبد القادر بن الملكي مُستوفي ديوان الجَيش[2]، وخرج أولاد البارزيّ بهاء الدين. وخرج محمود المجوليّ مِغمار[3] الغوريّ. وخرج عبد الباسط بن تقي الدين، ناظر الزّردخاناه وولده زين. وخرج في ذلك اليوم، بعض نصارى مِن كُتّاب الخزينة. وخرج كمال الدين البُزددار، وخرج برويز رأس نوبة حاجب الحُجّاب. وخرج فتح الدين بن فُخَيْرَة[4]، أحد كُتّاب المماليك. [118ب] وخرج جماعة من البُزدداريّة، والرّسل، وأرباب الصّنائع من كل فَنّ، إلى ديار الرّوم. وخرج الشّهابي أحمد بن البدريّ، وخرج حسن بن طولون معلم المعلمين[5]، وخرج أمير شكار، ودوادار الوالي. وخرج بدر الدين، شيخ سوق الغَزْل، وخرج جماعة كثيرة من غير هؤلاء في أوقات مُتفرّقة، ونزلوا في مراكب إلى ثغر اسكندريّة. قيل: إنّ عدّة مَن خرج مِن أهالي مصر إلى الدّيار الرّوميّة، ألف وثمانمائة نَفَر. وقيل: إنّ مولانا السلطان سليم لمّا أخذ من مصر هؤلاء الجماعة، أحضر غيرهم من الدّيار الرّوميّة، ليقيموا بمصر عِوَضًا عن الجماعة الذين خرجوا منها. وهذه عادة سلاطين عثمان، إذا فتحوا بلدة أخذوا من أهلها جماعة، وجاءوا من عندهم بجماعة أخرى ليقيموا بتلك المدينة. هذا ما قاله ابن

[1] هو المسؤول عن تسجيل كل ما يدخل الخزائن وما يُصْرَف منها، أي تسجيل الواردات والصادرات من الخزائن السلطانية. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص97.

[2] ديوان الجَيش: هو الديوان المسؤول عن الجيش والمختص بعمليات التجنيد والمتطوعين. راجع: عبد الرحيم، المصدر السابق.

[3] في التحفة البهية، ص98 "مِهتار". وهي كلمة فارسية تعني "الأكبر". وهو لقب يُلَقّب به كل كبير طائفة من غلمان البيوت، مثل: مِهتار الشّراب خاناه. راجع: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص146.

[4] جاءت في الأصل [ابن]، وكذا عند ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص188. والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] أي مُعلّم المعلّمين وكبيرهم في الصّنعة والحِرفة. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص98.

إياس في تاريخه[1]. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم نادى في القاهرة، أنْ لا عَبْد ولا جارية، ولا صبي ولا امرأة، تخرج إلى السّوق حتى يخرج العسكر العثمانيّ من مصر، وذلك خوفًا على الرّعيّة من التّركمان. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم، توجّه إلى بئر البِلّسان[2] التي بالمَطريّة، فاسْتضافه[3] هناك الرئيس الناصريّ محمد بن الرئيس القوصونيّ، ومَدّ له سِماطًا. وكذلك الشّيخ دمرداش رضي الله عنه، وَوَعَظَ السلطان [119أ] سليم في ذلك اليوم إلى الغاية، وغسل وَجْهَهُ من مائها، وأقام بها إلى بعد العَصْر. ثمّ رجع إلى وِطاقه. وفي يوم الخميس خامس[4] عشره، حضر إلى الأبواب الشّريفة، ابن السّيد الشّريف بركات[5]، أمير مكّة. وكان سبب حضوره أنه أتى يُهَنّئ السلطان سليم بمملكة مصر، وأحضر تقادم فاخرة. وفي الخميس سادس عشرينه، أمر السلطان سليم بإحضار ألف رأس غنم، ومائة جَمَل، ومائة بقرة. فلمّا حضروا بين يديه، أمر بتفرقة ذلك على مجاوري الجامع الأزهر، والمساجد، والزّوايا، والمزارات المشهورة، حتى على تُرب السّلاطين المُتقدّمة. ففرّقوا ذلك جميعه. قال ابن اياس[6]: وسبب ذلك أنّ لهم عادة في بلادهم، إذا حَلّت الشّمس في بُرج الأسد، يُفرّقوا هذا القُربان على صورة ما تقدم. ثمّ توجّه مولانا السلطان سليم خان، إلى

[1] ابن إياس بدائع الزهور، ج5، ص188.

[2] بئر البِلّسان: يقع في منطقة المَطريّة في ضواحي مصر بمحافظة القليوبيّة اليوم، وهي قرية قديمة جدًا ينمو فيها شجر البِلّسان الذي يُستَخرَج من دواء. راجع: رمزي، محمد، القاموس الجغرافيّ، ج1، ص11.

[3] جاءت في الأصل [فأضافه]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] في التحفة البهية، ص 99 "الأحد".

[5] هو بركات بن محمد الشّريف، أمير مكّة المكُرّمة وسلطانها. توفي عام 930هـ/ 1524م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج2، ص20.

[6] ابن إياس بدائع الزهور، ج5، ص191.

ناحية الآثار الشّريفة[1]، فقام عليه ريح عاصف فاضطّربت به المركب، فكاد أنْ يغرق لولا لُطف الله تعالى، فللّه الحمدُ على سلامته. وفي هذا الشّهر، أخرج نَذْر[2] السّيدة نفيسة رضي الله عنها، عن الخليفة المتوكّل على الله، وكان بيد الخُلفاء من قديم الزّمان، وكان من جملة تفاضلهم. ويتحصّل لهم من هذه الجِهة غاية الخَير من الشّموع والزّيت، ومن صندوق النّذر الذي تحت رأس السّيدة نفيسة. وفي [120ب] هذا الشهر، أنشأ مولانا السلطان سليم قصرًا من خشب، فوق القصر الذي أنشأه الغوريّ، وصار يجلس فيه في اليوم المُجِرّ، وأنشأه في أيسر مُدّة. وفي يوم الخميس رابعه، خرج للسّفر السّيد الشّريف بن بركات، أمير مكّة، فتوجّه إلى وِطاقه بالّريدانيّة. فكان له موكب حافل، وخلع عليه السلطان سليم قَفْطانًا، وخرج أمامه النّفطيّة وغالب الحجازيين الذين بالقاهرة. وكتب مولانا السلطان سليم خان للشّريف بركات، بأنْ يكون أمير مكّة عِوَضًا عن الباشا الذي بها، وجعله المُتصرّف في أمر مكّة. وأضاف له نظر الحِسْبة، وهو أوّل من جعل التّصرف للسّادة الأشراف بمكّة، أثابه الله الجَنّة بلا مِحنة، بكرمه وفضله. وفي يوم الثلاثاء سادس عشره، تحوّل مولانا السلطان سليم من المقياس، وأتى إلى بيت الأشرف قايتباي، المُطل على بِركة الفيل. فأقام بها، فعجب الناس لذلك، وكيف نزل من المقياس في ليالي الوفاء، وسكن في هذا المكان الذي بين الدّروب، ولمْ يعلم[3] الناس حقيقة ذلك. وسكنت عساكره في البيوت التي[4] حول الصّليبة وأعمالها، وطردوا أصحابها عنها، فحصل للناس الضّرر

[1] كان رِباط الآثار، أثر النّبي عليه السلام، من أهم مُتنزهات مصر ذات الصّبغة الدينية في العصرَيْن المملوكي والعثماني، بسبب ما نُسِب إليه من آثار للنّبي عليه السلام. وتقع هذه الآثار جنوب مدينة الفسطاط وتُطل على النّيل. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص99.

[2] جاءت في الأصل [نظر]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل [يعلموا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] جاءت في الأصل [الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

بذلك. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم، [عزلَ يوسف باشا][1] وأقام موضعه خاير بك نائبًا عنه بمصر. وفي يوم الخميس ثالث عشرينه، طلع السلطان سليم إلى القَلعة، [121أ] ودخل الحمّام الذي بها بالبَحْرة. ثمّ رجع إلى منزل الأشرف قايتباي، وأصطفّت عليه عساكره من باب السّلسلة إلى الصّليبة، ما بين مُشاة ورُكبان. وفي يوم الجمعة ثالث شعبان، قَوِيَ عَزْمُ مولانا السلطان سليم لعوده إلى الدّيار الرّوميّة، وخروجه من مصر، فعيّن شخصًا من أمرائه يقال له علي بك في ذلك اليوم، وصُحبته جماعة من العثمانيّة، لإصلاح الآبار التى في طريق غزّة وتنظيف الطّرقات من الوَعْر قبل خروج السلطان. ولمّا تحقّق عسكره أمر خروجه إلى السّفر لناحية الرّوم، شَرعوا في عمل يرقهم، فارْتجّت مصر لذلك. ثمّ عَرَض مولانا السلطان سليم عسكره بالميدان الذي تحت القَلعة. وفي يوم الجمعة سابع عشره، توجّه السلطان سليم إلى الجامع الأزهر وصلّى به صلاة الجمعة، وتصدّق في ذلك اليوم بمال له صورة. ثمّ شقّ القاهرة، وكان ذلك آخر مواكبه بمصر، ثمّ رجع إلى المكان الذي هو به. وفي يوم الاثنين حادي عشرينه، عَرَض مولانا السلطان سليم خان كِسْوة الكعبة الشّريفة، وكِسْوة ضريح النّبي صلّى الله عليه وسلم، وكِسْوة لضريح سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام. وصنع للمَحْمَل الشّريف كِسْوة، وجعل مَحْمَلاً صغيرًا روميًّا أيضًا، وتناهى في كِسْوة الكعبة على العادة، [122ب] وتناهى في زركشة البُرْقُع[2] إلى الغاية. وقد أرسل من أمرائه إلى مكّة مع أمير الحاج، الأمير مُصلح الدين بيك[3] بالصّدقات الرّوميّة، وبِكِسْوة الكعبة والمَحْمَلَيْن[4]، وبرز السّيد الشّريف بركات لملاقاة المَحْمَلَيْن إلى

[1] ساقطة في الأصل. وقد ثبتت في التحفة البهية، ص100، وزيدت لسلامة سياق المعنى.

[2] أي قناع الكعبة.

[3] هو خازندار السلطان سليم، جاور بمكة عام 923هـ/ 1517م. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، 146.

[4] المَحْمَل: هو شعار سيادة السلطان على الحَرمَيْن الشّريفَيْن. وهو يشبه الهودج ويحمله جَمَل جميل لا يُستَعمل إلا لهذا الغَرَض، حيث يُحمَّل الكسوة السلطانية للكعبة. راجع: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص66، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص97.

سبيل الجوخي[1]، هو وولده السّيد جمال الدين محمد أبو نمي[2]، ولبس الخلعة السُّنيّة. وسار أمام المَحْمَلَيْن المصري والرّومي، ودقّت الطّبول، واستمرّ في الموكب إلى أنْ فارق المَحْمَلَيْن، وأمير الحاج والأمير مُصلح الدين من عند باب السّلام. وأدْخِل المَحْمَلان إلى الحَرم الشّريف، ووُضِعا عن يمين مدرسة قايتباي[3]، ونزل أمير الحاج من باب الصفا[4]، وفُرّقت الصّدقات الرّومية في الحَرَم، وقرّر فيها جماعة من المجاورين لكل شخص مائة دينار، وقرّر باسم أمير مكّة في كلّ سنة خمسمائة دينار في أوّل دفتر الصّدقات، وهي باقية إلى الآن تُعطى لِمَن يكون مكانه. وفُرّق بعد هذه الذخيرة، وهي صدقة كانت تُجهّز من خزينة مصر من قِبل الجراكسة، فأبقاها مولانا السلطان سليم، رحمه الله تعالى، على حالها، وأجراها في كل عام من خزينة مصر تُفَرّق على فقراء الحَرَمَيْن الشّريفَيْن، وعلى مشايخ العرب أرباب الدَّرَك[5] في طريق الحاج، وهي باقية إلى الآن. وفُرِّقَتْ هذه الصّدقات المصريّة التي تُجمع من أوقاف الحَرَمَيْن الشّريفَيْن بمصر وتُجَهّز لها. ويُقال [123أ] لها الصُرّ الحُكمي[6]، وهو أيضًا باقٍ إلى الآن. وقد تقهقر وصار بحكم الرّبع أو الخُمس لاستيلاء الأكَلَة عليها، ودخول الظّلَمَة فيها. أحيا الله مَن أحياها وأنمى حياة مَن عمّرها وأنماها.

[1] ويُسمّى أيضًا سبيل عبد الباسط، وهو المنزلة الثانية التي يتوجّه إليها الحاج المصري، وهناك يلاقيه شريف مكة أو نائبه. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج14، ص36.

[2] هو محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان أبو نميّ. وُلِد عام911هـ/ 1506م، كان واليًا لمكّة وتوفي فيها عام922هـ/ 1584م. راجع: النهروالي، الإعلام، ص167.

[3] بناها السلطان المملوكي الأشرف قايتباي المتوفي عام 901هـ/ 1495م. قرّر فيها أربعة مدارس على المذاهب الأربعة. راجع: النهروالي، الإعلام، 225-226.

[4] هو أحد أبواب المسجد الحرام، ويُعرف أيضًا بباب بني مخزوم وهو أكبر الأبواب ومنه يخرج الجيج إلى المسعى. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص99.

[5] أي الحَرَس.

[6] هو المال المجتمع من إيراد الأوقاف الحُكميّة، أي ما حُبِس من الرّباع وعلى الصدقات والأسرى. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج3، ص107.

وبعد الفراغ من توزيع الصّدقات، قُرِئَتْ ختمة شريفة قرآنية في الحطيم[1] الشّريف، حضرها الأمراء والفقهاء والأعيان باسم مولانا السلطان سليم خان، وأُهْدِيَ ثواب ذلك إلى صحائفه الشّريفة. وخطبَ الخطيب باسمه الشّريف في الموقف المنيف، ودانت له الأقطار شَرقًا وغَربًا، عَجَمًا وعَربًا، لا زالت هذه الأقطار اليوسفيّة والممالك الإسلامية في مُلك ذُريّته إلى يوم القيام بجاه المَلِك العلاّم، ونبيّه عليه أفضل الصّلاة والسّلام آمين. هذا، وقد أطلق مَلِك الأمراء خير بك، نائب السلطنة كثيرًا من المماليك الجراكسة، الذين كانوا في الحَبْس. وكانوا نحوًا مِن أربعين نَفْسًا وأكثر. وفي يوم الخميس ثالث عشرين شعبان، خرج إلى السّفر مولانا السلطان سليم خان، وخرج معه من منزله الذي كان ساكنًا فيه، المُطِل على بِركة الفيل، وذهب من على الصّليبة إلى الرّميلة، في موكب حافل ما وقع لغيره مثله من ملوك مصر. وكان راكبًا بَغْلَة صفراء عالية. قيل: إنها كانت من بِغال السلطان الغوريّ، كان يركبها في الأسفار، وكان عليه قَفطان مُخْمَل أحمر. [124ب] فطلع من على الضوّة[2] ونزل من على تُربة الأشرف قايتباي، ووقف هناك، وقرأ الفاتحة وأهداها له. وكان أمامه جماعة كثيرة من الرُّماة بالنّفوط. ثمّ شقّ القاهرة، من بين التّرب إلى تُربة العادل التي بالقضاء، واستمرّ على ذلك حتى نزل بالوِطاق والذي نُصِب له بِبِركة الحاج على حين غَفْلة، فلم يشعر أحد من الناس. ثمّ لمّا خرج من بين العسكر، قسّم عسكره نِصْفَيْن: قِسم مَرّ من تحت الجَبل الأحمر، وقِسم مَرّ من على تُربة العادل. ثمّ تلاقوا على بِركة الحاج. فلمّا وصل إلى الوِطاق، لم ينزل به، وتوجّه إلى الخانقاه فنزل بها.

[1] هو جدار الكعبة ما بين الرُّكن وزمزم والمقام، وفيه المِزْراب. سُمّي بذلك لأنّ الناس يتحطّمون عنده للدّعاء. وقيل: كان في الجاهلية يتحطّم الناس عنده بالأيمان، فكل مَن حلف باطلاً تعجّلت عقوبته. راجع: ياقوت، الحموي، معجم البلدان، ج2، ص273.

[2] جاءت في الأصل [الصوّة]، والصواب ما ثبت أعلاه، وهي المنطقة الممتدّة بين الطبلخاناها السلطانية وباب القلعة المعروف بباب المدرّج على رأس الضوّة. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج5، ص98.

ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم، لمّا خرج من مصر، ترك بها من عسكره مِمّن يقيم بالقاهرة عند خاير بك، نحو خمسة آلاف فارس، ومن الرّمات بالبُنْدُق والرّصاص نحو خمسمائة رامٍ[1]. وفي زمن أمرائه شخصًا يُقال له خَير الدين باشا، وجعله نائب القلَعة ليقيم بها ولا ينزل إلى المدينة، وهو الآن آغات[2] الينجرية. ولمّا خرج مولانا السلطان سليم خان من مصر، كان معه ألف جَمل مُحَمّلة من الذّهب والفضّة، هذا خارجًا عمّا معه من التُّحَف والسلاح والصّيني[3] والنّحاس والمُكْفِت[4]، والخيول والبِغال والجِمال وغير ذلك، حتى أنّه نقل منها الرّخام الفاخر، وأخذ منها من كل شئ أحسنه. وكذلك غَنِمَ[5] وزراؤه أموالاً جزيلة، [125أ] وكذلك عسكره، فإنهم غنموا من النّهب ما لا يُحصى. وصار أقلّ من فيهم[6] أعظم من أمير مائة، ومُقدّم ألف. وكانت مُدّة إقامة مولانا السلطان سليم بمصر، ثمانية أشهر إلاّ أيامًا قلائل. ومن حين قَتْلِ الغوري واستيلائه على حَلَب، فتكون مُدّة استيلائه على مصر والبلاد الشاميّة والحّلبيّة سنة واحدة وشهرًا واحدًا. وهو مالك من الفُرات إلى مصر، إلى الشام. هذا وتكون مُدّة استيلاء آل عثمان على الدّيار المصريّة من حين فَتْحِها وأخْذِها من الغوريّ، وذلك في غُرّة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة[7]، وإذا جمعنا هذا

[1] في الأصل [رامي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] آغات: أو آغوات. مُفردها "آغا"، وتعني: سيّد أو موظف كبير. ويُقْصَد بها رئيس قِسم الجُند. راجع: النهروالي، البرق اليماني، ص85.

[3] أي الأواني المصنوعة من الخَزَف الصيني الفاخر.

[4] المُكْفِت: مَن يلبس دِرْعَيْن بينهما ثوب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "كَفَتَ".

[5] جاءت في الأصل [غنموا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[6] جاءت في الأصل [فيه]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] 923هـ/ 1517م.

التاريخ، وذلك في سنة خمس وخمسين وألف[1]، مائة سنة واثنتَيْن وثلاثين سنة[2]. فنسأل الله تعالى أنْ يُديم المُلك في ذُريّته إلى آخر الزّمان، بجاه سيّد ولد عدنان. هذا ولمّا توجّه مولانا السلطان سليم خان إلى الدّيار الرّوميّة، وجلس على تَخْت مُلْكه، أمَر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حُفّاظ الخزائن. فنهاهُ عن ذلك مُفتيه العالم الفاضل المولى، علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الجماليّ[3]، لأنه ذهب إلى الدّيوان العالي[4]، ولم يكن من عادتهم أنْ يذهب المُفتي إلى الدّيوان، إلاّ لِحادث عظيم، فتحيّرَ أهل الدّيوان. فلمّا دخل سليم على الوزراء فاسْتَقْبَلُوه، وأجلسوه في صَدْرِ المَجلس، [126ب] ثمّ قالوا له: أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الدّيوان؟ فقال: أريد أن أجتمع بالسلطان، ولي معه كلام. فعرف به مولانا السلطان، فَأذِن له وحده فدخل، وسّلم وجلس، ثمّ قال: وظيفة[5] أهل الفتوى أنْ يُحافظوا على الآخرة للسلطان. وقد سمعتُ أنّك أمَرْتَ بِقَتْل مائة وخمسين رجلاً لا يجوز قتلهم شرعًا، فعليك بالعفو عنهم. فغَضِبَ مولانا السلطان سليم، وكان صاحب حِدّة، وقال له: إنك تتعرّض لأمر السلطنة، وليس ذلك من وظيفتك. قال: لا بل أتَعَرّضُ لأمْر آخرتك، وإنه مِن وظيفتي. فإنْ عَفَوْتَ فلك النّجاة، وأنْ لم تعفُ فعليك العِقاب.

---

[1] 1055هـ/ 1635م.

[2] جاءت في الأصل [واثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه. والظاهر أنّ المؤرخ أخطأ في العملية الحسابيّة، حيث يجب أن تكون النتيجة "مائة سنة واثنتين وعشرين سنة". في التحفة البهية، ص102 "سنة إحدى وثلاثين وألف، مائة سنة وثمان سنين".

[3] هو أحد علماء الأتراك، درس العلوم العقلية والشرعية. ذهب إلى مصر وبقي هناك حتى توفي فيها عام 932هـ/ 1525م. راجع: طاشكبري، الشّقائق، ص173.

[4] هو الديوان الهمايوني، وهو يُعقَد في السّراي، ويرأسه الصدر الأعظم منذ عهد السلطان محمد الفاتح. راجع: Gibb & Browen, part I. p. 115-116.

[5] في الأصل يستعمل المؤرخ حرف [الظاء] بدل حرف [الضاد]، وقد قمتُ بتصحيحها في كل الكلمات التي وردت في النّص.

فانكسرتْ عند ذلك سورة غضبه، فعفا عن الكلّ. ثمّ تحدّث معه ساعة، ولمّا أراد أنْ يقوم من مجلسه قال له: قد تكلّمتُ في أمر آخرتك، وبقي لي كلام مُتعلّق بالمروّة. فقال له السلطان: ما هو؟ قال: إنّ هؤلاء من عبيد السلطان. فهلْ يليق بعِرْض السلطان[1] أنهم يتكفّفوا الناس؟ قال: لا. قال: فقرّرْهم في مناصبهم. فَقَبِلَ السلطان ذلك وقال: ألاَ إنّي أعزّرهم لتقصيرهم في خدمتهم؟ فقال المولى المذكور: هذا جائز، لأنّ التعزير[2] مُفوّض لأمر السلطان. ثمّ انْصرف عنه وهو مشكور. ثمّ إنّ السلطان سليم، ذهب إلى مدينة أدرنه، فسبقه المفتي المذكور، فلقي في الطريق أربع [127أ] مائة رجل مشدودين في الحِبال. فسأل عن حالهم. فقيل: إنهم خالفوا أمْر السلطان، وقد اشْتروا الحرير. وكان السلطان قد منع من ذلك. فذهب المولى المذكور إلى السلطان وهو راكب، فكَلّمَهُ فيهم وقال: لا يحِلّ قَتْلهم. فغَضِبَ السلطان وقال: أيّها المولى، أمَا يَحِلّ قَتْل ثلث العالم[3] لنظام الباقي؟ قال: نعم، ولكِنْ إذا أدّى إلى خَلَل عظيم. فقال السلطان: وأيّ خَلَل أعظم من مخالفة الأمر؟ فقال المولى: هؤلاء لم[4] يخالفوا أمرك لأنك نصّبْتَ الأمناء على الحرير. وهذا إذْنٌ بطريق الدّلالة[5]. فقال السلطان: ليست[6] أمور السلطنة وظيفتك. قال: إنها[7] من أمور الآخرة،

[1] جاءت في الأصل [السلطنة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] أي اللوم والتأنيب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "عَزَرَ".

[3] في المنح الرحمانية، ص94 "العامّة".

[4] جاءت في الأصل [لا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] أي الدّليل والبرهان.

[6] جاءت في الأصل [ليس]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] جاءت في الأصل [إنه]، والصواب ما ثبت أعلاه.

وإنّ التّعرّض لها من وظيفتي. ثمّ سلّم عليه وفارقه. فحصل للسلطان سليم حدّة عظيمة، حتى وقف على فرسه زمانًا طويلاً، والناس واقفون أمامه وخلفه، مُتحيّرين[1] في ذلك الأمر. ثمّ إنّ مولانا السلطان سليم لمّا وصل إلى منزله، عَفَا[2] عن جميعهم. فلمّا وصل إلى أدرنه أرسل إلى المولى أمْر يقول فيه: أعطيتُك قضاء العساكر، وجمعتُ لك بين الطّرفَيْن، لأني تحقّقت أنك تتكلّم بالحقّ. فكتبَ المولى المذكور في جوابه: وصل كتابُك، سلّمك الله وأبقاك، وأمرتني بالقضاء، وإنّي مُمْتَثِل أمرك. غير أنّ لي من الله عهد أنْ لا يصدر مِنّي لفظ "حَكَمْتُ". فأحَبّه السلطان مَحَبّة عظيمة [128ب] لإعْراضِه عن العِزّ، والجاه، والمال، صيانة لِعِرْضِه ودِينه. فأرْسَلَ إليه خمسمائة دينار، فقَبلها رحمهم الله تعالى، انْتَهَى.

[1] جاءت في الأصل [مُتحيّرون]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] جاءت في الأصل [عفى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

المقصد العاشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان سليمان بن مولانا السلطان سليم. جلس على تَخْت المُلْك في سنة ست وعشرين وتسعمائة، وتوفي في ربيع الآخر[1] سنة خمس وسبعين وتسعمائة[2]، عن أربع وسبعين سنة من عمره. وكانت مُدّة سلطنته تسعًا وأربعين سنة، وكان مؤيَّدًا في حروبه ومغازية، مشهورًا في وقائعه ومراميه. أيُّ مَحَلّ سَلَك مَلَك، وأين توجّه فتح وفتَك. وصلت سراياه إلى أقاصي الشّرق والغَرب، وافتتح البلدان الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكُفّار والملاحدة بقوة الطّعان والضّرب، وأيّدَ الدين الحنيفيّ بِسَيْفه الباتر، وأقام المِلّة الحنيفيّة، وأحيا ما لها من مآثر، ومنع أهل الإلحاد وقمعهم، فما لهم من ناصر. فكان مُجَدّد دين الأمّة المُحمّديّة في هذا القرن العاشر. إنْ نَظَم نضّد عقود الجواهر، أو نثر، نثر منثور الأزاهر، أو نطق قَلّدَ الأعناق نفائس الدُّر الفاخر. وكان رؤوفًا شفوقًا، صادقًا صَدوقًا، إذا قال صدقَ، وإذا قيل له صدّق، لا يعرف الغِلّ والخِداع، ويتحاشى عن سوء الطِّباع، [129أ] ولا يعرف المَكْرَ والنّفاقَ، ولا يألف مساوئ الأخلاق. بل هو صادق الفؤاد، طاهر الاعتقاد مُنّور الباطن كامل الإيمان، سليم القلب، خالص الجنان. وله ديوان نظمَ بالتّركيّة، وآخر بالفارسيّة. وهما في غاية الحُسْن الذي ما عنه مَزيد. وكان كثير الشّفقة على الرّعايا، مُحبًّا للصّدق، كثير الأولاد النُّجَباء، فمِن أولاده: وَلِيّ عهده، مولانا السلطان سليم الآتي ذِكْره بعده، ومن أولاده مولانا السلطان مصطفى، وهو أكبر أولاده، مولده في سنة إحدى وعشرين وتسع مائة[3]. استدعاهُ والده من المَحَلّ الذي كان وَلاّه إيّاه، وهو مُتوجّه إلى تبريز[4] ببلاد العَجَم. فوصل إليه مُمتثلاً أمْرَهُ، باذِلاً نفسه. وكان والده

[1] جاءت في الأصل [الآخرة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] أي أنّ مُدّة سلطنته من عام 926- 975 هـ/ 1520- 1567م.

[3] 921هـ/ 1515م.

[4] تقع في الشمال الغربي من إيران اليوم، وهي أشهر مُدُن أذربيجان. راجع: ياقوت، الحموي، معجم البلدان، ج5، ص13.

يتوهّم خروجه عليه. فلمّا حضر إليه، أمَر طائفة من التّركمان بِخَنْقِه فخُنق صَبْرًا بين يديه، وذلك في سنة ستين وتسعمائة[1]. ثمّ أرسلَ مولانا السلطان سليمان إلى إبراهيم باشا الخادم، ليقتل ولد مولانا السلطان مصطفى، وكان اسمه مُراد، وهو ببورسا، فمضى إليه إبراهيم باشا المذكور، وخنقه، فلا حَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. ومن أولاده مولانا السلطان بايزيد، مولده في سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة[2]. وقد حصل بينه وبين أخيه مولانا السلطان سليم فِتْنَة عظيمة، ومُحاربات جسيمة، قُتل بينهما [130ب] نحو خمسين ألف فارس. ثمّ لمّا عجز عن مقاومة والده، وأخيه، هرب إلى شاه طهماز[3] بقزوين[4]، ففرِح به، وأقام عنده، وعجز عن حفظه، فشَرع شاه طهماز في المَكْر والحِيلة والخِداع، وتفريق عسكره واحدًا بعد واحد، واغتنم منهم مالاً كثيرًا، وتردّدت الرّسل بينه وبين مولانا السلطان سليمان في تسليمه ولده. فلمّا تأكد طلبه من طهماز، ذَكر أنه أصْرَفَ عليه خزينة مال، وأنه لا يسلّمه إلاّ أخذ هذا المال. فأمَر السلطان سليمان تسليم ذلك المال له. فلمّا تسلّمه أحضر السلطان بايزيد وأولاده الأربعة، وكل واحد منهم كأنه البَدْر الطّالع، فخنَق الأولاد. ثمّ من بعدهم، والدهم السلطان بايزيد، وحُمّلوا في توابيت إلى سيواس[5]، ودُفنوا بها هم ووالدهم. وأمّا أولاده فهم: محمود، وعثمان، وعبد الله، وأورخان. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. ومِن أولاد مولانا السلطان سليمان: السلطان جِهان

[1] 960هـ/ 1553-1554م.

[2] 933هـ/ 1526-1527م.

[3] هو الشّاه طهماسب بن إسماعيل شاه الصّفوي، وُلد عام 931هـ/ 1524م وتوفي عام 984هـ/ 1576م. تميّز عهده بالحروب مع الأوزبك والدولة العثمانية. تولّى العرش وهو في العاشرة من عمره. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، مادّة "طهماسب".

[4] هي مدينة تقع في شمال إيران، جنوبي بحر قزوين، وإلى الشمال الغربي من طهران. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص342.

[5] تقع في هضبة الأناضول، على الضفة اليمنى لنهر قيزيل أرماق. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة مادّة "سيواس".

كيرخان، [كان][1] مولده في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة[2]. وكان أحْدَبًا[3] ظريفًا، خفيف الرّوح، جيّد المُعاشرة، بَهْجَ المُسامرة، يُحِبّه والده مَحَبّة شديدة، بحيث أنه لا يفارقه لحظة من اللحظات، لا في سَفر ولا في حَضَر، ولا في نوم ولا في يقظه، مِن حُسْن مُصاحبته، إلى أنْ تُوفّي بِحَلَب في سنة ستين وتسعمائة[4]، بمرض الخوانيق[5]، [131أ] ونُقِل إلى إسطنبول، ودُفن عند أخيه السلطان محمد. ومِن أولاده، السلطان مراد، توفي بأجَلِه في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة. ومِن أولاده، السلطان محمود، توفي بأجَلِه في سنة ثمان وعشرين وتسعمائة[6]. ومِن أولاده، السلطان عبد الله، توفي بأجَلِه في سنة اثنتين[7] وثلاثين وتسعمائة[8]. وأما فتوحاته فأوّلها إنكروس[9]، برز إليها من القسطنطينية لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة[10]، بعسكر كثيف، وفَتَحَها في السّنة المذكورة، وملكوها وفتحوا حصونها وقِلاعها. وثانيها قَلْعَة بلغراط[11]، وهي قَلْعَة عظيمة مُنيفة، مُحْكَمَة البِناء، وهي باقية إلى الآن بأيدي المسلمين. وغنموا منها غنيمة عظيمة، وزُيّنت له البلاد، وعاد إلى سرير مُلْكِه في ذي القعدة سنة سبع وعشرين

[1] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

[2] 937هـ/ 1530-1531م.

[3] جاءت في الأصل [أحدب]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] 960هـ/ 1552-1553م.

[5] مرض الخوانيق: هو وَرَم في الحَلْق يُصيب صاحبه بالاختناق وربّما الموت. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص109.

[6] 928هـ/ 1522م.

[7] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[8] 932هـ/ 1525-1526م.

[9] هي بلاد المَجَر أو هنغاريا اليوم.

[10] 927هـ/ 1521م.

[11] تقع على نهر الدّانوب، وهي تعني بالصقليّة "المدينة البيضاء". وقد كانت عاصمة يوغسلافيا. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة مادّة "بلغراد".

وتسعمائة. وثالثها قَلْعَة رودس[1]، وهي جزيرة في وسط البحر، ما بين إسطنبول ومصر. بناها الكُفّار حِصْنًا حَصِينًا، واتّخذوها مَكْمَنًا لأَخْذِ المسلمين، وأتقنوها غاية الإتقان، بحيث أنهم قد أسّسوها في تخوم الأرض، وعَلّوا جُدرانها، فصاروا ينظرون إلى السّفائن التي تمرّ في البحر من مسافة بعيدة، فيتأهّبون ويأخذونهم، سواء كانوا مسافرين أو مغازين[2]. واتّخذها[3] النّصارى مَعْبَدًا [132ب] يُجَهّزون أموالهم إليها، لتُصْرَف إليها في اسْتِحْكام بناء سورها[4]، وجعلوا من أعلاه إلى أسفله، ثُقوبًا، وضعوا فيها المدافع الكثيرة، ترمي على مَن يقصدها من خارجها[5]. ولها باب حديد وسلسلة في وسط البحر، تمنع المراكب من الوصول إلى الباب، وهيّأوا أغْرِبَة[6] مشحونة بالسلاح، والرّجال، والمدافع. فإذا أحسّوا بأحد يخرجون إليه، فينهبون، ويأخذون، ويأسِرون، ويجمعون الأموال، وهذا دَأْبُهم. فتجهّز إليها مولانا السلطان بعسكره، لِعَشْرٍ بقين من رَجَب سنة تسع وعشرين وتسعمائة[7]. وكان نزوله عليها في شهر رمضان من السّنة المذكورة، فأحاط بها بَرًّا وبَحْرًا. وما أمْكَنَ مَن في البّر أنْ يَقْرب مِن حِصار رودس مِن الخَندق العظيم الذي حولها، وما أمْكَنَ مَن في البحر أنْ يَقرب منها للسّلسلة لأصابة مَن يَقْربها بالمدافع. فصار المسلمون يُصابون بالمدافع مع عدم إصابة النّصارى مِن مدافع المسلمين. فتأخّرَتْ عساكر البَر

[1] تقع إلى الجنوب الغربي من آسيا الصغرى. غزاها العرب المسلمون عام 53هـ/ 673م، ثمّ تركوها، فعادت للبيزنطيين. حاصرها محمد الفاتح عام875هـ/ 1470م، ثمّ سقطت على يد السلطان سليمان القانوني، وبقيت تحت الحكم العثماني حتى عام 1912م، حيث استولت عليها إيطاليا، وأعيدت إلى اليونان عام 1947م بموجب اتفاقية لوزان عام 1923م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة مادّة "رودس".

[2] جاءت في الأصل [غازين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[3] جاءت في الأصل [واتخذوها]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] جاءت في الأصل [صورها]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] جاءت في الأصل [من خارج]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[6] مُفردها "غراب"، وهي سفينة بحرية قديمة. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "غَرب".

[7] 929هـ/ 1523م.

قليلاً، وأمِروا بِسَوْقِ الرّمل والتّراب، وترسوا[1] بها وصاروا يقدمونها قليلاً قليلاً، إلى أنْ وصل التّراب إلى الخندق وامْتَلأ به. وكان أول مَن حَمَل في ذلك مولانا السلطان، رحمه الله تعالى، فصار الكُفّار مِن تحت [المسلمين][2] يُصَابون ولا يُصِيبون، ورموا عليهم إلى أنْ عجزوا، ووهنوا، وتحقّقوا [133أ] أنهم مأخوذون، فطلبوا الأمان. وشَرطوا على مولانا السلطان أن يحملوا نساءهم وأطفالهم، ويذهبوا أين أرادوا. فأجابهم مولانا السلطان إلى ذلك، بعد أن نهاهُ الوزراء عن أمانهم، فإنهم لم يبقَ لهم مِنْعة، وأموالهم كثيرة، وإن نجوا بها يحصل منهم التّقوّي على المسلمين. فلم يلتفتْ مولانا السلطان إلى ذلك، وخرجوا إلى بلاد الغَرب[3]، وعمّروا جزيرة في عمالة إسبانيا[4] جزيرة الأندلس، يُقال لها مالطة[5]. فأرسل مولانا السلطان عسكرًا لأخذها بعد عِمارتها، فما أمكن، لخُلْف وقع بين السّردار[6] مصطفى باشا وبين القبطان[7]، وهي إلى الآن بأيدي النّصارى. وكان فتح رودس لِستٍ

[1] جاءت في الأصل [تترسوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] في الأصل ساقطة، زيدت لسلامة المعنى، وكذا أيضًا ثبتت في المنح الرحمانية، ص113.

[3] في الأصل [المغرب]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة السياق.

[4] تقع جنوب غربي أوروبا، فتحها المسلمون بداية القرن الثامن للميلاد حيث ازدهرت في عهدهم بالعمارة والحضارة حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. وقد سمّاها المسلمون "الأندلس" تعريبًا لكلمة "وندلوسيا" أي بلاد الفاندال. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان 113، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص262-264.

[5] مالطة: جزيرة في البحر المتوسط بين صقلية وساحل أفريقيا الشمالية. فتحها المسلمون عام 257هـ/ 870م، واعتنق معظم سكانها الإسلام ويتحدثون العربية، حيث أصبحت لغتهم السائدة هناك. نالت الجزيرة استقلالها عام 1962م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص114.

[6] هو لقب القائد الأعلى للحملة عندما لا يقودها السلطان بنفسه. أمّا مصطفى باشا فهو الوزير الخامس والصدر الأعظم لدى السلطان سليمان. راجع: Gibb & Browen, part I,p. 95, Creasy. p. 188.

[7] في المنح الرحمانية، ص114 "قابدان"، وهي لاتينية الأصل وتعني "رئيس" أو "رئيس عسكري". أطلقها العثمانيون على القائد الأعلى للأسطول العثماني. راجع: Gibb & Browen, part I, p. 95, Creasy. p. 188.

مَضين من صفر سنة ثلاثين وتسعمائة[1]. وقد وقع لسيّدنا ومولانا العارف بالله تعالى، الأستاذ الأعظم، والملاذ الأفخم، علاّمة دهره، ووحيد عصره، الشّيخ أبي الحسن تاج العارفين الصدّيقي[2]، سِبْط آل الحسن، قدّس الله سرّه، ونوّر ضريحه، في هذه كرامة، فلْنَذْكُرْها: وهي أنّ جدّي المذكور، كان في قُبّة الغوريّ، على سبيل التفرّج. وكان معه من أجِلاّء العلماء الشّيخ كمال الدين الطويل، والشّيخ نجم الدين الغَيْطي[3] والشّيخ نور الدين العسيلي[4] والشّيخ وليّ الدين البصير[5] وغيرهم. وكان في زمن النّيل[6]، فحصل للأستاذ [134ب] حال عظيم، فأعطى لشخص من أتباعه يُدعى عبد الباسط خمسة دنانير، وقال له: اذهب واشْتَرِ لنا حِبال. فذهب الرّجل من حينه، واشترى[7] بذلك، وجاء بها إلى حضرة الأستاذ في المَحّل المذكور. وكان هناك فَلْقُ خشب، فقال الأستاذ لأتباعه، ولِمَن بحضرته من العلماء: أربطوا لنا هذا الفَلق، وألْقُوه في البحر. فربطوه كما أمَر، وسحب الجدّ من جانب، والجماعة من جانب، وألْقَوا الفَلْق في البحر. ثمّ قال الشّيخ الجدّ، رضي الله عنه: فُتِحت رودس في هذا الوقت، فأرّخَ ذلك اليوم، فكان يوم فتحها.

[1] 930هـ/ 1523م.

[2] هو علي بن محمد البكري، يرجع نسبه إلى الخليفة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. وُلِد عام 898هـ/ 1493م وتوفي عام 952هـ/ 1545م. وهو من كبار علماء الشافعية في عصره ومن أقطاب الصوفية. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج3، ص127، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص48-54، 116.

[3] هو محمد بن أحمد الغيطيّ السّكندريّ الشافعيّ، نجم الدين. أحد علماء مصر في عصره. عاش ما بين 910هـ/ 1504م-983هـ/ 1575م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج6، ص234.

[4] هو علي بن محمد المصري، أتقن العلوم النقلية والعقلية، وأتقن الشعر وعِلْم النحو. لم يُعرف تاريخ ميلاده أو وفاته. راجع: الغزّي، الكواكب السائرة، ج3، ص180.

[5] لم يُعثر على ترجمته.

[6] أي موسم فيضان النّيل.

[7] جاءت في الأصل [واشترا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

ورابعها فتح إنكروس ثانيًا، وخرج إليها بنفسه، وذلك في ستة اثنتين[1] وثلاثين وتسعمائة[2]. وخامسها فتح بدن[3]، وهي مملكة عظيمة ذات أنهار وأشجار، وخَير وافر، وغِلال كثيرة. وكان أخذها في سنة ست وثلاثين وتسعمائة[4]. وسادسها غزوة أولونة[5]، وهي في سنة أربع بعد الأربعين وتسعمائة[6]، فاسْتباحها قتلاً وأسرًا ونهبًا. وافْتتح من جزيرة ذلك البحر[7] أربعة وثلاثين حِصنًا، وغنِمتْ جيوشه من الأموال ما لا يخطر ببال. وسابعها توجّه إلى بلاد العَجَم، وأخذ بغداد[8] وغيرها. وكان خروجه إلى ذلك لليْلتَيْن بقِيَتا من ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين وتسعمائة[9]. ووصل رحمه الله، [135أ] إلى حَلَب وشتّى بها. ثمّ خرج منها متوجهًا إلى قزلباش، فخرج منها العدو، وصار يخادع، فلزم التوجّه إلى بغداد، فنزل حافظ[10] بغداد الذي من جانب قزلباش، وهو محمد خان[11]، فهرب، وجاء من هناك بمفاتيحها لمقامه الشّريف. فترك عسكره بها، وأعطى الأمان لأهلها، وصارت بغداد من ممالك آل عثمان، لا زالت كذلك إلى آخر الزّمان. وخرج منها في شهر رمضان، متوجّهًا إلى

[1] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] 932هـ/ 1526م.

[3] في المنح الرحمانية، ص118 "بدون"، وهي "بودا" أحد قسمَيْ مدينة "بودابست" عاصمة المجر اليوم. وتقع على الضفّة اليمنى لنهر الدّانوب. راجع: Creasy. p. 165.، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 118.

[4] 936هـ/ 1529م.

[5] في المنح الرحمانية، ص118 "ألونه". ولها أسماء أخرى مثل: أفالونا وألونا وفالونا، وهي ميناء على ساحل البحر الأدرياتيكي في ألبانيا. راجع: والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص118.

[6] 944هـ/ 1537- 1538م.

[7] أي بحر الأدرياتيك الذي تقع على سواحله أولونه كما ذُكِر أعلاه.

[8] هي عاصمة العِراق اليوم. مدينة معروفة غنيّة عن التعريف، تقع على نهر دجلة في وسط العراق. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص3-22.

[9] 941هـ/ 1534م.

[10] أي نائب الشّاه.

[11] لم يُعثر له على ترجمة.

قتال الشّاه[1] بتبريز. فلمّا بلغ الشّاه ذلك، أرسل يطلب الصّلح، فأجابه مولانا السلطان رحمه الله إلى ذلك، وعاد إلى الرّوم، وفتح في طريقه عراق العرب[2]. وثامنها قَلعة بلغراد، وهي قلعة عظيمة، ذات حصون منيعة، وأشجار يافعة. وكان فتحها في سنة خمسين وتسعمائة[3]. وتاسعها أخذ شروان[4] من بلاد العَجم بواسطة أخي الشّاه المُسَمّى بالقاس[5]، حين مجيئه إلى مولانا السلطان هاربًا من أخيه. فأخذها مولانا السلطان رحمه الله، هي وغيرها من بلاد أخيه، وذلك في سنة خمس وخمسين وتسعمائة[6]. وعاشرها أخذ بج[7] ودستوار[8]، وهي آخر غزواته الكبار، وذلك في سنة أربع وسبعين وتسعمائة[9]. ومُحَصّله، فغزواته لا تُحصى، وعلى حَدّ فلا تُسْتَقْصَى، فأيامه زاهرة، ودولته بالخَيرات باهرة، وعملَ

[1] الشّاه: لقب فارسيّ للملك، وهو صاحب السلطة العليا في البلاد. والشّاه هنا، هو "طهماسب" والذي جئنا على ذِكره سابقًا.

[2] أي بلاد العراق اليوم.

[3] 950هـ/ 1543م.

[4] جاءت في الأصل [روان]، وفي المنح الرحمانية، ص121 "وان"، والصواب ما ثبت أعلاه. وشروان إقليم إيراني يقع غربي بحر قزوين.

[5] هو القاس ميرزا أخو الشّاه طهماسب، كان نائبًا لأخيه فثار عليه وانضمّ إلى الهجوم العثماني على بلاد إيران عام 955هـ/ 1548م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص121.

[6] 955هـ/ 1548- 1549م.

[7] جاءت في الأصل [ببيج]، وفي المنح الرحمانية، ص 121 "بج"، والصواب ما ثبت أعلاه. وهي مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من هنغاريا. بقيت مع العثمانيين حتى عام 1686م.

[8] في المنح الرحمانية، ص 122 "دمستوار"، وهي مدينة في أقصى غرب رومانيا اليوم. راجع: Creasy. p. 198.

[9] 974هـ/ 1566- 1567م.

الخَيرات والمدارس، [136ب] والتّكايا[1] والدّشايش[2]، وأجرى عين عرفات[3]، رحمه الله تعالى. وفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة[4] وَثَبَ عليه جان بردي الغزاليّ الجركسي نائب الشّام، وادّعى السلطنة، وخطب لنفسه، فجهّز عليه مولانا السلطان سليمان فرهاد باشا[5]، فقاتله بقرب الصّالحيّة ومسكه وقطع رأسه، وأرسلها لمولانا السلطان بالدّيار الرّومية. وفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة، خرج جانم الجركسي[6] بمصر وهو كاشف الشّرقيّة[7] عن الطّاعة، وخرج معه كاشف البحيرة[8] إينال[9]، واجتمع عليهما جماعة من العُربان،

[1] التّكيّة: هي زاوية للمتصوّفة أو ماوى للفقراء والمساكين. وهو لفظ تركي أطلِق على رباط الصوفية. راجع: المعجم الوسيط، مادّة " تكيّة".

[2] الدّشيشة: وأصلها في اللغة الفصحى "جشيشة". وهي القمح المشوي المرضوض. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص122.

[3] في المنح الرحمانية، ص122 "عرفة". وهي إحدى العيون في مكّة.

[4] 927هـ/ 1520م.

[5] هو الوزير الثالث في الدولة العثمانية، ويُسمّى أيضًا "فرحات" كما جاء في الكواكب السائرة. أصبح واليًا على دمشق بعد إياس باشا عام 929هـ/ 1522م، توفي في دمشق. راجع: الغزّي، الكواكب السائرة، ج1، ص170.

[6] هو محمد بن يوسف قرقماس، وقد عُرِف بلقب "جانم" وكذلك بالحابي والحمزاوي، وكان خاله خايربك. شغل منصب كاشف البهنسا ومنفلوط والفيوم في مصر، وتولّى إمارة الحاج عام 926هـ/ 1519م. راجع: ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص231، 256، 265.

[7] هو أحد أقاليم مصر الإدارية في عهد الدولة العثمانية، يقع شرقي الدلتا وعاصمته مدينة المنصورة. راجع: عبد اللطيف، ليلى، الإدارة في مصر، ص380.

[8] وهو أحد الأقاليم الإدارية الخمسة في مصرفي العهد العثماني وعاصمته مدينة دمنهور، ويقع غربي الدلتا. راجع: عبد اللطيف، ليلى، المصدر السابق.

[9] هو إينال السّيفي طرباي، من أمراء المماليك في دولة الجراكسة. كان كاشفًا للغربيّة والشرقيّة والبحيرة. وقد أظهر عداءه للدولة العثمانية. راجع: شلبي، عبد الغني، أوضح الإشارات، ص102.

وأظهروا العِصيان. فأرسل إليهم مصطفى باشا[1]، بيكلر بيك مصر، عسكرًا فقاتلوا هؤلاء البُغات، وقتلوا إينال وجانم، وجاءوا برأسَيْهما[2] إلى مصطفى باشا، فعلّقهما على باب زويلة. ثمّ أرسلهما إلى مولانا السلطان سليمان، وذلك في المُحَرّم من السّنة المذكورة، وكفى الله شَرّهُما. ومن خَيراته بالحرمَيْن الشّريفَيْن: فمِنها بمكّة المُشرّفة خمسمائة إرْدَبّ قمح بالكيل المصري، تُفرّق في كل سنة على أهل مكّة المُشرّفة. ومنها ألف إرْدَبّ بالكيل المصري، تُفرّق على أهل المدينة المنوّرة، على صاحبها أفضل الصّلاة وأشرف السّلام. ومن خَيراته أيضًا بتلك الأماكن المُكَرّمة، إجراء [137أ] عين عرفات إلى مكّة المُشرّفة. ومن آثره بتلك الأماكن، المدارس الأربع السُّليمانيّة[3]. وكان السّبب في عِمارتها الأمير إبراهيم بيك[4] الذي أجرى عين عرفات. فإنه لمّا فرغ من إجراء العين عرض للأبواب السلطانيّة في ذلك، فبرزت الأوامر السلطانيّة ببناء أربع مدارس، لينتفع بذلك أهالي مكّة. وعيّن لهذه الخدمة الأمير قاسم بيك[5]، أمير جدّة، وأن يبادر إلى عمل ذلك في أحسن الأماكن. فأجمع رأي الأمير قاسم ورأي الأمير إبراهيم وغيرهما مِن الأعيان، أنّ اللائق لبناء هذه المدارس، الجانب

[1] كان واليًا على مصر بين من عام 928هـ/ 1522م حتى عام 929هـ/ 1523م. راجع: المصدر السابق، ص102-103.

[2] جاء في الأصل [رؤوسهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] المدارس السّليمانيّة: هي أربع مدارس مُخصّصة للأئمة الأربعة: المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي. راجع: النهروالي، الإعلام، ص350-355.

[4] والرّاجح أنه هو إبراهيم بن تغري بردي الدفتردار، وهو الذي أجرى عين عرفات بمكّة. راجع: النهروالي، المصدر السابق، ص342-348.

[5] لم يُعْثَر له على ترجمة. وقد يكون هو الخواجا قاسم الشّرواني الذي كان بمكة، ثمّ سافر إلى مصر عند دخول السلطان سليم إليها. وقد توفي عام 979هـ/ 1571م. راجع: الإعلام، المصدر السابق، ص284، 348.

الجنوبي من المسجد الحرام، المُتّصل من رُكن المسجد الشّريف إلى باب الزّيادة[1]. فَعُمّرِت المدارس في هذا المَحل، فجاءت من أحسن مدارس الدّنيا. وفي دولته الشّريفة، أمَر بأن تكون الجوالي[2] للفقراء، والعلماء، وغيرهم من أهالي مكّة، وغيرهم. وفي دولة الجراكسة لم يكن من ذلك إلاّ القليل الذي لا يُذكر، فجزاهُ الله خيرًا، ودفع عن ذُرّيته همًّا[3] وضيْرًا. ولم يزل رحمه الله مُحِبًّا للخيرات، كاشفًا عن المسلمين جميع الضّرورات، إلى أن توفّي إلى رحمة الله تعالى في غزوة سكتوار[4]. وأخفى موته المرحوم الوزير الأعظم محمد باشا[5]، وصار يعطي الإعطاءات، والمناصب وغيرها، على لسان المرحوم مولانا السلطان سليمان، [138ب] وذلك لعدم طَمع الكَفَرة في العسكر الإسلامي. وأرسل خفية يستدعي ولده مولانا السلطان سليم، إلى التّخت ويحثّه على سرعة الحضور، فوصل مولانا السلطان سليم رحمه الله إلى التّخت بالقسطنطينية، في أيْسر مُدّة، ولم يجلس فيها إلاّ بُرْهة قليلة. ثمّ خرج قاصدًا إلى سكتوار، مَحّل القتال، فوصل في دون الخمسة عشر يومًا، مع أنها

[1] جاءت في الأصل [باب الزيارة]، والصواب ما ثبت أعلاه. وباب الزيادة هو أحد أبواب الحرم الشريف ويقع شماله. وقد سُمّي بذلك عندما زيد في الحرم الشريف بإدخال دار الندوة فيه في عهد الخليفة العباسي المعتضد عام 284هـ راجع: المصدر السابق، ص146-148.

[2] مُفردها "جالية"، وقيل لأهل الذمّة جالية، لأنّ عمر بن الخطاب أجلاهم عن الجزيرة العربية، لِما قاله النّبي عليه السلام فيهم. وقد لزمهم هذا الاسم أينما حلّوا، ثمّ أصبح يُطلق على كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب. وفيما بعد أصبح الاسم يُطلق على الجزية نفسها، حيث أسماها العثمانيون "وجاق أو مقاطعة الجوالي"، وأموالها التي تُجمع كانت تُصرَف على الأيتام والأرامل والعلماء والفقراء. راجع: ابن منظور، لسان العرب، مادّة "جلا "، وقاسم عبد، أهل الذّمة في مصر في العصور الوسطى، ص68-71.

[3] جاءت في المنح الرحمانية، ص 129 "ملمًا"، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] هي مدينة "تزيغيد" في أقصى جنوب هنغاريا، بالقرب من حدود رومانيا اليوم. راجع: Creasy,p. 138.

[5] هو محمد باشا الصّقُلي، وُلِد في قرية صقولو في البوسنة عام 909هـ/ 1503م. تربّى في السّراي العثماني وعُيّن صدرًا أعظم عام 968هـ/ 1560م، واحتفظ به في عهد السلطان سليمان وسليم الثاني ومُراد الثالث. أُغتيل عام 987هـ/ 1579م. راجع: الغزّي، الكواكب السائرة، ج3، ص78.

مسافة بعيدة. فما شعر العسكر الإسلامي إلاّ والوزير محمد باشا يقول لهم: أخرجوا تَلقّوا سلطانكم، مولانا السلطان سليم خان، وترحّموا على مولانا السلطان سليمان. فدخل مولانا السلطان سليم إلى بلاد الجِهاد، وقهر الكَفَرة أهل الفساد. ثمّ أتمّ الجِهاد، وبلغ المُراد، وعاد بوالده [إلى][1] إسطنبول، ووُضِع في تابوت على عَجَلة، وساروا به بسرعة وعجلة، واستمرّ محمولاً إلى أن أتَوا به إلى إسطنبول. وخرج إلى استقباله جميع العلماء، والموالي العظام، والمشايخ الأتقياء الكرام، وسائر أصناف الأنام، وصلّى عليه المولى أبو السّعود، ودُفن بِتُربة كان أعدّها له. وبكوا عليه بكاءً طويلاً، وأكثروا نحيبًا وعويلاً. وأنْشَدَ لِسانُ الحال[2]:

أُنْظُرْ لِمَنْ مَلكَ الدّنيا بأجْمَعِها هلْ راحَ مِنها بِغَيْرِ القُطْنِ والْكَفَنِ

ورثاه الشّعراء بكل لسان، بقصائد طنّانه سارت بها الرُّكبان، [139أ] وأعظمها وأحسنها قصيدة المولى أبي السّعود، وهي طويلة حَذَفْتُ بعضها رَوْمًا للاختصار وأثْبَتُّ مُختارها بِحُسْن الاختيار[3] وهي:

أصَـوْتُ عاصـفةٍ أم نفخـةُ الصّـورِ فـالأرضُ قـد مُلِئـتْ مِـن نَقْـر نـاقورِ[4]
أصـابَ منهـا الـورى[5] وهـي داهيـة وذاقَ منهـا البرايـا صـعقةَ الصّـورِ
تهـدّمتْ بُقْعَـةُ الـدّنيا لِوَقْعتهـا وانْهـدّ مـا كـان مِـن دُور ومِـن سـورِ
أمْسَـتْ معالمُهـا تيمـاءَ مُقْفِـرةً مـا فـي المنـازل مِـن دار ودَيّـورِ

[1] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى.

[2] في المنح الرحمانية، ص131 "الاعتبار".

[3] الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص132-138.

[4] الصّور والبوق هما ما يُنفَخ فيه، وهذا كناية عن يوم القيامة.

[5] جاءت في الأصل [الورا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

تصـدّعتْ قُلَـلُ[1] الأطـوادِ وارْتعـدَتْ كأنـــه قلـــبُ مرعـــوبٍ ومـــذعورِ
واغْبَـرّ ناصـيةُ الخضـراء وانْكَـدَرَتْ وكـــاد أنْ تمتلـــئ الغَبْـــراءُ بـــالمُورِ[2]
فمِـن كئيـبٍ وملهـوفٍ ومِـن دَنِـفٍ عـــانٍ بسلســـلة الأحـــزان مأســـورِ
[تاهتْ][3] عقولُ الورى مِن هَوْلِ وَحْشَتِهِ فأصـبحوا مِثـل مجنـون ومسـحورِ
تقطّعـتْ قِطَعًـا منـه القلـوبُ فـلا يكـادُ يوجَـد قلـبٌ غيـرُ مكسـورِ
أجفـائُهم سـفنٌ مشـحونةٌ بِـدَمٍ تجـري بِبَحْـرٍ مـن العَبَـرات مسـجورِ
أتـى بوجـه نهـار لا ضـياءَ لـهُ كأنّـــه غـــارةٌ شُـــنّت بـــدَيْجورِ
أم ذاكَ نعـيُ سُليمـانَ الزَمـانِ ومَـن قضَـتْ أوامـرهُ فـي كـلّ مـأمور
مـدارُ سـلطنةِ الـدنيا ومركزُهـا خليفـةُ [الله][4] فـي الآفـاق مـذكورِ
مُعْلـي معـالمَ ديـنِ اللهِ مُظهرُهـا فـي العـالمينَ بسـعيٍ منـه مشـكورِ
وحيـدُ[5] رأيٍ إلـى الخَيْـراتِ مُنصـرفٌ وصِـدْقِ عَـزْمٍ علـى الإطـلاق مقصـورِ
[140ب] بآيةِ العَدْلِ والإحسانِ مُمْتَسِكٌ بغايـة القِسْـطِ والإنصـافِ موفـورِ
مجاهـدٌ فـي سـبيلِ اللهِ مُجتهـدٌ مُؤيَّـدٌ فـي جِنـانِ القُـدسِ[6] منصـورِ
بِلَهْـذَميّ وإلـى الأعـداءِ مُنعطَـفٌ ومَشْـرَفِيٍّ علـى الكُفّـار مشـهورِ[7]
ورايـةٍ رُفِعَـتْ للمَجْـدِ خافقـةٍ تَجـري[8] علـى عَلَـمٍ بالنّصـر مَنْشـورِ

[1] مُفردها "قلّة"، وهي أعلى الرأس والجبل وكل شيء. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "قلّ".
[2] الغبراء: الأرض، والمور: الغُبار المتردّد في الهواء.
[3] في المنح الرحمانية، ص133 "تاهت"، والصواب ما ثبت أعلاه لصحّة المعنى.
[4] ساقطة في الأصل. زيدت لسلامة المعنى، وكذا أيضًا ثبتتْ في المنح الرحمانية، 134.
[5] في المنح الرحمانية "حُسن"، وكذلك "الألطاف"، وهي تعني الإحسان.
[6] القُدس: الجنّة. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "قدس".
[7] جاءت في الأصل [تصدى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى. بِلَهْمَذي: القاطع من السيوف، مشرفيّ: هو السيف القاطع. راجع: المعجم الوسيط لمادّتَي: "اللهذم" و "شارف".
[8] في المنح الرحمانية، ص135 "تحوي".

وعَسكرٍ ملأ الآفاقَ منظرُهُ[1] مِن كُلِّ قُطْرٍ على الأقطارِ مَحْسورِ[2]
لهُ وقائعٌ في الأكنافِ شائعةٌ أخبارُها [زُبِرَتْ] في كُلِّ طامُورِ[3]
يا نفسُ مالكِ في الدّنيا مُخَلّفَة مِن رِحلةٍ بعدهُ عن هذه الدُّورِ[4]
فكيفِ تَمشينَ فوقَ الأرضِ حافلةً أَلَيْسَ جُثْمانُه فيها بِمَقْبُورِ[5]
ولِلْمَنايا مواقيتٌ مُقَدَّرةٌ تأتي على قَدَرٍ في اللّوحِ مَسْطورِ
وليسِ في شأنِها للناس مِن أثَرٍ ومَدْخَلٍ ما بتقديمٍ وتأخيرِ
يا نَفْسُ قد تبدئي[6] لا تهلكي أسَفًا فأنتِ مَنْظومةٌ في سلكِ مَعْذورِ
إذ[7] لَسْتِ مأمورةً بالمُستحيلِ ولا بِما سِوَى بَذْلِ مَجْهودٍ ومَيْسورِ
ولا تظُنّي[8] أنّهُ قد مات بَلْ هُوَذا حَيٌّ بِنَصٍ مِن القرآن مَزْبُورِ
لهُ نعيمٌ وأرْزاقٌ مُقَدَّرَةٌ تجري عليهِ بوجْهٍ غيرِ مشعورِ
إنَّ المنايا وإنْ عَمّتْ مُحَرَّمَةٌ على شهيدٍ جميلِ الحالِ مَبْرورِ
مُجاهِدٌ في سبيلِ اللهِ مُقْتَحِمٍ معاركَ الحَيْفِ بالرّضوانِ مأجورِ
ما ماتَ بَلْ نالَ عَيْشًا باقيًا أبدًا عن عَيْشِ فَانٍ بكلِّ الشّرِ مَغْمورِ
[141أ] إبتاعَ سَلْطَنَةَ الدّنيا بِسَلْطَنَةِ العُقْبَى فأعْظِمْ بأجْرٍ غيرِ مَخْصُورِ[9]

[1] في المنح الرحمانية، ص135 "مُحْتَشِد".

[2] في المنح الرحمانية، ص135 "محشور".

[3] الأكناف: مفردها "كنف" أي الناحية، و "زُبِرَت" أي دُوّنَتْ. جاءت في الأصل [زُمِرت]، والصواب ما ثبت أعلاه. و"الطامر": الصحيفة. راجع المعجم الوسيط، المواد: "كنف" و "زبر" و "طمر".

[4] في المنح الرحمانية، ص 135 "من بعد رحلته عن هذه الدّور".

[5] حافلة: مُتَزَيّنة.

[6] في المنح الرحمانية، ص 136 "فاتّئدي".

[7] ساقطة في المنح الرحمانية ص136.

[8] جاءت في الأصل [تظنّ]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. وفي المنح الرحمانية، ص 136 "تظنّيه".

[9] في المنح الرحمانية، ص 136 "محصور".

بَــلْ حــازَ كِلتَيْهِمــا[1] إذْ حَــلَّ مَنْزِلَــةٍ مَــنْ لَــمْ يُغــايِرْهُ فــي أمْــرٍ ومــأمُورِ
أمَــا تــرى مُلْكَــهُ المَحْمِــيَّ آل إلــى سِــرٍّ سَــرِيٍّ[2] لــهُ فــي الــدَّهْرِ مَشْــهُورِ
ولِــيُّ سَــلْطَنَةِ الآفــاقِ مالِكُهــا بَــرًّا وبَحْــرًا بِعــيْنِ اللُطْــفِ مَنْظُــورِ
ظِــلُّ الإلــهِ مــلاذُ الخَلْــقِ قاطبــةً ومُلْتَجــأُ كــلِّ مَقْهــورٍ ومَــدْهُورِ
فإنــهُ عَيْنُــهُ فــي كُــلِّ مــأثَرَةٍ وكُــلِّ أمْــرٍ عظــيمِ الشّــأنِ مَــأثُورِ
ولا امتيــازَ ولا فُرْقــانَ بينهمــا وهــل يُمَيَّــزُ بــين الشّــمسِ والنُّــورِ
سَــمَيْدَعٌ ماجــدٌ زادَتْ مهابَتُــهُ تَحْــتَ الخِلافــةِ فــي عِــزٍّ وبَيْقُــورِ[3]
جــدَّ الجديــدانِ[4] فــي أيّــامِ دَوْلَتِــهِ صــارا كأنَّهمــا مِسْــكٌ وكــافُورِ
أضْــحَى بقَبْضَــتِهِ الــدّنيا بِرُمَّتِهــا مــا كــانَ مِــن مُجْهَــلٍ مِنهــا ومَعْمُــورِ
بَــدا بِطَلْعَتِــهِ والنّــاسُ فــي كَــرْبٍ وسُــوءِ حــالٍ مِــنَ الأحــوالِ مَشْــهُورِ
أضْــحَى مَلِيــكَ الــوَرى جَلّــتْ مَفــاخِرُهُ وعــادَ أكْنافَهــا نُــورٌ علــى نُــورِ[5]
فأصْــبَحَتْ صَــفَحاتُ الأرضِ مُشْــرِقَةً عــنِ البيــانِ بِمَنْظُــومٍ ومَنْثُــورِ[6]
كأنّهــا وَيْــراعُ الواصِــفين لهــا بَحْــرٌ [مقــيسٌ] علــى مِنْقــارِ عُصْــفُورِ[7]
لا زالَ أحْكامُــهُ بالعَــدْلِ جاريــةً بــين البَرِيَّــةِ حتــى نَفْخَــةِ الصُّــورِ

[1] جاءت في الأصل [كلتاهما]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] السّر: خالص الشيء وأطيبه. والسّري: مفرد سُرى، وهو السّيد السّخي. راجع: المعجم الوسيط، المواد "سرّ وسرّر" و "سرا".

[3] سَمَيْدَع: السيّد الكريم والشّريف، و"بَيْقور": أي جماعة البقر. وقد ثبت في المنح الرحمانية، ص137 "تنوير".

[4] الجديدان: أي الليل والنهار. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "جدّ".

[5] هذا العجز ورد عجزًا للبيت الذي يليه حسب ما جاء في المنح الرحمانية، ص137.

[6] هذا العجز جاء لبيت آخر في المنح الرحمانية، ص137 وهو"

"يا خيرَ مَن ملكا جلّت مفاخره عن البيان منظومٍ ومنثور"

[7] جاءت في الأصل [الواصفون]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. وكذلك "خميس"، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى، وكذا في المنح الرحمانية، ص138.

المقصد الحادي عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان سليم بن مولانا السلطان[142ب] سليمان. جلس على تخت المُلك في يوم الاثنين لتسعٍ مضين من شهر رمضان، سنة خمس وسبعين وتسعمائة[1]. وتوفي في سابع شهر رمضان، من سنة اثنتين[2] وثمانين وتسعمائة. وكانت مُدّة سلطنته ثمان سنوات وشهرًا واحدًا وأربعة عشر يومًا. وكان سلطانًا كريمًا، مُهابًا، عظيمًا، لا يُستطاع النّظر إليه، ولا لأحد من وزرائه إقدامٌ عليه، لشّدة شكيمته. جهّز الجيوش لقتالِ الكافرين، ومَنْعِ أذاهم عن أهل التّوحيد وسائر المسلمين. وفتح فتوحات عديدة، بآرائه السّديدة، فأعظمها جزيرة قبرس[3]. وكان أهلها يعطون الجِزية، غير أنّ[4] باطنهم مملوء بالمكر والحِيلة. فصاروا يقطعون الطّريق في البحر على المسلمين، وإذا أخذوا سفينة من سفائن المسلمين، قتلوا جميع مَن فيها مِن الموحّدين، لأجل إخفاء خَبرها، إلى أن كَثُر أذاهم وشرّهم، فاسْتفتى مولانا السلطان رحمه الله تعالى، أبو السّعود، فأفتى بأنهم غدروا ونقضوا العهد، وأنه يجوز قتالهم. فجّهز عليهم مولانا السلطان سليم، عسكرًا كبيرًا، من البّر والبحر، وجعل سِر دار العسكر مصطفى باشا. ففتحها على أحسن ما يكون من الأحوال، ومَلَك جميع قِلاعها، وهي ثلاث قلاع. **وفتح بلاد** [143أ] **اليمن**[5]،

[1] في المنح الرحمانية، ص185، والنهروالي، الإعلام، ص360 " شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة". وحسب المخطوط فإنّ مُدّة سلطنته: 975- 982هـ/ 1567- 1574م.

[2] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه. أي عام 982هـ/ 1574م.

[3] وتكتب أيضا بالصاد (قبرص) وهي الجزيرة المعروفة شرقيّ البحر المتوسط، وعاصمتها نيقوسيا، وتتمتع بموقع استراتيجي هام. غزاها المسلمون منذ عام 649م ثمّ في عام 805م، واستقروا فيها منذ عام 862م إلى أن طُرِدوا منها عام 965م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص185-186.

[4] جاءت في الأصل [أنهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] راجع: النهروالي، البرق اليماني، ص69-208، الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص187.

وذلك أنّ بلاد اليمن من صنعاء[1] إلى عَدَن[2]، كانت داخلة في سِلك الممالك العثمانيّة في أيام دولة المرحوم مولانا السلطان سليمان، أسكنه الله أعلى فراديس الجِنان، وحفّ روضته الطيّبة الطّاهرة، بالرَّوْح والرَّيْحان، بجاه سيّد ولد عدنان. وكان أول فتحها على يد الوزير الأعظم سليمان باشا الخادم، لمّا توجّه إلى الهند، لغزو الفِرِنج[3] البرتغال، وأقام بها بيكلربيگًا. واستمرّت كذلك في تصرّف البيكلربيك، الذي يتولّى من الباب السلطانيّ، يتولاّها واحدًا بعد واحد، إلى أن وُزّعَتْ مملكة اليمن بين أميرَيْن بعَرض المرحوم محمود باشا. إنّ مملكة اليمن واسعة، ويمكن أن يُوَلّى في أعلاها في الجِبال من صنعاء إلى تَعِز[4] أمير آخر. وكان هذا عين الخطأ، فإنّ ذلك مَظَنّة[5] الاختلال والجِدال، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[6]. فُقبِل عَرْضُه في الباب العالي[7]، قصدًا إلى تكثير المناصب، وتعديد البيكلربكية. فَوُلّي أعلى اليمن وجبالها، للمرحوم مُراد باشا. وكان يُقال له أكور مُراد، لأنه كان بإحدى عينيه عور. وكان قد خرج من سرايا السلطان، ومن أمراء الصناجق، وصار أمير الحاج المصري، ثمّ تولّى صنجق غزّة. ثمّ أعْطِي نِصْف مملكة اليمن

[1] صنعاء هي عاصمة اليمن، ومشهورة بخيراتها ومياهها الوفيرة. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص425.

[2] هي إحدى مدن اليمن الرئيسة، وميناء على البحر العربيّ، كما تُعتبر مركزًا تجاريًا هامًا منذ القِدَم. راجع: المرجع السابق، ج4، ص89-90.

[3] في المنح الرحمانية، 187، "الإفرنج".

[4] مدينة في اليمن تقع شرقي صنعاء.

[5] هو مكان وموضع الشّك. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "ظنن".

[6] سورة الأنبياء (21)، آيه (22). والآية كاملة: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

[7] اصطلاح أُطلِق في البداية على قصر السلطان، الذي تُدار منه شؤون الدولة. وفي عصر مُراد الثالث أصبح المقصود به "القصر". راجع: Gibb & Browen, I. p. 162.

وولّى التهايم[1] لحَسن باشا[2]، وهو أيضًا [144ب] من المماليك السلطانيّة، برز من السّرايا فانْقسمتْ عساكرها، وأموالها، ومحصولها إلى نِصْفَيْن. وضَعُفَ أمْر كل واحد منهما. وكان مُطهَّر بن شرف الدين يحيى الزّيدي[3]، لعب الشّيطان بعقله، وسوّلت له نفسه العِصيان. وكانت داعية العِصيان مُضمرة في خاطره، طمعًا في المُلك، فصادف انقسام المملكة، وصول خبر وفات المرحوم مولانا السلطان سليمان، فأظهر العِصيان هو وكَثْف[4] من العُربان. وجهّز أميرًا من أمرائه، يُقال له شُرَيْع[5]، وجمع عليه العُربان، فقطعوا على مُراد باشا الطريق في مَحَلّة ذمار[6]، وهو غافل عن عِصيانهم. وكان قاصدًا تعز إلى صنعاء، وهي محصورة بالعُربان الزّيديين. قَدموا على الخَيل، وخَلَوا[7] من الطّعام[8] بالكُليّة، وكل مَن أرسل من طائفته مَن يأتيه بالغِلال، والمِيرة، قطعوا عليه الطريق وقتلوه. فلمّا زاد هذا

[1] أي منطقة تُهامة. وقد سُمّيت بذلك لشدّة حرّها وركود ريحها. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص63. كذلك المنح الرحمانية، ص188.

[2] حسن باشا: كان من أعيان الوزراء، أرسله السلطان مُراد بن سليم إلى اليمن عام 988هـ/ 1580م. عُزِل عن اليمن عام1013هـ/ 1604م، وتوفي عام 1016هـ/ 1608م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج2، ص73-76.

[3] هو إمام زيدي من ملوك اليمن وسادتها. جرت بينه وبين العثمانيين حروب طاحنة وتوفي عام 980هـ/ 1572م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج8، ص161.

[4] جاءت في الأصل [كثيفة]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] جاءت في الأصل [سريع]، والصواب ما ثبت أعلاه. وهو علي بن شُرَيْع، وعُرِف بأنه مُتقّلب في مواقفه مع العثمانيين والأمام المطهر بن يحيى. تقرّب من حسن باشا وأصبح صنجقًا، وتوفي في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، ولم تُعرف سنة وفاته وميلاده بدقّة. راجع: النهروالي، البرق اليماني، ص320.

[6] هي قرية صغيرة وحصينة، تقع بين صنعاء وتعز. حيث عسكر فيها السلطان مُراد باشا. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص7.

[7] جاءت في الأصل [حلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[8] جاءت في الأصل [الطغيان]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

الأمر، وفطن للعِصيان من العُربان، رجع مُراد باشا إلى تعز، وسَلَك وادي خُبان[1]، وهو مَحل وَعِر بين جبلَيْن عاليَيْن، غاية في الوعورة والصعوبة، عَسِر المَسْلك، كثير المَهْلَك. فلمّا توسّطوا بين هذَيْن الجبلَيْن، وقد امتلأت قِلالهما[2] بالأعراب، كالجراد المُنتشر، والسّحاب المُنهمر، ورموهم بالأحجار الصّغار والكِبار، وأطلقوا عليهم المياه. فصار عسكره يخوضون في تلك المياه، وازْدحموا [145أ] على محل الخروج، وهو مكان ضَيّق، صَعْب الخروج منه، وليس بهم مِنعة ولا لهم نجدة، ولا لخيولهم قوّة ولا قُدرة على الجَوَلان. فاسْتسلموا للقَتْل، فقُتل مَن دنا أجَلُه. وخرج مُراد باشا، ومعه عشرون صنجقًا، فكبستهم العُربان، وتركوا كلّ واحد منهم عريان، وسائر بَدَنه مكشوف، فأوَوا إلى محل يُقال له مضرح[3]، وعيون المنايا تسرح إليهم وتطمح، فوصل لهم شيخ مضرح، وكان له ثأر قديم عند الأروام، لأن سليمان باشا صلب أباه لمّا افتتح عدن. فصاح: وا ثأراه! وقَتَل مُراد باشا وأرسل رأسه إلى مطهَّر، وقيّد الأمراء، وقدّمهم إلى مطهَّر، فلم يقتلهم، بل حبسهم في مطامير تحت الأرض، ومات بعضهم من الضّيق والضّنك، وخَلص منهم بعد ذلك، مَن يقي عُمره. واستمرّ أمراء مطهَّر يأخذون جِبال اليمن، إلى أنْ أخذ صنعاء، وتعز، وحِصن حَبّ[4]، وعدن. وعجزوا عن أخْذ زُبيد، وبها شِرذمة قليلة من الأروام، مع حسن باشا، مع ظلمه وغشمه لأهل زُبيد، ومصادرته لكل أحد. ثمّ وصل لأخذها علي بن شُرَيع، ومعه خمسون ألف مقاتل، وحَطّ خارج زُبيد. فخرج إليه بقيّة العسكر السلطاني، وهم[5] نحو مائة فارس، وبرزوا لقتال هذا الجَمّ الغفير. ﴿وَكَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ

[1] جاءت في الأصل [جِنان]، والصواب ما ثبت أعلاه، وكذا في البرق اليماني، ص180، والإعلام، ص364، والمنح الرحمانية، ص191.

[2] في المنح الرحمانية، ص191 "قللهما".

[3] يقال أنه مسجد في الجنوب الغربي من تعز. راجع: النهروالي، الأعلام، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 192.

[4] قلعة مشهورة في نواحي سبأ. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص211.

[5] في المنح الرحمانية، ص193 "وهو".

الله﴾[1]. وحَملوا على علي بن شُرَيع[2]، وقد ألْقَوا بأيديهم [146ب] إلى التّهلكه. فتزلزلت أقدامه، وفرّ هاربًا، وسقط مِن على فرسه في هروبه، ولَحِقَهُ جماعة من الإسباهية، أرادوا قَتْلَه. فلَحِقه عبد مِن عبيده بفرسه، فركب وهرب، ونجا بنفسه. وسُمِع من مقابر زُبيد أصوات مدافع ترمي عليهم، من غير أنْ يُرى شخص. فنصَر اللهُ المؤمنين على أولئك المُلحِدين في الدّين. وقُتِلَ منهم ما لا يَعلم عددهم إلاّ الله تعالى. وغَنمت العساكر وِطاقهم، وجِمالهم وأبغالهم، وولّوا مُدْبِرين راجعين. ولم يَقْدِموا بعد ذلك على زُبيد، وكأنّما عليها حِصن حَصين من حديد، من عند الله العزيز الحميد. فلمّا أحاطت العلوم الشّريفة بذلك، أرسل إليه سنان باشا[3]، ففتحه على أتمّ الأحوال. وقد بيّن فَتْح اليمن مُفصّلاً، مولانا الشيخ فطب الدين المكّي[4]، في مؤَلَف يُسَمّى البَرق اليماني، وذَكر في أوّله قصيدة فيها التّرشيح[5] بأمر اليمن، لا بأس بِذِكْرها[6] وهي:

---

[1] سورة البقرة (2)، آيه (249). والآية كاملة: (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

[2] جاءت في الأصل [سريع]، وفي المنح الرحمانية، ص193 "شويع". والصواب ما ثبت أعلاه. راجع هامش رقم5 في الصفحة السابقة.

[3] هو يوسف بن عبد الله سنان باشا المتوفى عام 1004هـ/ 1596م. فتح اليمن وتونس، ووُلّي الحكومة في مصر في عهد السلطان سليم الثاني عام 975هـ/ 1967م. وفي عهد السلطان مُراد الثالث تولّى الصدارة العظمى وذلك عام 988هـ/ 1573م. راجع: المُحبّي، خُلاصة الأثر، ج2، ص214-217، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص193-194.

[4] هو محمد بن أحمد بن محمد قاضي خان محمود النهروالي المتوفي عام 988هـ/ 1580م. يُلقّب بقطب الدين المكي الحنفي، وهو مؤرخ من أهل مكّة، وله عدّة مؤلفات منها: البرق اليماني في الفتح العثماني والإعلام بأعلام بيت الله الحرام، وهي منشورة. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج6، ص234.

[5] أي التقديم. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "رشح".

[6] النهروالي، البرق اليماني، ص13-14.

لكَ الحمدُ يا مَوْلايَ في السِرّ والجَهْرِ على عِـزّة الإسـلام والفـتح والنّصـرِ
كـذا فَلْـيَكُن فَـتْحُ الـبلادِ إذا سَـعَتْ لـهُ الهِمَـمُ العليـا إلى أشْـرف الـذّكرِ
جنـودٌ رَمَـتْ في كَوْكَبـانِ خِيامَهـا وآخرُهـا بالنيـل مِـن شـاطئ مصـرِ[1]
تجـرُّ مِـن الأبطـالِ كـلَّ غَضَـنْفَرٍ بصـارمه يسـطو[2] على مَفْـرَقِ الـذِّكرِ[3]
عسـاكرُ سـلطانِ الزّمـانِ مَليكِنـا خليفـةِ هـذا العَصْـرِ في البرّ والبحـرِ
[i147] حَمَى حَـوْزَةَ الـدّين الحنيفـي وبـيضِ العَـوالي والمُثَقَّفَـةِ السُّـمْرِ[4]
لـهُ في سـبيل المُلْـكِ أصْـلٌ مؤثّـلٌ تَلقّـاه عـن أسـلافه السّـادة الغُـرّ
مُلـوك تسـامَوا للعُـلا وخلائـفٌ أُولـو العَـزْمِ في أزمـانهم وأُولـو الأمْـرِ
شـموسٌ بِفَيْضِ النّورِ تمحوا غياهبا مِن الكُفْرِ منهم مُسْتَمَدٌّ ضيا البَدْرِ
هُمـو[5] أمْلَـوا عَـيْنَ الزّمـانِ وقَلْبَـهُ فَقَـرّت عَـيْنُ العـالمين مِـن البِشْـرِ[6]
هُـمُ العِقْـدُ في [أغلى] اللآلي مُنَظّمـا وسـلطانُنا في المُلْـك واسـطةُ الـدُّرِ[7]
شَهِنْشـاهُ سـلطانُ الملـوكِ جميعهم سـليمٌ كـريمٌ [أصـلُهُ] طيّـبُ النُّجْـرِ[8]
عمـادٌ يلـوذُ المسـلمون بِظِلّـهِ وَسَـدٌّ منيـعٌ للأنـام مِـن الكُفْـرِ

[1] اسم جبل قُرب صنعاء. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص494.

[2] جاءت في الأصل [يسطوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] الغضنفر: الرّجل غليظ الجثّة. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "غضفر". وفي المنح الرحمانية، ص195 "الدّهر" في هذا البيت.

[4] مُفردها عالية، وهي القناة أو النّصف الذي يلي السنان من السيف. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "علا". أمّا المثقّف والأسمر فهما "الرّمح".

[5] جاءت في الأصل [هموا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] في المنح الرحمانية، ص196 "عيون".

[7] جاءت في الأصل [أعالي]، والصواب ما ثبت أعلاه لاستقامة المعنى. والمعنى هنا: العين.

[8] شهنشاه: كلمة فارسية تعني" ملك الملوك"، من ألقاب السلطان العثماني. في الأصل جاءت [فاضل]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى، وكذا أيضًا في المنح الرحمانية، ص196. والنُّجر: أي الأصل والحَسب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "نجر".

وحـينَ أتـاهُ أنْ قـد اختـلَّ جانـبٌ مِن اليمنِ الأقصى أصَرَّ على النُّكْرِ[1]
فسـاقَ لـه جيشًـا خميسًـا عَرَمْرَمًـا يُذلُّ فِجاجَ الأرضِ في السّهلِ والوَعْرِ[2]
لهـم أسـدٌ شـاكي السـلاح عرينُـهُ طِـوالُ الرّمـاحِ السَّـمْهَريّةِ والبُتْـرِ[3]
وزيـرٌ عظـيمُ الشّـأن ثاقـبٌ رأيُـهُ يُجَهِّـزُ في آنٍ جُيوشًـا مِـن الـذُّعْرِ[4]
يقـومُ بأعبـاءِ الـوزارة قَوْمَـةً يَشُـدُّ جيـوش الـدّينِ بالأيْـدِ والأزْرِ
بـهِ أمَّـنَ اللهُ الـبلادَ وطَمَّـنَ الـ عبـادَ وأضْحى الـدّينُ مُنْشَـرِحَ الصّـدْرِ
سـنانٌ عزيـزُ القَـدْرِ يوسـفُ عَصْـرِهِ ألَـمْ تَـرَهُ في مصـرَ أحكامُـهُ تَجـرِي
تَـدَلَّ إلـى أقصـى الـبلادِ بِجَيْشِـهِ وَمَهَّـدَ مُلْكًـا قـد تَمَـزَّقَ بالشَّـرِ[5]
وشَـتَّتَ رأي المُلْحِـدينَ وردَّهـم مِثـالَ قُـرُودٍ في الجِبـال مِـن الـذُّعْرِ
[148ب]وقَطَّع رؤوسًا مِن كِبارِ رؤوسهم لهـم بـاطنُ السِّـرْحانِ والطَّيْرِ كالْقَبْرِ[6]
وكـأنَّ عصـا موسـى تَلَقَّـفُ كُـلَّ مـا بَدا مِن صَنيع المُلْحِدينَ مِن السِّحْرِ[7]
ولا زالَ فـيهم عامِـلُ الـرُّمْحِ عـاملاً ولا بَرَحُـوا في الـذُّلِ بالقَتْـلِ والأسْـرِ

وفتح حَلْقَ الواد[8]، وبيان ذلك، أنّ سلاطين[9] تونس لمّا ضعفوا، ووقع بينهم الاختلاف، وصار بعضهم يلتجئ إلى بلاد الإفرنج، ويأتي بجيوش الكَفَرَة يستعين بهم على أخذ تونس

[1] في المنح الرحمانية، ص196 "الكُفْر".

[2] جاءت في الأصل [وساق]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[3] السّمهري: أي الرّمح الصّلب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "سمهر".

[4] في المنح الرحمانية، ص196 "الكُفْر". و"الذّعر" هو الخوف: أي الجيش الذي يخيف ويذعر الأعداء.

[5] تدلّ: بمعنى نزل أو أخذ من أعلى. وفي المنح الرحمانية، ص197 [تدلّى]. راجع: المعجم الوسيط، مادة "دلا" و "أدل".

[6] السِّرْحان: الذئب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "سرح"

[7] جاءت في الأصل[عصى]، والصواب ما ثبت أعلاه. وكذلك[كلّما]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة والمعنى.

[8] هو ميناء تونس، ويقع في مدخل بحيرة تونس على البحر المتوسط. راجع: المنح الرحمانية، ص197-198.

[9] وهم سلاطين الدولة الحفصيّة (626هـ/ 1228م- 981هـ/ 1574م)، وتُعرف بالسلالة الحفصيّة المنسوبة إلى الشيخ أبي حفص عمر. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج7، من صفحة 474.

من المسلمين، وصار الفِرِنج[1] يقاتلون مَن في تونس، ويقتلونهم ويَسْبُون نساءهم وذراريهم، إلى أن صار المسلمون تحت حُكم النّصارى، وانْفردَ النّصارى عن المسلمين، وبنوا قَلْعَة بغرب تونس، بموضع يُقال له حَلْق الواد، وملؤوها بآلات الحَرب والقتال، وصار مَن بها يقطع الطّريق على المسلمين. فانْتشرتْ[2] هذه الأخبار لِحضرة مولانا السلطان سليم رحمه الله، فاشْتَدَّ غضبه لِمَا أصاب المسلمين مِن هؤلاء الكَفَرة أعداء الدّين. فجهّز الوزير سنان باشا لِقِتالهم، وجعله سردار العسكر، بَرًّا، وعَلَج علي[3] سِردار العسكر بحرًا. فلمّا وصلت العساكر المنصورة إلى بلاد الكُفّار، صاروا كلمّا نزلوا بلدة أو قرية، قتلوا مَن بها مِن الكُفّار، وأخذوا أموالهم. واسْتمرّوا على ذلك إلى أنْ أرْسَوا على جزيرة حَلْقِ الواد، في الرابع والعشرين من ربيع الأول [149أ] سنة إحدى وثمانين وتسعمائة[4]. فحاصروها أشدّ الحصار، وبَنوا عليها المتاريس من كلّ جانب. ومع ذلك كانت الكَفَرة الملاعين، ومَن ارْتَدَّ معهم مِن عُربان تونس، يخرجون مِن القَلعة ويهجمون[5] على المسلمين، ويقتلونهم، حتى اسْتشهد مِن المسلمين خَلْقٌ كثير. فبادر الوزير سنان باشا، إلى نَقْل الرّمل دائر القَلعة، وجعل عليها المتاريس، بحيث أنّ مدافع المسلمين، تصل إلى وسط قَلعة الكُفّار وتقتلهم، وتُحرقهم بالنّار، وتَسُوقهم إلى جهنّم وبِئْس القرار. واستمرّ على ذلك ثلاثة وأربعين[6] يومًا

[1] تأتي على حالتيْن: الفرنج والإفرنج، كما ثبت في الأصل.

[2] أي وَصَلَتْ.

[3] علج علي باشا: واسمه أيضًا قلج علي باشا. وُلِد في إيطاليا، وأُخِذَ أسيرًا في إحدى غارات العثمانيين على شواطئ إيطاليا. اعتنق الإسلام وارتقى بالتدريج مناصب هامّة في الدولة. كان له دور كبير في معركة ليبانتو عام 1571م، فكافأه السلطان العثماني ومنحه لقب "قلج" أي السّيف، وعيّنه "قبطان باشا" أي أميرًا للأسطول البحري العثماني. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص199-200، Gibb & Browen,I. p. 220-222.

[4] 981هـ/ 1573م.

[5] جاءت في الأصل [يهجمون]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] جاءت في الأصل [وأربعون]، والصواب ما ثبت أعلاه.

من محاصرتها، وفتحوها عنوة بالسّيف، لِسِتٍّ مَضين من جمادى الأولى، من السّنة المذكورة. ثمّ لمّا فرغ المرحوم سنان باشا الوزير، من حَلْق الواد، توجّه إلى تونس بالعساكر المنصورة، وحاصرها واجْتهدَ في أخْذِها، وتَعَلّق بنفسه في أطراف القَلعة، وصبرَ هو والعسكر على النار، واسْتشهد كثير مِن المسلمين. واسْتمرّ على ذلك إلى أن أخَذوها، وقتلوا مِن الكُفّار خمسة آلاف فارس، وغَنموا مَغْنَمًا كبيرًا. وأرْسلَ الخَبر إلى الأبواب السلطانيّة، وفرح عامّة بلاد الإسلام، بأخْذِ الكَفَرة اللئام. وكان هذا الفتح في يوم الخميس المبارك لِخَمْسٍ بَقِين مِن جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة. وأمّا صَدَقات [150ب] المرحوم مولانا السلطان سليم فكثيرة، منها ما كان يتصدّق به على فقراء الحرمَيْن الشّريفَيْن، في أيام كان شاه زاده[1] قبل أن يلي السلطنة، فإنه كان يُرسِلُ في كلّ سنة في الموسم ألف دينار[2]، للفقراء بالحرمَيْن الشّريفَيْن. وله أنواع من الصّدقات بالقدس، ودمشق، وحَلَب، وديار مصر بالجامع الأزهر، وغيرها من الممالك العثمانيّة. وقد عمّر المسجد الحرام المكيّ. وله مآثر جليلة، ومكارم نبيلة. ولا زال مُجتهدًا في إصلاح الرّعايا، وفِعْل الخَيرات، إلى أن انْتَقَلَ إلى أرْفعِ الدّرجات. هذا وقد وقع له مع الأستاذ الجدّ الشيخ محمد البكري الصدّيقي، أعاد الله عليّ وعلى المسلمين مِن بركاته، في الدّنيا والآخرة، بجاه سيّدنا محمد وآله، كرامة غريبة، وهي أنه لمّا كان مولانا السلطان بأماسيه[3]، في حياة والده المرحوم مولانا السلطان سليمان، وطال عليه عدم موت والده، فقال يومًا لشخص مِن ندمائه يُدعى شمسي آغا: قد طال الأمر عليّ، وهلْ تعرف أحدًا مِن الأولياء تسأله لنا: هل نَلِي السلطنة أو نموت قبل ذلك؟ فقال شمسي آغا: إنّي كنتُ بمصر، وفيها شخص

[1] أي عندما كان أميرًا قبل تولّيه السلطنة.

[2] في المنح الرحمانية، ص201 "ألف دينار ذهب".

[3] أماسية: مدينة في آسيا الصغرى في ولاية سيواس، وإلى الشمال الغربي من مدينة "سيواس". راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج2، ص610.

من آل الصدّيق، لا شكّ في ولايته، يُسمى الشّيخ محمد البكري، تُرسلوا له شخصًا بالخفيّة بمكتوب، وتسألوه عن ذلك. فعيّن شخصًا مِن خواصّ أتباعه، وأرسلَ معه هديّة [151أ] للأستاذ الجدّ، مِن جُملتها: عشرة أصواف، وعشرة أثواب غايات، مع خمسين ذِراع جوخ، من الجوخ العال، كلّ خمسة أذرع لون، وألف دينار ذهب، وسافر إلى جِهة مصر. فلمّا وصل إليها، دخل على الأستاذ في شكل درويش، فرأى الأستاذ في الحَوْشِ[1]، وهو جالس على كرسيّ، والناس حوله، فأعطى للأستاذ مكتوب مولانا السلطان سليم. فلمّا رآه الأستاذ قال: يا درويش، جِئْتَ إلينا تطلبُ العَهد؟ فقال له: نعم يا سيّدي. فقال له: تأتي إلينا بعد الظّهر، نُعطي لك العَهد. وكان الأستاذ رضي الله عنه، بعد الظّهر لا يجتمعُ بأحَد. ثمّ إنّ الأستاذ قال للشّيخ بَدْر، بوّاب القاعة التي هي مَحَلّ جلوس الأستاذ، إذا جاءك هذا الدّرويش، فأدْخِلْهُ عليّ في القاعة. فلمّا جاء الدّرويش، أدْخَلَه على الأستاذ، وكانت[2] معه الهديّة، فأوْصَلها للأستاذ. فكتبَ لِمولانا السلطان سليم جواب الكِتاب. ومِن مَضْمونه: إنّكم تتولّوا السلطنة في سنة كذا، في شهر كذا، في يوم كذا. ثمّ دفع المكتوب للقاصد، وأرسلَ مولانا الأستاذ الجدّ، لمولانا السلطان سليم هديّة وهي، وفق وطاقيّة، مِن لبْس الأستاذ، وسَبْحَة، وأحْسَنَ للقاصد. فلمّا وصل القاصدُ لِمولانا السلطان سليم، فرح غاية الفَرَح. فلمّا جاء اليوم الذي [152ب] ذَكَرَهُ الأستاذ أنه يلي السلطنة فيه، قال مولانا السلطان سليم لشمسي آغا: هذا اليوم الذي ذكره الأستاذ. فلمّا أذّنَ العَصْر من ذلك اليوم، لم يشعر إلاّ وقد جاءت الأوطاقيّة إلى مولانا السلطان سليم بخبر موت والده، مولانا السلطان سليمان، وتوليته المُلْك. فصار مولانا السلطان سليم مِن أكبر المُعتقدين في الأستاذ الجدّ، رضي الله عنه. وفي مُدّة مُلْكِه، رحمه الله تعالى، ما كان يقطع الهدايا للأستاذ الجدّ رضي الله عنه.

[1] الحَوْش: الفِناء. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "حاش".

[2] جاءت في الأصل [كان]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

المقصد الثاني عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد[1] بن مولانا السلطان سليم، جلس على تخت المُلك في عاشر رمضان سنة اثنتين[2] وثمانين وتسعمائة[3]. وكان عمره إذ ذاك ثلاثين سنة، وتوفي في سادس رمضان سنة ثلاث وألف[4]، وكانت مُدّة سلطنته إحدى وعشرين سنة. فهو مَلك مُلوك المشرقَيْن والمَغربَيْن[5]، سلطان سلاطين الخافقين[6]، أعظم سلطان خفقت عليه البنود، وأكبر مَلِيك قد جنّد الجنود. شعر[7]:

مَلِكٌ إذا ضاقَ الزّمانُ بأهْلِهِ مَحْلاً تَوسّعَ في المكارِمِ والفَرَجْ[8]

أجَلّ ملوك آل عثمان في الفضل، والجود، والإحسان، نَسَبهُ[9] [153أ] كان من شمس الضّحى نورًا، ومن فَلَق الصّبح عمودًا مشهورًا. له النّظم الرائق الحاوي لكل معنىً فائق. جمع كثيرًا من الأموال، لأنّ غالب سلطنته خالية مِن اشتغال البال، مع الأمن الشّديد، والخير ينمو فيها ويزيد. جعل فَرَحًا لولده ووليّ عهده من بعده، مولانا السلطان محمد الآتي ذِكره، ما وقع لأحد مثله من السلاطين، ولا للخلفاء الماضين، مع تبسّطة في ذلك، والإنعامات الكثيرة لِمَن يأتي مِن أرباب اللّهو من غالب الممالك. ومكثَ هذا الفَرَح نحو

[1] راجع ترجمته في: النهروالي، الإعلام، ص399-418، المحبّي، خلاصة الأثر، ج4، ص341-354.

[2] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] 982هـ/ 1574م.

[4] 1003هـ/ 1595م.

[5] المشرقان والمغربان هما: مشرقا الشمس ومغرباها في فصلي الشتاء والصيف. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "شرق".

[6] الخافقان: هما المشرق والمغرب، لأنّ الليل والنهار يخفقان فيهما. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "خفق".

[7] النهروالي، الإعلام، ص404.

[8] في المنح الرحمانية، ص208 "وانْفَسَحْ".

[9] في المنح الرحمانية، ص208 "نَسَبٌ".

الشّهرَيْن، مع الأمن والصفاء، وقُرّة العَيْن. وكان [قد][1] جعل صواني صِغار من ذهب، وفضّة، وملأ الذهب بالفضّة، ويلقي ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان، أثابه الله الجَنّة بِمَنّه وكرمه آمين. وكان رحمه الله، يُحبّ أهل الحرمَيْن الشّريفَيْن، وقد أنشأ دشيشة لفقراء المدينة المنوّرة، ووقف عليها أوقافًا كثيرة، وحصل النّفع والرّفق بها. وكَثُرَ في زمنه العلماء، وما أجتمع في زمن أحد مِن آل عثمان، ما اجتمع في زمنه مِن الفضلاء. وكان رحمه الله تعالى مُحِبًّا لجميع الكُتُب، مع حُسن مطالعتها. وله النّظم الرائق بالعربيّ، والتّركي، والفارسيّ، ودواوينه في ذلك موجودة. وفي زمنه تحرّكت طائفة المَجَر، فجهّز لها الجيوش الكثيرة، وفتح المُدن الكبيرة. [154ب] وكان له أولاد يزيدون على العشرين. وعمّر عِمارات كثيرة، ومن جُملتها تعمير المسجد الحرام[2]. وفي زمنه توفّي الأستاذ الأعظم، والعارف الأفخم، أعظم علماء العصر، رِحْلَة ذوي الفضائل، وعليّةُ القصر، مَن مَلأ الأقطار ذِكرُه، وعطّر الأمصار نَشْرُهُ. عالمُ زَيّنَ الوجود بجماله، ومنحَ الوجود بعلمه وماله، شيخُ الإسلام على الإطلاق، علاّمة الزّمان بالاتفاق، كثيرُ المطالب أمام المذاهب، مَعْقل التّحقيق، خُلاصة أولاد عتيق[3]، منار التّفسير، قدوة أهل التّحقيق والتّحرير، قُطب[4] دائرة السائرين، جمال الإسلام والمسلمين، شمس الحقائق والعِرفان، تُرجمان الفُرقان، مولانا الشيخ **الجدّ الأستاذ محمد البكري الصدّيقي**، نفعنا الله والمسلمين ببركاته، وبركات علومه، في الدّنيا والآخرة، بجاه سيّدنا محمد وآله آمين. وكانت وفاة الأستاذ

[1] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة اللغة.

[2] لعلّه يقصد الحَرَم المكّي.

[3] أولاد عتيق: أي آل عتيق وهم آل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

[4] سيّد القوم ومدار أمرهم. وهي تعبير صوفي يُقصد به أعلى مرتبة عند المتصوّفة أو السّالكين الذين ساروا في مسالك التصوّف. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص211.

الجدّ[1]، في ليلة الجمعة رابع عشري صفر سنة أربع وتسعين وتسعمائة[2]. هذا وقد ترجم نفسه، رضي الله تعالى عنه، في نسخة كَتَبها إلى سلطان المغرب مولاي أحمد[3]، فقال ما نَصُّه: هذا، ومولد الفقير، ليلة الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة الحرام، ختام عام ثلاثين وتسعمائة[4]. ونشأتُ في حِجْرِ أبي الأستاذ الأعظم، المُجتهد المطلق، العالم الرّبانيّ، محمد [155أ] أبي الحسن، تاج العارفين الصّديقيّ[5]، أحّله الله مِن كل النّعيم بفردوسه، ومِن حظائر القُدس[6] أعمرها بتقديسه. وختمتُ القرآن حِفْظًا عن ظَهْر قَلْب في آخر السابعة من عمري، وصلّيتُ به إمامًا في تراويح شهر رمضان، بمقام السّادة المالكية عند الكعبة الشّريفة، في السّنة الثامنة. وفيها حفظتُ ألفيّة ابن مالك[7] وعَرَضتها على أجِلاّءٍ مِن علماء الإملاء[8] بمكّة المُشرّفة. شافعيّهم العلامة إسماعيل الشّرواني[9]، ومالكيّهم العالم محمد بن

[1] هو محمد بن علي البكري الصدّيقي، من كبار علماء مصر ومتصوّفيها وشعرائها. توفي عام 994هـ/ 1586م. راجع: الصبّاغ، المرجع السابق.

[2] 994هـ/ 1586م.

[3] هو أحمد بن محمد الشّيخ المهدي، أبو العباس السّعدي، المنصور بالله، ويُعرَف بالذهبيّ. هو رابع سلاطين الدولة السعديّة في المغرب. وصلت السلالة في عهده (986هـ/ 1578/ - 1012هـ/ 1603م) إلى أوجها سياسيًا واقتصاديًا. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج1، ص224.

[4] 930هـ/ 1523م.

[5] هو علي بن محمد بن جلال الدين، من كبار علماء القرن العاشر الهجري في مصر وأدبائها ومتصوّفيها. توفي عام 952هـ/ 1545م. راجع: الغزّي، الكواكب السائرة، ج2، ص194-197.

[6] القدس: أي الجَنّة، كما سبق ذِكرها.

[7] وهي ألف بيت في الرجز، جُمِعت فيها مقاصد النحو في اللغة العربية. وقد وضعها الشّيخ جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي المعروف بابن مالك النّحوي المتوفى عام 672هـ/ 1273م. راجع: حاجي، خليفة، كشف الظنون، ج1، ص151.

[8] في المنح الرحمانية، ص212 "العلماء الأجلاّء".

[9] كان قاضيًا في فارس، وارتحل إلى مكّة وسكنها، ثمّ انتقل إلى بلاد الرّوم في عهد بايزيد الثاني، وعاد إلى مكّة وبقي فيها حتى توفي عام 942هـ/ 1535م. راجع: طاشكبري زاده، الشّقائق النعمانية، ص214.

الحطّاب[1]، وحنفيّهم مُفتي الدّيار الحَلَبيّة، بَرَكة المسلمين، ابن بلال[2] حيث كان مُجاوِرًا بمكّة ذلك العام. وكتبَ كلٌّ منهم إليّ إجازة بجميع ما يجوز له وعنه روايته. وأتممْتُ حفظ التّنبيه[3] للإمام الحُجّة المجتهد وليّ الله الشّيخ أبي إسحاق الشّيرازي[4] في فِقه الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشّافعيّ، رضي الله عنه، قبل تمام العاشرة[5] من عمري، وعرضته على أعيان علماء بلدتنا مصر حينئذ، فشافعيّهم شيخ الإسلام أبو العباس أحمد الرّملي الشّافعيّ، ومالكيّهم مُحقّق العصر، ناصر المِلّة والدّين، اللقاني[6]، وحنبليّهم، قاضي القضاة شيخ الإسلام أبو الحسن علي الطرابلسيّ. وشرعتُ في حضور دروس والدي للبحث والاستفادة، والقراءة في أنواع العلوم، من حينئذ [156ب] إلى وفاته، رضي الله عنه، حضورًا مختلفًا باخْتلاف ما قرأتُ وسمعتُ، واختلاف حالي في ذلك، فَهْمًا ونَقْلاً[7]. واسْتوفيتُ حضور دروس القرآن العظيم، تفسيرًا، بقراءتي، وقراءة غيري، وصحيح الإمام البخاريّ[8]

[1] هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني، أبو عبد الله، المعروف بالحطّاب. أصله من المغرب، وُلِد بمكّة عام 902هـ/ 1497م، وتوفي في طرابلس عام 954هـ/ 1547م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج7، ص286.

[2] هو محمد بن محمد بن حمد بن بلال، أبو عبد الله شمس الدين. وُلِد عام 875هـ/ 1470م، عاش في حلب واشتغل بالتدريس والإفتاء، وتوفي هناك عام 957هـ/ 1550م. راجع: الغزّي، الكواكب السائرة، ج2، ص7.

[3] هو كتاب: التّنبيه في فروع الشّافعيّ".

[4] وُلِد في فيروز آباد وقرأ على علماء شيراز. انتقل إلى البصرة وبغداد، ونبغ في علوم الشريعة الإسلامية، فكان مفتي عصره. توفي في بغداد عام 476هـ/ 1083م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج1، ص44.

[5] جاءت في الأصل [العشرة]، والصواب ما ثبت أعلاه، وكذا ثبت في المنح الرحمانية، ص214.

[6] هو ناصر الدين محمد بن حسن اللقاني المالكي، فقيه مالكي ومفتي المالكية بمصر. توفي عام 958هـ/ 1551م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص214.

[7] في المنح الرحمانية، ص215 "تلقيًّا".

[8] هو الجامع الصحيح في الحديث النبوي الشريف، واشتهر بصحيح البخاري. وهو الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفي عام 256هـ/ 870م. راجع: حاجي، خليفة، كشف الظنون، ج1، ص541.

دراية لغالبه ورواية لباغيه، وصحيح الإمام مسلم[1]، وغير ذلك من كُتب السّنة، ومجاميع الحديث، وكُتب الفِقْه. وعُصارة القول: إني لا شيخ لي في إفادة العلوم على طريق[2] البحث، وأوضاع التلمذة الخاصّة، إلاّ والدي، رضي الله عنه ورحمه. وشرعتُ في التّصنيف في السادسة عشرة،[3] فشرحتُ حينئذ غاية الاختصار[4] في فِقه الإمام الشافعيّ، رضي الله عنه. وبعد ذلك، بعض قطع مؤلفات فقهيّة، ورسائل كاملة صوفيّة. وأذِنَ لي والدي، رضي الله عنه، في الكلام على الناس على طريقة[5] القوم فيما يتلقّون مِن الحَقّ، ويُلقون على الخَلْق، من غير تَرَف[6]، وإن كان مع تَرَوٍّ، مِن[7] مناهل الفيض الإلهي. وذلك في شوال أواخر عام ثمانية وأربعين وتسعمائة[8]، بمجلس كلامه على الناس. وابْتدأتُ في إقراء القرآن، والحديث، والفِقه، الإقراء العام، أوّلاً بالمسجد المشهور، بالجامع الأبيض، المعروف بجدّي، ووالدي رضي الله عنهما، عام واحد[9] وخمسين وتسعمائة. وفي ذلك العام قال والدي، رضي الله عنه، في مَحْفَلٍ من أصحابه وهو [157أ] بمكّة، وكنتُ بمصر: الذي حصل لولدي محمد في هذا العام، لو أقام بعض جماعتي، وعين فضلاء منهم ستين سنة

[1] هو الجامع الصحيح، واشتهر باسم صحيح مسلم، للإمام الحافظ أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الشافعيّ. وُلِد عام204هـ/ 820م في نيسابور وتوفي فيها عام 261هـ/ 875م، بعد أن عاد إليها من تجواله في الجاو ومصر والشام والعراق. راجع: البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص100.

[2] في المنح الرحمانية، ص216 "طرائق".

[3] جاءت في الأصل [عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] هو مؤلَّف للإمام أبي شجاع الحسين بن أحمد الأصفهاني الشافعيّ، توفي عام 448هـ/ 1056م. راجع: حاجي، خليفة، كشف الظنون، ج2، ص1189.

[5] في المنح الرحمانية، ص216 "طريق".

[6] في المنح الرحمانية، ص216 "تردّد".

[7] جاءت في الأصل [فمِن]، والصواب ما ثبت أعلاه. وكذا في المنح الرحمانية ص216.

[8] 948هـ/ 1542م.

[9] جاءت في الأصل [إحدى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. 951هـ/ 1544م.

يشتغل، ما وصل إليه. وقال لي رضي الله عنه في الحجّة الأخيرة: إنْ قَدِمْتَ هذه المَرّة تكنْ شيخًا مُرَبّيًا. فلمّا قَدِمَ لقيته بالبويب[1]. فقلتُ: يا والدي هل أنجزتني ما وعدتّني؟ قال: نعم وزيادة. عرضتُك على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقلت: ما لولدي محمد؟ فقال: لو أخبرتُ قُريشًا[2] بِمَا لَهَا[3] عند الله، لَبَطِرَتْ. وفي يوم الاثنين، بعد ظهره، ثالث عشر ربيع الأوّل سنة اثنتين[4]وخمسين وتسعمائة[5]، توفي والدي رحمه الله تعالى، عن أربع[6] وخمسين سنة خلا ثمانية وخمسين يومًا. فجلستُ بإذنه لي، قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة، في الجامع الأزهر، في مَحّل تدريسه منه، لإقراء العلوم الشّرعيّة، تفسيرًا، وحديثًا، وفِقْهًا، والكلام بلسان الحقائق، والمعارف. ولم يزل الله تعالى يَمُنُّ عليّ بما يكاثر[7] أقلّه النّجوم، بل لا يفنى[8] ما دارت عليه منطقة الفَلك من المُحدب إلى مقعد[9] التّخوم. ونظمتُ في الطريق ديوانًا لقّبته **ترجمان الأسرار**، وهو من حيث الأسلوب الشّعري، ربّما ترامى بنفسه إلى هدف الإجادة[10]. وبالحقيقة، هو كتاب جامع متنوّع المقاصد والمشارع. ملاحته نورانيّة، ومحاله رحمانيّة، يسبق فيه القول إلى صُوَر يحسبها الغبيُّ حضيضًا، [158ب]

[1] البويب: هي منزلة من منازل الحاج المصري، وتأتي مباشرة بعد بِركة الحاج للمسافر من مصر للحجاز. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج9، ص21-22.

[2] جاءت في الأصل[قُريش]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] جاءت في الأصل وفي المنح الرحمانية، 217 "بمالِها" كلمة واحدة. والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[4] جاءت في الأصل[اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] 952هـ/ 1545م.

[6] جاءت في الأصل[أربعة]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] يُكاثر: يُفاخر. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "كثر".

[8] في المنح الرحمانية، ص218 "تفي".

[9] في المنح الرحمانية، ص218 "مقعر".

[10] في المنح الرحمانية، ص218 "الإجابة".

وما علم أنها أوج معنويّ، تقاصر عن البيان طويلاً وعريضًا، ويعلو[1] فيه إلى مراقٍ[2] يظنّها القصد، تناطح الثّريّا عُلّوًا، بل تفوق الأثير سُموًّا، وما درى أن اكْتناه شُئون الغيب في أمر حارت دونه الهِمَم، وتاهتْ فيه الأفكار، وصارت تحت اللّمم. ثمّ إنّ الله تعالى، وله المِنّة والفضل، أنْعَمَ عليّ بالتّكلم[3]، على نقطة البسملة في الجامع الأزهر، في ألْفَي مجلس، ومائتي مجلس، وفي ألف افتتاح الاسم الجامع من آية الكُرسي[4]، أكثر من ذلك. وفهم القلب من وحي الإلهام الرّباني، أنّ ذلك في وظيفة العُمر. وعسى الله تعالى، أنْ يجعل مِن أبناء الفقير مَن يقوم بذلك مِن بعده. ثمّ مِمّا أنْعَمَ الله عليّ، نَسَبي بالخليفة الأعظم، أبي بكر الصدّيق[5]، رضي الله عنه. فالفقير أبو بكر، وأبو المكارم: بأبي بكر كنّاني والدي رحمه الله. وأمّا الثانية، فأصلها أنّ جدّتي لأبي، خديجة بنت الحافظ جمال الدين البكري[6]. وكانت امرأة صالحة، هاجرت للحرمَيْن الشّريفَيْن، وأقامت بهما نحوًا من ثلاثين عامًا، إلى أنْ توفيت بالمدينة الشّريفة، على مَن فيها أفضل الصّلاة والسّلام. ورأتْ بمكّة في الليلة التي وُلِدْتُ فيها بمصر، أنّي حُمِلْتُ إليها، فحملتني وطافتْ بي أسبوعًا قائلة: سيّدي أطلبه عالِمًا، صالِحًا. قالت: وإذا بمُنادٍ ينادي مِن قِبل [159أ] الكعبة، كنّوهُ بأبي المكارم. وأمّا لقبي بزين العابدين، ووالدي محمد أبو الحسن، تاج العارفين بن محمد، أبي البقاء

[1] جاءت في الأصل[يعلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] جاء في الأصل [مراقي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] في المنح الرحمانية، ص219 "الكلام".

[4] سورة البقرة (2) آية (255). الآية كاملة: (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

[5] هو عبد الله بن أبي قُحافة، أبو بكر الصديق، أوّل من آمن بالرسول عليه السلام من الرجال، توفي عام 13هـ/ 634م، وهو غنّي عن التعريف.

[6] لم يُعثَر له على ترجمة.

جلال الدين، بن عبد الرحمن، بن محمد، بن أحمد، بن محمد، بن أحمد، بن عوض، بن عبد الخالق، بن عبد المنعم، بن يحيى، بن الحسن، بن موسى، بن يحيى، بن يعقوب، بن نجم، بن عيسى، بن شعبان، بن عيسى، بن داود، بن محمد، بن نوح، بن طلحة، بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن أبي بكر الصدّيق. وللفقير نَسَبٌ مُتّصِلٌ برسول الله، صلّى الله عليه وسلم، من جهة أمّ جدّه، وهي السيّدة الشّريفة، الحسيبة، النّسيبة، الحسنيّة فاطمة بنت ولي الله تعالى، السيّد تاج الدّين، السيّد الشّريف عبد المؤمن، بن السيّد الشّريف عبد الملك، بن السيّد الشّريف يَرُحم، بن السيّد الشّريف حسّان، بن السيّد الشّريف سليمان، بن السيّد الشّريف محمد، بن السيّد الشّريف علي، بن السيّد الشّريف محمد، بن السيّد الشّريف عبد الملك، بن السيّد الحَسن[1] المكفوف، بن السيّد علي، بن السيّد الحَسن المُثلِث، بن السيد الحسن المُثَنّى، بن السيّد الحسن السِّبط، بن السيّدة فاطمة الزهراء[2]، وأمير المؤمنين، علي المُرْتضى[3]. وبحمد الله تعالى، جدّي لوالدتي، مِن بني مخزوم، فوالدي من قُريش ثلاثة[4] بيوت[5]: بنو تميم[6]، وبنو مخزوم[7]، وبنو [160ب]

[1] في المنح الرحمانية، ص221 "الحسين".

[2] هي بنت الرسول عليه السلام، وأمها خديجة بنت خويلد. وُلِدَت عام 605م وتوفيت عام 11هـ/ 632م. تزوجت من الخليفة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وأنجبت الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج5، ص329.

[3] هو علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشمي القُرشي، وابن عمّ الرسول عليه السلام، ورابع الخلفاء الرّاشدين. وُلِد عام 600م وأُغتيل على يد "فيروز" أحد الخوارج عام 40هـ/ 661م.

[4] جاءت في الأصل [ثلاث]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] في المنح الرحمانية، ص222 "بنون".

[6] هو بطن من بطون قُريش، يرجع إلى تيم بن مُرّة بن كعب بن لؤي من قُريش، وينتسب إليه الخليفة أبو بكر الصديق.

[7] أحد بطون قبيلة قُريش، وهو نسبة إلى مخزوم بن يقظة بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج8، ص73.

هاشم[1]، ذلك الفضلُ مِن الله. ثمّ والذي فَلَق الحَبّة والنَّوى، وعلى العَرْش اسْتوى، ليس اعتمادي إلاّ عليه، ولا ثقتي إلاّ به. والمَغرورُ مَن طَنَّ على أذْنِ قَلْبه ازدهاء بِحَسَبٍ، فَظَنَّ أنّ ذلك هو مركز الفَخار، ومَحَلّ عُلُوّ[2] المَنار. كلاّ وربّي، إنّما هي مِنَحٌ إلهيّة، وَمِنَنٌ صمدانية، واللهُ تعالى بالمقاصد عليم، ولا حَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. **انتهى ما قاله الأستاذ الجَدّ رحمه الله تعالى.** ولمّا كان الأسُتاذ الجَدّ، عفا الله عنه، في الثامنة مِن عُمره، أجرى الحَقُّ [على لسان][3] والده الشّيخ أبي الحسن في درس التّصوف، بالجامع الأبيض، بِحَضْرةِ جَمّ غفير[4] مِن علماء عصره، فقال: أذِنْتُ لولدي محمد هذا، وكان حاضرًا، أنْ يتكلَّمَ على لِسان القوم، من غير تَهَيّؤ ولا اسْتعداد، ومن خَانَ لا كان. ثمّ قال الأسُتاذ لبعض تلامذته: أتَدْرِي ما معنى، من خَان لا كان؟ قال: لا. قال: فهو راجعٌ إلى الشّيخ صَاحِبُ الدّرس. لأنّ الشّيخ إذا أراد أنْ يذهب إلى دَرْسِ التّصوف، فتخطرُ الكلمةُ بعقله، فَتَحْسُنُ، فتراودهُ نفسهُ أنْ يأتي بها في الدّرس. فإنْ حصلَ ذلك منهُ فتكون خيانة. وهذا مَقامٌ لا يعرفه إلاّ أهْلُهُ. وكانت والدةُ الشّيخ أبي الحَسن البكريّ، والد الأسْتاذ الجَدّ محمد البكريّ، مِن العابدات، القائمات. ومِمّا وقع لها أنّها عَبَدَتِ اللهَ سبحانه [161أ] وتعالى، ثماني عشرة[5] سنة في خلوة فوقَ سَطْح الجامع الأبيض، ما عُهِدَ لها أنّها بَصَقَتْ فوقَ سَطْح المسجدِ حُرمة له. وكانت بينها وبين والدة الأسْتاذ الجَدّ مَودّة عظيمة. ولمّا وُلِدَ الأسْتاذ الجَدّ محمد البكريّ كانت مُجاورة بمكّة، وكان الأسْتاذ وَلَدُها، يُسافر سَنَة إلى

[1] نسبة إلى هاشم بن عبد مناف أحد أجداد الرسول عليه السلام. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج9، ص48049.

[2] في المنح الرحمانية، ص222 "مجلب".

[3] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى. وكذا أيضًا في المنح الرحمانية، ص222.

[4] أي جماعة.

[5] جاءت في الأصل[ثمانية عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

مكّة، ويقيم سَنَة بمِصر. وكانت هَدّيَتُها عنده إذا جاء إلى مكّة رَكْوَةٌ مِن ماءِ زَمْزَم[1]، تملؤها مِن أوّل ثُلْثِ الليل الأخير، وتَضَعُها فوقَ عَتَبَة البيت الشّريف، ثمّ تأخذها وتطوفُ بها مِن ذلك الوقت حتى يَحْمَى ظِلّ[2] الطّواف مِن حَرّ الشّمس، فَتَذْهَبُ بها إلى مَنزلها، وتلاقي بها ولدَها، مولانا الشّيخ أبا الحَسن المَذكور. وقَدِ اتَّفَقَ أنّ في سَنَةِ وِلادة الشّيخ محمد، كانت سَنَة حَج والده المذكور. فحينِ وَصَلَ إلى مكّة لاقته أُمُّه بالرَّكْوَة، فَشَرِبَ منها، وَقَبَّلَ يدها، فقالت: يا أبا الحَسن أَمَةُ القادرِ وَضَعَتْ؟ قال: نعم. قالت: أَمَا وَضَعَتْ ذَكَرًا؟ قال: نعم. قالت: فما سمّيته؟ قال: محمد. قالت: فما كُنْيَتُه؟ قال: أبو المكارم. قالت: يا أبا الحسن، أَمَا وضعتْ في الليلة الفلانية؟ قال: نعم. قالت: والله لمّا وُلِدَ وَلَدُكَ هذا، حَمَلَتْهُ[3] الملائكة إليّ، وقالوا لي: هذا وَلَدُ ولَدِكِ أبي الحسن. وكان ذلك قبل أن لبّسته ثيابه، فأَخَذْتُهُ ولفّفْتُهُ في إزاري هذا، [162ب] وذهبتُ به إلى زمزم، وغسّلْتُهُ من مائها، وسقيتُهُ منها، وطُفْتُ به أسبوعًا، وأتيْتُ به إلى المُلْتَزم[4] ووضعْتُهُ تحت أستار الكعبة، فسمِعْتُ النّداء أنْ كَنّوه بأبي المكارم. ثمّ أَخَذَتْهُ[5] الملائكة[6] مِنّي، وذهبوا به إلى والدته. فقال لها الأستاذ: الحمدُ لله الذي وافقتْ كُنْيَتُنا ما قُلتيه[7]. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ فيما تقدّم مُجْمَلاً. ومن كرامات الأستاذ الجدّ الشّيخ محمد البكري، رضي الله عنه، ما حُكِيَ عن سيّدي

[1] بئر زمزم في مكّة المكرّمة، معروفة ولها قُدسيّتها. حفرها جَدُّ الرسول عليه السلام، عبد المطّلب. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص147-149.

[2] في المنح الرحمانية، ص224 "محل".

[3] جاءت في الأصل[حملوه]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] مكان معروف في الحَرم المكّي الشريف ما بين الحجر الأسود والباب. ويُسمّى أيضًا المَدْعَى والمُتَعَوّذ لإلتزامه الدّعاء والتّعوّذ. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص190.

[5] جاءت في الأصل [أخذه]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[6] جاءت في الأصل [الملايكة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] في المنح الرحمانية، ص225 "قلته".

محمد بن أبي القاسم المالكي الأدفاوي الشّاذليّ[1]، رضي الله عنه، أنه قال: كنتُ سابقًا لم أزل من دأبي وشأني، أن أُنْكِرَ على الشّيخ محمد البكريّ، وأعترضَ على مَن يحضر درسه، وصارت نفسي لم تسمح لي بالحضور لدرسه، لِمَا أرى عليه من كثْرة الملابس الفاخرة، والمواكب الظّاهرة. وطال ما[2] كنتُ أُنْكِر عليه نُكرانًا زائدًا، وكنتُ أحضر مجالس الذّكر عند العارف بالله تعالى، سيّدي محمد الرّنجيهي[3]، رضي الله عنه، [لأنّ مجالس ذِكره كانت قريبة جدًا][4] من حارتي بالأزهر. فصار يقول لي محمد: حضوركم عندي لا ينفعك شيئًا، ولو حصل لك غالبًا منه الفائدة[5]، فإنه ما أبوك في الطرّيق إلاّ سيّدي محمد البكريّ. قال: فكنتُ ألومه على ذِكره لي غالبًا، ولم ألتفتْ إليه، ولا أصغي إليه، إلى [163أ] يوم من الأيام حضرتُ الذّكر بمجلسه. فلمّا فرغ من المجلس، وذهبوا تلامذته، قال لي: يا محمد اخْتَرْتُ الآن أن أذهب بك إلى الشّيخ محمد البكريّ، فإنْ سَمِعْتَ منّي، وذهبتَ معي، حصل لك سعادة الدّارَيْن. قال: فحصل لي طارق في قلبي فطرقني، فأخذ يدي بيده المباركة، وخرجنا من الجامع وذهبْنا. ولم يزلْ يرغبّني فيه، ويمدحه لي، حتى دخلْنا من باب عَتبة داره. فتلقّانا بأحسن المُتَلقّى، وأكرمنا بإكرام الالتقاء، وقال لي بصوت رخيم[6] حسن: أهلاً وسهلاً ومرحبًا. فحَسِبْتُ أنّ سائر[7] جبال الدّنيا صارت على جسمي، حتى كادت نفسي أن تزهق. قال: ولمّا علم منّي ذلك، أرفق بي، ودخل أمامي إلى مَحَلّ جلوسه بالقاعة، ودخلتُ خلفه. فأقْعدني على رُكْبتَيْ، وأخذ عليّ العهد والميثاق، ولقّنني الذّكر،

[1] لم يُعثَر له على ترجمة.

[2] لعلّ المؤرخ قصد [طالما]، وهو أقرب إلى الصّواب.

[3] لم يُعثَر له على ترجمة.

[4] جاءت في الأصل [لأنه كان مجالس ذكره قريبًا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة والمعنى.

[5] جاءت في الأصل [الفايدة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] الصّوت الرّخيم: اللّيّن والسّهل. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "رخم".

[7] جاءت في الأصل [ساير]، والصواب ما ثبت أعلاه.

والْبَسني الخِرقة المباركة، وبثّ فيّ سائر الآداب، وأخْلع عليّ ساعة التّلقين سائر الأخلاق الحميدة، ونزع منّي سائر الأخلاق الذّميمة، وحصل لي ببركاته سعادة الدّارَيْن، وصِرْتُ أحضر غالبًا درسه في بقع صَحْن الجامع، إذا درّس في العالمين[1] فكنتُ أغِيبُ عن وجودي. فقال لي سيّدي محمد الرّنجيهي: ما أبرك هذا اليوم. وكان هذا اليوم عندي، مثل عيد من الأعياد. قال: فألْهَمَني الله تعالى أنْ قُلْتُ [164ب] كما قال شاعر القوم:

أوَلَيْتَنِـــي نِعَمًـــا أبـــوحُ بِشُـــكْرِها وكَفَيْتَنِـــي كـــلَّ الهمـــومِ بأسْـــرِها
فَلأشْـــكُرَنَّكَ مـــا حَيِيـــتُ وإنْ أَمُـــتْ فَلْتَشْـــكُرَنَّكَ أعْظُمِـــي فـــي قَبْرِهـــا

ومن كراماته، رضي الله عنه، ما حكاهُ الشّيخ مدين المقرّي قال: كنتُ أقرأ مِسْكًا مع النّعمانيّ الرئيس، فقرأْنا عند الأستاذ، في القصر الذي بالجامع الأبيض، قبل عِمارته لمنزله المُطِل على بِركة الرّطليّ. وكان الرّيح مُتحرّكًا جدًا، وأهل الإنعام لا يصلح لهم الحظّ بذلك لضرورة أصواتهم. فأشار النّعاميّ إلى الانتقال من المّحل، فسمعَ الأستاذ بذلك، فقال الأستاذ: إنْ يشأْ يَسْكُن الرّيح. فسكنَ في الوقت. ومن كراماته، رضي الله عنه، ما ذُكر عن سيّدي محمد بن أبي القاسم الشاذليّ المالكيّ، أنه قال: كان بالجامع الأزهر رجل مغربيّ، وكان دائمًا يريد الاجتماع على الأستاذ، ويسألني في ذلك، وأنا [أُمْهِلُ][2] به من وقت إلى وقت. فمكثَ على ذلك سنين، لأنه قال لي: لا تجمعني به إلاّ إذا كان الوقت خالياً من الناس. فاقْتَضَتِ الحِكمة الإلهيّة أني توجّهتُ يومًا إلى الأستاذ، وأخذتُهُ معي. فلمّا دخلتُ عليه، وجدتُ المكان خاليًا من الناس، فأخْبَرْتُهُ بالرجل. فقال هَلُمّ به. [165أ] فأخذتُهُ بيدي وأحْضرتهُ إلى بين يديه. فأخرجَ المغربيّ من رأسه ورقة مكتوبة، وأعطاها للأستاذ. فلمّا قرأها، صار يبكي حتى بَلَّ لحيته، فدخلني من ذلك الحَيرة، وقلتُ: ما شاء الله، لا

[1] جاءت في الأصل [العَلمَيْن]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى. والقصد هو: أمام الناس جميعًا، عامّتهم وخاصّتهم.

[2] جاءت في الأصل [أُمْحِلُ]، والصواب ما ثبت أعلاه.

حَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله. ثمّ إنّ الأستاذ أشار بيده فغاب الرّجل عن عيني، [فاحْتَرْتُ][1] في أمري، فناولني الأستاذ الورقة، فإذا فيها أنواع القبائح في حقّ الأستاذ. ثمّ إنّ الأستاذ، رضي الله عنه، قال لي: لا تذكرْ هذه الورقة ما دُمْتَ حيًّا. ومن كراماته، رضي الله عنه، أنّ رجلاً يُسمى، الشّيخ محمد الحريري[2] بن الشّيخ أبي بكر، بوّاب مَحَفّة الشّيخ أبي الحسن البكري، وولده الشّيخ محمد البكري المذكور، فوق العشرين سنة، وهو[3] أنّ رجلاً كان اسمه الشّيخ سليمان، إمام جامع طولون[4]، وكان من عباد الله الصالحين، وكان والده أيضًا من العلماء العاملين، وبيتهم بيت العِلم والصّلاح. وكان سليمان هذا مِمّن أخذ العهد على الأستاذ، رضي الله عنه، وكان من أكبر المُعتقدين فيه. فنام ليلة من الليالي، وإذا به يرى الشّيخ محمد الحريري، في مَحَلّه الذي في مجرى الحصى، بين مصر القديمة وجامع طولون، في وسط الكِيمان[5]، والشيخ محمد هذا، خادم سيّدي زين العابدين[6] الذي هناك، وإذا بالمَحَلّ اتّسعَ اتّساعًا عظيمًا، وأمْطَرَت [166ب] السّماء مطرًا عظيمًا، وإذا بالمطر كلُّه قمح، والشّيخ محمد واقف يجمع ذلك القمح، ويخزّنه كالأهرام من كثرته. فقال له الشّيخ سليمان: يا شيخ محمد، أعْطِنا من القمح قبل أن تُفَرّقَ على الناس. فقال له: كيف أعطيك منه من غير إذْن؟ وإذا بالشّيخ سليمان يسمع مناديًا بين

[1] جاءت في الأصل [فتحيّرتُ]، ولعلّ الصواب ما ثبت أعلاه.

[2] لم يُعثَر له على ترجمة.

[3] جاءت في الأصل [وهي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] هو جامع أحمد بن طولون، أحد جوامع القاهرة القديمة، بناه أحمد بن طولون عام 265هـ/ 1296م. راجع: مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج4، ص96-102.

[5] الكيمان: أوالأكوام: هو المكان الخرب المتهدّم والحاوي لأنقاض وأكوام من التراب.

[6] هو علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. وهو رابع الأئمة الأثني عشر عند الإماميّة. وُلِد في المدينة المنورة عام 38هـ/ 658م، ومات فيها عام 94هـ/ 712م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج5، ص86.

السماء والأرض، هذا من رزقة[1] أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، التي في السّماء. فقال له الشّيخ محمد: كيف أعطيك منه بغير إذْن ولده الشّيخ محمد البكريّ؟ ففاق من نومه، وكتب ورقة للشّيخ محمد الحريري يُبشّره بهذه البِشارة، وهي أنه الوكيل على ما نزل من هذه الرّزقة التي في السّماء، لأبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه. ثمّ إنّ الشّيخ سليمان توجّه إلى الأستاذ، فبِمُجَرّد وصوله إليه، وسلامه عليه، وضع الأستاذ يده في يد الشّيخ سليمان، ودفع إليه خمسة دنانير، وقال له في أُذنه: هذه من رزقة أبي بكر الصدّيق التي في السّماء. فقبّل الشّيخ سليمان يد الأستاذ، وحكى له المنام. ثمّ إنّ الشّيخ محمد بعد ذلك جاء بالورقة التي أرسلها الشّيخ سليمان فقال: يا سيّدي، أتأْذنُ لي أن أُعطي للشّيخ سليمان مِمّا وصل إلينا من رزقة أبي بكر الصدّيق التي في السّماء؟ فقال له: أذِنْتُ لك. فاكْتَالَ الشّيخ محمد إردبًّا من القمح [167أ] من عنده، وأرسله للشّيخ سليمان، فَرَحًا بهذه البِشارة، وبإذْن الأستاذ له بالإعطاء، وأنه وكيل الأستاذ في التّفرقة. وكراماته لا تُحصى وعلى أحد[2] لا تُستقصى. وقد جعلت، له ترجمة خاصّة به، ذكرتُ فيها غالب كراماته وأنفاسه الرّحمانيّة، سَمّيْتُها: "**الكوكب الذي في مناقب الأستاذ البكري**"، رضي الله عنه، وأدْخَلَنا والمسلمين في زُمرته، بجاه سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم.

[1] أي رزق.

[2] جاءت في الأصل [حَدّ]، والصواب ما ثبت أعلاه.

المقصد الثالث عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان محمد[1] بن مولانا السلطان مُراد. جلس على تخت المُلك في سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف[2]، وتوفي في يوم السّبت سادس عشر رَجَب سنة اثنتي عشرة[3] وألف. وكانت مُدّة سلطنته ثمان سنين وأحد[4] عشر شهرًا. وكان مَلِكًا مُهيبًا، ماجدًا، أديبًا، جوادًا، سخيًّا، سريًّا، سنيًّا، عالي الهمّة، كاشف الغُمّة، جليل القَدْر، تامّ الشّكل، واسع الصّدر، خفيف الرّكاب، واسع الجواب، مُظَفَّرٌ في الوقائع والحروب، يملأ[5] العيون، ويُرجِف القلوب، طاهر السجيّة[6]، قريب إلى الرّعيّة، مُثمر الأجنان[7]، مُؤْثر للعَدل والإحسان، حَسن الأخلاق، كريم الأعراف[8]، شُجاع مقدام، وافر الإحسان والإنعام. قَتَلَ في يوم ولايته [168ب] المُلك جميع إخوته، وكانوا تسعة عشر ولدًا، أكبرهم مولانا السلطان مصطفى، وكان عمره أربعة وعشرين سنة، وأصغرهم دون الخمسة سنين. وكان يوم خروجهم إلى الدّفن يُفَتّتُ الكبود، وبكتْ أهل إسطنبول لهذه العِبرة العظيمة. وكان لمولانا السلطان محمد، آغا يُدعى قزنفر آغا[9]، وكان قزلار آغاسي[10] بالسرايا، وله

[1] هو السلطان الثالث عشر من آل عثمان. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج4، ص216-222.

[2] 1003هـ/ 1595م.

[3] جاءت في الأصل [عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. 1012هـ/ 1603م.

[4] جاءت في الأصل [إحدى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] جاءت في الأصل [يملو]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] الطّبيعة والخُلُق. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "سجا".

[7] في المنح الرحمانية، ص247 "الأفنان".

[8] في المنح الرحمانية، ص247 "الأعراق".

[9] لم يُعثَر له على ترجمة.

[10] في المنح الرحمانية، ص248 "آغا". وقزلار آغا بالسراي: أي آغا النساء أو آغا دار السعادة. وهو الموظف الرئيسي لقصر السلطان وفي المركز الثالث بعد السلطان والصدر الأعظم. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 248.

أيضا آغا يُدعى عثمان آغا. وكان قبّي آغا[1] بالسرايا، وكانا مُتَصَرِّفَيْن عند مولانا السلطان محمد رحمه الله، فتشوّشت العساكر الرّوميّة منهما، فقاموا على حضرته الشّريفة، وذلك بإغراء المفتي صنع الله أفندي[2]. وقالوا لا بُدّ مِن قَتْلِ الآغتَيْن المذكورَيْن. فسلّمهما لأجل إخماد الفِتنة، فقُتِلا. وفتح بنفسه الشّريفة مدينة أكري[3]، بعد قِتال شديد بينه وبين طائفة الكُفّار، وانهزمتْ عساكر المسلمين، ثمّ تدارك الله بلُطْفه وفتحها. وكان ذلك في ثاني سنة من مُلكه، ورجع إلى الدّيار الرّوميّة مؤيّدًا منصورًا، وبالخيرات مجبورًا. وفي زمنه ظهرت الخوارج بِجِهات حَلَب، فمنهم حسين اليازجي[4]، الذي كان يبكلربيك بالجيش، وفي زمنه ناصف باشا[5] متوليًّا مدينة حَلَب فعزله، وَوَلّى ابن جنبلاط[6]، ثمّ بعد ذلك ولّى ناصف [169أ] باشا عوض، ابن جنبلاط، فلم يُمَكّن ابن جنبلاط ناصف باشا من حَلَب. فوقع بينهما النّزاع الذي أدى بابن جنبلاط إلى العِصيان، وأخذ قَلعة حَلَب وادّعى

[1] هو قبّي آغاسي أو موظف الباب، وهو عبد مخصيّ يشرف على شؤون الحريم في قصر السلطان. راجع: الصبّاغ، المرجع السابق.

[2] هو صنع الله بن جعفر، وكان فقيهًا في بلاد الرّوم، وقاضيًا في القسطنطينية. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص256-259.

[3] هي قلعة "كريزتيس"، تقع شمالي بلاد المجر. راجع: Creasy,p. 235-236.

[4] يبدو أنه هو "عبد الحليم اليازجي"، كما تقول ليلى الصبّاغ اعتمادًا على ما أورده المحبي في خلاصة الأثر، ج2، 322. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص248.

[5] ويُقال له أيضًا "نصوح باشا"، أصله من "درمه" من بلاد روم إيلي. خدم في حرم السلطة الخاص، ثمّ صار من المتفرقة، ثمّ أمير آخور وبعدها كفالة حَلَب. تزوّج من ابنة السلطان إلاّ أنّ ذلك لم يشفع له، حيث قتله السلطان عام 1023هـ/ 1614. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج4، ص448، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص250-251.

[6] في المنح الرحمانية، ص250-251 "جان بلاط". وهو حسين باشا جانبولاذ الكردي. في بداية أمره كان من المتفرقة، وتولّى إمارة كلّز بعد أبيه. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص251، والمحبي، خلاصة الأثر، ج2، ص84-87.

السلطنة، ونهب جميع تُجّارها، بحيث أنه أفقرهم. وقبل موت مولانا السلطان محمد، بَلَغَهُ عن ولده مولانا السلطان محمود، وهو أكبر أولاده بعض أمور تتعلّق بالمُلك، فأرْسَلَ إليه وأحضرهُ[1] وقال له: مالك تدخل في أمر المُلك؟ فأجابه بجواب ما أرضاه. فضَرَبَهُ والده مولانا السلطان محمد، بخنجر فقتله. وكان عمره نحو الثماني عشرة[2] سنة، وندم على قَتْلِهِ غاية النّدم، ومرض بعدها مُدّة يسيرة. ومِمّا قيل عن مولانا السلطان محمد، أنه قبل موته بثلاثة أيام، جمع سائر الوزراء، والمفتي، وقضاة العساكر، وسائر أكابر الدولة عنده، وقال لهم: أُشْهِدُكم عليّ أني عَهِدْتُ لولدي أحمد بالمُلك من بعدي. فأجابوا جميعًا بالإمتثال لأمْره الشّريف. فأحضر مولانا السلطان أحمد، وأوصاه بحضرتهم أنْ تكون جَدّته[3] في أسكي سرايا[4]، ولا يقبل لها قولاً، وقال له أيضًا: لا تقتل أخاك مصطفى[5]، ولا تجعل وزيرك إلاّ علي باشا بيكلربيك مصر. ثمّ قال للجماعة ولولده[6]: إنْصَرِفوا. ولمّا توفي مولانا السلطان محمد، اجتمع أهل [170ب] السّرايا وأرسلو إلى[7] القاسم باشا[8]،

[1] جاءت في الأصل [أحضره]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[2] جاءت في الأصل [الثمانية عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] هي السلطانة صفيّة من أصل "بندقيّ"، حيث كان لها دور كبير في إيصال ابنها العرش بعد وفاة أبيه مُراد الثالث. وقد كانت هي الحاكمة الفعلية في البلاط السلطاني وخلال حُكم ابنها محمد الثالث. راجع: Creasy, p. 230-233.

[4] أي السرايا القديمة.

[5] بسبب أنه متخلفًا عقليًا. راجع: Creasy,p 238.، والصبّاغ، المنح الرحمانيّة، ص253.

[6] جاءت في الأصل [ولده]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى. وفي المنح الرحمانية، ص253 سبقها كلمة "المذكورين".

[7] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى. وكذا ثابتة في المنح الرحمانية، ص253.

[8] هو علي قاسم باشا السلحدار. أصبح واليًا على مصر عام 1010هـ/ 1601م وعُزِل عام1013هـ/ 1604م، وقد أصبح صدرًا أعظم في عهد السلطان أحمد عام 1013هـ/ 1604م. راجع: شلبي، عبد الغني، أوضح الإشارت، ص127.

القائم مقام الوزير الأعظم، ولأغاة الينجرية، وللمفتي. فلمّا اجتمعوا في السّرايا، خرج عليهم مولانا السلطان أحمد، وأعلمهم بموت والده. فقبّلوا يده الشّريفة، وبايعوه، ودعوا له أجمعين. [وفي][1] زمن مولانا السلطان محمد، رحمه الله تعالى، توفي والدي رحمه الله تعالى، وهو شيخ الإسلام، علاّمة الأنام، ذو المفاخر، الجامع لكل مآثر، مَن فاق في الفضل على أقرانه، وتميّز على أهل زمانه، المُفسّر المُدقّق، والفقيه المُحقّق. كان ذا ذهن سيّال، وفِكر إلى حَلّ الغوامض ميّال، قد أكَبّ على الاشتغال، وطلب من العلم ما هو نفيس وغال، وناظر، وجادل، وحاول الخصوم وعادل. قد تبحّر في العربية وأتقنها، وحرّر قواعدها ومكنّها، واسْتطال بالأصول[2]، وأرهب منها الأسنّة والنّصول. وأمّا التّفسير، فكان يستحضرُ مِن بحاره الزّخارة، كلّ مهمّة، ومن كوكبه السّيار كلّ حوادث الظُلمة. وكان يكشف أسرار الكشّاف[3]، وهو لِمَا فيه من أمراض الاعتزال[4] كشّاف. يدري[5] دقائقه، ويُفري حقائقه، وحديثه، ما يدع للخطيب[6] درجة، ولا ألمّ ابن عساكر[7] به ولا خرّجه، وأمّا

[1] جاءت في الأصل غير واضحة، وزيدت لسلامة المعنى.

[2] أي أصول الدين والحديث والفقه.

[3] وهو كتاب "الكشّاف عن حقائق التنزيل" في التفسير للمفسّر محمود بن عمر الزّمخشري المتوفي عام 539هـ/ 1144م، وهو معتزلي شديد الإنكار على المتصوّفة. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج8، ص55.

[4] أي مبادئ المعتزلة. وهي فرقة إسلاميّة دينيّة، عملت على استعمال الحجج العقلانية المنطقية في المعتقدات الدينية. من آرائها: حريّة الإرادة والتوحيد وخَلْق القرآن والمنزلة بين المنزلتين والعدل. راجع: حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص 140-144.

[5] أي على عِلم ومعرفة ودِراية.

[6] ويقصد المؤرخ بالخطيب البغدادي. وهو أحمد بن علي بن ثابت، وُلِد في بغداد عام 392هـ/ 1002م وتوفي فيها عام 463هـ/ 1072م. له عدّة مؤلفات، أشهرها تاريخ بغداد. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج1، ص167.

[7] ابن عساكر: هو علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم، وُلِد في دمشق عام 499هـ/ 1105م وتوفي فيها عام 571هـ/ 1176م. مُحدّث ومؤرخ معروف، ومن مؤلفاته: " تاريخ دمشق الكبير". راجع: الزّركلي، الأعلام، ج5، ص82.

الخلاف ومذاهب السّلف، فذاك عشّه الذي منه دَرج، وغابة لَيْثِهِ الذي ألّف ودخل وخرج. وكان في [171أ] علم التّصوف[1] إمامًا، وفي فَنّهِ لِمَن تقدّم إمامًا. وكان بفنّ الكلام عارفًا بغوامضه بين الأنام، لو رآه ابن فورك[2] لانْفَرَك[3]، أو الباقلاني[4] لقلا[5] معرفته، ووقع معه في الدَّرَك[6]، أو إمام الحرمَيْن[7] لتأخّر عن مقامه، أو الغزالي[8] لما نسج المستصفى على منواله، أو ابن الحاجب[9] لحَمل العصا أمامه، وجعله دون الناس إمامه، مع سلامة باطنه

[1] التّصوف: هو العِلم الذي يوصل صاحبه إلى الحق وذلك عن طريق العكوف على العبادة والانقطاع إلى عبادة الله عن كلّ ملذات هذه الدّنيا وزخارفها. راجع: ابن خلدون، المقدّمة، ص467-475.

[2] ابن فورك: هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني أبو بكر المتوفي عام 406هـ/ 1015م. من فقهاء الشافعية، وهو عالم بالأصول والكلام. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج6، ص313.

[3] أي لتضاؤله وقلّة مكانته. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "فرك".

[4] هو محمد بن الطيّب بن محمد بن جعفر أبو بكر الباقلاني، من علماء الكلام. وُلِد في البصرة عام 338هـ/ 950م وتوفي في بغداد عام 403هـ/ 1013م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج7، ص46.

[5] أي: كَرِهَ وبغضَ وهجرَ. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "قلى".

[6] أي: أقصى قَعْر الشيء. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "دَرَك".

[7] هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقّب بإمام الحرمَيْن. وُلد في جُوَيْن من نواحي نيسابور عام 419هـ/ 1028، رحل إلى بغداد ومكّة والمدينة، وتوفي عام 478هـ/ 1085م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج4، ص306.

[8] هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، فيلسوف ومتصوّف. وُلِد عام 450هـ/ 1085م، ورحل إلى نيسابور وبغداد والديار المقدّسة والشّام ومصر وعاد إلى بلده وتوفي فيها عام505هـ/ 1111م. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج7، ص247.

[9] هو عثمان بن عمر بن أبي بكر أبو عمرو جمال الدين بن الحاجب، فقيه مالكي ومن كبار علماء اللغة. من مواليد مصر عام 570هـ/ 1174م وتوفي فيها عام646هـ/ 1249م. من تصانيفه الشّهيرة: جامع الأمهات، والشافعيّة، والكافية. راجع: الزّركلي، الأعلام، ج4، ص374.

تنفعه يوم حشره، وديانة ادّخرها[1] الحافظان[2] له ليوم نشره. وهو أوّل مَن لُقِّبَ بإفتاء السلطنة الشّريفة بالديار المصريّة، وتخوتها اليوسفيّة. ولم يزلْ رحمه الله على ذلك، إلى أن حَلّ به الحِمَام[3]، وبكى عليه حتى الحَمَام، وذلك في ليلة الاثنين الثامن من ربيع الثاني ستة سبع وألف[4] من الهجرة النّبويّة، على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام، عن ست وثلاثين من عمره، نفعه الله بصالح عمله، يوم حَشْرِه ونَشْرِه. وكان عمري إذ ذاك تسع سنوات، لا زال غارقًا في الرّحمة والخَيرات. **ومن تآليفه، تغمّدهُ الله برحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جِنانه، تفسير القرآن العظيم في أربع مُجلّدات لم يُبَيّض، وتفسير سورة الأنعام في مُجلّدَيْن، وتفسير سورة الكهف في مُجلّد كبير، وتفسير سورة الفتح في مُجلّد كبير، ورسائل عديدة، رحمه الله** [172ب] بمنّه وكرمه. ومن شعره، أسكنهُ الله الفردوس الأعلى، مادحًا سيّدنا ومولانا، شيخ الإسلام سعدي أفندي[5] مفتي، الدّيار الرّومية في الدولة المُحَمّديّة العثمانيّة:

يــا ســائقًا نحــو طِـلاب المَجْــدِ يَجِـدُّ في السّـيرِ جـواد الجسـدِ[6]
إنْ رُمْــتَ عــن آمالــه مِــن حــدِّ وســؤددٍ بــه تــوالي القَصْــدِ[7]

فالسّعدُ أنْ تسعى لباب سعدِ

ذاكَ الإمــامُ العــالِمُ النّحريــر مِــن دونِ عليــاه تــرى الأثيـرِ

[1] في المنح الرحمانية، ص268 "طواها".

[2] الملكان المُكلّفان بتسجيل حسنات وسيئات الإنسان.

[3] أي قضاء الموت وقَدَرُه. راجع المعجم الوسيط، مادّة حمم".

[4] 1007هـ/ 1598م.

[5] هو محمد بن حسن جان، ويُدعى سعد الدين التبريزي. وُلِد في القسطنطينية وتوفي فيها، وهو مُعلم السلطان مُراد بن سليم الثاني وابنه محمد. توفي عام 1008هـ/ 1599م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص418.

[6] في المنح الرحمانية، ص270 "الجدّ".

[7] جاءت في الأصل [تولي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

كَـمْ مَبْحَـثٍ مِـن فَهْمِـه يسـير[1] بمنطـــق بديعـــه يثيـــرِ

مُنَظّم كلؤلؤٍ في عِقـدِ

تفســـيرهُ الكشّـــافَ للمعـــالمِ عُلُومُـــهُ كافيـــةٌ للعـــالَمِ

فَخْـرُ الـوَرَى للـدُّرِ خَيـرُ نـاظمِ بـه جمـالُ العُـرْبِ والأعـاجمِ

علاَّمة لهُ العلومُ تَهْدِي

تصـريفُهُ الفِعْـلَ مِـن المصـادِرِ ألفاظُـهُ شـافيةُ الخـواطِرِ

ميزانُهـــا لِلْكَلِـــمِ الظّـــواهرِ لأوّلٍ وَوَسِـــطٍ[2] وآخـــرِ[3]

خِلافُها جوابُها بالرَّدِ

قُطْـبٌ بَـدا بِطَلْعَـةٍ شَمْسـيّةْ مِيـزانُ أفكـارٍ قِـوىً نُطْقِيّـةْ

مُبَيّنًـــا قواعـــدًا كُلّيّـــةْ تُحقِّـــقُ الإنْتـــاجَ للقَضِـــيّةْ

[173أ] مِن كُلِّ شَكْلٍ صَحُّهُ بالحَدِّ

يـا عالَـمًا فـي عَصْـرِنا ومُفْـرَدُ لِـدِينِنا فـي دَهْرِنـا مُجَـدِّدُ[4]

تُشَـــدُّ أرْكانًـــا لـــه تُشـــيَّدُ لَـــوْ أنَّنِـــي صِـــفاتِكم أُعَـــدِّدُ

ضاقتْ طُروسٌ عَن مَدا وحَدِّ[5]

لَكِـنَّ ذا[6] العبـد مـع القُصـورِ يَبْـذُلُ جُهْـدَ جُهْـدِهِ المَقْصُـورِ

تشـــرُّفًا بِخِدْمَـــةِ الكبـــيرِ عسـاهُ يَجْـرِي منـهُ في الضَّميرِ

[1] جاءت في الأصل [يثير]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[2] جاءت في المِنح الرّحمانية ص 271 "وأوسط".

[3] جاءت في الأصل [ءاخر]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل [يجدّد]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[5] في المنح الرحمانية، ص272 "مِداد مدّي".

[6] في المنح الرحمانية، ص272 "لكنّني العبد" بدون كلمة "ذا".

أنَّ فُلانًا في الأنامِ عبدي

هــذا وكَــمْ سَــرْبَلَني إحســانًا أخَــذَ مِنّــي بِعِــزِّهِ الزَّمانــا
أخْضَــعَ لِــي بِمِصْــرِنا الأقــرانَ حتى سَـبَقْتُ مِنـهُ مَـنْ دَانانـا[1]
فصارَ مِثْلَ مُوَثَّقًا بالقَيدِ[2]

قلَّــدَنِي الإفْتــاءَ مِــنَ الخليفــةْ بَلَّغَنــي مَراتِبًــا مُنيفــةْ
أَلْبَسَــنِي مِــنْ مَجْــدِهِ تَشْــرِيفَهْ أَدْخَلَنِــي ظِلالَــهُ الوَرِيفَــهْ
أَهَلَّنِي عِزًّا بأَعْلَى نَجْدِ

قَــدْ صَـحَّ أَنِّـي لَكُـمُ مَحْسُـوبُ وَعائــذٌ بِبَــابِكُمْ مَنْسُــوبُ
بِــذا قــدْ تَــمَّ لِــي المَطْلُــوبُ وَكُـلُّ مَـنْ أَدْعُـوهُ لِـي يُجِيـبُ
مِنْ عِزَّةٍ أوْ رِفْعَةٍ أوْ مَجْدِ

أدْعُـوكَ كَـيْ تُـتِمَّ لِي المَقاصِـدا وَتَقْمَــعَ المَــانِعَ والمُعَانِــدا
[174ب] وَمَنْ أطَاعَ عَاذِلاً وَحَاسِدًا وَظَـنَّ مَـا لِي نَاصِـرًا مُسَـاعِدا
كيفَ وَنَصْرِي حَاصِلٌ مِنْ سَعْدِ[ي][3]

لا زِلْــتَ عِــزًّا لِلْمَــوَالِي تاجًــا تُبْـدِي لَنـا إلى الهُـدَى مِنْهَاجَـا
مُهيِّجًــا إلــى العُلَــى دِيبَاجًــا[4] تُبْــدِي بِمَــرْآكَ لَنــا سِــرَاجَا
تُضِيءُ نُورًا لِلْوَرى وَتَهْدِي

[1] في المنح الرحمانية، ص272 "دانا".

[2] جاءت في الأصل [موثق بالقد]، والصواب ما ثبت أعلاه. وكذا أيضًا في المِنح الرّحمانية ص272.

[3] الياء ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة المعنى.

[4] في المنح الرحمانيّة، ص273 "نهّاجا".

المقصد الرابع عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان أحمد[1]، بن مولانا السلطان محمد. جلس على تَخْتِ المُلك في يوم الأحد سابع عشر رَجَب سنة اثنتي عشرة[2] وألف[3]، وتوفي في يوم الأربعاء ثالث عشر ذي القِعدة الحرام سنة ست وعشرين وألف[4]، ومولده في سابع عشر رجب سنة تسع وتسعين وتسعمائة[5]. وكانت مُدّة سلطنته أربع عشرة[6] سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام. وكان رحمه الله تعالى، من أجَلّ ملوك آل عثمان في الشّجاعة، والتّدبير لأمْرِ الرّعيّة، والاشتغال بأمْر المملكة. فأوّل ما بدأ به، أنه أرْسَلَ وزيره الأعظم علي باشا، إلى جِهة المَجَر بالعساكر الإسلامية، فماتَ رحمه الله، وهو مُتوجّه إلى المَجَر، فصار محمد باشا[7]، الذي كان في رميلي، سردار للعسكر. ثمّ [175أ] بعد ذلك أوقع الصّلح المرحوم مُراد باشا، بين حضرة مولانا السلطان أحمد، وبين المَجَر، على مُدّة عشر[8] سنين، ودخل إلى الدّيار الرّوميّة بِرُسل الكُفّار، ومعهم أنواع الهدايا، والتّحَف، فَقَبِلَ مولانا السلطان أحمد ذلك، وكفى اللهُ المؤمنين القِتال. ثمّ شرع رحمه الله تعالى في قطع دابر الجلاليّة[9]، فقطعهم عن

---

[1] هو السلطان الرابع عشر من آل عثمان. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص223.

[2] جاءت في الأصل [اثني عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] 1012هـ/ 1603م.

[4] 1026هـ/ 1617م.

[5] 999هـ/ 1591م.

[6] جاءت في الأصل [أربعة عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] هو محمد باشا البوسنويّ، كان من جماعة الحَرَم الخاص بالسلطان، ثمّ أمير آخور، ثمّ ضابط الجند، وحصل على رُتبة الوزارة، ثمّ الصدر الأعظم عام 1013هـ/ 1604م. توفي عام 1015هـ/ 1606م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج4، ص288.

[8] في المِنح الرحمانية، ص281 "عشرين"، وهو الأقرب للصواب. راجع: Creasy,op. cit P239-240.

[9] هي فئات من الجُند غير النظاميين "الجُند السّكبان" الذين انتشروا في الأناضول في أواخر القرن السادس عشر للميلاد، حيث عاشوا على السّلب والنّهب وإجبار الناس على دفع الجزية لهم. وترجّح الصبّاغ أن اسمهم

آخرهم، وأخذ حَلَب من يد ابن جنبلاط[1] وولاّهُ باشويّة في جِهة رميلي. ثمّ بعد ذلك قتله بذنب ظاهر حصل منه، وصارت جِهات حَلَب أعْمَرُ ما يكون، وذلك بعد إزالة الجلاليّة، وقتل من الوزراء الصّدور جانبًا. وكان كلمّا قتل منهم أحدًا، وضع عمامته في الكِشْك الذي يقعد فيه الوزراء ليعتبر بذلك بقيّة الوزراء. وكان أجلّ مَن قَتَله منهم ناصف باشا، وهو آخرهم فَتْكًا[2]، وسبب قَتْله أنَّ جماعة حملوا لمولانا السلطان مكاتيب، ادَّعوا أنه كتبها لِجِهة العَجَم، فيها التّحريض لهم على عدم الصّلح والتّلويح بمساعدته لهم. فحين قرأها مولانا السلطان أحمد، أرسلَ خَلْف بعض الوزراء، وأمَره يفعل وليمة لجماعة ناصيف باشا بأسرهم. وكان ناصف باشا متمرّضًا إذ ذاك، فجاءت[3] جماعة ناصف باشا بأجمعهم إلى الوليمة. فحين[176ب] خلا محلّه مِن أتباعه، أرسل مولانا السلطان أحمد جماعة القبجيّة[4] لِناصف باشا ليقتلوه، فاسْتأذنوا في الدخول، فقال لهم بعض الأغاوات: ما يمكن الاجتماع به؟ فقالوا: لا بُدّ مِن ذلك. فدخلوا عليه وليس عنده أحد، وأظهروا أمْرَ مولانا السلطان أحمد بِقَتْلِه، فقال: ما يمكن أنْ تجمعوني بمولانا السلطان؟ فقال[5] القبجيّة: ما لذلك سبيل. [فقال][6] لهم: أمْهِلُوني أُصلّي ركعتَيْن. فقالوا: لك ذلك.

جاء على إثر ثورة سياسية دينية قام بها الشّيخ جلال عام 925هـ/ 1519م. راجع: الصبّاغ، المِنح الرحمانية، ص281-282.

[1] هو علي بن أحمد بن جان بلاط الكردي، وابن أخ حسين جان بلاط الذي سيطر على ولاية حَلَب ثمّ انتهى أمره بالقتل. وقد ثار علي على الدولة العثمانية بحجة الثأر لعمّه. وكانت نهايته أن قتله السلطان مُراد باشا عام 1020هـ/ 1611م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص135.

[2] في المِنح الرحمانية، ص282 "قَتْلاً".

[3] جاءت في الأصل [فجاءوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] القبجيّة أو القابوجيّة: مفردها قابوجيّ، وهم حُجّاب الباب العالي. راجع: النهروالي، الإعلام، ص79.

[5] جاءت في الأصل [فقالوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[6] ساقطة في الأصل، زيدت لسلامة السّياق.

فقام وتوضّأ، وصلّى ركعتَيْن. ثمّ لمّا فرغ خنقوه على سجّادة الصّلاة. ثمّ ذهبوا إلى مولانا السلطان أحمد، وأخبروه بذلك. فقال: إيتوني به، فجاءوا له به. ثمّ أمر بعوده ودفنه. وكان الواسطة في قَتْل ناصف باشا المذكور، مولانا السلطان محمد أفندي بن الخوجة[1] مفتي الديار الرّوميّة. ثمّ ولّى مولانا السلطان الوزارة العظمى بعده لمحمد باشا[2]، زوج ابنته، الذي كان بيكلربيكًا بمصر، ومُزيل الطُّلْبة منها. وجهّزه بالعساكر إلى بلاد العَجَم، وأرسل أيضًا أخْذَ عسكرًا من مصر نحو ألف نفس. فعند وصول الوزير المذكور إلى بلاد العَجَم، وقع المصاف[3] بينه وبين عسكر العَجَم، وكانت الهزيمة على العَجَم. فحين رَأتِ الأعاجم ذلك، أرسلوا أمالوا أتباعه، فحصل منه التّواني، فوقع [177أ] الاختلال، وقُتِل من عسكر مولانا السلطان أحمد جانب كبير، وعاد بلا فائدة تحصل. فغضب عليه مولانا السلطان، وأراد قتله كما فعل بِمَن قبله، فبواسطة أُمّ زوجة الوزير عفا عنه مِن القَتْل، بشرط جلوسه في أُسكدار. وكان مولانا السلطان أحمد مُحِبًا لأهل الحَرمَيْن الشّريفَيْن. ففي ثالث سنة من مُلْكِهِ كسى البيت الشّريف من داخل، وكذلك فعل بالحُجرة الشّريفة المنّورة[4]، وكسا[5] أضرحة جميع سُكّان البقيع[6]، وسُكّان المَعْلاة[7]. وكان

[1] في المِنح الرحمانية، ص284 "الخوجا"، وهو محمد بن محمد سعد الدين بن حسن جان الشهير بابن الخوجه، مفتي السلطنة ورئيس علمائها. توفي عام 1024هـ/ 1616م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج4، ص168.

[2] هو محمد باشا المعروف باسم "قول قران"، تولّى مصر عام 1016هـ/ 1607م، وعُزل عنها عام 1020هـ/ 1611م. وقد اشتهر برفع وإلغاء المظلمة أو الضّريبة التي فرضها الإسباهية على الفلاحين من غير وجه، وقد كانت تُسمّى "الطّلبة". راجع: عبد الرحيم، كَشْف الكَرْبة في رَفْع الطُّلْبة، ص 311.

[3] أي حان وقت النّزال واللقاء في المعركة.

[4] هي الحُجرة التي دُفِن فيها الرسول عليه السلام.

[5] جاءت في الأصل [كسى]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] هو مدفن أو مقبرة أهل المدينة المنّورة.

[7] هو مدفن أو مقبرة أهل مكّة.

أراد، رحمه الله تعالى، أن يجعل حِجارة الكعبة الشّريفة ملبّسة، واحدة بالذّهب وواحدة بالفِضّة، فمَنَعَهُ من ذلك المفتي مولانا محمد أفندي، وقال: هذا يُزيل حُرْمَة البيت، ولو أراد الله سبحانه وتعالى، لَجَعَلَهُ قِطعة من الياقوت. فكَفّ عن ذلك، وجعل ثلاث مناطق من الفِضّة المُحّلاة بالذّهب، داخل الكعبة الشّريفة، صَوْنًا لها من الهَدْمِ. وأنشأ وقْفًا من قُرى مصر على خُدّام الحَرَمَيْن المكّي والمدنيّ، لأجل أن تُصْرَف علوفة[1] لخِدمة[2] السّنة كاملة، لأنّ في القديم ما كان يُصرف لهم إلاّ على حُكم النِّصف. فجزاهُ الله تعالى عن قصده خيرًا. وفي سنة أربع وعشرين وألف[3]، أرسل شبابيك من الفِضّة المُحّلاة بالذّهب للحُجرة [178ب] الشّريفة، وَفَصَّ ألماس، قيمته ثمانون ألف دينار، ليجعل فوق الكوكب الدّريّ[4]. وأنْ تُرْسَلَ[5] إليه الشبابيك القديمة، ليجعلها في مَدفنه الذي أنشأه بالدّيار الروميّة، لأجل التّبرّك. فاعْتَرَضَ عليه المفتي في فِعْل الشبابيك، فقال: نُرسلها من البحر، فإنْ كان النّبي، صلّى الله عليه وسلم، يقبلها، فهي تصل سالمة من غير غرق، وإلاّ فتغرق في الطريق. فأرسلها في البحر إلى إسكندريّة، فوصلتْ سالمة. ثمّ أرسلها في البحر من مصر إلى المدينة، فوصلتْ سالمة من غير أدنى مَشَقّة. وكذلك أمَر أن يفعل بالشّبابيك القديمة، تُرْسَلُ إليه من البحر أيضًا، فوصلتْ إلى إسطنبول من غير أدنى مَشَقّة، فجعلها في مَدْفَنِه كما أراد.

[1] أي: مُرتّب شهريّ أو سنويّ. وجَمْعُها "علوفات".

[2] جاءت في الأصل [الخدمة]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[3] 1024هـ/ 1615م.

[4] هو مسمار من الفضّة مُمَوّه بالذّهب، في رُخامة حمراء، وقد وُضِعَ تجاه الوجه الشّريف في الجدار، ومن استقبله كان قد استقبل الوجه الشّريف. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص289.

[5] في المِنح الرحمانية، ص286 "يرسل".

وفي شوّال سنة ست وعشرين وألف[1]، أرسل أمَر أحمد باشا[2] بيكلربيك مصر، بأن يُرسل مِقداراً من الخزينة لأجل عِمارة الحَرَم المدنيّ، على حُكم الحَرَم المكّي. فامْتَثل أمْره الشّريف. ومات مولانا السلطان أحمد، رحمه الله، قبل الشّروع في ذلك. فانْظُرْ إلى هذا القَصد الحَسن، فرحم اللهُ تلك الرّوح الطّاهره. فما أجَلَّ أيامه الزاهرة، وما أبْهج سِيرته، وأنورَ طريقته، فدولته حسناء في جبهة الأيام، ونضارتها يفخر بها سائر الأنام، خالية من الوَبا، عاطرة [179أ] الرُّبا، الغلاء منها بعيد، والرّزق فيها ينمو ويزيد، كلّ فِتنة في دولته ليست زائدة، ونار الظّلمة بنظره الشّريف خامده، فِكْرُهُ في إصلاح الرّعايا لا يزال ثاقب، وبالْتِفَاتِهِ لهم حاز أوفر المناقب. وكان بطلاً شُجاعًا، سخيًّا للإحسان دفاعًا، مُحِبًا للصّيد في غالب الأوقات، راكبًا له في أسعد السّاعات، ذو شكل حسن، وفِعل حسن، أبّهتُهُ تملأ القلوب، وهَيْبته عندها كلّ أسد مغلوب. أنشأ جامعًا في بلاد الرّوم[3]، حاز كل الْبَهَا، وبرونقه على كل الجوامع زها. لم يَبِنْ مِثله في الآفاق، ولم يُنْسَجْ على مِنواله بالاتفاق. أصرفَ عليه أموالاً جزيلة، وجَلَب إليه من الأقطار تُحَفًا جليلة، فصار له بهجةٌ رائقه، ومعانٍ من الصّناعة فائقة، له أربع مَنارات من الأربع جِهات، وأتَمّهُ قبل موته بأيام، ذلك تقدير العزيز العلاّم. هذا وقد سأله سلطان العَجَم في الصّلح، كذا، كذا مَرّة، فلم يقبل ذلك لِمَا يعلم مِن مَكْرهم وخِداعهم، وقال: لا بُدّ القِتال، ولو أصرفتُ في ذلك جميع خزائني، ولو بِعْتُ الثّياب التي عليّ. فجزاهُ الله عن الإسلام خيرًا، وعوّضه في ذلك الجَنّة، بغير سابقة مِحْنة. وكان ابتداء مَرضه في شوّال سنة ست وعشرين وألف، بقرحة في

[1] 1026هـ/ 1617م.

[2] هو والي مصر في عام 1024هـ/ 1615م، بعد محمد باشا الصّوفي، واستمرّ واليًا حتى عُزِل عام 1027هـ/ 1619م. راجع: شلبي، عبد الغني، أوضح الإشارات، ص134-135.

[3] بناه في وسط إميدان "آت ميداني" بإسطنبول، ويُعتَبَر من أجمل جوامع المدينة لإحتوائه على التُّحَف والقناديل الجميلة والجُدران المكسوّة بالقاشاني الأزرق. فاقت تكلفته مليون ونصف مليون من القِطَع الذّهبيّة. راجع: المُحبّي، خُلاصة الأثر، ج1، ص291.

ظهره. وأخبرني [180ب] مولانا محمود أفندي[1]، إمام جامع مولانا السلطان، أنّ مصطفى آغا قزلارآغاسي، أخبره بأنّ مولانا السلطان أحمد، قبل موته بيوم، وكان وقت العَصر، صار يقول: عليكم السلام، إلى أنْ قال ذلك أربع مرات. فقال له مصطفى آغا: يا مولانا السلطان، تُسَلّم على مَنْ؟ فقال: حضرَ إليّ في هذا الوقت سيّدنا أبو بكر، وسيّدنا عُمر، وسيّدنا عثمان، وسيّدنا علي، وقالوا لي: بأنّي أجتمع بسلطان الدّنيا والآخرة، سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، مثل هذا الوقت، فكان كما قال. فمات في ثاني يومه، رحمه الله تعالى، وبلغ من العُمر ثمانية وعشرين سنة، وخلّف من الأولاد الذكور سبعة وهم: مولانا السلطان عثمان، ومولانا السلطان محمد، ومولانا السلطان مُراد، ومولانا السلطان بايزيد المعروف بأورخان، ومولانا السلطان قاسم، ومولانا السلطان سليمان، ومولانا السلطان إبراهيم، نصره الله تعالى، وجعل المُلْك فيه، وفي ذُرّيته إلى آخر الزّمان، بجاه سيّد ولد عدنان. وأمّا الإناث، فواحدة فقط[2]. وأمّا مَن تولّى المُلك مِن أولاده فهم: مولانا السلطان عثمان[3]، ومولانا السلطان مُراد[4]، ومولانا السلطان إبراهيم[5]، الذي هو سلطاننا الآن، فلا [181أ] زال محظوظًا بعون المَلك المنّان.

[1] لم يُعثَر له على ترجمة.

[2] في المِنح الرحمانيّة، ص 290 "فَهُنَّ أربع أيضًا".

[3] وصل إلى السلطة بعد خلع عمّه السلطان مصطفى عام 1027هـ/ 1617م. ثارت عليه الإنكشارية عام 1032هـ/ 1622م وخلعوه وأعادوا مصطفى. قُتِل خنقًا على يد الصدر الأعظم "داود باشا". راجع: المحبي، خُلاصة الأثر، ج3، ص105-108.

[4] وهو الذي أصبح سلطانًا باسم مُراد الرابع بعد خلع السلطان مصطفى للمرّة الثانية عام 1032هـ/ 1622م، وحكم حتى وفاته عام 1049هـ/ 1640م. راجع: المحبي، خُلاصة الأثر، ج4، ص336-341.

[5] كانت مُدّة ولايته أربعة عشر شهرًا فقط، حيث وصل السلطنة 1012هـ/ 1604م. راجع: المحبي، خُلاصة الأثر، ج1، ص61-62، والصبّاغ، المنح الرحمانية، ص291-296.

المقصد الخامس عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مصطفى[1]، بن مولانا السلطان محمد، أخي مولانا السلطان أحمد. المُدّة الأولى جلس على تخت المُلك في يوم الخميس رابع عشر[2] القِعدة الحَرام، سنة ست وعشرين وألف. وخُلع في يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف[3]. فوُليّ ابن أخيه مولانا السلطان عثمان، بن مولانا السلطان أحمد، وهو أول من خُلع من آل عثمان، وعاد إلى المُلك بعد خَلْعِه. ولم أجدْ في التّواريخ السّابقة، من عهده صلّى الله عليه وسلم، إلى الآن، مَن تولّى المُلك واسمه مصطفى، غير مولانا السلطان مصطفي رحمه الله تعالى. كان سبب خَلْعه بموافقة مصطفى آغا قزلار آغاسي، والوزير محمد باشا، قائم مقام. وذلك لمّا لمْ يَرَوْا فيه أهليّة للسلطة، لشِدّة بَذْلِهِ للأموال، وكثرة ركوبه إلى المَحلاّت البعيدة مِن غير تقييد بأمر موكب ولا غيره، لأنه كان تاركًا للدّنيا وليس براغب فيها، مُتقيّدًا بأمْر التقشّف بحيث أنه كان مُدّة مُلكه، لِبْسُهُ جوخة خضراء بأكمام عربيّ. وأمّا [182ب] أكْلُه، فإنه لم يأكل الزّفر مُطلقًا، وإنمّا كان أكله الكعك الناشف، واللوز، والبُنْدُق، وأنواع الفواكه. وأمّا أمْره في النّساء، فإنّ والدته أحضرت له جواري عديدة، فلم يقبلْ مِنهنّ واحدة أبدًا. فحين أرادوا خَلْعَه، وذلك في يوم الثلاثاء ثاني ربيع الأوّل من السّنة المذكورة، ذهب حضرة المفتي أسعد أفندي[4] إلى

[1] تولّى السلطنة في المرّة الأولى عام 1026هـ/ 1617م حتى عام 1027هـ/ 1618م. راجع ترجمته أكثر عند المحبي: خلاصة الأثر، ج4، ص363-365.

[2] في المنح الرحمانية، ص329 "عشرين".

[3] 1027هـ/ 1618م.

[4] هو المولى أسعد بن سعد الدّين بن حسن جان التّبريديّ. وُلِدَ في القسطنطينيّة عام 978هـ/ 1570م. أحد علماء الأتراك، أتقن اللغة العربيّة والفارسيّة والتّركيّة. تولّى إفتاء السلطنة مرّتَيْن، حيث مات عام 1034هـ/ 1624م خلال توليته الثانية. راجع: دائرة المعارف الإسلاميّة المعرّبة، ج2، ص120، والمُحبّي، خلاصة الأثر، ج1، ص396-398.

أُسكدار، لمولانا الشّيخ محمد المُعتقد الصّالح[1]، يستشيره في ذلك، فأشار عليه بخلْعه، وأنْ يولّي عِوضه مولانا السلطان عثمان. فلمّا جاء مِن عنده، أرسلَ أخبر قائم مقام، ومصطفى قزلارآغاسي قريب العشاء من ليلة الأربعاء. فأرسل قائم مقام إلى الصوباشي بإسطنبول، وقال له: إذا جاءتك ورقة مختومة، فافْعَلْ بما فيها، واحْتَرِسْ على الأبواب. فقال: سَمعًا وطاعة. وأمّا مصطفى آغا، فإنه لمّا مضَى من ليلة الأربعاء ست ساعات، ذهب إلى أبواب السّرايا وقفّلها جميعًا وأبواب الإدّه[2] التي فيها أكابر السّرايا والحرم[3]، وأخذ المفاتيح، وهيّأ المَحَل الذي فيه تخْت المُلك، وأوقد فيه الشّموع، وفرشه مِن أحسن الفُرش، وذهب من حينه إلى مولانا السلطان عثمان، في مجلسه الذي هو فيه، وهو المَحَل الذي كان فيه، في حياة والده، مولانا [183أ] السلطان أحمد[4]، وفتح له الأبواب. فحصل لمولانا السلطان عثمان، غاية الرّعب خَوْفًا مِن أنْ يكون عمّه أرسلَ إليه يقتله. فقال له مصطفى آغا: لا تَخَفْ. أنتَ صِرْتَ سلطانًا. فلمْ يُصدّقْ ذلك. فصار يحلف له أنّ القول صحيح، ولا زال يتلطّف به إلى أن أدْخَلَهُ وألْبَسَهُ ثياب المَلِك، وأجلسه على التّخْت، وقبّل يده. وصار يفتح أبواب السّرايا بابًا بابًا، ويدخل مَن كان فيها لِمُبايعة السلطان عثمان، حتى لم يبقَ أحد في السّرايا بغير مبايعة. هذا كُلّه ومولانا السلطان مصطفى نائم عند والدته. ثمّ أرسل مصطفى آغا أعلم قائم مقام والمُفتي، فحضَرا ودخلا على مولانا السلطان عثمان، وبايعاهُ أيضًا، وقبّلا يده الشّريفة. ثمّ ذهب المُفتي، وقائم مقام،

[1] في المِنح الرحمانية، ص330 "محمود". وهو الشّيخ محمود الأسكداريّ، وهو من كبار المتصوفة حيث أقام في أسكدار زاويته المشهورة، وله رسالة سمّاها "جامع الفضائل". توفي عام 1038هـ/ 1628م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص327-329.

[2] في المِنح الرحمانية، ص331 "الأوَض"، أي الغُرَف، ومفردها بالتركيّة "أوضة- أي غُرفة". وربّما في الأصل جاءت تحريف لكلمة "الأوَض".

[3] في المنح الرحمانية، ص331 الخَدَم".

[4] وقد أثبتها بعد أن كتب ثمّ شطب كلمة "عثمان".

ومصطفى آغا، لمولانا السلطان مصطفى، وذلك وقت الفَجْر، فَطُلِبُ مِن الدّاخل، فخرج لهم وقال: ما جاء بكم في هذا الوقت؟ فكان أوّل مُتكلّم، أسعد أفندي المفتي، وقال له: أمْرُ السلطنة اختَلَّ، والأعداء تسلّطوا علينا، ونحن نخشى على ضياع المُلك، وأنت لَسْتَ بلائق للسّلطنة. فأجابه مولانا السلطان مصطفى بأنْ قال له: أنَا ما طلبتُ منكم المُلك، ولا أرَدْتُهُ، وأنا ليس لي به مصلحة. فقالوا له جميعًا: ما [184ب] يُمكن هذا بقولك، لا بُدَّ أنّك تذهب تبايع ولد أخيك، مولانا السلطان عثمان، لأنّنا أجْلَسْناهُ على التخْت. فقال لهم: جعله الله مُبارَكًا، وأنا ليس عندي مخالفة. فقام مِن حينه إلى مولانا السلطان عثمان وبايعه. فقالوا له: لا بُدَّ أنْ تُحْضِرَ بقيّة الوزراء، ومولانا يحيى أفندي[1]، قاضي رميلي، وقاضي أناظولي[2]، مولانا حسين أفندي[3]، وتُشْهِد على نفسك بالخَلْعِ. فقال: أفْعَلُ ذلك. فأرْسَلوا أحضروا الوزراء، وقاضي أناظولي، وقاضي رميلي، وكتبوا عليه حُجّةً بالخَلْع، وأرْسَلَ الوزير محمد باشا، ورقة للصّوباشي، التي كان وَعَدَه فيها المناداة بتولية مولانا السلطان عثمان، نصره الله، في الدّيار الرّوميّة، فَنُودِيَ بِتَوْلِيَتِهِ. فأطاعَ الخاصُّ والعامُّ، واسْتقرَّ له المُلك، فصارتْ أيامه أيام أمان، لم يقعْ فيها كُدورة، ولا تشويش في الأوطان.

[1] تقول الصبّاغ: يبدو أنه هو يحيى بن زكريا بن بيرام. وهو تركي مُستعرب، وُلد ونشأ بإسطنبول وولّي قضاء مصر والشام وبورسة وأدرنة وإسطنبول. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانيّة، ص332، والمحبي، خُلاصة الأثر، ج9، ص177.

[2] هكذا يكتبها البكري في كل مخطوطته! وفي المنح الرحمانية، ص332 [أناطولي].

[3] هو قاضي عسكر أناطولي عام 1027هـ/ 1618م، وقد أصبح مفتيًا لدار السلطنة وكان له دور كبير في صراع السلطان مُراد الرابع مع السباهيّة، إلا أن السلطان قَتَلَه عام 1043هـ/ 1633م. راجع: المحبي، خُلاصة الأثر، ج2، ص109-111.

المقصد السادس عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان عثمان[1]، بن مولانا السلطان أحمد، جلس على تخْت المُلك في سادس ساعة من ليلة الأربعاء، ثالث ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين وألف[2]، وتُوفي إلى رحمة الله تعالى، في يوم الخميس ثامن رَجَب سنة إحدى وثلاثين[3] [185أ] وألف. وكانت مُدّة سلطنته أربع سنوات وأربعة أشهر وستة أيام. فأوّل ما ابْتدأ به رحمه الله، وذلك بعد خَلْعِ عمّه مولانا السلطان مصطفى، بأن وضعه في أحسن الأماكن، وأفْرَغَ عليه جزيل الإنعامات. ثمّ ثَنَى بإكرام والدة عمّه، وجعلها في مقام أمّه. ثمّ ثلّث بوضع إخوته الكِرام في موضِع لا يدخل عليهم لا خاصٌّ ولا عامٌّ. فانْظُرْ إلى هذه الخِلال الحميدة، والمكارم السّديدة، رحمه الله تعالى على مَمَرِّ الأيام، بجاه خير الأنام، عليه أفضل الصّلاة والسّلام. فكان عينُ ملوك آل عثمان، وإنسان عينِ الزّمان، كما أشار إلى ذلك عمّ مؤلفه الشّيخ محمد أبو المواهب الصدّيقي، بتاريخ بديع كأنه في حُسنه زهر الرّبيع:

لَمّـــا وُلّيـــتُم علـــى البَرَايـــا بـــإذْنِ رَبّـــي حَقًّـــا وصِـــدْقًا
فقلـــتُ عـــن وارد[4] إلهِـــي عُثمـــان عَـــيْنِ المُلـــوكِ حَقًّـــا

وللشّيخ عبد الرحمن الملاّح[5] مُؤرِّخًا وهو:

[1] راجع ترجمته في: المُحبي، خلاصة الأثر، ج3، ص105-108.

[2] 1027هـ/ 1618م

[3] 1031هـ/ 1622م.

[4] في المِنح الرحمانيّة، ص 342 "حُسن وارد".

[5] هو عبد الرحمن الملاّح زين الدين، أحد شعراء مصر في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد. توفي عام 1044هـ/ 1635م. راجع: المحبي، خلاصة الأثر، ج2، ص404. أمّا البكري الصدّيقي فيقول أنه توفي عام1040هـ/ 1631م.

أنشأ[1] القَمَرُ في الرّوضِ وأنْشَدْ وعلى أغصانهِ غَنّى[2] وغَرّدْ
وزمانُ الخَيْرِ والجَبْرُ أتى والمَسرّاتُ لها الرّحمنُ أوْجَدْ
أشْرَقَتْ شمسُ المعالي بالْهَنا والصّفا والفَوْزُ في الكَوْنِ تَجَدَّدْ
مُذْ تولّى مُلْكَ الأرضِ الذي بالعوالي والظُّبَا لِلْمُلْكِ جَدَّدْ[3]
[186ب] مَلِكٌ فوق السِماكَيْنِ سَما ولهُ في هامةِ الجَوْزاءِ مَقْعَدْ
آلُ عُثمانَ لَهُم فَخْرٌ بهِ وهو في الأحْكامِ والحَقِّ مُسَدّدْ
عَنْ أبِيهِ قدْ بَدا بَدْرَ الهُدَى ولَقَدْ أحْيا لنَا السّلطانَ أحمدْ
مَنْ تَولَّى المُلْكَ في عامِ الصَّفا أرَّخُوهُ شاهُ عُثمانُ مُؤيَّدْ

فأيّامه زاهرة، ولياليه بالسّعادة باهرة، صَفَتْ له الأيام مِن الكَدَر، وسابقَ السّعْدَ مُراده وبَدَر، وقالت له السّعود المخبوءة خُذْ، وقالت الأقدار تَحَصّنْ بألْطَاف الله وعُذّ[4]، خليفةُ الله في أفراد نوعِ الإنسان، وفريد العَصر والأوان، عُثمان ذو النّورَيْنِ[5]، ثالثُ العُمرَيْنِ[6]، ظِلُّ الله الممدود، من الظُّلْم والجَوْر في زمنه مفقود، واسطة عِقد ملوك آل عثمان، المُنعم في رحمة المَلك الرّحمن، مَنْ كان أغدقَ[7] على خواصّه بالجوائز[8] السّنيّة، وعَمَّهم بالهِبات البَهيّة، فكَمْ لهُ مِن مناقب شائعة بين الأنام، ويدٌ طُولَى على الخاصِّ والعامّ. شعر:

يَدٌ ألِفَتْ بَذْلَ الأيادي وفتّحَتْ لنا كلَّ بابٍ في المكارِمِ مُقْفَلِ

[1] في المِنح الرحمانيّة، ص 342 "انتشى".

[2] جاءت في الأصل [غنّا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] في المنح الرحمانيّة، ص 342 "شيّد".

[4] أي استَعِذْ. وهي من الإستعاذة.

[5] وهذه كِناية عن تشبيهه بعثمان بن عفّان رضي الله عنه لتشابه الإسمَيْن.

[6] هو الخليفة الثالث بعد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز في العَدل والإنصاف. وهو غنيّ عن التّعريف.

[7] جاءت في الأصل [أغرق]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[8] جاءت في الأصل [الجوايز]، والصواب ما ثبت أعلاه.

إذا هي جادتْ أوْمَضَ اليُسْرُ مِثلَها كإيمـاضِ بَـرْقِ القاصـرِ المُتَهَلـلِ
تَحِـفُّ إلى بَـذْلِ الأيـادي بِنائُهـا وتَحْمِلُ مِن ثِقْلِ النَّدى كُلَّ مُقَفّلِ[1]

ومِمّا وقع لحضرته الشّريفة، بعد جلوسه على التّخْت، أنّ [187أ] أخا سلطان التّتار[2] الموضوع رهينة بيدي قُلّه[3] هرب. فحين بلغ مولانا السلطان عثمان ذلك، أرسل إلى قائم مقام محمد باشا، وقال له: لا بُدَّ من تحصيله، فأجاب بمزيد الامتثال. فبعد مُضِيّ ثلاثة أيام من ذلك اليوم، لم يحضر به، فأرسل مولانا السلطان عثمان إلى قائم مقام أحْضِرْهُ. وقال له: ما جرى في الرّجل المطلوب؟ فقال له: يا مولانا، ما أُمْكِنَ تحصيله، ولكن هذا أيضًا وقع لأجدادكم الكِرام، وهرب من عندهم مثل ذلك. وصار محمد باشا يُعَدّد في هذا الأمْر. فحصل لمولانا السلطان غاية الغضب، وقال له: أنا طلبتُك لتكونَ حَكَوِيّ بين يديّ؟! اذهبْ وحصّلْهُ، وإلاّ وتُربة أجدادي أخذتُ رأسك. فخرج الوزير محمد باشا، وهو في غاية الغَضَب بسبب ذلك. فحصّله بعد يومَيْن من هذه الواقعة، ووضعهُ في يدي قُلّه، في مكانه. ومن محاسنه، أنه كان رحمه الله، أبغض ما عنده أخْذَ الرّشوة، وحين بَلَغَهُ عن خوجته[4] شيء من ذلك، عزلَه ونفاه، مع أنه كان أقرب الناس إليه. ومِمّا أحدثه في أيامه، رحمه الله، أنه غزا طائفة القَرَق، وقبل ذهابه قَتَل أخاه، مولانا السلطان محمد، المُزاد[5] له في عمره، وذلك خَوْفَ الفِتنة بعده. وحين أراد قَتْلَهُ، أحضره إلى مَحَلَّ جلوسه، وكان جالسًا على صفّة، وبيده [188ب] كتاب يقرأ فيه، فحين حضر بين يديه قال له مولانا

[1] في المنح الرحمانية، ص244 "مُفَضَّل".

[2] المقصود بالتتار هنا هم "تتار شبه جزيرة القِرم" الذين استوطنوا شبه الجزيرة منذ عام 636هـ/ 1239م ودخلوا الإسلام وأقاموا علاقات تجارية وسياسية مع المماليك في مصر. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص 244-245.

[3] هي قلعة أمَرَ السلطان محمد الفاتح ببنائها بعد فتح القسطنطينية، وتقع في الجنوب الغربي من المدينة، كما سبق ذِكرها.

[4] في المنح الرحمانية، ص346 "خوجاته".

[5] في المنح الرحمانية، ص348 "المُنادِد"، ولعلّ ذلك أقرب للصواب.

السلطان محمد: بالله عليك يا أخي لا تدخل في دمي، ولا تجعلني خصيمك يوم القيامة، وأنا أقنعُ مِنك برغيف في كل يوم. فما كان من جوابه إلاّ الأمْر بخنْقه، فخُنِقَ بالوَتْر بين يديه، ففار مِن مِنخره[1] الدم إلى أن وصل إلى عمامة مولانا السلطان عثمان. وكان قتله في جمادى الأولى سنة ثلاثين وألف[2]. [وكان][3] خروجه في يوم الاثنين لثمان مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاثين وألف. فخرج لهم في نحو ست مائة ألف مقاتل، وجعل القنطرة التي على البحر، الحاجزة بينه وبين الطائفة[4] المذكورة، وأتقنها. وهذه القنطرة هي التي أخذها مولانا السلطان عثمان، رحمه الله. ثمّ حين حلول ركابه الشّريف ببلاد القَرَق، فقاتلهم أشَدَّ قِتال، وحصل لهم مِن حَضْرَتِه الشّريفة، مزيد النِّكال، ونصرهُ الله عليهم، بِبَرَكة الأولياء، أرباب الأحوال، وأخذَ منهم جزية ثلاث سنين، وصار النّصرُ له مُعين. فلمّا حاز ما هنالك، واسْتولى على تلك المَمالك، عاد إلى الدّيار الرّوميّة مُؤيّدًا منصورًا، وبالخيرات مجبورًا، وذلك في سابع عشر رَجَب سنة إحدى وثلاثين وألف[5]. ثمّ لمّا جلس على تخْته الشّريف ومَحَلّ عِزّهِ المُنيف، [189أ] شرعَ في التجهيز إلى مكة المُشرّفة، وأخرج خيامه إلى أُسكدار، وذلك في يوم الأربعاء سابع عشر رجب سنة إحدى وثلاثين وألف، وصَمَّمَ على ذلك. فحصل اللّغط، والقال والقيلُ، وقامت الفِتنة، واجتمعتْ طائفة[6] الإسباهيّة والينجريّة في الأدّة[7] الجديدة المخصوصة بهم، واتّفقوا على عدم السّفر مع

[1] في المنح الرحمانية، ص348 "مِنخرَيْه".

[2] 1030هـ/ 1621م.

[3] ساقطة في الأصل، وزيدت لسلامة المعنى والسياق.

[4] جاءت في الأصل [الطّايفة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] 1031هـ/ 1622م.

[6] جاءت في الأصل [طايفة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] في المنح الرحمانية، ص348 "الأودة".

حضرة مولانا السلطان عثمان. ثمّ قد تهيئوا إلى آت[1] ميدان، واتّفَقوا على قَتْل الوزير الأعظم دلاور باشا[2] والدفتردار، وعمر أفندي الخوجة[3]. ثمّ ذهبوا إلى منزل الخوجة في ذلك الوقت، فما وجدوه، فنهبوا بيته. ثمّ لمّا كان وقت العَصر من ذلك اليوم، اجتمعت الموالي، وقضاة العساكر بمولانا السلطان عثمان، وسألوه أن يعطي للعسكر دلاور باشا الوزير الأعظم، وسليمان آغا دار السّعادة، أو يقتلهما[4] هو حتى تسكن الفِتنة. وقالوا له: يا مولانا السلطان، العسكر مُتَحَقِّق أنّ ما حرّكَكُم للسّفر إلاّ هؤلاء الجماعة. فامْتَنَع مولانا السلطان عثمان من ذلك، وصَمَّمَ على عدم إعطائهما[5]. وقال: أمّا السّفر فتركته، وأمّا قتل هذين المذكورَيْن أو تسليمهما[6] فما أفعلُ ذلك. واسْتمرّ الحال على ذلك [إلى][7] المساء. وتفرّق العسكر إلى منازلهم. [190ب] ولمّا أصبح الصّباح، وهو يوم الخميس ثامن رجب، اجتمعت العساكر جميعًا بالسّلاح، والسّيوف، وجميع آلات الحرب، وذهبوا إلى الموالي أفواجًا أفواجًا، وأتَوا بهم للجامع الجديد، الذي عمّره المرحوم مولانا السلطان أحمد، واتَّفَقوا على قَتْلِ عمر أفندي، وباقي باشا، ودلاور باشا، وسليمان آغا دار السعادة. فذهب قاضي العسكر، وقاضي القسطنطينية، وبعض الموالي إلى مولانا السلطان عثمان، وقالوا له: يا مولانا السلطان، هذه الفِتنة لا يدفعها إلاّ قَتْل دلاور باشا وسليمان آغا. فعاند مولانا السلطان في ذلك، وما سمع كلامهم، وذلك ليقضي اللهُ أمْرًا كان

[1] آت: كلمة تركية تعني الحصان. وآت ميدان، أي ميدان الحصان في إسطنبول والذي أقيم عل أنقاض الهيبودروم الأمبراطوري شرقي المدينة. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعربة، ج1، 423.

[2] هو صدر أعظم في الدولة العثمانية من أصل كرواتي، ووالِيًا على بغداد. قُتِل عام 1031هـ/ 1622م. راجع: الصبّاغ، في المنح الرحمانية، ص351.

[3] لم يُعثَر له على ترجمة. وقد جاءت المِنح الرحمانيّة، ص351 " الجوجا".

[4] جاءت في الأصل [يقتلهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] جاءت في الأصل [إعطائهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[6] جاءت بصيغة الجمع، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] في الأصل ساقطة، وزيدت لسلامة المعنى.

مفعولاً. واسْتمرَّ كذلك الأمْر، إلى وقت الظّهر، وعجز العسكر من الانتظار، فهجموا على السّرايا، فوجدوا مولانا السلطان مصطفى بين الأبواب فأخْرجوه، وأجلسوه على تخْت المُلك، وبايعه العلماء والموالي الموجودين في ذلك الوقت. وقُرْبَ المساء، أرْكَبوا[1] مولانا السلطان مصطفى في العَرَبة وأوصلوه إلى المسجد المتعلق بالينجريّة، المعروف بهم. فلمّا رأى مولانا السلطان عثمان هذا الفِعل في حقِّهِ، أخذ معه حسين باشا[2]، الوزير الأعظم سابقًا، وذهب إلى بيت آغات الينجريّة لِيُدَبِّرَ أمْره، وقال له مولانا السلطان عثمان: تذهبُ [191أ] وتأخذُ بخاطر العسكر، وتجعلُ لكل إنسان منهم خمسين شريفيًّا، وخمسة أذرع جوخ وألْزَمَهُ بذلك. فذهب إلى طائفة العسكر، وكلّمهم في ذلك. فما كان مِن جوابهم إلاّ قَتْل آغات الينجريّة. وذهبوا مِن فَوْرِهم لبيت الآغا المذكور ونَهَبُوه[3]، وقتلوا[4] حسين باشا، وقبضوا على مولانا السلطان عثمان، وأحضروه إلى مولانا السلطان مصطفى. فأرْسلَهُ إلى يدي قُلّة، وأحضر العسكر دلاور باشا، وسليمان آغا دار السعادة، وقطعوا رأسيْهما[5]، وعلّقوا رأس آغات الينجريّة، وحسين باشا، وسليمان آغا، ودلاور باشا الوزير، على جامع المرحوم السلطان بايزيد[6]. ووَقَعَت البَيْعَةُ العامّة لمولانا السلطان مصطفى، وجلس على سرير المُلك، وجعل وزيره الأعظم زوج أخته، داود باشا[7]. ثمّ لمّا كان بعد

[1] جاءت في الأصل [فأركبوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] لم يُعثَر له على ترجمة.

[3] جاءت في الأصل [ونهبوها]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] في الأصل جاءت بعدها [ثمّ]، فحذفتُها لاستقامة المعنى.

[5] جاءت في الأصل [رؤوسهما]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] يقع إلى الجنوب من السّراي القديمة في إسطنبول، ويُطلّ على ميدان "توري". بناه السلطان بايزيد الثاني عام 911هـ/ 1505م.

[7] ولقبه "قرّه داود باشا". وهو بشناقيّ الأصل ونشأ في السّراي السلطانية، وعمل في عدّة مناصب وقاد حملات عسكرية في عهد السلطان أحمد. أُعدِم عام 1032هـ/ 1623م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج9، ص126-127.

العَصر من هذا اليوم، ذهب داود باشا ليدي قُلّة، من غير عِلم مولانا السلطان مصطفى، وأنْفَذَ في مولانا السلطان عثمان، قضاء الله وحُكْمِه، وغسّله وكفنّه، وصلّى عليه، ودفنه عند والده السلطان أحمد. وقد أرَّخَ وفاته الشّيخ عبد الرّحمن الملاّح، رحمه الله بقوله شعر:

مَليكُ عـدلٍ قـد انْقَضَى ومَضَى عليـهِ مِـنْ ذِي الجَـلال رضـوانُ
[192ب] ماتَ شهيدًا قُلنا نؤرِّخُهُ[1] حَـلَّ النَّعِـيمَ المَلِيـكُ عثمـانُ

ثمّ لمّا كان يوم الجمعة تاسع رَجَب من السّنة المذكورة، ذهبت العساكر لبيوت المقتولين فنهبوها، وكذلك بيت باقي باشا الدفتردار، وبيت حاجي الصوباشي[2]، وبيت سُنبل علي[3]، وبيت مُراد جاوش[4] مُلتزم الجُمرك. ومضى دم مولانا السلطان عثمان، رحمه الله تعالى، في هذا الوقت هَدَر[5]، ولكن مَن يستطيع الرَّدَ للقَدَر. وقد أسِف الناسُ على موته، وذهابه، وفَوْتِهِ[6]. وكيف لا يأسفون، وعليه لا يبكون، وهو المَلِك العادل، والبحر الكامل، زين الملوك، السّالك في دولته بأحسن السّلوك، حاز جميع الكمالات، وفاق أرباب البَراعات، قد شاع ذِكْرُهُ في المشارق والمغارب، وطلع مِن بين أهِلّةِ أهْلِهِ طلوع الشّمس في الغياهب. كَمْ له مِن صدقاتٍ وافرة، ومَكارم مُتكاثِرة، فَعَلَيْهِ الرّحمة والرِّضوان ما دار الدَّوران آمين.

[1] في المِنح الرحمانيّة، ص354 "تاريخه".

[2] لم يُعثَّر له على ترجمة.

[3] لم يُعثَّر له على ترجمة.

[4] لم يُعثَّر له على ترجمة.

[5] والصواب أن تُكتَب [هدرًا]، ولكنّ المؤرخ أبقاها لضرورة السّجع مع كلمة [القَدَر] التي تليها.

[6] في المِنح الرحمانية، ص355 "وقوّته". والأرجح كما ثبت في الأصل. أي: مَن فات، بمعنى زال وغادر هذه الدنيا.

المقصد السابع عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مصطفى، وهي المرّة الثانية، جلس على تخْت المُلك وقت الظّهر من يوم الخميس ثامن رَجَب سنة إحدى وثلاثين وألف[1]، وذلك بعد عَزْلِ ولد أخيه، [193أ] المرحوم السلطان عثمان، المُقَدّم ذِكْرُه. فيكون هو أوّل مَن خُلِعَ من آل عثمان، وعاد إلى المُلك بعد خَلْعِهِ. ثمّ خُلِعَ بعد ذلك ووُلّي السلطان مُراد، ولد المرحوم، مولانا السلطان أحمد، وذلك في يوم الاثنين خامس عشر ذي القِعدة سنة اثنتَيْن[2] وثلاثين وألف[3]. وكانت مُدّة سلطنته في هذه المَرّة الثانية، سنة واحدة وأربعة أشهر وعشرة أيام. وأمّا سبب خَلْعِهِ، فقد ذَكَرْناهُ في ترجمة مولانا السلطان مُراد رحمه الله. وقد أرّخ توليته الشّيخ عبد الرّحمن الملاّح فقال:

مُصطفى خَيْرُ مَلِيكْ خَصّهُ اللهُ بِنَصْرِهْ
عادِلُ الحُكْمِ مُؤَيَّدْ مَلِكُ أوْحَدُ عَصْرِهْ
زِينَةُ كُلِّ البلادْ قَدْ وَلِيها حَسْبَ أمْرِهْ
وَلِهذا أرَّخُوها مُصطفى زِينَةُ مِصْرِهْ

وله أيضًا رحمه الله تعالى:

مَلَكَ العالمَ مولانا الذي سَالكَ في عَدْلِهِ حُسْنَ المَسَالِكْ
هو خاقانُ البَرايا كُلَّهِمْ مُصطفى اللهِ أمامَ خَيْرَ مَالِكْ
بَعْدَ عثمانَ تولّى في الهَنا وَغَدا مُرْتَفِعًا فَوْق الأرائِكْ
زَيَّنَ الدُّنيا وَقَدْ أرَّخْتُهْ قَدْ تَوَلَّى مُصطفى مُلْكَ المَمَالِكْ

[194ب] ولِبَعْضِهِم فيه أيضًا:

عَادَ لِلْمُلْكِ مُصطفى بِعَدْلٍ أيَّدَ اللهُ بالشّريعةِ حُكْمَهْ

---

[1] 1031هـ/ 1622م.

[2] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] 1032هـ/ 1623م.

وَغَـــدا مُلْكُـــهُ بِعِـــزٍّ وَنَصْـــرٍ وَصَـــفاءٍ وَنِعْمَـــةِ أيِّ نِعْمَـــةْ
عَـــوْدُهُ لِلـــدَّوامِ قَـــدْ أرَّخُـــوه مُصطفى المَلِكُ صَارَ بالعَدْلِ رَحْمَهْ

هذا وقد اسْتمرّت أحوال مولانا السلطان مصطفى مضطّربة مِن قيام الأطراف، والعساكر، وعدم تدبير وزيره الأعظم، داود باشا، حتى أنّ داود باشا شرعَ في تدبير قَتْل إخْوَةِ مولانا السلطان عثمان، وذلك بغير معرفة مولانا السلطان مصطفى. فالوزير[1] في تدبير هذا الأمْر الشّنيع، إلاّ ووصل إلى الدّيار الرّوميّة الوزير حسين باشا، المُنفصل عن مصر سابقًا، فسمع بهذا الأمْر الشّنيع مِن قَتْل مولانا السلطان عثمان، وإرادة قَتْل أخوته مِن غير عِلم مولانا السلطان مصطفى. فأخْبَرَ مولانا السلطان بذلك، فغضب على داود باشا مولانا السلطان، وجعل حسين باشا وزيرًا أعظم. فدبَّرَ الأمر أحسن تدبير، وقام بأمر المُلك، واسْتقرّت أحوال السلطنة بتوليته، فدبَّرَ على خَلْعِ مولانا السلطان مصطفى، وأنْ يولّي وَلَدَ أخيه، مولانا السلطان مُراد. واتّفَقَ على ذلك مع بعض أكابر الدولة، وكان مولانا السلطان مصطفى، غائبًا [195أ] في بعض مُتنزّهاته. فحصل له ضِيقُ صَدْر، فذهب مِن وَقْتِهِ إلى السّرايا، فحين دخل رأى الأمر المُدَبَّر عليه، فحصلَ له غاية الغَضَب على حسين باشا، فهرب ولمْ يُعْلَمْ له مَحَل، ولو أبْطَأَ قَدْر ساعة واحدة، كان جلس مولانا السلطان مُراد على تخْت المُلك. هذا، واستولى مولانا السلطان مصطفى على جميع أموال حسين باشا، ووَلّى الوزارة إلى مصطفى باشا اللفكي[2]، المُنفصل عن بيكلريّة مصر. ومن العجائب المنقولة عن مولانا السلطان مصطفى في هذه التّولية، أنه أحْضَرَ بُستنجي باشا[3] وقال له:

[1] أي الوزير الأعظم داود باشا.

[2] قد يكون هو مصطفى باشا والي مصر، والذي ذُكِر في أوضح الإشارات بأنه "كفلكي مصطفى باشا". راجع: شلبي، عبد الغني، أوضح الإشارات، ض136، وعبد الرحيم، التحفة البهية، 136، حيث ذكر أنه تولّى على مصر عام 1027هـ/ 1618م.

[3] هو خليل باشا البُستنجي، تولّى ولاية مصر عام1041هـ/ 1631م. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص155-162.

تذهب في هذا الوقت، وتحضر هذا الجاسوس الذي بالقَلعة. فقال له: يا مولانا في أيّ مَحَلّ هو، وعلى أيّ شكل؟ فكان مِن جوابه أنه قال له: تذهب إلى الكنيسة الفُلانية فتنظر، فيها شخصٌ[1] على شكل الرّهبان، ولِحْيَتُهُ كذا، وطوله كذا، ولِبْسُهُ كذا، إلى أن وصفَ له مولانا السلطان شكل الجاسوس، كأنه يراه. فذهب البُستنجي، ودخل إلى الكنيسة التي[2] ذكرها مولانا السلطان، فمَا وقع بصرُ البُستنجي إلاّ على الرّاهب الذي وصفه له، فمسكه وأحضره إلى حضرته الشّريفة، فقال له مولانا السلطان مصطفى: مِنْ أيّ البلاد أنت؟ فقال له: مِنْ رُهبان كنيسة القَلعة. فقال له: تكذبُ. إنّما أنت مِن باب روميّة المدائن[3]، أرْسَلَكَ لِتَنْظُرَ أخبارنا، وأنت لك [196ب] في هذه الكنيسة المُدَّةَ الفلانيّة. فقال له: يا مولانا السلطان، ما عَلِمَ بحالي أحد إلاّ الله تعالى، ولكن أنا أخبرك يا مولانا السلطان، أنّ سبب إرسالي أنّ الباب رأى في بعض الملاحم ما يقع لولد أخيك، مولانا السلطان عثمان معك في هذه السّنة، وأنت تتولّى السلطة، فأرسلني أنظر له خَبر ذلك، فأنت يا مولانا السلطان أطلعك الله على حالي، ولكن، أنا أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله وأشهدُ أنّ محمدًا رسول الله. فحين نطق بالشّهادتَيْن المُنَجِّيَتَيْن، خلع عليه مولانا السلطان، وجعله مُتفرّقة بأربعين عثمانيًّا، وأمَر وزراء حضرته بالإنعام عليه، فحصل له من الإنعام ما يجلّ عن الوصف. ومِن بعض ما حَكى لي بعض روسيّة البحر الرّومي أنه قال: خَرَجْنا مِن ساقز[4] نريد ثغر الإسكندريّة في مركب لي، أنا وجماعة من التّجار، فخرج علينا مركب

[1] جاءت في الأصل [شخصًا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] جاءت في الأصل [الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] هي إحدى بلدان المدائن التي كان ينزلها كِسرى ملك الفُرس بالعراق، يُقال لها روميّة المدائن. والمدائن على مسافة بعض يوم من بغداد، ويشتمل مجموعها على مدائن متّصلة على جانبيْ دجلة شرقًا وغربًا، ودجلة يشقّ بينها. راجع: الحِميري، الرّوض المِعْطار في خبر الأقطار، ص276.

[4] ساقز: هو الاسم التركي لجزيرة خيوس، وهي تقع على طريق الحاج إلى بلاد الشّام وفلسطين ومصر. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، مادّة "ساقز".

من مراكب النّصارى، هي مشحونة بالنّصارى المُحاربين، فأرادوا أخْذنا فقاتلناهم بُرهة من الزّمان، فحضر في خاطري بأنْ قلتُ: أين أنت يا مولانا السلطان مصطفى؟ وأين ولايتك؟ وأين حمايتك لِرَعِيّتك؟ فإنْ كُنْتَ مِن أهل الصّلاح فنجِّنا مِمّا نحن فيه. قال: فما أتممتُ الكلام إلاّ وشاهدنا مولانا السلطان مصطفى عَيانًا، وبيده سيف مُصلت[1]، وهو يضرب رِقاب مَن في مَرْكَبِنا مِن الكَفَرة إلى أن [197أ] أفنى مَن دخل فيه مِن الكَفَرة أعداء الدّين، رضي الله عنه ورحمه، فهو المَلك الضّرغام، به الرّحمة على الخاصّ والعامّ، المُتَشَرّع، المُتّصوف الوَرِع، المُتعفّف. أيامه حسنة الأيام، مُشرقة الإبتسام، سلطان البَرَّيْن[2]، خاقان[3] البحرَيْن مَن نَشر العَدْل في الخافقين، ذو الأوصاف الشّريفة، والمناصب المُنيفة، واسطة العِقد، وقِبْلة السّعد، زين الدولة العثمانيّة، ناشر الشّريعة الحنفية، من أيامه مملوءة[4] بالخيرات، مُزيّنة بالمَسَرّات، طالعها سعيد، والخيرُ فيها ينمو ويزيد، فَرَحِمَهُ اللهُ على توالي الأزمان، بجاه سيّد ولد عدنان آمين.

[1] صَلَتَ: بمعنى ضرب. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "صلت".

[2] أي البرّ والبحر.

[3] أي مَلِك.

[4] جاءت في الأصل [مملوة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

المقصد الثامن عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان مُراد، بن مولانا السلطان أحمد، جلس على تخْت المُلك في خامس عشر ذِي القِعدة سنة اثنتَيْن[1] وثلاثين وألف، وتوفي إلى رحمة الله تعالى، في عصر يوم الخميس سادس عشر شوّال سنة تسع وأربعين وألف[2]. وكانت مُدّة سلطنته سِتّ عشرة سنة وأحد[3] عشر شهرًا ويومًا واحدًا. وهو ثاني مَن وُلِّي المُلك مِن أولاد المرحوم مولانا السلطان أحمد. والسّبب في توليته، أنّ الأكابر، والأمراء، والوزراء، والعسكر، [198ب] حين رأوا اختلال المُلك مِن اشتغال مولانا السلطان مصطفى بأمْر العِبادة والآخرة، وأنه ليس له شُغل بأمْر المُلك، ونزهات الدّنيا، وقد قامت الأطراف وأخذت جانبًا من البلاد، فأجْمَعَ رأيهم على تولية مولانا السلطان مُراد. وجاءت العساكر إلى الموالي والوزراء، وقالوا لهم: إنّ أمْرَ المُلك قد اختلّ بقيام الأطراف[4]، وقيام أبازه باشا[5]، ولا بُدّ مِن اجتماعنا بمولانا السلطان مصطفى، لنتكلّم معه في أمْرِ ذلك. فاجْتمعوا على باب السّرايا، في رابع القِعدة الحرام، وقالوا: لا بُدّ من إخراج مولانا السلطان، والتكلّم معه، وجلسوا إلى أن آن العَصر وهم يُمْهِلون[6] بهم، لخوفهم أنّ مولانا السلطان يقول، أنا ليس لي غَرَض في المُلك. وكان ذلك قوله دائمًا. فقام المُفتي، مولانا يحيى أفندي بن زكريا وقال لهم: تصبروا إلى غَدٍ؟ فقالوا له: بِشَرْطِ أنك تبات الليلة في السّرايا والوزير، لأنّنا نخشى

[1] في الأصل [اثنَيْن]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. 1032هـ/ 1623م.

[2] 1049هـ/ 1639م.

[3] في الأصل [ستة عشر سنة وإحدى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] مُفردها "طَرَف" وهي النواحي أو الأطراف القاصية والبعيدة. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "طرف".

[5] أبازه باشا: أبازه هو اسم أبخازي باللغة التركيّة. وأبازه باشا كان أمين الخزائن عند جنبلاط عندما انهزم، فحينها أُحْضِر أمام مُراد باشا. كانت نهايته القتل على يد السلطان عام1044هـ/ 1634م. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة مادّة "أبازه".

[6] جاءت في الأصل [يُمجِلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

على أولاد مولانا السلطان أحمد، من والدة مولانا السلطان مصطفى، لأنّ العساكر بَلَغَهم أنّ مُرادها قَتْلَهم. فانْصَرَفَت[1] العساكر، وبات مولانا يحيى أفندي المفتي والوزير في السّرايا تلك الليلة. فاتَّفَق رأيهم على تَوْلِيَة مولانا السلطان مُراد، فأجلسوه على التّخْت بعد أذان [199أ] العشاء من تلك الليلة. فلمّا أصبح الصّباح، اجتمعت العساكر، وجاءوا إلى السّرايا، وقالوا لمولانا يحيى أفندي والوزير: أخْرِجوا لنا مولانا السلطان مصطفى، لِنَتَكلَّمَ معه كما وعدتّمونا. فذهب الوزير الأعظم علي باشا لِطلبه، فغاب مُدّة، وقال: السلطان مُتَمَرّضٌ في هذا الوقت، ولا يخرج. فقامت العساكر على يحيى أفندي المفتي، وقالوا له: لا بُدَّ أنك تدخل للسّرايا، وتُخْرِج لنا السلطان. فقام ودخل، وغاب ساعة من الزّمان، ثمّ خرج ومولانا السلطان مُراد خَلْفَهُ بتاج المُلك. وقال مولانا يحيى أفندي للعساكر: ما سلطناكم إلاّ مولانا السلطان مُراد. فقالت[2] العساكر بلسان واحد: رضينا به، وهذا كان مُرادنا. وبايعه العساكر بأجْمَعِهِم، ونادوا باسمه في القسطنطينية. هذا، والعساكر لم تعلم[3] بأنّ جلوسه على التّخْت كان من الليل، وشرّط عليهم مولانا السلطان مُراد، حين جلوسه أنه لا يعطي للعسكر بقشيش[4]، ولا ترقّي، لأنّ الخزائن ليس فيها شيء لِمَا أخرجه الوزراء من حين مُدّة مولانا السلطان عثمان، رحمه الله، إلى مُدّة مولانا السلطان مُراد، وأنْ لا أحد يعارضه في عَزْلٍ، ولا في تَوْلِيَةٍ مِن أمْرِ وزير وغيره، كما كنتم تفعلون مع عمّي، السلطان مصطفى. فقالوا جميعًا: سَمْعًا وطاعةً. فكتب [200ب]عليهم حُجّةً بذلك مولانا السلطان مُراد، عند حسين أفندي، قاضي عساكر رميلي، وتَمَّ الأمْرُ على ذلك. ولمولانا

[1] جاءت في الأصل [يُمحِلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] جاءت في الأصل [فقالوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل [يعلموا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] أو بَخْشِيش، وهي الرّشْوَة.

الأستاذ العَم[1] الشّيخ محمد أبي المواهب الصدّيقي[2]، سِبْط آل الحَسن، مُؤَرّخًا تولية مولانا السلطان. فقال:

لَمّـــا تَـــوَلّى مَلِيـــكُ عَـــدْلٍ بـــهِ زمـــانُ السُّـــرورِ لاذا
وأصْـــلَحَ الكَـــوْنَ فـــي انْبِســـاطٍ أرّخـــتُ كُـــلّ المُـــراد هـــذا

ولهُ أيضًا، رحمه الله تعالى، مُؤَرَّخًا، فيه:

لَمّـــا تَـــوَلَّى سَـــرِيرَ المُلْـــكِ مَالِكُنـــا وزَاحَـمَ الفُلْـكَ العـالِي بِمَنْكَبِـهْ
وَصَارَ بالبَخْتِ فَوْقَ التّخْتِ مُرْتَفِعًا فَقُلْـتُ هـذا مُـرادُ اللهِ جـادَ بـهْ

ولِمولانا ولد العَمّ، الشّيخ أحمد زين العابدين الصدّيقي[3]، رحمه الله تعالى، مؤَرَّخًا فيه:

قِيـــلَ بِحَـــقٍّ قـــدْ تَـــوَلَّى مَلِـــكٌ مُلْـــكَ أبيـــهِ بعطـــاءِ اللهِ
واخْتـــارَهُ اللهُ علـى كُـلِّ الـوَرى[4] ســـلطانًا بِعَظِـــيمِ الجَـــاهِ
يُعْطِـــي مُلْكَـــهُ لِمَـــنْ يَشـــاءُ[5] أمْـــرُ المُلْـــوكِ كُلُّـــهُ للهِ
فَهـــوَ المُـــرادُ المُرْتَقِـــي لِرُتْبَـــةٍ مِـــنْ دُونِهـــا كُـــلّ [سَـــمَاهِ][6]
قِيـــلَ فمـــاذا قُلْـــتَ فـي تاريخـهِ أرّختـــــه ذاكَ مُـــــرادُ اللهِ

وله أيضًا، رحمه الله، مُؤَرَّخًا فيه:

[201أ] آلُ عُثمـانٍ لَهُـمْ دولـــةٌ إلـــى المَعـــادْ
عَمَّـــــرَ اللهُ بِهـــــمْ كُـــلَّ أقطـــارِ الـــبلادْ
وَحَبـــاهُم سَـــطْوَةً دائمًـــا بـــينَ العِبـــادْ

[1] أي عمّ المؤرخ محمد بن أبي السّرور البكري الصديقي.

[2] راجع ترجمته عند المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص145-148.

[3] راجع ترجمته عند المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص201-203.

[4] جاءت في الأصل [الورا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل [يشا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] جاءت في الأصل [سموواه]، ولعلّ الصواب ما ثبت أعلاه مع الالتزام بالضرورة الشعريّة.

وَمَحـــا اللهُ بِهِـــمْ كُـلَّ أربـابِ العِنـادْ
كَـمْ أذَلُّـوا ضَـيْغَمًا عَـنْ سَـبيلِ الحَـقِّ حَـادْ
وَأبـادُوا عَسْـكَرَ الـرَّ فْـضِ علَـى حُسْـنِ
خَلَـفٌ عَـنْ سَـلَف سَـلَكُوا طَـرِق الرَّشَـادْ
مـا تَـوَلَّى مَاجِـدٌ مِـنهم إلاّ وَسَـادْ
وَلِشَـرْعِ اللهِ والـدِّ يـنِ والحَـقِّ أشَـادْ
مَلِـكٌ مِـنهم بَـدا وَلَـهُ اللهُ أرادْ
قُلْـت فـي تارِيخِـهِ وَرِثَ الكُـلُّ مُـرَادْ

وللقاضي محمد الطّناشي، رحمه الله تعالى، مُؤَرَّخًا فيه:

لَمّـا تَـوَلّى الآن سـلطانُ المَـلأ[1] وأَقَـرَّ أبصـارًا وأهـدى لِلرَّشـادْ
وَعَـلا علَى كُرُسِيّ الخِلافـةِ راقيًـا أَوْجَ المَعـالي والتّهـانِي لِلعِبـادْ
مَـعَ غايـةِ التِّرحـابِ قُلْـتُ مُؤَرِّخًـا مَلِـكٌ تـوَلَّى المُلْـكِ مَوْلانـا مُـرادْ

ولمولانا الشّيخ علي الصَّعيدي، رحمه الله:

مُـرادُ وُلّـيَ المُلْـكَ سُـلطانُنا وَجَـادَ بـهِ اللهُ رَبُّ العِبـادْ
[202ب]علَى المسلمينَ وَكُلِّ الـوَرى[2] وَدَامَ السُّـرُورُ وَكُـلُّ المُـرادْ
رَحَـلَ الهَنـا وَكُـلُّ الصَّـفا وَزَالَ العَيـا والعَنـا والعِنـادْ
وَقَـدْ أهْلَـكَ اللهُ سُـبْحانهُ بـهِ الظّـالمِين وَأهـلَ الفَسَـادْ
وَصَارَت دِماءُ العِدا في الوَغَى[3] بِحـارًا تُسَـابِقُ خَيْـلَ الطِّـرَادْ

[1] جاءت في الأصل [الملا]، والصواب ما ثبت أعلاه.
[2] جاءت في الأصل [الوغا]، والصواب ما ثبت أعلاه.
[3] جاءت في الأصل [الورا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

وَمِصْـــرُ بـــهِ زُيِّنَـــتْ بَهْجَـــةً وَكُـلُّ القُـرى[1] والمـلأ[2] والـبِلادْ
وَنـــادَى مُنـــادِي الهَنـــا أَرِّخُـــوا مُـراد وُلِّيَ المُلْـكَ بُشْـرَى العِبـادْ

وكان سلطانًا قهّارًا للأعداء، هابته ملوكُ الأطراف جميعًا. وحين جلس على تخْت المُلك، بدأ في قَتْلِ قَتَلَة أخيه المرحوم، مولانا السلطان عثمان، فقتلَ داود باشا وولده، لأنه كان أعظم الأسباب في قَتْلِ السلطان عثمان. ثمّ أعقبه بقتل حسين باشا. ثمّ شرع في قَتْلِ مَن كان له دَخْلٌ من العساكر في قَتْلِ أخيه، فقَتَلَ على التّدريج فوق الثلاثين ألفًا. وخرج عليه في جِهة ديار بكر محمد أبازه[3]، ويوسف باشا الذي كان أمير الحاج بمصر، وهرب من مصر حين قامت عساكرها عليه، فوقع بين يوسف باشا ومحمد أبازه حرب، فَقَتَل محمد أبازه يوسف باشا. ثمّ اسْتقلّ محمد أبازه بالعساكر، فأرسلَ إليه مولانا السلطان مُراد، وزيره الأعظم خسرو باشا[4] فحاربه. [203أ] ثمّ طلب الأمان من خسرو باشا، فأعطاه الأمان، وجهّزه إلى مولانا السلطان مُراد، فأكرمه. ثمّ إنّ مولانا السلطان مُراد، عزل المُفتي مولانا يحيى أفندي بن زكريا، ووَلَّى الإفتاء[5] لحسين أفندي، أخي زاده. فتَصَرّفَ في مولانا السلطان مُراد تصرّفًا زائدًا، ما وقع لمفتي قبله. ثمّ إن مولانا السلطان مُراد، ذهب إلى الصّيد بعيدًا عن إسطنبول مسيرة ثلاثة أيام، فشرع المفتي في تدبير عَزْل السلطان، وأنْ يُجْلِس أحد إخوته الأربعة وهم: بايزيد، المعروف بأورخان، وسليمان، وقاسم، ومولانا السلطان إبراهيم. فبلغ ذلك والدته، فجهّزتْ له قاصدًا تُعْلِمُهُ بذلك، فحين بَلَغَهُ الخَبر،

[1] جاءت في الأصل [القُرا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] جاءت في الأصل [الملا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] محمد أبازة: كان بكلربيك مَرْعَش عندما كُلِّفَ بالتضامن مع خان القرم أثناء حملة ضد الروس عام 1183هـ/ 769م، وبعد عامَيْن تمّ قتْله. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة مادّة "أبازه".

[4] هو "خُسرف" أو خُسرُد". أحد وُلاة مصر من عام 941هـ/ 1535م حتى 943هـ/ 1536م. راجع: ابن زُنبل، آخرة المماليك، ص291، وعبد الرحيم، التحفة البهية، ص106.

[5] جاءت في الأصل [الفتيا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

جاء بالسّرعة بمُفرده. فلمّا قَربَ مِن أسكدار ماتت دابّته، فمشى على رِجْلَيْه إلى أن وصل إلى جانب البحر، فعدّى إلى السّرايا في قارب صغير، ولم يَعلمْ به أحدٌ أنه السلطان. فحين دخل إلى السّرايا وجلس على التّخْت، أرْسَلَ أحْضر حسين أفندي المفتي، وعاتبه قليلاً، ثمّ قَتَلَهُ بيده ورمى جُثَّته إلى الكِلاب، ونفى جماعة مِن العلماء[1] الذين كانوا مؤانسين[2]، وأعاد الإفتاء[3] إلى مولانا يحيى أفندي، واعْتَذَرَ إليه وقال: ما حصل لنا هذا إلاّ بِبَركة تقصيرنا فيك. لأنّ مولانا يحيى أفندي كان مِن أهل العِلم والخَير [204ب] والدّين. ثمّ إنّ مولانا السلطان مُراد، أراد قَتْل العلاّمة نقيب الأشراف، فمنعته عن ذلك والدته وقالت له: أليس هو منسوبًا إلى النّبي صلّى الله عليه وسلم؟ فعزله وأعطاه قضاء[4] مكّة المُشّرفة، فحين وصل إلى بندَر جَدّة، تُوفّي إلى رحمة الله تعالى. ثمّ جاءت له الأخبار من جِهة رميلي بأنّ المَجَر تحرّكتْ، فبرز بعساكره إلى أدرنه، قَصْدَ التّوجّه إلى قِتالهم، فحين سمعوا بخروجه أرسلوا يطلبون منه الصّلح، فأجاب بعد التمنّع الشّديد، وضاعف عليهم ما كانوا يأتون به، ورحل إلى تخْته الشّريف. ثمّ بعد مُدّة قامت عليه العساكر مِن جِهة شخص كان مُقَرّبًا عنده، يُدعى موسى باشا السّلحدار[5]، وكان عنده في غاية العِزّة. فآل الأمْرُ إلى أنْ قَتَله العساكر، فصبر عليهم مُدّةً، وصار يقتل مَن كان سببًا في قَتْلِهِ واحدًا بعد واحد، إلى أن قتل فيه نحو العشرة آلاف. ثمّ جعل وزيرًا شديدًا يُدعى خسرو باشا، وجهّزه إلى جِهة قزلباش[6]، فذهب بالعساكر إلى أن أخرب غالب أطراف بلادهم، لقريب

[1] جاءت في الأصل [العلما]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] أي المؤيّدين والمُناصرين. وقد جاءت في الأصل [الموانسين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل [الفتيا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل [قضا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] في الأصل جاء بعدها [فصبر عليهم] ولكنّ المؤلف شطبهما وأثبتهما في السّطر التالي.

[6] وتُكتب أيضًا " قزل باش". وقد جئتُ على ذِكْرها سابقًا.

تَخْتِهم، وعاد شتاءً[1] في أزروم[2]، فرمى فيه بعض الأعداء إلى مولانا السلطان، فأرْسَلَ إليه قَبْجِيّة فقتلوه، وولّى أحمد باشا [205أ] حافظ[3] وزيرًا أعظم عِوضه. فقامت العساكر على مولانا السلطان مُراد بسبب خسرو باشا، وقالوا: ما كان السّبب في ذلك إلاّ أحمد باشا، فلا بُدّ مِن قَتْلِهِ، فقتلهُ لأجل قيامهم، وخمدت الفِتنة. وولّى مكانه رَجَب باشا مُدّة يسيرة ثمّ قَتَلَهُ، وولّى مكانه محمد باشا[4]، الذي كان مُتولّي على مصر سابقًا. فذهب محمد باشا إلى جِهة قزلباش مُحافظًا في أزروم. ثمّ إن مولانا السلطان مُراد، قصد السّفر إلى جِهة قزلباش، فبرز وِطاقه إلى أسكدار[5] في خامس عشر رمضان سنة أربع وأربعين وألف[6]، ورحل من أسكدار في تاسع شوّال من السّنة المذكورة. واستمرّ مُتوجّهًا إلى جِهة روان[7]، فعقب المحاصرة لها، أخذها في ربيع الأول من السّنة المذكورة، وقتل غالب مَن فيها مِن الأعاجم، وجعل فيها مُرتضى باشا مع اثني عشر ألف من العساكر، وعاد إلى الدّيار الرّومية. فلمّا وصل إلى ديار بكر، أرسل بشير آغا[8] إلى القائم مقامه بالروم، وهو بيرم باشا[9]، مُتولّي مصر سابقًا، بأن يقتل أخوَيْهِ وهما: بايزيد المعروف بأورخان، وسليمان، ففُتِلا. فأمّا سليمان، فما قُتِل حتى قَتَل ستة عشر نفسًا وأراد الهروب، فطلع على حائط

[1] جاءت في الأصل [شتى]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] اسم مدينة تركيّة تقع في الشّرق.

[3] تولّى ولاية مصر عام999هـ/ 1591 حتى 1003هـ/ 1595. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص117-118.

[4] تولّى ولاية مصر1003هـ/ 1595م حتى 1004هـ/ 1596م. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص118-120.

[5] هي الجزء الآسيوي من مدينة إسطنبول، ومن أكبر الأحياء فيها، وتُعتَبر مركز هام من مراكز التّصوف في المدينة. ولقد جئتُ على ذِكرها سابقًا.

[6] 1044هـ/ 1634م.

[7] إحدى مدن بلاد فارس.

[8] راجع أيضًا: عبد الرحيم، أوضح الإشارات، ص247-248.

[9] تولّى ولاية مصر عام 1035هـ/ 1626م حتى 1038هـ/ 1628. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص147-148.

فرمى[1] بنفسه، فكُسِرَتْ إحدى رِجْلَيْهِ، فمسكه بشير آغا [206ب] وخنقه. ثمّ لمّا دخل مولانا السلطان مُراد إلى تخْت مُلْكِه، جاءت الأعاجم إلى روان، وقتلوا جميع مَن فيها مِن العساكر، وقتلوا مُرتضى باشا، فجاء الخبر بذلك لمولانا السلطان، فاشْتدّ غضبه وزاد حنقه. ومِن الحوادث الغريبة في زمنه، أنّ في سابع عشر شعبان سنة تسع وثلاثين وألف[2]، جاء سَيْلٌ بمكّة المُشَرّفة ودخل الحَرَم الشّريف، وتزايد ذلك حتى هدم جانبًا من البيت الشّريف، ولم يبقَ منه سِوى الرّكن اليماني، وجاءت الأخبار إلى وزيره محمد باشا مُتولّي مصر سابقًا، من السيّد مسعود أمير مكّة. فَعَرَضَ الوزير محمد باشا هذه الواقعة على مولانا السلطان مُراد، فأمَر وزيره المذكور بالاهتمام بعمارة البيت الشّريف. فأرسل محمد باشا، آلة عِمارة مِن أخشاب، وحديد، ورُخام وغير ذلك. وأرسلَ معمار باشي يوسف، وشخص يُدْعَى رضوان آغا ومِعمارية، معهما مِن نجّارين، وبنائين، ومُرَخِّمين، وفعلة وغير ذلك مِمّا يحتاج إليه. فكان جُملة ما جهّزه الوزير محمد باشا ما يزيد ثَمَنُه على مائة ألف قرش، وتمّتْ هذه العِمارة في سنة أربعين وألف[3]. ويكفي مولانا السلطان شَرَفًا، بأنْ أهّله الله تعالى لِعِمارة بيته الشّريف، وهذا [207أ] أمْرٌ لم يتيسّرْ لأحد من الخلفاء، ولا الملوك مِن زمن عبد الملك بن مروان[4]، رابع خلفاء بني أميّة، إلى زمنه الشّريف، ولا شك أن الله تعالى يغفر له بذلك. ومن الحوادث في زمنه أنّ شخصًا في جِهة

[1] جاءت في الأصل [حايط فأرمى]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] 1039هـ/ 1629م.

[3] 1040هـ/ 1630م.

[4] تولّى خلافة الدولة الأمويّة عام 26هـ/ 646م حتى عام86هـ/ 705م، وهو غنيّ عن التعريف. راجع: عبد الرحيم، لطائف أخبار الأُوَل، ص115-116.

الشّام، يُسمى فخر الدين ابن معن[1]، رأس الدّروز، ظاهره طائع[2]، وباطنه عاصٍ، ليس له دين يتديّن به، ولا قَدِرَتْ عليه الملوك السّابقة. فاهْتمّ في إزالته من هذا القُطر مولانا السلطان مُراد، فأرسلَ إلى باشت الشّام كجك أحمد[3] يأْمُرْهُ بمقاتلته وإزالته. فجمع له كجك أحمد باشا العساكر وذهب إليه، فقاتله وقَتَل غالب إتباعه، وأخذ منه واحدًا[4] وعشرين حِصْنًا من الحصون الإسماعيلية، فتَحَصّنَ في قلعة الشّقيف[5]، فحاصره أشدَّ حصار فوق السّنة، وأحضر الحجّارين ونقبَ الجبل مِن أسفله إلى أن أحَسّ بالزوال، فسلّم أهله وماله، ثمّ أنه هرب ولم يُعْلَم له خَبر. فأخذ أحمد باشا أمواله، وأولاده، وأرسل ذلك إلى حضرته الشّريفة. فزالت طائفة الدّروز من هذا القُطر، وهم الذين يُقال لهم في سابق الزّمان الباطنيّة[6]. وصارت حصونه باشويّة[7] كبيرة، أجَلّ مِن باشويّة الشّام، وكُرْسِيّها مدينة طرابلس[8].

[1] هو الأمير فخر الدين بن قرقماز معن، يُعْرَف أيضًا بفخر الدّين المعني الثاني الكبير لأنّ جدّه كان يُسمّى فخر الدّين.، وهو أحد أعظم أمراء لبنان من آل معن الدروز في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد. قُتِل عام 1045هـ/ 1635م. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص125، 282.

[2] جاءت في الأصل [طايع]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] راجع: الصبّاغ، المِنح الرحمانيّة، ص282.

[4] جاءت في الأصل [إحدى]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] وتُعرَف أيضًا بقلعة "البوفور" أو "قلعة شقيف أرنون"، وقد بناها الرّومان. تقع في لبنان على هضبة صخريّة عالية وتُشرف على نهر الليطاني وسهل مرج عيون.

[6] هي إحدى فِرَق الشّيعة، وتُسمّى أيضاً الإسماعيليّة. سُمّيت بالباطنيّة على يد أهل السُّنّة لأنّ ظاهر اعتقادهم بعكس باطنه.

[7] أي تابعة وتحت سلطة الباشا العثماني.

[8] أحدى مُدن سوريا اليوم.

ومِن الحوادث في زمنه، أنه لمّا كان خامس عشرين شعبان سنة إحدى وأربعين وألف[1]، [208ب] وردت عساكر مِن جِهة اليمن بالمكاحل والعُدَد[2] إلى مكّة المُشرّفة، فبرز مَن كان بمكّة مِن العساكر والأشراف لِقِتالهم، وكذلك صنجق جَدّة الأمير مصطفى بيك، الذي كان مُعَيّنًا مِن مصر إلى محافظة جَدّة، فتقاتل الفريقان بُرْهة من الزّمان، فانْكَسَرَت الأشراف، وقُتِل الأمير مصطفى بيك، وكذلك السيّد محمد، أمير مكّة المُشَرّفة. ومَلَكَ العُصَاةُ مكّة المُشَرّفة، واسْتباحوها قَتْلاً ونَهْبًا وفسقًا، وجعلوا عليهم أميرًا من الأشراف يُسمى نامي[3]، فعيّن بيكلربيك مصر، خليل باشا[4] عسكرًا وعليهم سردار الأمير قاسم بيك[5]، ومعه بعض صناجق مصر. فذهبوا إليهم وأزالوهم، وقُتِل نامي أميرهم. ومِن الحوادث، إرساله اثني عشر ألف قِنطارًا من النّحاس، وأمر وزيره أحمد باشا، بأن يبيعه لأهالي مصر، كل قِنطار بسبعين شريفيّ[6]، وذلك في أواخر شوّال سنة ثلاث وأربعين وألف[7]. فعمّ البلاء[8] لأهالي مصر، فباعت أسبابها، وعقاراتها، حتى أنّ بعضهم باع أولاده. وكان السّبب في مجيء النّحاس، الظالم حسن الدفتردار، الذي كان مِن أتباع الوزير حسن باشا، قابله اللهُ بسوء فِعله، في نَشْرِهِ وَحَشْرِهِ. وقد بيّنا ذلك مُفَصّلاً في تولية أحمد باشا على مصر[9].

---

[1] 1041هـ/ 1631م.

[2] أي العتاد الحربي.

[3] راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص156-157.

[4] تولّى ولاية مصر عام1041هـ/ 1631م حتى عام 1042هـ/ 1632م. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص150-162.

[5] راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص105.

[6] هو نقد يعادل الدّينار. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص353.

[7] 1043هـ/ 1633م.

[8] جاءت في الأصل [البلا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[9] راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، 133-136.

[209أ] ومِن حُسن تدبيره، واقعته مع طائفة[1] الإسباهيّة بالرّوم، وذلك أنهم كانوا في غاية الشِّدَّة، وكان مِن دأْبهم أنهم يُرسلوا أوراقًا للأكابر، يطلبون منهم دراهم، فلا يسعهم المُخالفة، وكلُّ مَنْ خالف، هجموا بيته ونهبوه، واستباحوا حريمه، وإنْ وُجِدَ قتلوه. فجاء عيدٌ من الأعياد، فأرسلوا لِغالبِ أكابر إسطنبول مِن وزير وغيره، الشُّمع السَّكَنْدَرِيّ يطلبون بذلك حَلَوان العِيد، فأدّاهم التَّجرّي[2] أن أرْسَلوا لمولانا السلطان مُراد جانبًا مِن الشُّمع. فأرسل لهم مولانا السلطان، ألف دينار ذهبًا فرَدّوها عليه وقالوا: نحن ما نريد إلاّ أن تعطينا خَدَمًا[3] في جانب أناطولي، وجانب رميلي، وسمّوها له. وكانت هذه الخَدَم ليست لهم كلّها، فأجابهم مولانا السلطان إلى ذلك وقال لهم: يجتمع عندي أكابركم، وهم: فلان، وفلان، وعدّ نحو أربعمائة[4] إنسان منهم، وهم شِرارهم، وأنا أعطيهم جميع ما يطلبون. فظنُّوا أنّ ذلك صحيح، وما كان ذلك من مولانا السلطان مُراد، إلاّ خديعة. فحين دخلوا إلى السّرايا قُفِلَتْ عليهم، وأمَر أتباعه الذين هم في السّرايا، أن يضعوا فيهم السّيف، فقُتِلوا عن آخرهم. وصاروا أتباع مولانا السلطان، يُلْقُونَهم في البحر، فحين رأوا ذلك بقية طائفتهم[5] [210ب] مِن الإسباهيّة، أخذوا أسبابهم وهربوا، وهم نحو العشرين ألفًا، وذهبوا إلى جِهة أناطولي، وجعلوا عليهم رئيسًا[6]، وهو شخص منهم يُدعى روم محمد. وصاروا خوارج، فأرسلَ لهم مولانا السلطان مُراد، عسكرًا مِن طائفة الينجريّة، فأخذوهم عن آخرهم، ومُسِك روم محمد وجيء به إلى مولانا السلطان مُراد، فَصَلَبَهُ. وكفى اللهُ شَرّهم عن أهالي الدِّيار الرُّوميّة.

[1] جاءت في الأصل [طايفة] في كل النّص، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] أي الجُرْأة.

[3] جاءت في الأصل [خدم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] جاءت في الأصل [أربعماية]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل [طايفتهم]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] جاءت في الأصل [رءيسا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

ذِكْرُ فَتْحِ مولانا السلطان مُراد مدينة بغداد عُنوةً

وذلك أنّ مولانا السلطان مُراد، جمع العساكر مِن جميع أقاليمه، وقصد التّوجّه إلى بغداد التي أخذها طائفة الأُزْفَاض[1] بالحِيلة منذ ثماني عشرة[2] سنة، فخرج من الدّيار الرّوميّة في شوّال سنة سبع وأربعين وألف[3]، وما زال مُتوجّهًا بعساكره الجرّارة إلى أن حَلَّ رِكابُهُ الشّريف في ثامن رَجَب من سنة ثمان وأربعين وألف[4] بِمَحَلٍّ يُعرف، بباش دولاب، بالقرب مِن قَلعة بغداد، مقدار رَمْيَةِ سَهْمٍ بالنّشاب مَرَّتَيْنِ، قريبًا مِن مقام الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان، رضي الله عنه. فاسْتَخْفَى مولانا السلطان، ورَكِبِ جَوَادًا جيّدًا مِن خَيْلِهِ، وسار حول القَلعة لِيُنْظُرَ مِن أي جِهاتها تُؤْخَذ، ويُمْكِن المحاصرة إليها، ولم يخشَ [211أ] مِن المَدافع والبُنْدُق الذي يُرمَى من جِهة العدوّ. فدار حول القلعة بقلب أقوى من الصّخر، فنظر بناء القَلعة من جِهة مقام الإمام أبي حنيفة، والباب المعروف بالباب الأسود، بناءٌ لم يمكن أنْ يُبْنَى مثله، ولا تُمكن المُحاصرة من جِهته، لأنّ لهم نحو الخمس عشرة[5] سنة يَسْتَحْكِمُون في بنائه. وأمّا من جِهة الخَلاء[6]، من الباب الأبيض، نظرُهُ تَمْكُنُ المُحاصرة منه، لأنهم لم يتقيّدوا ببنائه، لِتوهّمهم عدم المُحاصرة من جِهته، فأمَر مولانا السلطان مُراد، أن يُحاصروا منه. فعند ذلك دخلت[7] طائفة الينجريّة للمتاريس

[1] الأرفاض: وهم الرافضة، وهم من شيعة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. وقد كانوا أتباع زيد بن علي زين العابدين، إلاّ أنه عندما أعلن زيد أنّ بيعة أبا بكر وعمر صحيحة، تركه بعض أتباعه فسُمّوا الرّافضة. راجع: ابن خلدون، ديوان العِبَر، ج3، ص172.

[2] جاءت في الأصل [ثمانية عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] 1047هـ/ 1637م.

[4] 1048هم 1638م.

[5] جاءت في الأصل [الخمسة عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] جاءت في الأصل [الخلا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاءت في الأصل [دخلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

وأحكموها، ووضعوا المَدافع، وشرعوا في هَدْمِ القَلعة وأسوارها بالمَدافع، وذلك قَبْلَ حَفْرِهم الطّريق المعروف بطريق الفأر، لأنه[1] جرت عادة العثمانيّة أن يحفروا طريقًا معوجّة في الأرض، ليدخلوا إلى المتاريس[2] منها، حتى لا يراهم العدو. [وصار الطّباخون يحملون الدّسوت ويذهبون][3] بها إلى جِهة المتاريس، وكان حَفْرُ هذه الطريق المذكورة بعد عشرين يومًا من المُحاصرة. فحاصر من جِهة الباب الأبيض والقَلعة الكبيرة التي بِرُكْن[4] الوزير محمد باشا. ثمّ يليه في المُحاصرة قبطان[5] باشا، الوزير مصطفى باشا[6]. ثمّ يليه في المُحاصرة من جِهة بُرج العَجَم حسين باشا، [212ب] المحافظ بأناظولي، ومن جِهة القَلعة المعروفة بقلعة الطّيور قانصوة باشا، وهو الذي كان أمير الحاج بمصر، ثمّ باشت اليمن مع سلحدارباشي، وحاصرهم من الباب الأسود، حتى لا يُمكّن العدو من الظّهور منه، الباشا بقرمان[7] والباشا بمرعش[8]. وأمّا العساكر المصرية، فإنهم عُيِّنوا بمقابلة بُرْج العَجَم للغفر، خوفًا من هجوم العدو ليلاً، ودرويش محمد باشا بديار بكر وراء المتاريس، فرموا

[1] جاءت في الأصل [لأن]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] مُفردها "تُرْس" وهو ما يُتَوَقّى به من الحَرب، وهي قطعة من الحديد مُستديرة ومُسنّنة. والمتاريس هنا، هي ما يُحتمى به أو من خَلْفه من المحاربين راجع: المعجم الوسيط، مادّة "ترّس".

[3] جاءت في الأصل [وصارت الطباخين تحمل الدّسوت وتذهب]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. الدّسوت: مُفردها دِسْت، وهي كلمة فارسية تعني المَحل المخصّص للسيّد الكبير في صدر المجلس، أو مقرّ السلطان، أو كرسيّ السلطان. وهي تعني أيضًا "السِّجلّات الرّسميّة". راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص181، والنهروالي، البرق اليماني، ص77.

[4] جاءت في الأصل [بالركن]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] أي " الكابتن"، أو قائد الأسطول أو السّفينة. راجع: النّهروالي، البرق اليماني، ص79.

[6] تولّى ولاية مصر عام 1032هـ/ 1623م. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص142-147.

[7] سبق ذِكْرها.

[8] مَرْعَش: من ثغور أرمينية، وهي مدينة حصينة عليها سور حجارة منيع. راجع: الحِمْيَري، الرّوض المِعطار، ص541-542.

قزلباش نحو الخمسة[1] مدافع على ثلاث متاريس هدمتها، وهلك خَلْقٌ كثير. فعند ذلك أمر مولانا السلطان مُراد، بإحضار أربع مدافع كبار يقال لها "بال يماز"، أي التي لم تأكل العسل لِكِبَرِها، وأدخلها محمد باشا المُشار إليه، في المتاريس وأحْكَمَ وَضْعَها، بحيث ترمي على المَدافع التي ترمي مِن بُرج العَجَم، فأبطل رَمْيَها. فاسْتراحت لذلك العساكر، لأنّ مدافع العدو كادت أن تهدم المتاريس، فأبطلها بعون الله تعالى، واسْتمرّ الحالُ على هذا المِنوال عشرين يومًا. ثمّ شرعتْ قزلباش في كَبِّ الأتربة بالخندق، وبنى عساكر السلطان على جوانبه شيئًا على هيئة الأكوام[2]، وبنى قبطان باشا على جانب الخندق كومًا عاليًا على شَكْلِ المَركب [213أ] المعروفة عند الرّوم بالغُراب، يرمي منه إلى داخل بغداد، بحيث لم يقدر أحد من قزلباش أن يظهر فيها، فرموا بالمَدافع على القِلاع والأسوار، فخربت مِن الأعلى. وأمّا مِن أسفل فلم يُمكن، لكون قزلباش جعلوا أتربة الخندق من خارج القَلعة، بحيث أنّ القَلعة صارت مدفونة بالتّراب، فإذا رمى المدفع لم يُخَرّب إلاّ مِقدار مَحَلّه، لكثرة الأتربة. فعند ذلك أُحْضِرَت المدافع الكِبار المَبدي بِذِكْرِها وَوُضِعَتْ على جانب الخندق، وقامت القيامة على رؤوس قزلباش لذلك. ثمّ شرع عسكر السلطان في تدارك كَبِّ التّراب وَرَمْيِه في الخندق، فجعلوا قزلباش يسرقون التّراب الذي يُكَبّ في الخندق. فلمّا رأى[3] قبطان باشا مصطفى باشا، فِعْلهم لذلك، شَقَّ المتاريس وجعل فيها مداخل مُتعدّدة، وأدخل جماعة لذلك الخندق، فقاتلوهم أشَدَّ قِتال، وجعل أيضًا نحو ثمانية أبواب من جِهة الحائط الذي بمقابلتهم، فصارت قزلباش مُتَمَسّكة بحائط القَلعة، وعسكر السلطان من داخل الخندق. واستمرَّ القِتال على هذا المِنوال عشرة أيام، فبرز الأمر الشّريف السلطانيّ، بأنْ يهجم جميع العساكر دفعة واحدة. فاجْتَمَعُوا حتى صاروا

[1] جاءت في الأصل [الخمس]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] جاءت في الأصل [الكيمان]، وقد سبق ذِكْرُها.

[3] جاءت في الأصل [رءى]، والصواب ما ثبت أعلاه.

كالجِبال، وحضر العسكر [214ب] الفارغين[1] عن أنفسهم، وأيضًا طائفة من العسكر هم أولاد الناس، وأيضا طائفة من العسكر هم الذين قُطِعَتْ جوامكهم[2] وعادت لهم، وبُنِيَت الأكوام[3] بجانب الخندق للمتاريس. وكان وقت الضُّحى الكبرى، ونهض الوزير الأعظم محمد باشا ذلك الوقت، ودخل لِحضرة مولانا السلطان يشاوره في بعض الأمور المُهِمّة. ثمّ عاد إلى المتاريس في تلك الساعة، فِمن كثرة ضَرْبِ المدافع والبُنْدُق، وعُلُوّ صوتهم، ظنَّ أنه وقع الهجوم من طائفة الفُجّار. فإذا ذلك طائفتان من العسكر المنصور، هجموا على القَلعة التي في الرُّكن. وكان ذلك مِن غير مُراد[4] الوزير الأعظم، فإنه لم يكن مُراده الهجوم في ذلك اليوم. فذهب من العسكر المنصور جانب، وتعلق مِن العسكر المنصور نحو ستمائة نَفْس، ومن قزلباش نحو ذلك. فتقاتل الفَرِيقان[5] إلى أذان المغرب، ومنها إلى الصُّبح فوق القَلعة، وتعلّق بعضهم ببعض، وصاروا يتلاطمون بالسُّيوف والخناجر والأطواق[6] من الجانبين، فهلك من الفريقَيْن خَلْقٌ كثير. ثمّ تداركهم جماعة ذات[7] قوّة من أتباع قبطان باشا ومن غيرهم، وتعلّقوا بالحيطان. وأمّا جماعة حسين باشا فأخذوا نِصف قَلْعة كبيرة. واسْتمرَّ الحالُ على هذا ذلك النهار وتلك [215أ] الليلة، والقِتال والجِدال واقع لم [يَفْتُرَا ولو لساعة واحدة][8]، وقزلباش بأجمعهم أظهروا قوّتهم وهجموا

[1] أي مَنْ ليس لهم عمل أو مُهِمّة.

[2] أي مُرتّباتهم.

[3] جاءت في الأصل [الكيمان]، وقد سبق ذِكْرُها.

[4] أي بدون عِلْمه وموافقته.

[5] جاءت في الأصل [فتقاتلوا الفريقين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] مُفردها "طوق". وهو نوع آخر من السلاح الأبيض يشبه الخنجر يستعمله المُحارب، وهو معروف بهذا الاسم عند أهل مصر.

[7] جاءت في الأصل [ذو]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[8] جاءت في الأصل [لم يفتروا ولا الساعة الواحدة]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

دفعة واحده، هجومًا لا يمكن التّعبير عنه، ولم يكن العسكر السلطاني أن يتأخر عنهم قَدْرَ شِبْر خوفًا من الهزيمة. ثمّ نهض العسكر المنصور عليهم ثانيًا، وحصل القِتال الشّديد الذي لم يُعْهَد مثله، وكان يومًا مشهودًا. وجاءت في الوزير الأعظم، محمد باشا، ضَرْبةٌ بندقيّة، فمات لِوقتهِ شهيدًا. وتوّلى الوزارة العظمى بعده في تلك السّاعة قبطان باشا مصطفى باشا. فجاء إلى المتاريس فورًا وأخرج أكياس الذّهب وقال للعسكر: أروني قوّتكم وشجاعتكم، فهذا وقت المَرْوّة[1] وأمَرَهم بالهجوم جميعًا على القلعة وأسوارها، وأن يقاتلوا أشدَّ القِتال. فكان إذا جُرِح أحدٌ من العسكر أو ضُرِبَ بحجر فَجُرِحَ، أعطاه الوزير عشرة[2] دنانير، فقوّى قلب العسكر بذلك، حتى أنّ بعضهم يتمنّى لو ضُرِبَ بحجر، لأجْلِ أخْذِ الإحسان. وهجموا على قزلباش وتقدّموا لهم، حتى كادت قزلباش أن تزهق أنفسهم، وقالت[3] جماعة قزلباش: إنِ اسْتمرَّ الأمْرُ على هذا الحال إلى الصّبح، [لن][4] يُبقُوا مِنّا أحدًا، و[لن][5] يعطونا أمانًا، بل يُهلكونا جميعًا. فعند ذلك حصل النِّداء منهم بِطَلَبِ الأمان وقت التّسبيح[6] على المَنارة، [216ب] وتركوا رَمْيَ المدافع والبُنْدُق. واسْتمرَّ كلُّ شخص في مَحَلّه ثابت على قدميه. فلمّا أصبح الصّباح خرج بكتاش خان[7] وقت الضّحى، وحضر لِرِكاب مولانا السلطان مُراد، وباس[8] الأرض. فخلع مولانا السلطان عليه قفطانًا

[1] أو المُروءة.

[2] جاءت في الأصل [عَشْر]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل [وقالوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل [لم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] أنظر الهامش السابق.

[6] أي وقتَ الفجْر قبل أذان صلاة الصّبح.

[7] هو الشّيخ بكتاش، شيخ الينجشريّة، وهو الذي تُنسَب إليه الفِرقة الصوفيّة البكتاشيّة. وقد جئتُ على ذِكْر ذلك سابقًا.

[8] أي قبّلها.

بِفَرْوَة وريشة مُذَهَّبة، وخنجر. وأمَر حضرة مولانا السلطان، بأن يُحضر مَن بالقلعة من الخانات وسائر أكابرهم لِركابه السّعيد، وأعطاهم الأمان جميعًا. فأُرْسِلَتْ لهم الأوراق بذلك. هذا، وعسكرُ السلطانِ لمّا رأوا بكتاش خان خرج بالأمان، طلعوا على السُّور[1]، واخْتلطوا بقزلباش وتصاحبوا معهم، ففرّت جماعة من قزلباش إلى داخل مدينة بغداد. وأمّا العسكر المنصور فتفرّقوا على الأبراج والأسوار، ووضعوا البيارق والصناجق عليها، وملكوها. وقال حضرة مولانا السلطان مُراد لبكتاش خان: إنْ خَرَجَت الخانات[2] ورؤوس[3] العسكر من القَلعة في هذا اليوم فَلَهُم الأمان، وإلاّ، فلا أمان لهم عندي بعد ذلك، فَلْيَعْلَمُوا ذلك. غير أنّ الخانات الذين هم[4]: مير فَتّاح خان، وخَلَف خان، وعلي يارخان، ولالا محمد حسين، وسائر مَن بَقِيَ منهم، ليس لهم مُراد في الحُضور، وإنمّا مُرادهم ونيّتهم أن يخرجوا من الباب المعروف بالباب الأسود، ويتوجّهوا إلى بلاد العَجَمِ[5]. [217أ] فأرسلَ مولانا السلطان في طلبهم المَرّات العديدة، وكلمّا حضر لهم نَفَر يطلبهم، يُوقِعوا فيهم الضّرب بالرّصاص، فجرحوا خَلْقًا كثيرًا مِمّن لم يكن جُرِح في الأوّل. ثمّ بعد ذلك خرج الخانات المذكورون، حيث لم يصلوا إلى مُرادِهم من الهروب، فأُخْرِجوا غَصْبًا وقَهْرًا وضَرْبًا، وجاءوا لِحضرة مولانا السلطان، وقبّلوا الأرض بين يديه. فقال مولانا السلطان مُراد، لِمير فَتّاج خان: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟ فقال: لم يكنْ مُرادي أن آتي لكم بالحياة، لأنه لم يبقَ لي وَجْهٌ أقابلكم به، فإنكم أعْتَقْتُمُوني عند فَتْحِ قلعة روان، والآن فقد قاتلتُ عسكركم. ولكنّ ذلك لِكَوْنِي من عسكر الشّاه وعبيده، ولم تَسَعَنِي مُخالفته، ولم أقْدِرْ

[1] جاءت في الأصل [الصّور]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[2] مُفردها "خان"، وهو لقب تركي يُطلَق على السلطان التركي أو الحاكم التّركي. ويُقال أيضًا: "قاغان" أو بالرسم العربيّ "خاقان". ويُقابله بالفارسيّة "شاهنشاه" أي ملك الملوك. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص5.

[3] جاءت في الأصل [رءوس]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[4] لم يُعْثَر لهم على ترجمة.

[5] أي بلاد فارس.

أتَخَلّف. وأمّا الآن فالأمْر لِمولانا السلطان مُراد. هذا، والقِتال في داخل المدينة مُتزايد، حتى قُتِل في ذلك اليوم نحو الخمسة آلاف من عسكر قزلباش، وخرج منهم ألْفَيْن وقت المغرب من الجِهة التي بها العساكر المِصريّة. وكان هناك عثمان آغا كتخدا سلحدار باشي بعسكره، وباشت قرمان بعسكره، وباشت مَرْعَش بعسكره، فَجَدُّوا السّيْرَ خَلْفَ الألْفَيْن المذكورَيْن، وتقدّم على العسكر عثمان كتخدا، لِقوّته وشجاعته، فجُرِح [218ب] في مَحَلَّيْن، وجُرِح جانب من العسكر، وقُتل جانب. وحصل القِتال الشّديد من العساكر المصريّة، فلم يَخْلُصْ أحد من الألْفَيْن القزلباشيّة، بل أُذِيقوا طعم السّيوف الماضية، لأنهم كانوا مُشاة، والمَحَلّ الذي خرجوا فيه وادٍ مُتّسع، فلمْ يُحَسَنْ تمام قَتْلهم إلاّ وقْت الضُّحى. فكان جُملة مَن قُتل مِن قزلباش نحو عشرين ألفًا. وأمّا الخانات الذين أُخْرِجوا بالأمان، فوجوههم ورؤوسهم[1] وأبدانهم مجروحة مِن ضَرْبِ الحِجارة. والنُّصرة التي أعطاها اللهُ تعالى لِعساكر مولانا السلطان مُراد، لا نظير لها، ولم يقع ذلك في تاريخ مِن التّواريخ. وإمّا مَن خَلُصَ من قزلباش، فإنهم خَدَمَة الخانات، وهم عشرون نَفْسًا. وأمّا ما كان مِن أمْر الخانات الذين أمْسَكُوا[2] ببكتاش خان ونفتي خان، عند الوزير الأعظم. ومير فَتّاح خان ولالا محمد حسين، عند سلحدار باشي. وخَلف خان وجماعة مِن رؤوس[3] العسكر، عند حسين باشا، وبقية رؤوسهم عند جماعات مِن العسكر. وأمّا مير فَتّاح خان، فإنه شَرب بعض أقداح مِن الخِمْرِ. فلمّا أن ظهر السُّكْرُ عليه بكى، فقيل له: وَلِمَ تبكي؟ فقال: وكيف لا أبكي وقد هَلَكَتْ هذه العساكر الشَّديدة، ولا يتَّفق مِثل هذه العساكر، لأن عساكر الشَّاه [219أ] الموصوفة بالشجاعة، كُلُّها كانت بالقَلعة، وقد أُخِذَتْ وقُتِلَتْ بالسّيوف. فالْوَيْلُ ثمّ الْوَيْلُ

[1] جاءت في الأصل [رءوسهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[2] جاءت في الأصل [الذي مسكوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] جاءت في الأصل [رءوس]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

للشَّاه، لأنه لو خُيّر بين عشر قِلاع كان يدفعها لأجل هؤلاء العساكر الذين قُتِلوا، لأعطى القِلاع ولم يعطِ العساكر، ولكنْ سبق القضاءُ والقَدَرُ. وفي الحقيقة أنّ عسكره كمَا ذُكِر، فيهم القوَة والشِّدّة، ولهذا ظَنَّ الشّاه أنه لا يُمكن أخْذَ بغداد ولا فَتْحِها، فأرسل فيها قزلار آغاسي[1]، وكان يفتخر بها ويقول: عندي قَلعة مبنيّة بالرّجال. وأمّا الآن، فقد أخبرت الجواسيس أنه لم يبقَ عند الشّاه من العسكر إلاّ نحو ثلاثة آلاف نَفْس، وعند سِرداره رُسْتُم خان، اثني عشر ألف نَفْس. ولم يُعهد قَبْلَ ذلك أنه قُتِل من عسكر قزلباش في قِتال عشرون ألفًا، إلاّ في هذه المَرَّة، وَحَصَلَتْ لِعساكر السُّنّة النّصرة الإلهية. وكان عندهم الرّخاء الزائد. وقد قال بكتاش خان يومًا: تَسْتَحِقُّ قزلباش هذا السّيف الذي وقع فيهم، لأنّ القَلعة التي فيها خمس من الحُكّام مآلُها إلى هذا الحال وأكثر. ولمّا تمّ فَتْح بغداد، برز وِطاق السلطنة الشّريفة يوم الاثنين حادي عشر شعبان، ونُصِبَ بالقُرب من بغداد. ثمّ توجّه إلى ديار بكر بعد عشرة أيام من فَتْحِها، وأمَر مولانا السلطان، [220ب] بِعِمارة أسوارها. فاجْتَهَدوا غاية الاجتهاد في العِمارة. وكان على ذلك وزيره الأعظم مصطفى باشا، فأحْكَمُوا بِناء سورها[2] أحسن ما كانت عليه، بحيث أنه لم يبقَ يمكن أخْذَها بعد ذلك عُنوة. ثمّ بعد تمام العِمارة، توجّه الوزير الأعظم، هو وجميع العساكر إلى جِهة العَجَم، فبعد عشرة أيام من ذهابه، أتى إلى الوزير الأعظم شخص من خانات الشّاه، يُقال له صاري خان، وتكلّم في قضية الصّلح على قَلْعَتَيْن تُعْطَى للوزير، هما في فَم بلاد العَجَم. فأُعْطِيَت القَلعتان، ووُضِعَ فيهما العساكر المنصورة، وعاد الوزير مؤيّدًا منصورًا. وَوُضِع في بغداد اثنا عشر[3] ألفًا من العساكر ذوي القوّة والشِّدّة. وأمَر أن لا يُؤْخَذ مِن إقليمها خَراج سبع سنوات، وَوُضِع بها باشا يُدعى درويش محمد، ولم يُعْهَد أنّ بغداد أُخِذتْ عُنْوَة إلاّ في هذه الوقعة. وَقَتَلَ مولانا السلطان مُراد في مُدَّة مُلْكِهِ ثلاثة إخوة من إخوته وهم: مولانا السلطان بايزيد المعروف بأورخان، ومولانا السلطان سليمان، وكانا شَقِيقَيْهِ، ومولانا السلطان قاسم. وأمّا مولانا

[1] جاءت في الأصل [قزلار اغاسي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[2] يُلاحظ من النّص أنّ البكري يكتبها مَرّة بحرف [السين]وأحيانًا أُخرى بحرف [الصاد]. والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل[اثني عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

السلطان مصطفى، فإنه تُوفِّيَ عند عَوْدِ مولانا السلطان مُراد من هذه الغَزْوة. هذا وقد ملأت هَيْبَةُ مولانا السلطان مُراد جميع الأقطار، [221أ] وهابته ملوك الأطراف، وهاداهُ مَلِكُ الهند جرم شاه مَرَّتَيْن، مع أنّ بينه وبين بلاده سفر أربعة أشهر. وهذا لم يُعْهَد لِمَلك من ملوك آل عثمان أنّ مَلِكًا من ملوك الهند هاداهُ فأيّدَهُ. أُتُّفِقَ في ملوك آل عثمان أمْرٌ لم يُتّفق في غيرهم، فيهم أخَوان تَمَلَّكا المُلك من أولاد المرحوم السلطان محمد، وهُما: السلطان أحمد، والسلطان مصطفى. فأمّا السلطان أحمد، فتولّى المُلك في يوم الأحد سابع عشر رَجَب سنة اثنتي عشرة[1] وألف، وتُوفِّيَ في يوم الأربعاء سنة ست وعشرين وألف[2]. وأمّا السلطان مصطفى، فتولّى المُلك في رابع عشر ذي القِعدة سنة ست وعشرين وألف، وخُلِعَ في يوم الأربعاء ثالث ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين وألف[3]. وتولَّى المُلك من أولاد المرحوم السلطان أحمد ثلاثة وهم: السلطان عثمان، والسلطان مُراد، ومولانا السلطان إبراهيم نصرهُ الله تعالى. فأمّا السلطان عثمان، فتولّى المُلك في يوم الأربعاء ثالث ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين وألف، وتُوفِّيَ في يوم الخميس ثامن رَجَب سنة إحدى وثلاثين وألف[4]. ولم يُعْهَدْ في الدولة العثمانيّة أنّ أحدًا مِن مُلوكهم قَتَلَتْهُ العساكر غيره، فإنّا لله وإنّا [222ب] إليه راجعون. وأمّا السلطان مُراد، فتَولَّى المُلك بعد أن أُعيد السلطان مصطفى، وهذا أيضًا لم يُتَّفَقْ في آل عثمان، أنّ سلطانًا خُلِعَ وأُعيد لِلْمُلك، وذلك بعد مَقْتَل ولد أخيه، السلطان عثمان. وكانت ولايته في خامس عشر ذي القِعدة سنة اثنَتَيْن[5] وثلاثين وألف، وتُوفِّيَ في عَصْرِ يوم الخميس سادس عشر شوّال سنة تسع وأربعين وألف[6]. وأمّا مولانا السلطان إبراهيم، نصرهُ اللهُ تعالى، فتَوَلَّى المُلك في يوم الجمعة سابع عشر شوّال سنة تسع وأربعين وألف، انتهى.

---

[1] جاءت في الأصل [اثني عشر]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. 1012هـ/ 1603م.

[2] 1026هـ/ 1617م.

[3] 1027هـ/ 1618م.

[4] 1031هـ/ 1622م.

[5] جاءت في الأصل [اثنين]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة. 1032هـ/ 1623م.

[6] 1049هـ/ 1639م.

المقصد التاسع عشر

في ذِكر سلطنة مولانا السلطان إبراهيم، نصرهُ اللهُ تعالى، بن المرحوم مولانا السلطان أحمد، رحمه الله، وهو ثالث مَن جلس على تخْت المُلك مِن أولاده. جلس على تخْت المُلك في ثاني ساعة مِن يوم الجُمعة السّابع عشر من شوّال من السّنة المذكورة[1]، وذلك لمّا تُوفِّيَ أخوهُ، مولانا السلطان مُراد، رحمه الله. فحضرَ الوزير الأعظم مصطفى باشا، ومولانا يحيى أفندي بن زكريا المفتي، وذلك عند الفَجْرِ من يوم الجُمعة، فذهبوا إلى مولانا السلطان إبراهيم في مكانه [223أ] الذي هو فيه، وطلبوه للجلوس على تخْت المُلك فأبى ذلك خَوْفًا من أخيه، مولانا السلطان مُراد، أن يَقتله كإخوته. فقالوا له: أنت صِرْتَ سلطانًا. فلم يُصَدّق قولَهم بِوَجْهٍ من الوُجُوه. فذهبوا إلى والِدته، وهي والِدة المرحوم مولانا السلطان مُراد، وذكروا لها ذلك، فَحَضَرَتْ إليه وحَلَفَتْ له بأنّ أخاه تُوفِّيَ، فاطْمَأنَّ خاطره، وذهب مع أمّه إلى المَحَل الذي فيه أخوه، فَرَآهُ مُسَجًّى، فكشف عن وَجْهِهِ وبكَى. ثمّ خرج وجلس على تخْت المُلك. وَوَقَعَتْ له المُبايعة الخاصّة والعامّة بأسْهل ما يكون. وذُكِرَ بأنّ جلوسه الشَّريف كان أسْهل جلوس وقع، لم يختلفْ فيه اثنان. وجَهَّز أخاه وأخْرَجَهُ، وكانت له جنازة ما وقع لِمَلِكٍ مثلها. ثمّ شرعَ مولانا السلطان إبراهيم، حفظه الله تعالى ونصره، في إعطاء التَّرقي والبقشيش للعساكر، فأعطاه بالتَّمام والكَمال. فدَعَتْ له جميع العساكر، وفَرِحوا لجلوسه. وجاء الخَبَرُ بِتَوْلِيَتِه إلى مصر، وموت المرحوم مولانا السلطان مُراد، في عَصْرِ يوم السَّبت عاشر القِعدة الحَرام سنة تسع وأربعين وألف، ونُودِيَ بِاسْمِه في القاهرة بعد المغرب من ليلة الأحد، واسْتمرَّ المُنادي يُنادي بِاسْمِه إلى بعد العِشاء بنحو عشرين درج، وزُيّنت مصر [224ب] في يوم الأحد بعد الضُّحَى، بعد أن صَلُّوا على المرحوم مولانا السلطان مُراد، صلاة الغَيْبَة[2] بالرَّميلة، في سبيل المؤمنين. واسْتمرّت الزِّينة ثلاثة أيام، بخلاف عادة مَن يتولَّى المُلك مِن ملوك آل عثمان، لأنّ العادة

[1] أي عام 1049هـ/ 1639م.

[2] أي صلاة الغائب.

بأن تكون الزّينة سبعة أيام. وأُبْقِيَ الوزير محمد باشا[1]، بيكلربيك بمصر، وذلك أيضًا خِلاف عادة آل عثمان في جميع ولاياتهم، لأنّ العادة عندهم، إذا تولَّى مَلِكٌ مِنهم المُلْكَ، يَعْزِلُ جميع نوّاب الولايات التي تحت مُلْكِهِ، ويُولِّي غيرهم. فمولانا السلطان إبراهيم، نصره الله، عزل جميع النوُّاب الذين[2] في مَمْالكه إلاّ الوزير محمد باشا، مُتولّي مصر. وحين تولّى المُلك كان به مَرَض وجع الخاصِرة، وليس له قابلية للأكل ولا النِّساء، فرأى النّبي صلَّى الله عليه وسلم في نومهِ، فشَكا إليه حاله، فوَضَعَ صلَّى الله عليه وسلم يدهُ الشَّريفة على مَحَلّ مَرَضِه، فقام من نومه وهو في غاية الصِّحة، وطلب المأكل واخْتَلَى بإحدى[3] جواريه[4]. ثمّ حَمَلَتْ منه ووضَعَتْ في ليلة وَقْفَةِ عيد الفطر سنة إحدى وخمسين وألف[5]، وَلَدًا ذَكَرًا، فسَمّاه محمدًا، تَبَرُّكًا به صلَّى اللهُ عليه وسلّم، وهو في غاية النّجابة[6]. ولما كان العشرون من شوّال سنة [225أ] ثلاث وخمسين وألف[7]، بَلَغَهُ عن وزيره الأعظم مصطفى باشا، بأنه أغرى العساكر على حسين أفندي، قاضي عساكر أناطولي، وعلى يوسف باشا سلحدار باشي. وكانا مُقَرَّبَيْنِ عنده غاية التَّقَرُّب. فلمّا تحقَّقَ الأمر، أرسلَ خَلْفَ الوزير الأعظم مصطفى باشا، وقال له: بَلَغَنِي أنّ العساكر تكلَّموا في حسين أفندي وسلحدار باشي. فقال: نعم، يا مولانا السلطان، وهم يقولون لا بُدَّ مِن قَتْلِهِمَا. فتشوَّش حضرة مولانا السلطان مِن قوله، وقال له: أين الخَتْمُ؟ ادْفَعْهُ لي. فقال: يا مولانا السلطان، ليس هو معي هنا، إنّما هو في المنزل. فقال له: اذهبْ واتِنِي به. فخرجَ من عند

[1] تولّى ولاية مصر عام 1004هـ/ 1596م حتى عام 1006هـ/ 1598م. راجع: عبد الرحيم، التحفة البهية، ص118- 120.

[2] جاءت في الأصل[الذي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] جاءت في الأصل[بأحد]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] مُفردها "جارية"، وهي الأمَةُ أو الفتيَّة من النّساء. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "جرى".

[5] 1051هـ/ 1631م.

[6] أي النّباهة وظهور الفَضْل على المثل. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "نجب".

[7] 1053هـ/ 1633م.

مولانا السلطان، وهو مُتَحَقّق القَتْل. فلمّا وصل إلى منزله، لَبِسَ لِباس الدّراويش، وخرج من باب سِرّه. وأمّا مولانا السلطان، ففي ساعة خروج الوزير مِن عنده أحْضَرَ بُسْتَنْجِي باشي[1] وقال له: اذْهَبْ فَوْرًا واتِنِي برأس الوزير. فذهب البُستنجي بالسّرعة إلى منزل الوزير، فلم يَجِدْهُ. فسأل عنه، فقالوا: خرجَ من باب سِرّهِ ولمْ يُعْلَمْ له خَبر. فذهبَ مُسْرِعًا إلى الطّرف [الذي يظُنُّ أنه به][2]، فلمْ يَجِدْهُ. واخْتَلَطَ بأتْباع البُستنجي لأنه على شَكْلِ الدّراويش. فعرفه أحد البُستنجيّة، فمسكه وأحضره إلى بُستنجي باشي، فقطع رأسه وذهب بها إلى [226ب] حضرة مولانا السلطان، نصره الله. ثمّ في ثاني يوم مِن قَتْلِ الوزير المذكور، أحضرَ نحو المائتَي[3] نفس من كُبراء العسكر الذين كانوا أصْل الفِتنه وقَتَلَهم. وكان لمولانا السلطان إبراهيم نصره الله، آغا يُقال له سُنبل آغا[4]، وكان آغت السّرايا، فعزله وأرسله إلى مصر. فنزل بجميع أسبابه في ثلاث مراكب، فلاقته أغْرِبَة مالطة[5] فأخذوه بجميع أسبابه. فلمّا بَلَغَ مولانا السلطان ذلك، غضب غاية الغضب، وشرع في تجهيز الأغْرِبة[6] إلى جِهة مالطة وكريد[7] وبلاد النّصارى. وأرسل أحضر جميع مراكب المُجاهدين بجِهة المغرب، كالجزائر[8] وتونس وطرابلس وما وَالَى[9] ذلك. وعمّر فوق المائتَيْ غُراب وأشْحنها بالعساكر المنصورة، وعيّن موسى باشا باثْنَي عشر ألف عسكري من

[1] لم يُعْثَر له على ترجمة. والبُستنجي: هو الإنكشاريّ المكلّف بالعمل في حدائق السلطان. راجع: الصبّاغ، المنح الرحمانية، ص358.

[2] جاءت في الأصل[التي يظنّ أنه بها]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل[المايتَيْن]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل [ءاغا]، والصواب ما ثبت أعلاه. لم يُعثَر له على ترجمة.

[5] جزيرة في البحر المتوسط بين صقلّية وساحل أفريقيا الشمالي، وقد جئتُ على ذِكرها.

[6] المراكب البحريّة. وقد جئتُ على ذِكْرها.

[7] جزيرة كريد أو كريت ومالطة فتقعان في البحر المتوسط.

[8] جاءت في الأصل[الجزاير]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[9] أي: تَبِعَ، أو ناحية وجِهة.

جِهة البَر ليقطعوا المِيرة[1] عن كريد. وكان خروج المراكب من القسطنطينية في[عام 1053هـ][2] ولمّا أراد مولانا السلطان نصره الله تعالى ذلك، نام تلك الليلة، فرأى[3] النّبي صلَّى الله عليه وسلّم، وهو يقول له: يا إبراهيم، أُغْزُ مالطة وكريد ومسينه[4]. فقال له: يا رسول الله، لا قُدْرَة لي على ذلك، واسْتَيْقَظَ. ثمّ نام ثاني ليلة، فرأى أيضًا النّبي صلى الله عليه [227أ] وسلّم، وهو يقول له: أُغْزُ مالطة وكريد ومسينه. فقال له: يا رسول الله، لا قُدْرَة لي على ذلك، واسْتَيْقَظَ. ثمّ نام ثالث ليلة، فرأى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو يقول له: يا إبراهيم، أُغْزُ مالطة وكريد ومسينه، فالله معك وأنا معك. فأصبح مولانا السلطان نصره الله تعالى، فَرِحًا مسرورًا، وجَهَّزَ العساكر المنصورة المُقَدّم ذِكرها. ومن الغرائب[5]، أنّ حاكم كريد أخذ مِن تعلقات سُنبل آغا حِصانًا، كان وهبه له مولانا السلطان إبراهيم نصره الله، ففرِح به حاكم كريد، وشَدَّهُ وركبهُ، وقال لكبير علمائهم: أُنْظُرْ كيف ركبتُ على حِصان العثمانيّ. فقال له: وهذا حِصان العثماني؟ قال له: نعم. فقال له: لا تفرحْ لذلك، لأنّ حين وَطِئَ حِصانُ العثمانيّ أرضنا، فلا بُدَّ له مِن أخْذِها. فحَنَقَ منه حاكم كريد وقَتَلَ الحِصان. ثمّ أُخِذَتْ كريد بِبَرَكة النّبي صلّى الله عليه وسلّم. ولا شَكَّ بِبَرَكة النّبي صلّى الله عليه وسلّم تُؤْخَذُ البَلَدان المذكوران: مالطة ومسينه، وبِشارة النّبي صلّى الله عليه وسلّم لا تُخَيّبُ، حَاشَا وَكَلاّ.

---

[1] جزيرة في البحر المتوسط بالقُرب من جزيرة كريد.

[2] ما بين المعقوفَتَيْن ناقص في الأصل. ويبدو أنّ المؤرخ قد نَسِيَ أو غفل عن إتمام الجُملة بذكر اليوم والشّهر والسّنه كما اعتاد على ذلك. وقد أتممتُهُ بِذِكر السّنة فقط استنادًا على ما ذكره المؤرخ من خلال السّياق في الصفحات السّابقة. وتقديري هو أنّ ذلك كان في نهاية شهر شوّال أو بداية شهر ذو القِعدة من عام 1053هـ/ 1633م.

[3] جاءت في الأصل[فرءى]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[4] هي مدينة إيطاليّة تقع في جزيرة صقلّية على شاطئ مضيق مسينة. تُعتبر ثالث أكبر مُدن جزيرة صقلّية.

[5] جاءت في الأصل[الغرايب]، والصواب ما ثبت أعلاه.

ذِكْر فَتْح كريد وخانيه[1] وسوده[2]

وذلك أنه لمّا كان غُرّة جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وألف[3]، دخلت العساكر الإسلاميّة إلى جزيرة كريد، فحَصَلَت العِناية [228ب] الرّبانيّة بِفَتْحِ القَلْعَتَيْن اللّتَيْن على الجزيرة مقابل قَلعة خانية، وذلك في جمادى المذكور. ثمّ في ثالث الشّهر المذكور، أطلعوا من المراكب ثلاثين مدفعًا المُسَمَّى ببال يماز[4] مِن أصْلِ سِتّين مدفعًا، وأيضًا طلّعوا[5] مائة وأربعين مدفع زربزان. ثمّ في رابع جمادى المذكور، وضعوا المَدافع في أربع جِهات القَلعة، كل شيء في مَحَلّه، وحاصروها غاية المُحاصرة. ثمّ في خامس يوم من الشّهر، كبّروا وصاحوا يا دين الإسلام، وَرَمَوا المَدافع والبنادق، وحاربوا محاربة عظيمة، وحاصروهم محاصرة كبيرة. وفي اليوم المذكور، وَصَلَت العساكر المصريّة لم تزل بالنّصر مَحْوِيّة. ثمّ في سادس جمادى المذكور، أرْسَلَتْ[6] طائفة الكُفّار أعداء الدين مِن قَلْعَة سوده، ومنها إلى قَلعة خانيه المحصورة، نحو ثلاثة أميال، ألفًا ومائتَيْ[7] كافر إمدادًا لأهل القَلعة، وجاءوا في غَبَش[8] الفَجْر لدخول القَلعة، فإذا بعسكر الإسلام الحَرّيسّة[9] في الطّريق وقعوا بهم، وأغمدوا فيهم سَيْفَ الإسلام، وكبّروا، واسْتعانوا بسيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم. فحَصَلَتْ مُحاربة عظيمة لا يَكاد وَصْفها، وأحْضَروا منهم مائة وثمانين رأسًا، وثلاثة

[1] قلعة خانيه: تقع في جزيرة كريت في البحر المتوسط، وهي من أشهر قِلاع الجزيرة.

[2] قلعة سوده: تقع أيضًا في جزيرة كريت في البحر المتوسط، وفيها ميناء مشهور يُعتَبَر أكبر ثغر في الجزيرة.

[3] في الأصل كُتِبَت كلمة "ألف" مرّتان. 1055هـ/ 1635م.

[4] سبق ذِكْرُهُ.

[5] لقد كتبها بأكثر من شكل كما في السّطر السابق لها.

[6] جاءت في الأصل[أرسلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] جاءت في الأصل[مايتين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[8] الغَبَش: هو بقيّة الليل وظُلْمة آخره. راجع: المعجم الوسيط، مادّة "غَبَشَ".

[9] أي الحَرَس.

وتسعين بالحياة[1]، إلى حضرة قبطان باشا، فأنْعَمَ عليهم، [229أ] وأحسن إليهم. ثمّ نزل المُحاربة على القَلعة إلى خامس عشر جمادى المذكور، وفيه جاء من طريق البَحر ألف عسكريّ، ومن عسكر النّصارى، خَذَلَهم الله تعالى وصُحْبَتَهم، فِرقاطة[2] فيها مائة برميل بارود، وبعض من البنادق. فحين [أدخولها][3] إلى خانيه، وقع بهم عسكر المسلمين الذين بالمراكب، المُتقدّمين بالحِراسة، فأغمدوا فيهم السّيوف، وشَتّتوا شَمْلَهم، وفَرَّقوا جَمْعَهم وكَسَرُوا شَوْكَتَهم. فعند ذلك خرج[4] الكُفّار من مراكبهم إلى البَرّ مَهزومين، وفَرُّوا وتركوا مراكبهم وبارودهم وأسلحتهم. فأخَذَتْها[5] طائفة من المسلمين مَغْنَمًا، وحضروا بها إلى حضرة قبطان باشا، وسَلَّموا له جميع الغَنيمة. فأنْعَمَ عليهم، وأحسن إليهم، وأحْضَروا له أيضًا مائة وتسعة من الكُفّار بالحياة وبعض رؤوس. ثمّ تاسع عشر جمادى[6] حضر من بلاد الجزائر عشرون برتونًا[7] مشحونة بالعساكر المغاربة، دام نصرهم، ومن بلاد تونس المحروسة، ثمان براتن، وست[8] أغْرِبة مملوءة بالعساكر الإسلامية. ومن بلاد طرابلس الغَرب، ستة براتن وغُرَابَيْن مشحونة بالعساكر، كُلُّ ذلك إمداد للعساكر الإسلامية. ثمّ في الرّابع والعشرين من الشّهر المذكور، أرسلَ أمير الكُفّار من قَلعة سوده إلى قلعة [230ب] خانيه المحصورة، ثمانمائة كافرًا إمدادًا[9] للكَفَرَة. فصادفهم المغاربة الموضوعين

[1] أي أسرى أحياء.

[2] هي نوع من السّفن الحربيّة الصغيرة والسّريعة، وذات حجم صغير.

[3] جاءت في الأصل[دخلوهم]، والصواب ما ثبت أعلاه، والقصد هنا "براميل البارود".

[4] جاءت في الأصل[خرجوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل[فأخذوها]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] جاءت في الأصل[جماد]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] سفينة حربيّة لنقل العسكر.

[8] جاءت في الأصل[وستّة]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[9] جاءت في الأصل[إمداد]، والصواب ما ثبت أعلاه.

للحراسة بالطّرق، فأغمدوا فيهم سَيْفَ المُحاربة، وأخذوهم عن بكرة أبيهم، وشَتّتُوا جَمْعَهم، وما بقي منهم، ما عدا أربعة نَفَر بالحياة، وفيهم مِن أبناء أمرائهم[1] بيك زاده شاه. فأرسلوه مع شعبان بيك إلى حَضْرة مولانا السلطان إبراهيم، أدام الله نَصْرَهُ وأيَّدَ دولته، للاستخبار منه عن أحوال البلاد. ثمّ لمْ تَزَلْ المُحاصرة على هذه القَلعة، ولكنَّ هذه القَلعة عسيرة جدًا، لا يكاد يوصف[2] بناؤها، ولا قوّتها، ولا شِدّتها ولا رُبَيَ[3] مثلها، بحيث أنّ الذي رأى قَلعة بغداد، أخبر أنّ هذه القَلعة تقايسها[4] بخمسة أمثالها وأزْيَد من ذلك. وهي أصعب من قَلعة رودس، [لأنَّ الكُفّار حَصّنوها][5] غاية التّحصين، خُصُوصًا مع عِلمهم وأخذهم الأخبار بسفر عساكر الإسلام إليها. فزادوا في تعميرها وتحصينها، وتقويتها بالأبراج التي مِن التُّراب، حتى أنه لو يُطْلَق عليها في كلّ يوم ألف مدفع، فلا يؤثّر فيها بِوَجْهٍ مِن الوُجُوه، ولا قَدِرَ أن يرمي منها الحَجر الواحد. فتداركوها بأنواع المُحاصرة البليغة الزائدة عن الحَدِّ، مع مُحاربتهم لهذه القَلعة من جميع أطرافها وأكنافها بآلات الحرب والمُحاصرة. [231أ] وأحضر[6] إليها النّصارى العساكر المخبورة[7]، وبذلوا الأموال، وجمعوهم مِن أطراف البلاد، والعُصَاة مِن الأرنوت[8] نحو عشرة آلاف كافر. ومع ذلك، بعون الله تعالى، مهزومين مخذولين. وكل ذلك لِنُصْرَةِ سيّدنا محمد المُختار، كما قال الله الواحد

[1] جاءت في الأصل[امرايهم]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[2] سبقها كلمة [وصفها]، إلاّ أنّ المؤرخ شطبها.

[3] جاءت في الأصل[رءي]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[4] من القياس، أي تزيد عليها بخمس مرّات وأكثر.

[5] جاءت في الأصل[لأنها حصنوها الكفّار]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة المعنى.

[6] جاءت في الأصل [وأحضروا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] أي الذين لهم خبرة عسكريّة وقتاليّة.

[8] الأرنوت: أو الأرنؤوط، هو شعب من الجنس الآري، يُعرف عند الأوروبيين باسم الألبان، ويسكن البلاد الشّرقيّة الواقعة على البحر الأدرياتيكي. راجع: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة مادّة "أرنؤوط".

القَهّار، في كتابه العزيز: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُم﴾[1]. وهي أكبر قِلاع كريد وأعظمها. ومن زيادة مَكرهم أنهم بَنَوا تجاه باب القَلعة تسعة أدوار من البنيان المتين الشّديد، خوفًا مِن أن يُملَك باب القَلعة مِن الخندق، ولكنْ لا غالب لأمْر الله. ثمّ في السّابع والعشرين من جمادى[2] عيّنَت[3] العساكر الإسلامية ستمائة عسكر للخندق، فتوجهوا فوجدوا بعضًا من الكُفّار، فوضعوا فيهم السّيْف مع التّكبير، فقتلوا بعضهم وهزموا باقيهم، فهربوا من باب صغير مُتَّصِل بالقلعة. ثمّ أنّ العساكر المنصورة، مَلَكوا التّسعة أدوار، ونصبوا رايات الإسلام عليها، وبَلَغُوا بذلك غاية المَرام، ووضعوا على باب القلعة أربعة مدافع بال يماز. فعند ذلك حَصَّنَ[4] الكفرةُ بابَ القَلعة بِوَضْعِ الأحجار، وسَكْبِ الأتربة، واجْتهدوا جدّ الاجتهاد في تحصين الباب، وهم مع ذلك مخذولين من قِبَلِ الله تعالى. ثمّ [232ب] إنّ العساكر الإسلامية همّوا في تحصين الخندق من الجانبَيْن، وعيّنوا خمسمائة بلطجي لقطع الحَطَب والأعشاب، ونقلها للخندق، وتجسير ذلك. وَجُعِلَ على كلّ أمير منهم مائة مِخْلاة[5] مِن التُّراب، وعلى مَركب قبطان باشا ألف مِخْلاة، وعلى مَركب كتخدا التّرسخاناه ألف مِخْلاة، وعلى مراكب الرّوم خمسمائة مِخْلاة كلّ مَركب، وعلى العساكر كلّ واحد على قَدْرِ حاله. كلُّ ذلك لِنَقْلِ الأتربة لأجل فِعْلِ الجسور. ثمّ جعلوا جِسْرَيْنِ مِن الجانِبَيْنِ. ثمّ إنّ عَجَم أغلان[6] حفروا لَغَمَيْن، واللّغَمُ كِناية عن أنْ يحفروا في عُمق الأرض مِثل السّرداب ويجعلوا فيه البارود. فوافق اللّغَمان المذكوران،

[1] سورة آل عِمْران (2)، آية (160)، والآية كاملة: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

[2] جاءت في الأصل[جماد]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل[عيّنوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل[حَصّنوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل [مخلات]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] عَجَم أغلان: هم مسلمون من غير العرب، لديهم تجربة وخبرة عسكريّة وقتاليّة.

بِحِكْمَةِ الباري جَلَّ وَعَلا، أنّ الكَفَرة حفروا ألغامًا، فجاء لَغَمٌ مِن ألغامنا مُحاذيًا لِلَغَمِهم، وقد عرفت طائفة المسلمين ذلك. فوضع المسلمون البارود عند لَغَمِ الكُفّار وجعلوه حاضرًا[1]. ثمّ في الرابع عشر من جمادى الآخرة، أوْلَعُوا النّار في البارود الذي بهذا اللَّغَمِ المُختلط بِلَغَمِهم، فخرج عليهم فطيّرهم في الهواء، مثل الطّيور الطائرة في جَوِّ السّماء، بعون المَنّان. فهلكَ مَن كان بذلك اللَّغَم، ومَن كان بجواره، فكان من طائفة النِّساء[2] والغلمان، نحو المائتَيْنِ. وأمّا الرّجال، فلمْ تُحْصَرْ [233أ] لهم عِدّة. فوضعَ المسلمون[3] رَايَتَيْن وانْسكب عسكر الرّايَتَيْنِ في الخندق وهم في التّجسير، ولكنْ مع الرّجوع إلى خَلْفِ الخندق. وكان في ذلك رحمة بليغة لأنّ طائفة الكَفَرة فعلوا اللَّغَم تحت هذين الجِسرَيْنِ، وأضْمروا أنهم إذا وجدوا عسكر الإسلام عَلَّوْا الأجسارَ، يُطْلِقون[4] النّيران في اللَّغَم، ويقتلوهم جُملة واحدة. فهم في هذه الحالة، وإذا بطائفة المسلمين، عَجَم أغلان، وهم مجتهدون في حَفْرِ الألغام التي فعلوها، فوقعوا بها مِن طريق ألغامنا، ووجدوا بها خمسة وثلاثين برميل بارود فأخذوها. وكان ذلك في اليوم السادس عشر من جمادى الآخرة، فهم في هذه الحالة، وإذا بسردار الكَفَرَة الذي في قَلعة سوده، أرسل لهم مائة قِنطار بارود، ومعهم خمسمائة كافر، منهم: مائتان وخمسون خَيّالة، ومائتان وخمسون مُشاة. وإذا بطائفة المغاربة الحَرِسيّة، وقعوا فيهم ودفعوا أيديهم بالسُّيوف عليهم. فَقَتَلوا أكثرهم، وهربَ منهم جماعة، وهُزِمَتِ[5] الخَيّالة كانْهِزَامِ الغَنَم مِن الذئب[6] في سراديب الأرض، إلى أنْ بَلَغوا بهم قَلْعَةَ سوده، وقبضوا على البعض منهم بالحياة لأجل الاستخبار، نحو مائة

[1] جاءت في الأصل[حاضر]، والصواب ما ثبت أعلاه. أي جاهزًا للاستعمال.

[2] جاءت في الأصل[النسا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[3] جاءت في الأصل[فوضعوا المسلمين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل[يُطلقوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل[وهزموا]، والأرجح ما ثبت أعلاه لسلامة معنى السياق.

[6] جاءت في الأصل[الذيب]، والصواب ما ثبت أعلاه.

وخمسين كافرًا. وغالب مَن بقي مِن[234ب] الخمسمائة أُخِذوا بالسّيف، وأنّ الطُّرق ليست بخالية من هؤلاء الكفرة. وفي هذه المُدّة، وقع تكربيك[1] في طائفة منهم وهو في حراسته، فوقع بينه وبينهم مقتلة عظيمة، وجِدال كبير جدًا، وحصلت الشّهادة الكُبرى لتكربيك، فاسْتَشْهَدَ إلى رحمة الله تعالى، وكفاهُ هذه المَرتبة، التي بلغ بها مَرتبة الشّهادة [في هذه المرتبة][2]. ثمّ بعد هذا كُلّه، تداركوا الهُجوم عليهم، وفعلوا سُلّمًا بأربعمائة وخمسين درجة. فلمّا كان في اليوم الثامن عشر من الشّهر المذكور، نادى المنادي لسائر العساكر الإسلامية بالهجوم عليهم، وجميع المراكب، ومن جُملتهم أربعمائة قائق[3] مشحونة بالعساكر، يحتاطون بالقلعة المَحصورة. ففي الصّباح، والمراكب مُنتظرة للتّوجُّه على هذا الشّكل، فَحَصَلَتْ عليهم عَنْصَرةٌ كبيرة، لا يكاد وَصْفَها، فرَجَعَتِ[4] المراكب إلى [مراسيها واستقرّت في أماكنها][5]. وكان ذلك لُطْفًا من الله تعالى بهذه الأمة، لأنّ الكَفَرة كانت أعَدَّتْ للمسلمين في طريقهم التي يمشون عليها، مكائد[6] كثيرة، فَسَلِمُوا بفضل الله تعالى، ووقع[7] المسلمون بهذه المكائد، فأزالوها. ثمّ وضعوا السلّم، فوجدوه قصيرًا عن الأبراج، فمَا أُمْكِنَتِ المُحاربة في [235أ] هذه الحالة. ثمّ في اليوم الثالث والعشرين من الشّهر المذكور، لمّا أرادت العساكر المنصورة، التّوجُّه عليهم فعل[8] الكَفَرة

[1] لم يُعثر له على ترجمة. جاءت في الأصل [تكربيك وقع]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] ما بين المعقوفتَيْن زائدة،

[3] هو القارب الصغير الذي يجري في البحر بالمجاديف أو الشِّراع. راجع: سليمان، أحمد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي، ص164.

[4] جاءت في الأصل[فرجعوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[5] جاءت في الأصل[مراسيهم واستقروا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[6] جاءت في الأصل [مكايد]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[7] جاءت في الأصل[ووقعت]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[8] جاءت في الأصل[فعلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

لَغَمَيْن. وكان قصدهم في هذا اليوم، ولوع[1] النّار في اللَّغَم. ثمّ أولعوه، فكان من حِكْمِة الباري جلّ وعَلا، أنّ البارود رجع عليهم وأهلكهم جميعًا، ولمْ يُؤذِ في هذه الحالة مُسلِمًا من المسلمين، وكان إذ ذاك مع لَغَم مِن ألغامنا. فبعد صلاة الظُّهر، في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشّهر، أوْلَع المسلمون النّارَ في الألغام، وقَسَّموا العسكر على طُرق الخندق. فمِن جِهَةٍ جعلوا عسكر مصر المحروسة، قوّى الله نُصْرَتهم وأجرى على أيْدِيهِم[2] الفتوحات الإسلامية، وجعلوا من الجانب الآخر العساكر المغربية، بلّغهم الله تعالى المراتب العليّة، بجاه سيّدنا محمد خَير البَرِيّة. والفِرْقَتَيْن مقدار خمسمائة نَفَر، وبقيّة العساكر المنصورة، قيّدوهم بسائر الطُّرقات، وحوَّطوهم بِحَوْل القَلعة. والعساكر المغاربة كانت مُحاربتهم بالكُرِهِ من غير زائد عليها، فلم يزالوا في المُحاربة إلى أن بَلَغوا قَلعة التُّراب، فنصبوا فيها رايات الإسلام، وبلَغوا بذلك غاية المَرام، من صبيحة النّهار إلى وقت المغرب، وحصل بينهم مَقْتَلَة عظيمة لا يكاد يُعَبَّرُ عنها بِوَصْف. [236ب] وصارت رؤوس الكُفّار تتطاير مِن أجسادها كالطُّيور الخافقة. وأخْمَدَ اللهُ شَوْكَتهم وهِمّتَهم، ولا بقوا [يعرفون ما يصنعون ولا أين يسيرون][3]، ولا بقي لهم مُسْتَقَرٌ ولا مَأوَى، وضَرَبَتْهم الحَيْرَةُ البليغة التي لا عنها مزيد، خَذَلَهم اللهُ تعالى، وجَعَلهم مَغْنَمًا لِلْمِلَّة الإسلامية. ولمّا بَلَغُوا أبْراج التُّراب، أزالوا ما كان بها مِن المدافع، لأنه ما أمكنهم الهُجوم مِن غير هذيْن المَوْضِعَيْن، [وجاءت السّلالم قصيرة][4]. وفي وَقْتِ الغُروب، أحْضَروا صَبيًّا صغيرًا منهم، وبِنْتًا لِحَضْرة قبطان باشا، لأجل الاستفهام، فأحسن إليهم غاية الإحسان. ثمّ في اليوم السادس والعشرين

[1] أي إشعال النّار.

[2] جاءت في الأصل[يديهم]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[3] جاءت في الأصل[يعرفوا ما يصنعوا ولا أين يذهبوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[4] جاءت في الأصل[والسّلالم جاءوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

ارْتاحَتِ العساكر الإسلامية، وكان يوم الجُمعة. وفي ذلك اليوم، حفروا لَغَمَيْن وملؤهما[1] بارودًا لأجل يوم السّبت لِيُطْلِقوا[2] عليهم ذلك. ففي تلك الليلة، عند حَفْرِ اللَّغَمَيْن، وقع[3] عَجَم أغلان بألغامِهم، خَذَلهم الله تعالى، فدخلوها عَجَمُ أغلان، وأخذوا ما فيها من البارود. فعند الصّباح دخل[4] الكَفَرة إلى ألغامِهم، فوجدوا بارودهم جميعًا أخذوه[5]، ووجدوا شَوْكَتَهم ضَعُفَتْ، وضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمَسْكَنَةُ، وحِيلَتُهم قلّتْ، وتدابيرهم لم تزلْ مَخْذُولَة. فعند ذلك نَكَّسُوا راياتِهم [237أ] إلى أسْفل، وأقاموا رايات الإسلام البِيض بالأمان. ثمَ أرسلَ سِردارهم الذي بالقَلعة، يطلبُ الأمان أربعة أيام ويخرجوا منها، ويُسَلِّموا له القَلعة، فأمّنهم قبطان باشا، وأعطاهم الأمان. فخرجَ كبيرهم وأتباعه، وحضروا بين يَدَيِ القبطان، ووضعوا وجوههم في التُّراب، أذَلَّهم اللهُ تعالى، وقال لهم قبطان باشا: إنّ كُلَّ مَن أراد التّوَجُّه إلى قَلعةٍ مِن القِلاع، أو إلى بلدٍ مِن البُلدان يتوجّه، والذي لمْ يُرِد التّوجُّه، فلا أحد يُخرجه رَغْمًا عنه. وشَرّطَ عليهم أنهم في حال خروجهم، يَضَعُون[6] أسلحتهم، ففعلوا ذلك، ووضَعوا أسلحتهم بالقَلعة وما أخذوا معهم شيئًا مِن ذلك، ولا مِن الذّخِيرة، ما عدا أطْمار أبدانهم. فنزلوا في ثلاثة أغْرِبَة وثلاثة[7] غلائن[8] مع

[1] جاءت في الأصل[ملوهم]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[2] جاءت في الأصل[يطلقوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[3] جاءت في الأصل [وقعوا]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل[دخلوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[5] أي أخذوه عجم أغلان.

[6] في الأصل[يضعوا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[7] جاءت في الأصل [ثلاث]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

[8] مُفردها غليون، وهو نوع من المراكب الشراعيّة التي كان يستعملها العثمانيون ضِمن أسطولهم البحري لنقل الجنود والذّخائر. راجع: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص332. وقد جاءت في الأصل [غلاين]، والصواب ما ثبت أعلاه.

الجرحى والنّساء[1]، وتوجّهوا معكوسين لِقَلعة سوده، وباقيهم توجَّه مِن البَرّ، خَذَلَهم اللهُ تعالى. وصارت هذه المَملكة مِن المَمَالك الإسلامية، أدامها الله تعالى. ثمّ في اليوم الثامن والعشرين مِن الشّهر المذكور، وكان نهار الاثنين[2]. ثمّ أنّ جميع الرّعايا، والتُّجار، واليهود، لم يخرجوا مِن القَلعة، وجَلَسوا بها رَعَايا. ثمّ في اليوم التاسع والعشرين، أطلقَ قبطان باشا النِّداء بالأمان والاطْمِئنان، وفَتْحِ الدَّكاكين [238ب] والبيوت، وأنْ لا أحد مِن المسلمين يُشَوِّش على أحد مِنهم، ولا يؤذونهم بأدنى أذيّة. وضَبَطَ البلاد، وأطلقَ فيها الأذان، وصَلُّوا فيها الصّلوات الخمس. وصاروا مُتَوَجِّهِينَ إلى قَلعة سوده، فتحها الله تعالى على أيْدِيهم[3]، وبَلَّغَهم النّصر والتأييد، ولَطَفَ بهم، آمين. وكانوا زَيّنوا القَلعة والبَلدة زِينة عظيمة، لا يكادُ وَصْفُها بِوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ. وجاء الخَبَرُ إلى مِصر بالنُّصْرَةِ والفَتْحِ، في يوم السّبت ثاني شعبان من السّنة المذكورة. فأطْلَقَ حَضْرَةُ الوزير أيوب باشا النِّداء[4] بالزّينة، بالزّينة، في يوم الأحد ثالثه. فَمَكَثَتِ[5] الزّينة إلى يوم الأربعاء، سادس الشّهر المذكور. انتهى. انتهى. قال مؤلفه أبو عبد الله محمد بن أبي السُّرور البكري الصدِّيقي، لَطَفَ اللهُ به في الدَّارَيْن: هذا آخر ما أرَدْنا ذِكره مِن أخْبارِ الدّولة العثمانيّة على سبيل الاخْتِصَار، وصَلَّى اللهُ على سيِّدِنا ومَوْلانا محمدٍ، وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

[1] جاءت في الأصل[الجرحا والنّسا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[2] يبدو أنّ المؤرخ أراد أن يُدَوّن معلومةٍ ما، ولكنّه غفل عنها. ولذلك يُلاحَظ هنا عدم إتمام الفِكرة والمعنى.

[3] جاءت في الأصل[يديهم]، والصواب ما ثبت أعلاه.

[4] جاءت في الأصل[الندا]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة الإملاء.

[5] جاءت في الأصل[فمكث]، والصواب ما ثبت أعلاه لسلامة اللغة.

المصادر والمراجع

العربيّة

ابن الحنبلي، رضيّ الدين محمد بن إبراهيم. **دُر الحُبَب في أعيان حلب، تحقيق:** محمد الفاخوري ويحيى عبارة، جزءان، دمشق، 1972- 1974.

ابن إياس، محمّد. **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، خمسة أجزاء، تحقيق: محمّد مصطفى، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، 1984-1982.

ابن تغري، بردي. **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، 12 جُزءًا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1348-1375هـ

ابن طولون، محمد شمس الدّين. **إعلام الورى بمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشّام الكُبرى**، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق 1964.

ابن طولون، محمد شمس الدّين. **مُفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان**، تحقيق: محمد مصطفى، جُزءان، القاهرة، 1962-1964.

ابن عماد الحنبليّ، عبد الحيّ العكري. **شذرات الذّهب في أخبار مَن ذهب**، ثمانية أجزاء، القاهرة، 1350هـ

ابن منظور، محمد مكرم. **لسان العرب**، 15 جزءًا، دار صادر، بيروت، 1968.

أبو جابر، سليم، **البكري الصدّيقي وأثرهُ في تأريخ مصر العثمانيّة**، ط1، مؤسسة الرّافد، لندن، 2005.

أحمد، إبراهيم خليل. **تاريخ الوطن العربيّ في العهد العثمانيّ، 1916-1516**، الموصل، 1986.

الإسحاقيّ، محمد بن عبد المعطي. **لطائف أخبار الأُوَل فيمن تصرّف في مصر من أرباب الدّول**، مصر، 1304هـ

الإسكندريّ، عمر. وحسن، سليم. **تاريخ مصر من الفتح العثمانيّ إلى قبيل الوقت**

الحاضر، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.

الأنصاريّ، ناصر. **المجمل في تاريخ مصر للنظم السياسيّة والإداريّة**، ط2، دار الشروق، القاهرة، 1997.

بروكلمان، كارل. **تاريخ الشعوب الإسلاميّة**، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكيّ، بيروت، 1977.

البغداديّ، إسماعيل باشا. إيضاح **المكنون في الذّيل على كَشْف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، جزءان، ط3، طهران، 1947.

البكريّ، محمّد بن أبي السرور. **الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة**، تحقيق: عبد الرازق عيسى، القاهرة، 1997.

البكريّ، محمّد بن أبي السرور. **الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة**، مخطوط مصوّر في معهد المخطوطات العربيّة.

البكريّ، محمّد بن أبي السرور. **تفريج (كشف) الكربة في رفع الطلبة**، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، نُشِر في: المجلّة التاريخيّة المصريّة، مجلّد 23 (1976)، ص384-91.

البكري، محمد بن أبي السّرور. **التحفة البهيّة في تَمَلُّك آل عثمان الدّيار المِصريّة**، تحقيق: عبد الرحيم، عبد الرحيم، دار الكُتُب والوثائق المِصريّة، القاهرة، 2005.

البكري، محمد بن أبي السّرور. المِنَح الرّحمانيّة في الدّولة العثمانيّة، ويليه ذيل: اللطائف الرّبانيّة على المِنَح الرّحمانيّة، تحقيق: ليلى الصبّاغ، دمشق، 1995.

جِب، هاملتون. وبوين، هارولد. **المجتمع الإسلاميّ والغرب**، ج2، ترجمة: أحمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990.

الجبرتي، عبد الرحمن. **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، بولاق، 1297هـ.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. **كَشْف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، جزءان، طهران، 1967.

حسن، إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السّياسي والدّيني والثّقافي والاجتماعي، الجزء الثالث، القاهرة، د. ت.

الحِمْيَرِي، محمد عبد المنعم. **الرّوض المِعطار في خبر الأقطار**، بيروت، 1975.

الخطيب، البغداديّ. تاريخ بغداد، 13 جزءًا، بيروت، د. ت.

الخطيب، مصطفى عبد الكريم. **مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، ط1، مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1996.

الخفاجي، أحمد شهاب الدّين. ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، جزءان، القاهرة، 1967.

دائرة المعارف الإسلاميّة، تعريب: محمد ثابت وآخرون، مصر، 1975.

الدّقن، السيّد محمّد. **السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصريّة للغزو العثمانيّ**، القاهرة، 1979.

دَهْمان، محمد أحمد. **مُعجم الألفاظ التّاريخيّة في العَصْر المملوكيّ**، ط1، دار الفِكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر المعاصر، دمشق، 1990.

رافق، عبد الكريم. "ثورات العساكر في القاهرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأوّل من القرن السابع عشر ومغزاها"، نُشِر في: **أبحاث الندوة الدوليّة لتاريخ القاهرة**، مارس-أبريل، 1969، ج2، ص775-745.

رافق، عبد الكريم، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانيّ إلى حملة نابليون بونابرت (1516-1798)**، ط2، دمشق، 1968.

رجب، حرّاز. **المدخل إلى تاريخ مصر الحديث- من الفتح العثمانيّ حتّى الاحتلال البريطانيّ 1517-1882**، القاهرة، 1970.

رمزي، محمد. **القاموس الجغرافي للبلاد المِصريّة مِن عهد قُدَماء المِصْرِيّن إلى سَنَة 1945**، الهَيْئة العامّة للكِتاب، القاهرة، 1994.

رمزي، محمد. **القاموس الجغرافي للبلاد المصريّة**، القاهرة، 1953- 1963.

رمضان، محمّد مصطفى. **مصادر تاريخ مصر الحديث**، القاهرة، 1983.

الزّركلي، خير الدّين. **الأعلام**، 13 جزءًا، ط3، بيروت، د. ت.

سعد، أحمد صادق. **تحوّل التكوين المصريّ من النمط الآسيويّ إلى النمط الرأسماليّ**، دار الحداثة، بيروت، 1981.

سليم، محمود رزق. **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلميّ والأدبيّ**، ج3، القاهرة، 1940.

سُليمان، أحمد السعيد. **تأُصيل ما ورد في تاريخ الجَبَرْتِي مِنَ الدّخيل**، دار المعارف، القاهرة، 1979.

السيّد العبد، عفاف مسعد. **تاريخ مصر العثمانيّة 1517-1071هـ/ 1660-1923م، من خلال مخطوط الروضة الزهيّة في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزيّة لابن أبي السرور البكريّ الصديقيّ**، دراسة وتحقيق، الإسكندرية، 1992. (رسالة دكتوراه غير منشورة)

السيّد، الراقد محمّد عبد المنعم. **الغزو العثمانيّ لمصر ونتائجه على الوطن العربيّ**، ج5، الإسكندرية، 1972.

سيّد، سيّد محمّد. **مصر في العصر العثمانيّ في القرن السادس عشر**، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997.

السيوطيّ، جلال الدين. **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1968.

الشربينيّ، يوسف. **هزّ القحوف في شَرْحِ قصيد أبي شادوف**، ج1، ط2، 1308هـ.

الشّشتاوي، محمد. **مُتَنَزَّهات القاهرة في العَصْرَيْنِ المملوكيّ والعُثمانيّ**، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، 1999.

الشّعراني، عبد الوهاب. **الطبقات الكبرى من لواقح الأنوار في طبقات الأخبار**، تحقيق:

عبد الرحمن حسن محمود، 2001.

شلبي، أحمد عبد الغني. **أوضح الإشارات فيمن تولّى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملّقب بالتاريخ العينيّ**، ط2، تحقيق وتعليق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتاب الجامعيّ، القاهرة، 1994.

الشنّاويّ، عبد العزيز محمّد. **الدولة العثمانيّة دولة إسلاميّة مفترى عليها**، 4 أجزاء، القاهرة، 1980-1982.

الشنّاويّ، عبد العزيز. "دور الأزهر في الحفاظ على الطّابع العربيّ لمصر إبّان الحكم العثمانيّ"، ضمن: **أبحاث الندوة الدوليّة لتاريخ مصر**، 1971.

الشيّال، جمال الدين. **التاريخ والمؤرّخون في مصر في القرن التاسع عشر**، القاهرة مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، 1958.

الصبّاغ، ليلى. **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، دمشق، 1981-1982.

الصبّاغ، ليلى. "الجديد في العسكر الجديد"، نُشِر في: **مجلّة الفكر العسكريّ**، أيلول 1976، العدد الثالث والرابع، السّنة الرابعة، دمشق، ص 188-206، ص73- 88.

الضّيقة، حسن. **الدولة العثمانيّة – الثقافة والمجتمع والسياسة**، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1997.

طاشكبري، زاده أحمد بن مصطفى. **الشّقائق النّعمانيّة في علماء الدّولة العثمانيّة**، بيروت، 1975.

الطويل، توفيق. **التصوّف في مصر إبّان العصر العثمانيّ**، الإسكندرية، 1946.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. **العصر المماليكي في مصر والشام**، 1976.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن. **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، القاهرة، 1983.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن. **الرّيف المصريّ في القرن الثامن عشر**، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1986.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، **فصول من تاريخ مصر الاقتصاديّ والاجتماعيّ في العصر العثمانيّ**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1990.

عبد الرحيم، عبد الرحيم. **الرّيف المصري في القرن الثّامن عشر**، ط2، دار الكتاب الجامِعيّ، القاهرة، 2004.

عبد اللطيف، ليلى، **الإدارة في مصر العثمانيّة**، القاهرة، 1978.

العُبيدي، المالكي إبراهيم. **عُمدة التحقيق في بشائر أهل الصدّيق**، دار الكتب المصريّة، القاهرة، تحت رقم (418 تاريخ).

عثمان، حسن. "المجمل في التاريخ المصريّ في العصر العثمانيّ"، ضمن: **المجمل في التاريخ المصريّ**، ط1، تقديم: حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1942.

عزّ العرب، عبد العزيز. **الاقتصاد السياسيّ للقهر**، دار المستقبل العربيّ، القاهرة، 1991.

عطيّة الله، محمد. **القاموس الإسلاميّ**، جزءان، القاهرة، 1983.

عمر، عمر عبد العزيز. **تاريخ المشرق العربيّ**، دار المعرفة، الإسكندريّة، 2000.

عيسى، عبد الرازق. **تاريخ القضاء في مصر العثمانيّة 1517-1798**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998.

الغزّيّ، نجم الدّين. **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، 3 أجزاء، لبنان، 1945-1959.

الغزّيّ، نجم الدّين. لُطف السّمَر وقطْف الثّمَر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، جزءان، تحقيق: محمود الشّيخ، دمشق، 1981-1982.

فهمي، نعيم زكي. **طرق التجارة الدوليّة ومحطّاتها بين الشرق والغرب**، القاهرة، 1973.

قاسم، قاسم عبده. **الرؤية الحضاريّة للتاريخ عند العرب والمسلمين**، دار المعارف، القاهرة، 1982.

القلقشندي، أحمد بن علي. صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، 15 جزءًا، بيروت، د. ت.

الكيلانيّ، محمّد سيّد. **الأدب المصريّ في ظلّ الحكم العثمانيّ**، مكتبة الفرجانيّ القاهرة، 1994.

مبارك، عليّ. **الخطط التوفيقيّة لمصر والقاهرة**، 20جزءًا، القاهرة: 1306هـ.

مبارك، عليّ. **الخطط التوفيقيّة لمصر والقاهرة**، ط2، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، 1980.

المُحبّي، محمد أمين. **خُلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي**، عشر، 4 أجزاء، القاهرة، 1869.

مُغيث، كمال حامد. وعبّاس، رؤوف. **مصر في العصر العثمانيّ 1517-1798**، ط1، القاهرة، 1997.

الملوانيّ، يوسف. **تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنوّاب**، مخطوط بمعهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ورقة: 232-169.

المُنجد، صلاح الدّين. **المؤرخون الدّمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة**، بيروت، 1964.

منسي، محمود صالح. **حركة اليقظة العربيّة في الشرق الآسيويّ**، القاهرة، 1967.

النّباهين، علي سالم. **نظام التربية الإسلاميّة في عصر دولة المماليك**، دار الفكر القاهرة، 1981.

النّهروانيّ، قُطب الدّين. **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، ط1، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدّينيّة، 2004.

النّهروانيّ، قُطب الدّين. **البرق اليمانيّ في الفتح العثماني**، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، 1967.

هانتس، فالتر. **المكاييل والأوزان الإسلاميّة وما يعادلها في النظام المتري**، تعريب: كامل العسليّ، الجامعة الأردنيّة، عمّان، د. ت.

هريديّ، صلاح. **تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، ط1، ج1، الإسكندرية، 2000.

الإنجليزيّة

1- Al-Nahal, G. H. *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century*. Minneapolis and Chicago, 1979.
2- Creasy, E. *The History of the Ottoman Turks*. Beirut, 1960.
3- Gibb, H. A. R. and Bowen, H. *Islamic Society and the west.* (part 1 and 2), London: 1951-1957.
4- Hathaway, J. "Egypt in the Seventeenth Century". In: Daly, M. W. (ed.): *Cambridge History of Egypt*, vol. 2. 1998.
5- Holt, P. M. *Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922*. A Political History, London. 1966.
6- Shaw, S. J. *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*. Princeton, New-Jersey, 1962.
7- Stripling, G. *The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-157.* Urbana, 1942.
8- Winter, M. *Society and Religion in Early Ottoman Egypt*. New Brunswick and New Jersey, 1982.
9- Winter, M. *Egyptian Society under Ottoman Rule, 1517-179.* London and New-York, 1992.

شجرة نَسَب سلاطين الدولة العثمانيّة كما جاءت في "المِنَح الرحمانيّة"، ص539

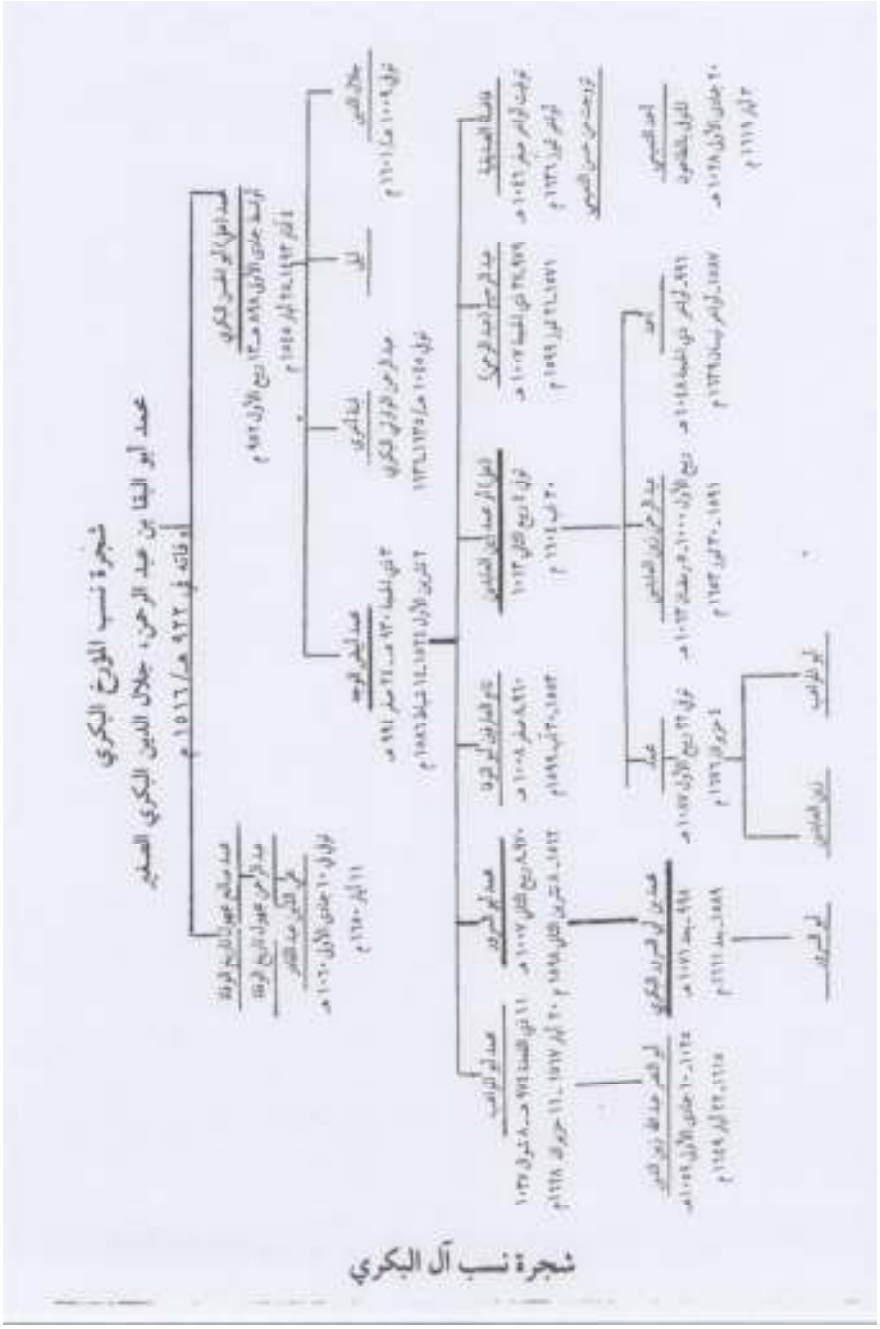

شجرة نَسَب آل البكري الصدّيقي كما جاءت في "المِنَح الرحمانيّة"، ص170

فهرس الكِتاب

المُقَدّمة 1

ترجمة المؤرخ محمد بن أبي السّرور البكري الصدّيقي 3

أثر المُحيط العائلي على المؤرخ ونَهْجِهِ 4

البيئة الاجتماعيّة والثقافيّة التي نشأ فيها المؤرخ 24

مخطوط "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان" 29

التعريف بالمخطوط 29

المخطوط وأهميّته التاريخيّة 30

مَنْهَج المؤرخ في تدوين الأحداث التاريخيّة 33

اللغة والأسلوب عند البكري الصدّيقي 39

مَنْهَج التّحقيق للمخطوط 44

صُوَر لِبعض ورقات من المخطوط 46

فهرس "نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان" 49

المَقْصَد الأوّل في ابتداء دولة بني عثمان وأوّل من تسلطن منهم 51

المَقْصَد الثاني في ذِكر السلطان أورخان بن السلطان عثمان 55

المَقْصَد الثالث في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان أورخان 57

المَقْصَد الرابع في ذِكر سلطنة السلطان بايزيد بن السلطان مُراد 58

المَقْصَد الخامس في ذِكر سلطنة السلطان محمد بن بايزيد 61

المَقْصَد السّادس في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان محمد 64

المَقْصَد السّابع في ذِكر سلطنة السلطان محمد فاتح القسطنطينيّة 65

المَقْصَد الثامن في ذِكر سلطنة السلطان مولانا بايزيد بن السلطان محمد 75

المَقْصَد التاسع في ذِكر سلطنة السلطان سليم الأوّل فاتح مصر، ابن السلطان بايزيد .. 84

ذِكر فَتْح مولانا السلطان سليم لمصر المحروسة..... 85

المَقْصَد العاشر في ذِكر سلطنة السلطان سليمان بن السلطان سليم 171

المَقْصَد الحادي عشر في ذِكر سلطنة السلطان سليم بن السلطان سليمان 186

المَقْصَد الثاني عشر في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان سليم 196
المَقْصَد الثالث عشر في ذِكر سلطنة السلطان محمد بن السلطان مُراد 210
المَقْصَد الرابع عشر في ذِكر سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد 218
المَقْصَد الخامس عشر في ذِكر سلطنة السلطان محمد بن السلطان محمد، أخي
المرحوم السلطان أحمد، المُتقدّم ذكره (المَرَّةُ الأولى)..... 224
المَقْصَد السّادس عشر في ذِكر سلطنة السلطان عثمان بن السلطان أحمد..... 227
المَقْصَد السّابع عشر في ذِكر سلطنة السلطان مصطفى بن السلطان محمد
(المَرَّةُ الثانية) 234
المَقْصَد الثامن عشر في ذِكر سلطنة السلطان مُراد بن السلطان أحمد، أخي
المرحوم السلطان عثمان 238
ذِكر فَتْح مولانا السلطان مُراد مدينة بغداد عُنْوَة 249
المَقْصَد التاسع عشر في ذِكر سلطنة السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد، أخي
المرحوم السلطان مراد 258
ذِكر فَتْح كريد وخانيه وسوده 262
المراجع والمصادر 271
ملاحق..... 279
شجرة نَسَب سلاطين الدولة العثمانيّة 279
شجرة نَسَب آل البكري الصدّيقي 280

صدر عن مجمع القاسمي للغة العربية:

1. **دراسات مختارة من حقول التراث العربي الإسلامي**. للبروفيسور خليل عثامنة، 2008.
2. **نبض المحار: دراسات في الأدب العربي**. للدكتور فاروق مواسي، 2009.
3. **الحقيقة والمجاز**. للدكتور فهد أبو خضرة، 2009.
4. **القصة الفلسطينية المحلية – جيل الرواد**. للدكتور محمد خليل، 2009.
5. **العربيّة والعبريّة في الماضي والحاضر: دراسة مقارنة في تطور اللغتين والتفاعل بينهما**. للدكتور عبد الرحمن مرعي، 2010.
6. **شعر ابن الذروي المصري**. جمع وتحقيق ودراسة: الدكتور مشهور الحبازي، 2010.
7. **نظرية الاستقبال في الرّواية العربيّة الحديثة: دراسة تطبيقيّة في ثلاثيّة نجيب محفوظ وأحلام مستغانمي**. للدكتورة كلارا سروجي- شجراوي، 2011.
8. **مطلق عبد الخالق شاعر فلسطيني أغفله التاريخ**. للدكتور صلاح محاجنة، 2011.
9. **الميتاقصّ في الرواية العربية: "مرايا السّرد النرجسي"**. للدكتور محمد حمد، 2011.
10. **موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث** (الأدب المحلي) – تحرير وإعداد: الدكتور ياسين كتاني، 2011.
11. **ستة روائيين حداثيين**. للدكتور ياسين كتاني، 2011.
12. **قاموس المجمع**، مجمع القاسمي للغة العربية، 2012.
13. **نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان**. تحقيق: الدكتور سليم أبو جابر، 2012.
14. **مجلة "المجمع": أبحاث في اللغة العربية والأدب والفكر** – الأعداد:
    - الأول، 2009.
    - الثاني، 2010.
    - الثالث والرابع (عدد مزدوج)، 2011-2010.
    - الخامس، 2011.

العنوان للمراسلات:

مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها

أكاديمية القاسمي (ج.م)

باقة الغربية 30100 ص.ب. 124

ت 04-6286722 فاكس 04-6286721

mjmaa@qsm.ac.il

حقوق الطبع محفوظة

Nuṣrat ’ahl al-’Īmān bi-dawlat ’Āl ‘Uthmān

By

Muḥammad bin Abī al-Surūr al-Bakrī al-Ṣiddīqī

(1589-1661/ 998- 1071H)

Edited By

Saleem Abu Jaber

2012